





تشحيذ الأذهان

بسيرة بلاد العرب والسودان



تراثنا

تشحيذ الأذهان

بسيرة بلاد العرب والسودان

تأليف

محمد بن عمر التونسي

حققه وكتب حواشيه

دكتور خليل محمود عساكر　　دكتور مصطفى محمد مسعد

راجعه

دكتور محمد مصطفى زيادة

القاهرة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٩٦٥





محمد بن عمر التونسي ، مؤلف الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا الكتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » للتونسى ، أهم مصدر للتعريف بأحوال اقليم هام من أقاليم السودان . اذ المقصود ببلاد العرب والسودان هنا : بلاد السودان التى تسكنها القبائل العربية ، الى جانب سكانها الأصليين من السودان ، واقليم دارفور بصفة خاصة . وقد عرف هذا الاقليم باسم أقدم شعب سكنه ، وهو شعب الفور ، الذى أضحى اسمه علما عليه . وحوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، قامت فى هـذه البلاد سلطنة اسلامية ، كانت تكون وقتذاك حلقة فى سلسلة الممالك الاسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال ، وبين الغابات الاستوائية فى الجنوب ، وتمتد من البحر الأحمر شرقا الى المحيط الأطلنطى غربا ، وتشمل ممالك سنار وكردفان ودارفور ووادای وباجرمى وبرنو أو الكانم وممالك الحَوصة ثم مالى .

أما اقليم دارفور ، وهو أقصى مديريات جمهورية السودان فى الغرب حاليا ، فهو ذو صفات بشرية خاصة ، منشؤها نشاط الفور أنفسهم ، حينما سرى فيهم وعى قبلى واضح ، وذلك فضلا عن محاولاتهم التوسعية الدائبة ، مذ صارت لهم سلطنة فى هذا الاقليم . يضاف الى هذه الصفات البشرية ، صفات طبيعية ، نابعة من الوضع الجغرافى لهذا الاقليم . ففى الشمال ينتهى اقليم دارفور عند الصحراء الليبية ، وفى الشرق تقع ، سلسلة عريضة من التلال الرملية ، تعرف بالأقواز ، وفى الجنوب يقع بحر العرب والمنطقة التى ينتشر فيها ذباب تسى تسى . أما الناحية الغربية من اقليم دارفور ، فليس بينها وبين المساحات الممتدة غربا : مثل وادای

وباجرمى ، ومنطقة تشاد حواجز جغرافية ولا فروق جوية أو نباتية . بل خضعت حدود دارفور من هذه الناحية ، اما لعوامل سياسية أو قبلية .

أما عن تاريخ دارفور فمعلوماتنا عنه قليلة ، وتعتمد أساسا على الروايات الشفوية التى حفظها أهل البلاد جيلا بعد جيل ، وهى روايات يكتنفها التناقض والغموض . فتاريخ دارفور القديم لا نكاد نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق ، وربما تكشف الأبحاث الأثرية فى المستقبل عما غمض من تاريخ ذلك العصر . وكل ما يمكن أن يقال هنا : ان شعب الفور هم أصحاب البلاد الأصليون ، ويستقلون بالمنطقة الجبلية الوسطى ، وبها جبل مَرّة . ومنذ حوالى القرن السابع الميلادى ، وفد على هذا الاقليم قبائل من الشمال عن طريق النيل من ناحية ، وعن طريق الصحراء من ناحية أخرى . فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية من الميدوب والبرقد ، على حين جاءت جماعات ليبية من البدايات والزغاوة من شمال افريقيا . واستطاعت هذه القبائل النوبية الليبية ، أن تطرد جماعات السود الى الجبال ، وأن تقيم فى هذه المنطقة ممالك خاصة ، وأدت هذه الهجرات الشمالية كذلك الى ازدياد تجارة الرقيق .

أما الهجرات العربية الرئيسية الى هذا الاقليم ، فيبدو أنها جاءت من مصر وشمال أفريقيا ، عبر السهوب والبرارى الواقعة بين النوبة واقليم تشاد ، وذلك بعد أن قامت فى مصر وشمال أفريقيا دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية .

وتبدأ العصور الوسطى فى دارفور حوالى القرن الثانى عشر ، حيث أقام الداجو سلطنة فى هذه البلاد . ويبدو أن أولئك الداجو جاءوا من الشمال . وحدد ابن سعيد وأبو الفدا وابن خلدون مواضعهم خلال القرنين الثانى عشر والرابع عشر غربى الواحات المصرية ، بين النوبة والكانم ، وعرف الداجو عند هؤلاء المؤرخين باسم التاجوين ؛ وكانوا يقطنون على مقربة من قبيلة الزغاوة . واقتصر نفوذهم على الجزء الجنوبى الشرقى من دارفور .

وأعقب هذه القبيلة فى التسلّط على الفور ، قبيلة التنجور فى القـرن الخامس عشر الميلادى • غير أن سلطان هذه القبيلة الثانية اقتصر على الجزء الشمالى من دارفور . ومن المحتمل أن مملكتى الداجو والتنجور قامتا جنبا الى جنب ، حتى القرن السادس عشر . ويبدو تاريخ دارفور أكثر وضوحا منذ مجىء التنجور ، غير أن أولئك التنجور لم يستمر سلطانهم على ما تغلبوا عليه فى دافور طويلا . فقد أدى اختلاط العرب بالفور الى ظهور طبقة الكنجارة التى نالت نصيبا من الدماء العربية . ومن هذه الطبقة ظهرت أسرة كيرا التى انتزعت حكم دارفور من التنجور . وظل هذا البيت من الفور يحكم دارفور من حوالى منتصف القرن السابع عشر ، حتى نهاية حكم على دينار سنة ١٩١٦ م . وأول سلاطين هـذا البيت « دالى » ، ثم « كورو » ، ثم « سليمان سـولونج » ابن « كورو » . ثم نزع من بيت المُلْك فى دارفور أمير اسمه تُونسام ، وهو الأمير الذى حاربه سليمان وطرده من دارفور ، فأسس مُلْك المُسبَّعات فى كردفان .

ومع أن الاسلام أخذ يشق طريقه الى هذه البلاد منذ حوالى القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل ، حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب ، فان الاسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد الا حين تولى سليمان سولونج عرش سلطنة دارفور سنة ١٦٤٠ م . ومنذ ذلك الحين ، بدأ اقليم دارفور يدخل نطاق التاريخ العام ، وذلك على الرغم من أنه يعتمد على روايات أهل البلاد . اذ لم يُعثر على تاريخ مدوّن ، أو وثائق ذات قيمة تاريخية ، اللهم الا ما سجله عن تاريخها ومظاهر حضارتها ، الرحّالة الذين زاروا هذه البلاد .

وأول أولئك الرواد الذين زاروا اقليم دارفور ، الرحالة الانجليزى براون "W. G. Browne" وذلك فى عهـد سطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . وقد سلك براون فى رحلته الى دارفور طريق درب الأربعين ، من أسيوط الى الفاشر . وظل براون فى دارفور نحـو ثلاث سنوات من يوليو سنة ١٧٩٣ م

الى مارس سنة ١٧٩٦ م ؛ غير انه ظل فى أثنائها شبه سجين ، فلم يسمح له بالتجول فى البلاد أو جمع معلومات عنها ، بسبب ارتياب السلطان فى نواياه ، باعتباره أوربيا مسيحيا ، وفى المهمة التى من أجلها جاء هذا الأوربى المسيحى الى دارفور . ثم ان براون لم يعثر فى دارفور على تاريخ مدوّن لهذه البلاد ، ولذا جاءت المعلومات التى استطاع الحصول عليها من أهـلها قليـلة سطحية ، يشـوبها الاضطراب وقلة العمق ، وذلك باستثناء بعض ملاحظات خاصة بأحوالها الجغرافية والاقتصادية وقتذاك (١) .

وبعـد حوالى سبع سـنوات من رحـلة براون الى دارفـور ، أى فى سنة ١٨٠٣ م ، زار هذه البلاد رحالة عربى ، هو محمد بن عمر التونسى ، مؤلّف هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بعد تحقيقه . وأتيح للرحالة محمد بن عمر التونسى أن يلمّ الماما واسعا بأحوال دارفور الاجتماعية والاقتصادية ، ونظمها السياسية والادارية والحربية ، وعلاقاتها بجيرانها ، فضلا عن ذكر تاريخها على ما سنذكره مفصّلا بعد .

وفى المدة من سنة ١٨٤٩ م الى سنة ١٨٥٥ م قام الرحالة المعروف هنرى بارت Henry Barth برحلته المشهورة من طرابلس الغرب الى بحيرة تشاد . وقد ارتاد بارت خلال هذه المدة بلاد السودان ما بين تمبكت وباجرمى . والمعروف أن بارت لم يقم بزيارة دارفور أو واداى ، ولكنه استطاع — أثناء اقامته فى برنو — أن يجمع نتفا قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم ، معتمدا فى ذلك على بعض الروايات الشفوية التى نقلها عن أهل البلاد أنفسهم ، فضلا عن اشارات قليلة لبعض المؤلفين القدامى من العرب (٢) .

---

(١) انظر رحله براون الى سوريا ومصر ودارفور فى كتابه وعنوانه
Browne : Travels in Africa, Egypt and Syria.

(٢) انظر Barth, H. : Travels and Discoveries in North and Central Africa

وفى سنة ١٨٧٤ م ، وصل الرحالة الألمانى جوستاف ناختيجال «Gustav Nachtigal.» الى دارفور ، بعد أن قضى ستة أعوام تقريبا فى رحلته التى بدأها من طرابلس الغرب متجها الى دارفور عن طريق بحيرة تشاد وباجرمى ووادای . وفى مدينة الفاشر عاصمة دارفور ، صرف ناختيجال ستة شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة عن تاريخ دارفور الوسيط ، بمساعدة سلطان دارفور آنذاك — السلطان ابراهيم بن محمد حسين — وأحد الأمراء الفوراويين ، واسمه باسى طاهر . وعلى الرغم من هذا ، فان ناختيجال لم تتح له الفرصة الكاملة لدراسة اقليم دارفور دراسة كافية . ذلك بأن السلطات الحاكمة فى دارفور ، لم تسمح له بالتجول فى أنحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسى الذى يقطع دارفور من الغرب الى الشرق . ثم انه جمع بياناته عن دارفور فى مدينة الفاشر . وقد يكون هذا راجعا الى ارتياب السلطان فى مهمته ، لا سيما وأن الحكومة المصرية كانت تستعد آنذاك لضم دارفور الى بقية أقاليم السودان التى كانت تحت ادارتها . ومع هذا فان رحلة ناختيجال الى وادای ودارفور تعد مصدرا أصليا لتاريخ هذين الاقليمين ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الأسرة الحاكمة فى دارفور ، ونظم البلاد السياسية والادارية فى عصره .

هذا عرض موجز للرحالة الذين أسهموا بجهودهم فى محاولة اجلاء بعض ما غمض من تاريخ سلطنة دارفور فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد . وسواء أكان الهدف من هذه الرحلات التى قام بها أولئك الرحالة ، خدمة مصالح استعمارية ، أو البحث عن الحقيقة وخدمة العلم ، فانهم كانوا — باستثناء محمد بن عمر التونسى — موضع ارتياب السلطات الحاكمة فى دارفور وقلقها ، فلم يتمكنوا من التنقل بحرية فى أنحاء البلاد ، ومن ثم لم يتيسر لهم دراسة أحوال البلاد دراسة كافية .

أما محمد بن عمر التونسى ، فيختلف عن أولئك الرحالة الأوربيين .

فهو تونسى الأب والجد ، مصرى الأم والتربية ؛ أفادته عروبته فى الوصول الى دارفور ، موطن كثير من القبائل العربية التى تربطه واياها رابطة الأصل واللغة والدين ، وتربطه بأهلها من السودان — ومعظمهم وقتذاك من المسلمين — العروة الاسلامية الوثقى . صحيح أن محمد بن عمر التونسى لم يذهب الى دارفور حبا فى الاستطلاع أو الدراسة أو الكشف الجغرافى ، ولكنه ذهب للحاق بأبيه عمر التونسى الذى رحل قبله الى سنار ثم الى دارفور . ومن قبل رحل جده سليمان الى سنار . وأفاد محمد بن عمر التونسى فى الالمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، علاقة أبيه وجده من قبل بهذه البلاد التى صاهرا أهلها ، وأضحى لمحمد بن عمر التونسى فيها اخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعا بالعلم والتجارة ، وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور ووادای . وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ومراكز سياسية مرموقة ، ومكانة دينية عظيمة عند ملوكها وفقائها . ومما لا شك فيه أن خبرة هؤلاء جميعا تضيف كثيرا الى ما اكتسبه محمد بن عمر التونسى من خبرة بأحوال هذه البلاد خلال اقامته بها .

ومما يسر للتونسى التعرف على نواحى الحياة فى البلاد ، سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية ، التى لا يجهلها سوى القليل من أهل دارفور . وأتيح للتونسى — بما ناله أبوه عمر من مكانة لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء — أن يكون من ذوى الخطوة لديهم جميعا . فحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة ، وتقاليد البلاط ، ونظم الحكم والادارة والقضاء ، وشهد بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة . وأتيح للتونسى أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة ، التى لا يسمح لأحد بالدخول فيها الا باذن من السلطان ، وهى المناطق التى يسكنها « أعجام الفور » على حد قول التونسى . ولذا تتميز كتابات التونسى عما شهد فى هذه البلاد — رغم

حداثته وقتذاك — بالدقة وقوة الملاحظة ، والقدرة على النفاذ الى أعماق الأمور . وبذا استطاع التونسى أن يدرس حياة الناس على اختلاف سلالاتهم وطبقاتهم ولغاتهم دراسة علمية طيبة (١) .

أما ترجمة حياة محمد بن عمر التونسى ، فانه أودعها مقدمة كتابه . غير أن هنالك بعض ملاحظات توجب الالتفات ، وأول هذه الملاحظات أن مصر كانت كعبة حج اليها الجد سليمان ، والابن عمر ، والحفيد محمد بن عمر . اذ تلقى الجد سليمان علومه الدينية واللغوية فى الأزهر ، وشاءت المقادير أن يخرج من تونس للحج فلا يعود اليها ، بل سافر الى سنار حيث طاب له العيش ونسى أهله فى تونس . وشاءت المقادير مرة ثانية أن يخرج سليمان فى قافلة من سنار الى مصر للتجارة ، وأن يذهب عمر ابنه صحبة خاله أحمد بن سليمان الأزهرى من تونس للحج ، وأن يلتقى ثلاثتهم فى مصر ، فيتواعد الجميع على المقابلة مرة ثانية فى القاهرة بعد انتهاء موسم الحج . غير أن أحمد بن سليمان الأزهرى مات ودفن فى مكة . ولما عاد عمر الى مصر ولم يجد أباه ، انصرف الى تلقى العلوم الدينية فى الأزهر . ولماأعياه الانتظار ، رحل الى سنار ، ولكنه عاد الى القاهرة بعد أن يئس من اقناع أبيه بالعودة الى تونس . وواصل عمر دراسته فى الأزهر ، وتزوج من فتاة مصرية أنجب منها ابنه محمدا سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) ثم انتخب عمر نقيبا لرواق المغاربة بالأزهر . ولما علم عمر بوفاة أبيه ، سافر الى سنار ليضم اليه اخوة له غير أشقاء ، بيد أنه لم يعد الى مصر أو الى تونس ، بل طاب له كذلك العيش فى سنار ، وبعدها انتقل الى دارفور .

أما ابنه محمد ، فانه نشأ فى مصر ، وتلقى دروسه فى الأزهر ، حتى اذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، اعتزم البحث عن أبيه فى بلاد السودان . وشاءت المقادير مرة ثالثة أن يلتقى محمد بن عمر التونسى بصديق لأبيه ، هو السيد

(١) راجع مقال مصطفى مسعد : سلطنة دارفور — تاريخها وبعض مظاهر حضارتها. مجلة الجمعية المصرية التاريخية ، العدد ١١ ، ١٩٦٣ ، ص ٢١٩ — ٢٢٣

أحمد البدوى ، من أكبر تجار دارفور . فسافر معه محمد صحبة قافلة مسافرة الى دارفور . وسلك محمد بن عمر التونسى درب الأربعين ، وهو الطريق الذى سلكه قبل ذلك بعشر سنوات ، الرحالة الانجليزى براون . ولما وصل محمد ابن عمر التونسى الى دارفور ، استقبله هناك عمه غير الشقيق أحمد زرّوق ، وصحبه الى حيث يقيم أبوه عمر التونسى فى اقطاعه الذى منحه اياه السلطان عبد الرحمن الرشيد فى « أبو الجدول » .

كان السلطان وقتذاك ، أى سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) ، هو الحدث محمد فضل ، الذى خلف أباه عبد الرحمن الرشيد على حكم دارفور . وتولى الوصاية عليه الوزير الأعظم الأب الشيخ محمد كُرّا . ولم يفت عمر التونسى أن يقدم ابنه محمدا الى أولى الأمر فى البلاد . فأرسله الى تندلتى محمّلا بالهدايا الى الوزير الأعظم الأب الشيخ محمد كُرّا والفقيه مالك الفوتاوى . ولما عاد محمد بن عمر التونسى الى « أبو الجدول » محملا بالهدايا والخلع ، سافر عمر الى تندلتى ليستأذن فى السفر الى تونس لرؤية أهله وأقاربه ، وليخبر الوزير الأعظم أنه سيترك ابنه محمدا فى « أبو الجدول » ليجمع خراج اقطاعه وينتفع بزراعته . فسمح له الوزير الأعظم بالسفر ، بعد أن وعده عمر بالعودة مرة ثانية الى دارفور .

أعطى عمر ابنه محمدا وثيقة الاقطاع فى « أبو الجدول » ، ثم غادر دارفور قاصدا تونس بطريق واداى . غير أنه لما وصل الى واداى ، تطلع للحصول على منصب رفيع فى حاشية السلطان محمد عبد الكريم صابون سلطان واداى وقتذاك . واستطاع عمر أن يظفر بمنصب وزير فى حكومة واداى ، وحصل على أملاك فى قرية أبالى كذلك . وظل عمر على ذلك عدة سنوات ، انتظر خلالها وصول ابنه محمد الى واداى . ولما تأخر وصوله ، استعد عمر للسفر الى تونس بعد أن أوصى أن يخلفه فى الوزارة أحمد الفاسى ، وعهد الى أخيه أحمد زرّوق أن يشرف على أملاكه فى أبالي ، ويرعى أسرته وبنيه فيها .

أما محمد بن عمر التونسى ، فانه عاش فى دارفور نحو سبع سنوات ونصف سنة ، ألم خلالها بأحوال البلاد الماما تاما ، ولم يتمكن من مغادرة دارفور الى واداى ، الا بعد انتهاء الحرب بين البلدين ، فسافر محمد بن عمر التونسى الى واداى على رأس وفد من قبل السلطان محمد فضل . واستقبله السلطان محمد عبد الكريم صابون استقبالا طيبا ، وأسبغ عليه من عطفه ما أسبغه على أبيه من قبل .

أقام محمد بن عمر التونسى فى واداى مدة لم يلبث بعدها أن واجهته بعض المشاكل ، التى تغيرت بسببها أحواله . وأول هذه المشاكل أن عمه أحمد زرّوق — الذى استأمنه عمر على أملاكه وعياله — طمع فى هذه الأملاك لنفسه ، ولم يعط منها محمدا الا الفتات . وثانيتهما أن الوحشة ازدادت بينه وبين أحمد الفاسى الذى وشى به عند السلطان ، فارتاب فيه ، وقلب له ظهر المجنّ . ثم لبّى عمر دعوة ابنه له فى الحضور الى واداى ، واستطاع بنفوذه لدى السلطان صابون ، أن يعزل أحمد الفاسى من الوزارة ، ولكنه لم يلبث أن استرد منصبه بعد رحيل عمر الى تونس .

وبعد أن قضى محمد بن عمر التونسى نحو ثمانية عشر شهرا فى واداى ، استأذن السلطان صابون فى السفر الى تونس ، فأذن له ، وبلغها حوالى سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) أى بعد حوالى عشر سنوات منذ غادر القاهرة الى دارفور .

لم يبق محمد بن عمر التونسى فى تونس طويلا ، بل رحل الى القاهرة ، حيث التحق بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة واعظ باحدى فرق المشاة ، وهى الفرقة التى اشتركت فى حرب المورة سنة ١٨٢٧ م . ولما رجع التونسى من المورة سنة ١٨٣٢ م ، اشتغل بتنقيح الترجمة العربية لكتب الطب ، التى كانت تدرس فى كلية الطب البيطرى بأبى زعبل . وهناك التقى محمد بن عمر التونسى بالدكتور

پيرون الفرنسى . وتلقى پيرون دروسا فى اللغة العربية على يد محمد بن عمر التونسى .

ولما علم پيرون برحلة التونسى فى بلاد السودان — دارفور ووادای — شجعه على كتابة مذكراته عنها . وكان الغرض من هذا العمل أول الأمر أن تصبح هذه المذكرات كتبا للمطالعة العربية . ومن مؤلفاته :

— كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

— رحلة واداى . وقام پيرون بترجمتها الى الفرنسية ، ونشرها فى باريس سنة ١٨٥١ . أما النص العربى لهذه الرحلة ، فانه لم ينشر حتى اليوم ، ولا نعرف عنه شيئا ، ولعله فى حوزة ورثة پيرون (١) .

ولما عين پيرون مديرا لمدرسة الطب بالقصر العينى سنة ١٨٣٩ ، أوصى بتعيين التونسى كبيرا للمراجعين فيها ؛ فأتاحت هذه الوظيفة الجديدة للتونسى فرصة الاسهام فى خدمة اللغة العربية فى عصر الترجمة فى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر . فانه فضلا عما قام به من تصحيح الكتب المترجمة الى العربية ، أو الموضوعة فى العلوم الحديثة ، ساعد على استخدام كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بعلوم الطب والنبات والحيوان . ومن مؤلفاته فى هذه الناحية :

— الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، وهو الكتاب الذى صنفه بتكليف من كلوت بك ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٦٤١ ، ويوجد منه بدار الكتب المصرية أربع نسخ مصورة عن نسخة باريس . ولم يطبع منه سوى الجزء الأول .

أما الكتب الطبية والعلمية التى تم نقلها الى العربية ، وقام التونسى بتصحيحها وتحريرها فمنها :

---

(١) Encycl. of Islam, art. "Tunsi".

— الدر اللامع فى النبات وما فيه من الخواص والمنافع .

— كنوز الصحة ويواقيت المنحة .

— روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى .

— الدر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال [1] .

ولمحمد بن عمر التونسى فضل لا ينكر فى مراجعة بعض المؤلفات العربية القديمة التى طبعت فى مصر على عهده . ومن هذه المؤلفات : مقامات الحريرى ، والمستطرف للأبشيهى . ثم انه أشرف على طبع القاموس المحيط للفيروز أبادى بمطبعة بولاق ، وذلك بعد مراجعة نسخة كَلْكَتّا على نحو سبع نسخ مخطوطة لهذا القاموس .

وجرى محمد بن عمر التونسى ، فى أواخر أيامه ، على القاء دروس فى الحديث بمسجد السيدة زينب ، فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) بعد أن عمّر سبعين سنة هجرية [2] .

* * *

كان الأصل المعتمد فى نشر كتاب « تشحيذ الأذهان ، بسيرة بلاد العرب والسودان » هو النسخة المطبوعة بالحجر ، التى كتبها المستشرق پيرون Perron بخطّه ، ونشرها فى باريس سنة ١٨٥٠ م ، كما جاء فى آخر النسخة حيث نجد ما نصه : « وقد طبع بالحجر هذه النسخة الجليلة ، المنمقة الجميلة ، بدار طباعة السيد كَيْپْلَيْن [3] الفاخرة ، الكائنة بمدينة باريز الباهرة ، وذلك برسم وخط السيد پيرون ، بنعمة الله وعون . وكمل طبعه على ذمته ،

---

(١) جمال الدين الشيال : (دكتور پيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد بن عمر التونسى) ، مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ١٩٤٤ ، ص ٢٢١ .

(٢) Encycl. of Islam, art. Tunsi.

(٣) Kaeplin

ونظره وهمته ، فى سلخ شهر نونمبر سنة خمسين وثمانمائة بعد الألف المسيحية ، والحمد لله فى البدء والنهاية ، ونسأله من الخير بلوغ الغاية ، آمين » .

وفى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية [1] ، أن النسخة العربية التى نشرها پيرون عام ١٨٥٠ « هى النسخة التى كتبها المؤلف بخط يده » ، ومن المؤكد أن المترجم التبس عليه الأمر ، فالعبارة المذكورة فى آخر النسخة العربية صريحة فى بيان أن النسخة مكتوبة برسم پيرون وخطه ، فضلا عن أن الأصلين الألمانى والانجليزى للدائرة يفيدان أن النسخة العربية كتبها پيرون بخطه .

وقد نشرت الطبعة التى بالحجر فى نطاق ضيق للغاية ، اذ كان عدد النسخ التى طبعت من الكتاب آنذاك لا يتجاوز المائة [2] ، فنسخه منذ طبع نادرة ، وهى اليوم أندر .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الكتاب طبع قبل وفاة المؤلف بسبع سنين ، وأن المؤلف كان يعيش حينذاك فى القاهرة حيث كان يعمل پيرون .

وفى آخر النسخة المطبوعة بالحجر تصويبات كثيرة تربو على السبعين ، منها اللفظى الذى عدل فيه عن لفظ الى لفظ غيره ، ومنها ما هو اضافة لفظ أو عبارة أو عبارات سقطت عند النسخ فاستدركت عند المراجعة من مثل قول المؤلف فى الأصل : « فتخرج الشابات من النساء صفوفا صفوفا » . وقد صحح عند المراجعة فصار : « فتخرج الشابات من النساء متزينات ، والشبان من الرجال فى أكمل زينة يقدرون عليها ، وتصطف النساء صفوفا صفوفا » [3] .

---

(١) مجلد ٦ ص ١١٧ ، مادة « التونسى » .

(٢) راجع كتاب « محمد بن عمر التونسى » للدكتور عبد العزيز عبد المجيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ ص ٧ .

(٣) تسمى الاضافات التى من هذا النوع اذا كتبت فى هامش المخطوطة عند المراجعة الحاقا جمع لحق ، بفتح اللام والحاء .

ووجود هذا القدر الكبير من التصويبات والاستدراكات فى آخر النسخة جعلنا تطمئن الى أنها روجعت بدقة وعناية ، وأن المتن بعد المراجعة فى جملته سليم ، غير أننا وجدنا بالمتن عند التحقيق وانعام النظر غموضا أو خفاء أو خللا فى طائفة من المواضع ، فكان لايسعفنا فى استجلاء الغامض واظهار الخفى وسد الخلل غير الرجوع الى الترجمة الفرنسية .

فان للكتاب ترجمة فرنسية عملها پيرون كذلك وطبعها فى باريس سنة ١٨٤٥ م [١] أى قبل الطبعة العربية بخمس سنوات ، وجعل عنوانها : فى الفرنسية — بعد نقلها من العربية — فى شيء من التصرف كالآتى :

Voyage au Darfour, ou :
L'aiguisement de l'esprit, par le voyage au Soudan et parmi les arabes du centre de l'Afrique.

وكتب پيرون فى آخر الترجمة ملاحظات وتوضيحات تقع فى أكثر من تسعين صفحة ، أكثرها مستمد من التونسى مؤلف الكتاب ، ورمز له بكلمة « الشيخ » ، وأقلها للمترجم الذى أضاف الى الترجمة فصلا من تأليفه جعله ملحقا لها ، وعنوانه : « السلطان أبو مدين » .

ونحن نعلم أن التونسى ألف كتابه « تشحيذ الأذهان ... » تلبية لرغبة صديقه پيرون ، وعلى هذا يمكننا أن نتصور أن التونسى كتب مذكراته عن الرحلة الى دارفور ثم حررها وجعل منها هذا الكتاب الذى نستطيع أن نعتبر نسخته هى النسخة الأصلية ، وهذه اعتمد عليها پيرون فى أمرين :

الأول : فى الترجمة الفرنسية التى نشرها قبل أن ينشر النسخة العربية كما سبق القول .

---

(١) وللرحلة كذلك ملخص باللغة الانجليزية مطبوع بعنوان
Travels of an Arab Merchant in the Sudan
(راجع عبد العزيز عبد المجيد : « محمد بن عمر التونسى » ص ٧) .

م — ٢

والآخر : فى كتابة النسخة العربية التى طبعت بعد ذلك برسم المترجم وخطه .

وهذه النسخة الأصلية التى هى نسخة المؤلف ، والتى يمكن أن نرمز لها بالرمز (أ) لم تصلنا ولا نعرف عنها شيئا ، فهى فى حكم المفقودة . ومما لا شك فيه أنها كتبت قبل عام ١٨٤٥ م بفترة .

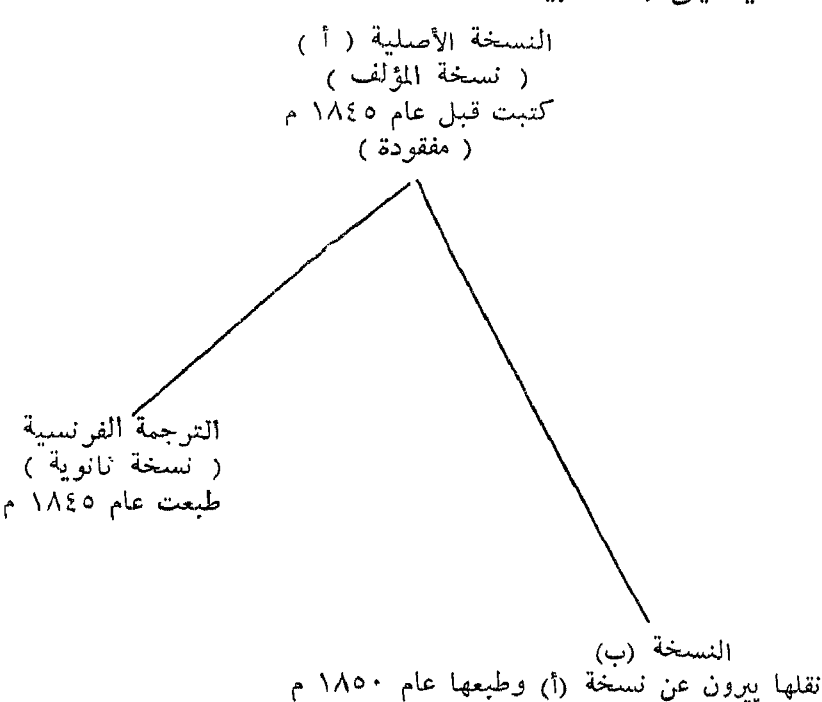
أما النسخة الأخرى وهى نسخة المترجم فهى التى وصلتنا مطبوعة بالحجر عام ١٨٥٠ م ، بخط پيرون نفسه ، وهذه يمكن أن نرمز لها بالرمز (ب) .

أى أن الترجمة الفرنسية التى طبعت عام ١٨٤٥ م والنسخة العربية (ب) التى كتبها پيرون تنتميان الى أصل واحد هو نسخة المؤلف .

وعلى هذا يسوغ لنا أن نعتبر النسخة العربية المطبوعة بالحجر بمثابة نسخة خطية للكتاب ، كتبت فى زمان المؤلف ثم روجعت بعد الطبع وقوبلت على نسخة المؤلف وكتبت التصويبات فى آخر الكتاب ، ولو حدث أن روجعت بعد نسخها بوصفها مخطوطة لكتبت التصويبات فى هامش المخطوطة ووضعت العبارات المستدركة عند المراجعة فى الهامش كذلك على شكل ألحاق ، كما يتبع فى تصحيح المخطوطات ومراجعتها ومقابلة بعضها على بعض .

أما الترجمة الفرنسية فتعتبر نسخة ثانوية تقوم مقام نسخة المؤلف فى تقويم المتن واكمال ما فيه من نقص عند الضرورة . والذى يؤكد لنا أن پيرون عمل الترجمة عن نسخة المؤلف سقوط ألفاظ أو عبارات أو ما يكاد يقرب من الصفحة ، من متن النسخة (ب) ، فلم يستقم لذلك سياق الكلام بدونها . ومن أهم ما أضيف الى المتن اعتمادا على الترجمة الفرنسية ما جاء فى صفحتى ٢٠٦ ، ٢٠٧ من الكتاب وقد بلغت مواضع الاضافات التى من هذا النوع حوالى ثلاثين موضعا .

وفيما يلى جدول لبيان ذلك :



والنسخة (ب) المعتمدة فى نشر الكتاب مكتوبة بقلم النسخ المعتاد وتقع فى ١٥٧ ورقة ، وهى خالية من أرقام الصفحات ، ولكنا وضعنا لصفحاتها أرقاما انتهت الى رقم ٣١٤ على ضوء التصويبات الموجودة فى آخر النسخة ، وفى الصفحة سبعة عشر سطرا . والنسخة مضبوطة بالشكل فى كثير من المواضع ، وبخاصة الأعلام ومصطلحات الوظائف والرتب والألقاب وأسماء النبات والأشجار والأمراض والأطعمة والملابس والحلى وغيرها ، وكذلك متون الأغانى سـواء أكانت بالعامية أم بلغة الفور . غـير أن هناك مواضع غير لغوية لم تضبط بالشكل ، ولم يسعفنا فى ضبطها الا الترجمة الفرنسية .

***

ولا بأس من أن نقف الآن وقفة عند أسلوب التونسى فى كتابه هذا فهو أسلوب من نوع خاص . ذلك بأننا نلاحظ فى مواضع كثيرة من المتن خروجا

على قواعد النحو والصرف ، كما نلاحظ مجافاة للأسلوب العربى السليم . ثم نجد بعد ذلك عدم اكتراث بالقواعد الإملائية أحيانا .

ولو أن المؤلف توخى أسلوب اللغة العربية الفصحى وسار على النهج القويم ، ملتزما فى كتابه ما تقتضيه علوم اللغة لكان الطريق الى تقويم المتن وتحريره واضحة لا خلاف فيها ، ولكن الذى لاحظناه منذ البداية أن المؤلف كان يلتزم العربية الفصحى بصفة عامة فى كتابه ، غير أنه كان يزاوج حينا بين الفصحى والعامية ، أو يجنح حينا آخر فى بعض العبارات الى العامية الخالصة .

وقد جعلنا هذا الضرب من التأليف نفكر ونقدر ونتريث قبل أن نقوم بأى تغيير فى المتن . ولو أن النسخة كانت مكتوبة بخط التونسى نفسه وأنه هو الذى ضبطها بالشكل على نحو ما جاء فى نسخة بيرون التى بين أيدينا لما كان هناك للتفكير والتقدير والتريث مجال ، فان النسخة فى هذه الحالة تنشر كما هى بدون أدنى حرج واذا كان للناشر ملاحظات أو اعتراض على شىء فيها كتب ذلك فى الحاشية ، ولكن النسخة كتبها مستشرق بخطه نقلا عن نسخة المؤلف ، ثم قابلها عليها كما سبق القول .

ومهما يكن فقد حاولنا جهد الطاقة تفهم الأسلوب الذى جرى عليه المؤلف وهو أسلوب لا يسير على وتيرة واحدة ؛ وهو بحاجة الى شىء من الدراسة التى لابد منها لتقديم صورة محررة من المتن أقرب ما تكون من الصورة التى يرجح أن المؤلف توخاها وقصد اليها .

ومما لاحظناه وسبقت الاشارة اليه أن المؤلف يتجاوز أحيانا عما تقتضيه القواعد النحوية مراعاة للسجع ، لدرجة يصبح معها تصحيح المتن نحويا ضربا من افساده . ومن الأمثلة على ذلك قول المؤلف [1] : « واعتذر بعذر ساقط ، لا يجد له لاقط ». و قوله [2] : « ففسد ما به من النخيل ، وذهب رونقه بعد

---

(١) صفحة ٣٤

(٢) صفحة ٤٨

أن كان جميل » . والراجح أن ما جاء فى آخر النسخة وهو قوله : « وذلك برسم وخط السيد پيرون ، بنعمة الله وعون » انما هو من هذا القبيل .

ومما هو مزيج من الفصحى والعامية قوله [1] : « فاغتاظ وعرف أنها حيلة وتمت عليه » وقوله [2] : « قد انكسرت سفينته ، وضاع ما كان حيلته » وقوله : [3] « فحينئذ يحملها الغيظ على أن تفتن عليه » .

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة ففيما ذكرنا ما يكفى فيما نظن لبيان أن أسلوب المؤلف هو حقيقة من نوع خاص . ونحن نرجو أن تكون الصورة التى انتهى اليها المتن فى هذه الطبعة هى الصورة المثلى له أو هى أقرب .

* * *

علامات ورموز جديدة :

وردت فى كتاب «تشحيذ الأذهان» للتونسى بعض الأغانى بلغة الفور ، وأعلام لأشخاص وبلاد وأماكن ، وأسماء لمناصب إدارية ، وكذلك ألفاظ وعبارات عامية . واضبط ذلك كله ضبطا صحيحا دقيقا ، استعملنا العلامات الآتية [4] :

(١) علامة خاصة بالإمالة وهى : (ـٜ = e) وتوضع تحت الحرف الممال . وتنطق كما تنطق ال e فى الكتابة اللاتينية . وإذا مدّت هذه الحركة أتبعناها الياء ، كما فى :

كوبيه ، تارنيه ، بيت ، شين ، دار صليح ، مرهبيب .

---

(١) صفحة ١٧ (٢) صفحة ٣١ (٣) صفحة ٢٥٥

(٤) انظر بحثا لخليل عساكر القاه فى مؤتمر المجمع اللغوى وناقش المؤتمر البحث فى يناير ١٩٥٠ ، ونشر بمجلة المجمع (العدد الثامن) وعنوانه : « طريقة لكتابة نصوص اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية » . وبهذه الطريقة نفسها مع اضافات يسيرة كتبت خمسة كتب صغيرة للقراءة بمدارس جنوب السودان بلغات الدنكا والزاندى والبارى والمورو واللاتوكا وطبعت بمكتبى النشر بالخرطوم وجوبا فيما بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٠

(٢) علامة خاصة بالضمة الممالة وهى (ـٌ = o) وتوضع فوق الحرف ، وتنطق كما تنطق ال o فى الكتابة اللاتينية . وإذا مدت هذه الحركة أتبعناها الواو كما فى :

ميدُوب ، الدّاجُو ، شَعْلُوب ، شُوتَر .

(٣) الجيم ذات النقطتين (ڃ) ، وهـذه يرمز بها للجيم الشديدة غير المعطشة ، المعروفة بالجيم القاهرية ، وتنطق كما ينطق صوت ال g فى الكلمة الإنجليزية : go .

ومثالها : مُوڃيه .

(٤) النون والجيم الشديدة غير المعطشة (نـڃ) ، وتنطق كما تنطق ال ng الموجودة مثلا فى اللفظة الانجليزية singer ، ومثالها :

رُونْڃَه ، دُونْڃَه ، دِنْڃَايَه .

أما الطريقة التى اتبعت للدلالة على هذه الأغراض فى النسخة التى كتبها بيرون ، والتى لا ندرى هل هى من عمله أو من عمل التونسى فهى أن مجموعة الكلمات الأولى مثلا — وكلها تنطق بالامالة — كتبت على النحو التالى :

كُوَبْيه — تَارْنيْه — بَيْت[1] — شَيْن[2] — دار صَلَيْح — مَرْهَبَيْب

وليس فى كتابة هذه الكلمات هكذا شىء من الدقة لأنها تدعو الى اللبس .

وأما المجموعة الثانية من الكلمات — وكلها تنطق بالضمة الممالة — فقد كتبت هكذا :

ميدَوْب — الدّاجَوْ — الشّعْلَوْب — شَوْتَر

وكتابتها على هذا النحو مدعاة للبس كذلك .

وفى النسخة رمز الكاف ذات النقط الثلاث . وقد لاحظنا أن هـذا الرمز

(١،٢) المقصود هنا نطق اللفظين فى العامية لا فى الفصحى ، وهو نطقهما بامالة الباء والشين .

استعمل للدلالة على صوت الجيم الشديدة غير المعطشة (چ) ، كما استعمل أيضا للدلالة على صــوت النون مع الجيم الشديدة (نج) الذى ينطق كما تنطق الـ (ng) فى الكلمة الانجليزية (singer) ، فآثرنا استعمال نوعين من الرموز منعا للبس .

* * *

ثم ان هناك مجموعة من الكلمات وردت فى النسخة مكتوبة بالقاف ونود أن نلفت النظر الى نطق هذه القاف التى وردت فى مثل الكلمات : باقرمه وبرقو وقرلى وغيرها . فان هذه القاف لا تنطق على النحو الذى تنطق به فى العربية الفصحى وانما تنطق كما تنطق الجيم الشديدة غير المعطشة أو كما ينطق صوت الـ (g) فى الكلمة الانجليزية (go) . وهذه الطريقة التى اتبعها التونسى للدلالة على صوت الجيم الشديدة غير المعطشة بالقاف هى التى اتبعها الفقيه محمد ود ضيف الله المتوفى عام ١٢٢٤ هـ — أى قبل أكثر من قرن ونصف قرن — فى كتابه المعــروف « طبقات ود ضيف الله فى أولياء وصالحين وعلماء وشــعراء الســـودان » ، وهى كذلك التى لا يزال السودانيون يتبعونهـــا حتى اليوم اذ يكتبون مثلا : قراند هوتل ، وقاقارين ، بالقاف .

ولا بأس من ايراد طائفة من هذه الكلمات لتكون تذكرة للقارىء حين يطلع عليها فى ثنايا الكتاب وتلك هى :

أَبْ دَرَق ، أَدِقز ، باقِرْمَه ، بِرْقد ، بَرقو ، بِيقو ، تُرُقُنك محمد ، دار فَنَقَرو ، دار قِمِر ، دَقَرَه ، دُقُلُه ، دَمْزوقَه ، دِنْقار ، دُود بَنَّقَا ، الزِّيقات ، الشَّايقيَّة ، صَقَل ، فلاقِنَه ، فَلْقناوى ، فَاقو ، قُدَانِى ، قُطِّيَّة ، قُويَا ، لِقَدَابَة ، مِتْقال .

ملاحق الكتاب :

رأينا من المناسب اكمالا للفائدة المنشودة من نشر هذا الكتاب اضافة ثلاثة من الملاحق اليه :

الملحق الأول : وعنوانه « الأمير أبو مدين ابن سلطان دارفور ، ومشروع الحملة المصرية على دارفور سنة ١٨٤٣ م »[1] ، كتبه الدكتور پيرون فى كتاب Voyage au Darfour نقلا عن الأمير أبى مدين نفسه أثناء اقامته فى مصر من سنة ١٨٣٤ م الى سنة ١٨٤٣ م . وهذا الملحق وثيقة تاريخية هامة انفرد پيرون بتسجيلها ، وهى تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ الأمير أبى مدين ، وعلى علاقة مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بسلطنة دارفور ، قبل دخولها تحت الادارة المصرية فى السودان .

أما الملحق الثانى الذى عنوانه « تاريخ سلطنة دارفور منذ أول نشأتها الى الفتوح المصرى » فنقلناه من كتاب : « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » ، تأليف : نعوم شقير . وتناول فيه المؤلف شرح أصول هذه السلطنة الاسلامية السودانية وتاريخها . واستمد نعوم شقير مادته من الشيخ الطيب محمدين أحد علماء دارفور اللاجئين الى مصر أواخر القرن التاسع عشر . وأورد المؤلف فى هذا الملحق تراجم للسلاطين السابقين للسلطان محمد تيراب ، وهم السلاطين الذين لم يرد لهم ذكر فى كتاب : تشحيذ الأذهان . فهو لهذا يحتوى على مادة تاريخية ، تضيف كثيرا الى ما أورده التونسى فى كتابه ، وذلك فضلا عن أنه يتيح للباحث فرصة المقارنة وترجيح رأى على آخر . وليس فى

---

(١) قام مصطفى مسعد بترجمة هذا الفصل الخاص بأبى مدين .

نقل هذا الملحق من كتاب مطبوع ما يقلل من قيمته ؛ ولكن العكس هو الصحيح ، فكتاب شقير غدا من الكتب النادرة التى يصعب الحصول عليها .

ولدينا ملحق ثالث من نوع جديد ، يحتوى على ثلاثة أقسام [1] :

الأول : معجم عربى — فوراوى ؛ مترجم عن المعجم الفرنسى — الفوراوى ، الذى جمعه المسيو چومار وأودعه المقدمة التى كتبها للترجمة الفرنسية Voyage au Darfour .

والثانى : ألفاظ عربية — فوراوية — رونجاوية ؛ وهذه أيضا مترجمة عن الألفاظ الفرنسية — الفوراوية — الرونجاوية ، وتشمل الألفاظ التى جمعها چومار بنفسه والتى نقلها عن التونسى وعن براون ، وقد أودعها المقدمة كذلك .

أما القسم الثالث فيحتوى على ألفاظ وعبارات عربية فوراوية جمعناها مشافهة عن أهل جبل مرة أثناء الرحلة التى قمنا بها الى دارفور فى شتاء عام ١٩٦١ .

وهذه الأقسام الثلاثة من المعجم مكتوبة على الطريقة التى سبق شرحها فى صفحة ٢١ .

وللقسمين الأول والثانى من هذا الملحق قيمة لغوية اذ أن مادتهما اللغوية جمعت قبل أكثر من قرن ونصف قرن عندما بدأ علماء أوربا يهتمون بدراسة اللغات الافريقية فى قلب افريقيا ويسجلون مفرداتها ويستنبطون القواعد النحوية لها .

وأما ما جمعناه أثناء الرحلة فكان بقصد المقارنة بين بعض المفردات التى كانت ضمن ثروة هذه اللغة آنذاك ونظائرها فى لغة الفور اليوم .

* * *

ومما أضفناه الى الكتاب كذلك عدد من الصور والأشكال والخرائط .

---

(١) قام خليل عساكر باعداد ما ورد فى هذا الملحق بأقسامه الثلاثة ، من ترجمة وجمع وترتيب .

فهناك صورة للمؤلف فى أول الكتاب وهذه أخذناها من الترجمة الفرنسية لرحلة المؤلف الى واداى وعنوانها : Voyage au Ouaday

وهناك كذلك صورة للأمير أبى مدين وضعت أمام صفحة ٣٤٣ وأخرى للموجيه (ص ١٩٠) وهاتان مأخوذتان من الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour التى أخذنا منها أيضا خريطة سلطنة دارفور والمدونة الموسيقية بعد نقلهما الى العربية .

أما خريطة دارفور وجيرانها ، وخريطة مديرية دارفور فقد أخذناهما من مجلة السودان فى مذكرات ومدونات (S N R)

وأما جدول سلاطين دارفور بصفحة ٤٧٨ فقد اعتمدنا فى ترتيبه على ما ورد فى المتن فضلا عما ورد من تفصيلات فى مادة : «دارفور» فى دائرة المعارف الاسلامية ، وفى نعوم شقير (تاريخ السودان) ، وبذلك استطعنا أن نضيف أسماء سلاطين وأمراء غير واردة فى زامباور (الترجمة العربية جـ ١ ص ١٣٩) .

* * *

وعندما بدأنا العمل فى تحقيق هذا الكتاب واعداده للطبع ، رأينا من الضرورى أن نقوم برحلة الى مديرية دارفور وجبل مرة بها ، وتهيأت للرحلة أسبابها حين قمنا مع فريق من زملائنا أساتذة كلية الآداب بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، ومعنا طلاب السنة الرابعة من قسم اللغة العربية ، برحلة علمية فى ديسمبر سنة ١٩٦١ ، استطعنا أن نجمع أثناءها ذخيرة لغوية وأدبية وتاريخية واجتماعية ، أفادتنا فى تحقيق على الطبيعة لما ورد فيه من روايات تاريخية ، ومصطلحات ادارية ، وألفاظ وعبارات وأناشيد باللغة الفوراوية .

ويرجع الفضل فى تيسير مهمتنا الى السيد اللواء حمد النيل ضيف الله ، قائد المنطقة الغربية سابقا ، ورئيس أركان حرب الجيش السودانى . وكان ممن اتصلنا بهم ونقلنا عنهم من أبناء جبل مَرّة : الشرتاى منصور شرتاى بلدة

كاس ، والشيخ سيف الدين عمدة نيارتنى ، ثم الأمير سليمان ابن السلطان على دينار ، ومحمد الحتة من أعيان الفاشر .

ونود أن نختتم هنا برجاء الى كل قارئ كريم أن يمدنا بما عساه يتراءى له من ملاحظات تساعدنا على استيفاء ما هناك من مواضع تستأهل اعادة النظر فى اخراج الكتاب ، لا سيما وأن هناك تفكيرا فى اخراج كتاب « رحلة وادای » ، وهو الكتاب الثانى من رحلات التونسى ، ونأمل أن يمدنا القارئ بما يكون لديه من معلومات تنير الطريق الى العمل فى هذا الكتاب الثانى .

المحققان

خليل محمود عساكر و مصطفى محمد مسعد

القاهرة فى { ٢٧ من صفر سنة ١٣٨٥ هـ
٢٧ من يونية سنة ١٩٦٥ م }



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتوى

المقدمة

وفيها ثلاثة أبواب :

المقصـــد

وفيه ثلاثة أبواب :

كشـــاف الكتاب

الصور والأشكال والخرائط والمدونات الموسيقية

صفحة



المراجـــع (1)

اولا : المراجـــع العربيـــة

ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبيد الله ، ت ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م) :

تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، جزءان – مصر ١٩٣٨ م ٠

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ م) :

العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ اجزاء ، مصر ١٢٨٤ هـ ٠

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) :

لسان العرب أبو الفدا .

أبو الفدا (اسماعيل بن على بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب ، ت ٧٣٢ هـ – ١٣٣٢ م):

جغرافيته ٠ نشر رينو ودى سلان ، باريس ١٨٤٠ م ٠

احمد كاتب الشونة :

مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصريه ٠ تحقيق الشاطر بوصيلى عبد الجليل ، مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، طبع ادارة (احياء التراث)القاهرة ١٩٦١ م ٠

الادريسى (ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس) :

صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ماخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر دوزى ودى خويه ، ليدن ١٨٦٦ م ٠

---

(1) تتضمن هذه القائمة المراجع الواردة فى حواشى الكتاب ؛ كما تتضمن ما أمكن جمعه من المراجع المتعلقة باقليم دارفور ليستعين بها الباحث على دراسة هذا الاقليم .

بوصيل (الشاطر) :

معالم تاريخ سودان وادى النيل ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

حسن محمود (الدكتور) :

الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، طبعة ثانية،القاهرة١٩٦٣ .

شبيكة (الدكتور مكى) :

السودان فى قرن ، القاهرة ١٩٤٧ م ٠

شقير (نعوم) :

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . ٣ أجزاء فى مجلد واحد ، القاهرة ١٩٠٤ م٠

الشيال (الدكتور جمال الدين) :

دكتور پيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد بن عمر التونسى ، مجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ١٩٤٤ ، ص ٢٢١ .

عابدين (الدكتور عبد المجيد) :

(أ) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٣ م

(ب) دراسات سودانية ، الخرطوم ١٩٥٧ ٠

عبد المجيد (الدكتور عبد العزيز أمين) :

(أ) التربية فى السودان ٠

(ب) محمد بن عمر التونسى ــ القاهرة ١٩٥٦ ٠

عساكر (الدكتور خليل) :

طريقة لكتابة نصوص اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية . مجلة المجمع اللغوى ، العدد ٨ ، سنة ١٩٥٥

العمرى (ابن فضل الله ، ت ٧٠٣ هـ ــ ١٣٤١ م) :

(أ) التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ

(ب) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الثانى والثالث ٠ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، معارف عامة ٥٥٩ وتاريخ برقم ٢٥٦٨٠٠

عوض (الدكتور محمد) :

السودان الشمالى ــ سكانه وقبائله . القاهرة ١٩٥١ .

الفيروزابادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) :
القاموس المحيط .

القلقشندى (ابو العباس احمد ، ت ٨٣١ هـ ـ ١٤١٨ م) :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، مصر ١٩١٣ ـ ١٩١٧ م .

مصطفى مسعد (الدكتور) :
(ا) الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٠ .
(ب) سلطنة دارفور ـ تاريخها وبعض مظاهر حضارتها ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (العدد ١١) سنه ١٩٦٣ .

المقريزى (تقى الدين أحمد ، ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م) :
(أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان بولاق ١٢٧٠ هـ .
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة من سنة ١٩٣٤ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(جـ) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، نشر الدكتور عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ .

ود ضيف الله (محمد) :
كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان، مصر ١٩٣٠ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا : المراجع الأوربيـــة

Arkell, A.J. : A History of the Sudan up to A.D. 1821. London, 1955.

Browne, W.G. : Travels in Africa, Egypt and Syria, 1792-1799, London, 1806.

Bruce, J. : Travels to discover the Sources of the Blue Nile, Edinburgh, 1805.

Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, its History and Monuments, London 1907.

Burchardt, J.L. : Travels in Nubia, London 1819.

Crawford, O.G.S. : The Fung Kingdom of Sennar, Glouceseter, 1951.

Gleichen, Count, A.E.W. : The Anglo-Egyptian Sudan, 2 vols., London, 1905.

Halt, P.M. Modern History of the Sudan, 1961.

Hamilton, J.A., de Ce ed. : The Anglo Egyptian Sudan from Within, London 1935.

Hill, R.L. : Egypt in the Sudan, 1821-1887, London 1955.

Jackson, H.C. : Tooth of Fire, being some account of the Ancient Kingdom of Sennar. Oxford, 1921.

Leo Africanus : A History and Description of Africa, done into English by John Pary, 1600, ed. Browne, Hakluyt Society 1896, Vol. III, London.

MacMichael, H.A. : A History of the Arabs in the Sudan, 2 vols., Cambridge, 1922.

— "The Coming of the Arabs in the Sudan". Anglo Egyptian Sudan from within, London, 1935.

Meek, C.K. : Tribal Studies in Northern Nigeria, London, 1931.

— Sudanese Kingdom, London.

Palmer, R. : The Bornu Ṣahara and Sudan, London, 1936.

Roland Oliver, ed., : The Dawn of African History, London, 1961.

Seligman and Brenda, Z. : Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, London, 1932

Shukri, M.F. : Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo, 1937.

Slatin, R. : Fire and Sword in the Sudan, London, 1896.

Trimingham, J.S. : Islam in the Sudan, London, 1949.

Tunsi, al (Moh. ibn Omar): Voyage au Darfour. Transl. Perron, Paris, 1845.

— Voyage au Ouaday. Transl. Perron et Jomard, Paris, 1851.

Villard, Ugo Monneret De : Storia Della Nubia Cristiana, Roma, 1938.

Encyclopaedia of Islam.



PERIODICALS

Arkell, A.J. : "The Coinage of Ali Dinar, S.N.R[1]., XXIII, (1940), part 1, pp. 150-160.

— Darfur Antiquities I, Ain Farah, S.N.R., part 2, (1936), pp. 301-312. II, XX, part 1, (1936), pp. 91-106.

— The Steel and Tinder in Darfur, S.N.R., XIX,(1936), part 2, pp. 320-321.

— Rock Pictures in Northern Darfur, S.N.R., XX, (1937), part 2, pp. 281-288.

— The Tigda or Reaping Knife in Darfur S.N.R., XX, part 2, (1937), pp. 306-307.

— Beads made in Darfur and Wadai, S.N.R., XXII, (1945), part 2, 305-310.

— Darfur Antiquities, S.N.R., XXIII, (1940), pp. 185-202.

— Darfur Pottery, S.N.R., XXII, (1939), part 1, pp. 79-88.

— Throwing Sticks and Throwing Knives in Darfur, S.N.R., XXII, (1939), part 2, pp. 251-268.

— More about Fung Origins, S.N.R., XXVII, (1946), pp. 87-97.

— The History of Darfur, 1200-1700A.D., S.N.R., XXXII, (1951), part 1, pp. 37-70.
S.N.R., XXXII, (1951), part 2, pp. 207-238.
S.N.R., XXXIII, part 1, (1952), pp. 129-155.

Auriant, A. : Histoire d'Ahmed Aga le Zantiote Un projet de conquete du Darfur (1796-1799), Revue de l'histoire des colonies françaises, 14,(1926), pp. 181-234.

Baustead Bey, J.E.H. : The Youth and last days of Ali Dinar, S.N.R., XXII, (1939), part 1, pp. 149-154.

---

(1) S.N.R. = Sudan Notes and Records.

Beaton, A.C. : The Fur, S.N.R., XXIX, (1948), part 1, pp. 1-39.

— Fur Dance Songs, S.N.R., XXIII, (1940), part 2, pp. 305-330.

Cooke, R.C. and Beaton, A.C. Bari and Fur Rain Cults and ceremonies, S.N.R., XXII, 1939, part 2, pp. 181-204.

Gillan, J.A. : Darfur 1916, S.N.R., XXII, (1939), part 1, pp. 1-26.

Henderson, K.D.D. : Origin of Dagu., S.N.R., XV, (1932), part 2, pp. 151-152.

Lampen, E. : A Short account of Meidob., S.N.R., VI, (1928), pp. 55-68.

Lampen, G.D. : The Baggara Tribes of Darfur, S.N.R., XVI, (1933), Part 2, pp. 97-118.

— History of Darfur, S.N.R., XXXI, (1950) part 2, pp. 177-209.

Lynes, H. : Notes on the Natural History of Jebel Marra., S.N.R., IV, No. 3, (1921).

Macintosh, E.H. : A Note on the Dagu Tribe., S.N.R., XIV, (1931), part 2, pp. 171-178.

MacMichael, H.A. : Nubian elements in Darfur, S.N.R., I, (1918), pp. 30-48

— Note on the Burial Place of Fur Sultans of Tura in Jebel Marra., S.N.R., IX, (1926), part 2, pp. 75-77.

Michelmore, A.P.G. : A Possible Relic of Christianity in Darfur., S.N.R., XV, (1932), part 2, pp. 272-273.

Palmer, H.R. : A Bornu Mahram and the Pre-Tunjur Rulers of Wadai, S.N.R., V, No. 3-4, (1922), pp. 197-199.

Shaw : Darb el Arbaén, S.N.R. XII, 1930, pp. 63-71.

Walker, J. : The Coinage of Ali Dinar, S.N.R., XIX, (1937), part 1, pp. 147-150.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا . يا من سيّر أقدامَ الأنامِ بإرادته السنيّة ، وجعل رحلةَ الشتاء والصيف بحكمته البهيّة ، نحمَدُك حمدَ مَن تلذذ بحلاوة الراحة بعد مرار مشقّة السفر ، ونشكرك شكر مَن تنعّم بالإقامة بعد كدِّ الرحلة والكدر ، ونسألك يا مالك الأملاك ، بما قدرتَ من سير الكواكب فى الأفلاك ، أن تُهطِل شآبيبَ رحمتك ورضوانك ، وتُنزِل غيثَ صلاتك وسلامك ، على أفضل من ارتحل وأقام ، وسافر من مكة إلى الشام ، سيدنا ومولانا محمد ، الشفيع يوم العَرْض فى المذنبين ، الذى أُنزِلت عليه : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(1) » ، وعلى آله الذين رحلوا من أوطانهم فى حُبِّه ، وأصحابِه (3) الذين هاجروا للمدينة رغبةً فى قُربِه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـــد : فيقول الفقير إلى رحمة ربِّه المنان ، محمدُ بن السيد عمر التونُسِيّ ابن سليمان :

لما وفّقنى اللهُ تعالى لقراءة علومِ العربيـة ، وأترَع كأسى من بينها بالفنونِ الأدبيـة ، حتى حُسبتُ من بنى الأدبِ وذويه ، وعشيرته التى تؤويه ، أناخ الدهرُ

---

(1) سورة الأنعام ، آية 11 .

بكلكله على ما بيدىَّ من العَيْن[1] ، فغادره أثراً بعد عين . وكانت همّتى إذ ذاك مصروفةً بتحصيل العلوم ، وجمع المنثور منها والمنظوم .

وحين شاهدتُ معاندةَ الزمان لِمَقتى ، تمثَّلتُ بقول العلامة الصفتى ، من الكامل :

هبطت ثريَّا الشاردات لهمَّتى ... وصعدتُ فى العرفان كلَّ سماء

وفقهت غيرى فى العلوم وإنما ... بينى وبين المال كلُّ تنائى

فعجبتُ إذ عُقِد اللواء لجاهل ... والفقرُ عمَّ عمائمَ الفقهاء

ولما صفِرتْ الراحة ، وقرِعَت[2] السَّاحة ، ومالَ المال ، وحالَ الحال ، وغار المنبَع ، ونبا المربَع ، أنشدتُ من مقالى ، على شرح حالى ، شعراً من الكامل :

ما حيلتى ولذا الزمان متاعِبٌ ... يؤذِى الشريفَ وللوضيع يصونُ

زمنٌ له حربٌ على أهلِ التقى ... بإزائه حربُ البسوس يهون[3]

فتراه يرفع كل غمر[4] جاهلٍ ... ويسىء كلَّ مهذّبٍ ويُهين

(٤) وتمثَّلتُ بقول القائل ، من الوافر :

تبيتُ الأُسدُ فى الغابات جوعاً ... ولحمُ الضأنِ يُلقَى للكلابِ

وخنزيرٍ ينامُ على حريرٍ ... وذى علمٍ ينام على التراب

ثم ناجتنى القَرُونَةُ[5] ، أن أسألَ من بعضِ الناس المعُونة ، فتذكَّرتُ أنْ ليس كلُّ

---

(١) فى الأصل : العبن بالباء ، وهو تصحيف لكلمة العين التى يريد بها الذهب والفضة والثياب كما سيرد فى الباب الثالث من المقدمة .

(٢) قرعت : خلت ، وفى اللسان : قرع المكان خلا ولم يكن له غاشية يغشونه .

(٣) الحرب مؤنثة وقد تذكر .

(٤) الغمر : من لم يجرب الأمور .

(٥) القرونة : النفس (القاموس) .

أحمرَ لحمة ، ولا كلُّ أبيضَ شحمة ، وربما يُريق الإنسانُ ماءَ وجهه ، ولا يحظَى بقصده ، وإن إراقةَ ماء الحياة دون إراقة ماء المُحيًّا ، سيَّما إذا وقع التَّعْسُ والنكس ، وكان الطلبُ من نحس ، قال الشاعر ، [من] الرّجَز :

اَقلعُ ضِرسٍ وضَنكُ حبسِ ونزعُ نفسٍ وورِدُ رمسِ
ولفحُ نارٍ وحملُ عار وبيعُ دار برُبعِ فَلسِ
وقَوْدُ قرد وفرطُ بَردٍ ودبغُ جلد بغير شمسِ
وفقدُ إلف وضيقُ خَسْف (1) وضربُ ألفٍ بألف قَلسِ (2)
أهونُ من وقفةٍ لحُرٍّ يرجو نوالاً بباب نحسِ

لاسيّما وقد وُجد على بعض الأحجار ، بقلم قدرة العزيز الجبار : «كُلْ من كدِّ يمينِك ، وعرق جبينِك ، وإنْ ضعف يقينُك ، اسألْ اللهَ يُعينُك .»

فدخلتُ في خدمة من تزيّنتْ بلطائفه صفحاتُ الأيام ، ونارتْ(3) بعوارفه حوالكُ الظلام ، ظِلُّ الله الظليلُ على(ه) البلادِ والأمصار ، حامي ذمارِ الإسلام ، وقامع الفجار ، مَن أنام الأنام في وارفِ حلمه وإحسانه ، وأذاقهم حلاوةَ الأمنِ بنجدته وأمانِه . [شعر] من الخفيف :

ملكٌ ماجدٌ حليم كريم ، جودُه ناسخٌ لكلّ الوجودِ
ناشرُ العدل ، وهْو للجَوْر طاوٍ ، واقف في الأحكام عندَ الحدودِ
صالح الفعْلِ صادقُ القول وافٍ بوفا العهد منجزٌ للوعودِ

---

(1) الخسف : مخرج ماء البئر (القاموس)

(2) القلس : حبل ضخم من ليف أوخوص أو غيرهما ، بهذا شرحه القاموس . ولعله هو الذى يسمى فى بعض ريف مصر بالالس ويكون غالبا من ليف ، ويستعمل فى ربط الدواب .

(3) نارت ونورت وأنارت بمعنى .

همُّــــه القطع للفساد وإصــــلا ... حُ جميـــــع البـلادِ والتمهيـــــد

نحن مِن روْضِ أمنِ دولته فى ... خفضِ عيشٍ به وظلٍّ مـــــديدِ

أيها المـــالكُ الذى يحتمِى عن ... حـــدٍّ أوصافه العُلا بحـــــدودِ

أنت من حصنِ ربِّنا فى أمانٍ ... من عيون العِدا وكيد الحسودِ

ألا وهو فاتحُ الحرميْن الشريفين بجيشِه المنصور ، ومالكُ الأقطار الشامية بإبراهيمهِ البطلِ الغَضَنْفرِ المشهور ، أميرُ المؤمنين الحاج محمد على باشا[1] ولىُّ النعم ، أعلى الله سرادق عزِّ دولته ، وأبَّد مُلكَه بمجدِه وصَوْلتِه .

وكان أول خدمتى بوظيفة واعظٍ فى الآلاى الثامن من المشاة ، وسافرتُ معه إلى المُورة وكابدْتُ المشقَّات ، وكنتُ قبل ذلك سافرتُ إلى بلاد السودان ، ورأيت فيها من العجائبِ ما إذا سُطّر يكون كزهرِ بستان . ثم استخدمت فى مدرسة أبى زعبل لتصحيح الكتبِ الطبية ، وخُصصْت منها (٦) بتصحيح كتب الأَجزاجيّة .

ومكثت على ذلك حتى اجتمعتُ بأبرعِ أهل زمانه حذاقةً وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعةً وعلماً ، معلّمِ الكيميا الحكيم « پـيرُون » الفرنساوى ؛ وقرأ علىَّ كتاب « كليلة ودمنة » باللغــة العربية . فذكرتُ له بعضَ ما عاينتُه فى أسفارى من العجائب البهيَّة ، فحملنى على أن أزيِّن وجه الدَّفتر بإيضاح ما شاهدتُه من العجائب ، وأُخبِّرَه بما حصــل لى فى تلك الأسفار من الغرائب ، فامتثلتُ أمرَه لما له علىَّ من اليد البيضا ، ورأيت أن ذلك أجملُ بى أيضاً ، لقول صاحب « المقصورة »[2]، من الرجز :

(١) هذه عبارات تقليدية كان الكتاب يلتزمونها خضوعا لأوضاع العصر ، حتى لقد بلغ من المبالغة فيها أن سمى (محمد على) « أمير المؤمنين » !

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عتـاهية الأزدى المعروف بابن دريد ، عاش فى فارس فى بلاط والى نيسابور عبد الله محمد بن ميكال وابنه اسماعيل ، =

إنما المرء حديثٌ بعــــدَهُ   فــكن حديثاً حسناً لمن وَعَى

فشرعتُ فى إبراز فرائدها من صدف الأذهان ، وكشف حجاب خَرائِدها الحسان إلى العِيان ، وضممت لذلك من النوادر ما سمعته من الثّقات ، أو نقلتُه من الــكتب على سبيلِ الاستطراد للمناسبات ، لتــكون هذه الرحلةُ روضةً يانعة الأزهار ، لمن تأمّل فيها ، وحديقة دانيةَ الثمار ، لمن تصفّح معانيها ؛ ولم آل جَهداً فى إيضاح معانيهــا للمتأمّلين ، ولم أتعمقْ فى غريبِ اللغة ليسهُل فهمها على السامعين .

ورتبتها على مقدمةٍ ومقصِد وخاتمة ، وفى كل منها أبواب كما يُعلم من الفَهرســة ، وسميتُها : « تشحيذ الأذهان ، (٧) بسيرة بلاد العرب والسودان[1] » . واللهَ أسأل أن ينشر عليها حلة القبول ، ويقيهَا شرَّ حاسد يطعن فيما فيها من المَقُول ،

وكم من عائب قولاً صحيحــاً   وآفته من الذهن السقيمِ

على أنى وإن أتقنتُها وهذّبتها ، وفى أحسن قالَبٍ سبكْتُها ، لا أقول إنها عاريةٌ عن الخلل ، بريئةٌ[2] عن الزَّلَل ، لأنى إنما أنا بَشَر من الإنسان ، محلّ للخطأ والزَّلَل والنسيان . لــكن إنما أتعوّذ من غُمْر يرمقها بعين الحسد ، ويُنَدِّد بأنها من الخرافات عند كل أحد .

= وكتب فى مدحهما قصيدته المشهورة « المقصورة » ومطلعها :

ياظبيــــة أشبه شيء بالمهــــا   ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وتقع فى أكثر من مائتين وخمسين بيتا ، ولها عدة شروح . وتوفى ابن دريد فى ١٨ رمضان سنة ٣٢١ هـ .

(١) سوف يتضح للقارىء مما يلى أن المقصود ببلاد العرب فى هــذا العنوان بلاد السودان التى تسكنها القبائل العربية ، وأن المقصود ببلاد السودان فى هــذا العنوان كذلك اقليم دارفور .

(٢) في الأصل : بريية .

وهبنى قلتُ هذا الصبحُ ليلٌ   أيعمَى العالَمون[1] عن الضياء ؟

فرحم الله امرأ رأى الزَّلَل فستره ، وشاهد الخلَل فجبَره .

إن تجــد عيباً فسُدَّ الخلَلا   جلَّ من لا عيبَ فيــه وعَلاَ

وبالله أستمدّ التوفيق ، إلى أقوم طريق ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) فى الأصل : أتعمى المعاملون .

المقـدمة

وفيهـــا ثلاثة أبواب

الباب الأول
فى السبب الباعث لرحلتى لبلاد السودان

حكى لى والدى عليه سحائبُ الرحمة والرضوان ، أن جدَّه كان من عظماء أهل تونُس ، وكيلا من طرف سلطان المغرب المولى الأكمل ، الملك المظفّر العادل ، المرحوم الشريف محمد الحسنى[1]؛ فاجتمع له بذلك مال جزيل ، حتى صار من أغنى أهل(٨) زمانه. ولما مات كان قـد خلَّف من الولد ثلاثة بنين ؛ فتنازعوا تراثَ أبيهم ، و باعوا دارهم التى كانت تُؤويهم[2] ، وسكن كل منهم على حدَتِه ، بأولاده وزوجته .

فاتفق أن أباه كان من أهل العلم ، جيد الخط ، ينسخ الـكتاب فيبيعه بضعف ما يبيع به غيرُه ، وكان يعرف صباغةَ الثياب بالألوان ، فـكان أرفَهَ إخوته معاشا ، وأحسنهم ارتياشا ، فاتفق له أنه اشتاق لرؤية البيت الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه السلام ، فباع بعض

(١) ترجم پيرون هذا اللفظ الى Hosny انظر : Voyage au Darfour, p. 9

(٢) في الأصل : تاويهم

عَقارٍ كان له وتأهّب للسفر ، واشترى معه أحرمة وطرابيش ، وأعطاه الناس أموالاً كثيرة يتّجر لهم فيها ، لما يعلمون من صدقه وأمانته ، حتى أنه وسَق من السفينة جانباً عظيماً .

وحين توجه ودّعه إخوانُه حتى وصل إلى السفينة ، فركبها وأقلعت بهم بريحٍ طيبة . ثم اختلفت الرياح على السفينة ، حتى أنهم أخذوا طريقاً غير طريقهم : وذلك أنهم جاءوا على طريق رودُس[1] . وبينما هم آمنون مطمئنون[2] ، إذ هَبَّ عليهم قاصف ريح ، وكانوا إذ ذاك بجانب رودُس ، فتلاطمتْ عليهم أمواجُ البحر ، وبدّل الصفوَ بالكدر ، على حدّ قول الشاعر . شعر من البسيط :

حسَّنتَ ظنَّك بالأيام مذ حسُنت ولم تخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ

وسالمَتْكَ الليالى واغتررتَ بها وعند صفوِ الليالى يحدُث الكَدَرُ

(٩) وكان بسفينتهم خلَل ، فلما تلاطمتْ عليها الأمواج ، وسطت عليها سطوة[3] الحجّاج ، تحلّل تركيبُها ، وفسد ترتيبُها ، وتفرّقت أجزاؤها ، وانفصلت أفلاذها ، وغرِق من فيها ، ولم ينجُ إلا القليلُ من راكبيها .

وكان ممن نجا منهم جدّي المذكور ، فخلُص بعد غصِّ الريق إلى البلد المذكور .

[شعر] من الطويل :

إذا سلمتْ هامُ الرجال من الرّدَى فما المالُ إلا مثلُ قصِّ الأظافرِ

فمكث فى رودُس مدة ، ونفعه فيها هِمْيَان[4] كان فى وسطه ، فيه بعض ذهب ،

---

(١) كتبت رودس هكذا بضم الدال فى الأصل .

(٢) فى الأصل : آمنين مطمئنين .

(٣) فى القاموس : سطا عليه وبه قهره بالبطش .

(٤) الهميان : وعاء للدراهم (القاموس)

فـكان ينفق منه مدة إقامته . ثم اشترى زاداً وركب فى سفينة إلى ثغر إسكندرية ، وكان ذلك إبّان الحجّ ، والذهاب إلى العَجّ والثّجّ [1] ، فتوجّه فى الحال ، من غير إهمال ، إلى تلك البقاع ، و بلَغ مأمولَه قدرَ ما استطاع ، وكان لسان حاله يقول ، قبل بلوغ المـأمول ، من الرمَل :

أبركُ الأيامِ يومٌ قيـــلَ لى هذه طَيْبةُ هـــذى الـكتبُ

هـــذه روْضَة طَـــهَ المصطفى هـــذه الزّرقا [2] لديكم فاشربوا

والياء فى « هذى » بدل عن الهاء .

ولـما قضى ما وجب عليه ، وتملّى بزيارة الحبيب وصاحبيْه ، أفاق من دهشته ، وفاء إلى سكينته ، وافتـكر فى ضياع ماله ، وتشتّت حاله ، وافتضح من(١٠) دخوله إلى تونس ذا عُسْرٍ وفاقة ، بعد أن كان ذا يُسر وإفاقة . وكيف يصبر بعد الرفاهية على الـكدّ ، أو يراه على هذه الحالة أهل البلد ؟!

ولـما تذكر ما قد حدث ، أنشد على وجه الجِدّ لا العَبث ، من الطويل :

سأضربُ فى الآفاق شرقاً بغربها وأكسبُ مالاً أو أموت غريباَ

فإنْ تلِفت نفسى فلله ردُّهـــا وإن ســـلمتْ كان الرجوعُ قريباَ

ومن المعـــلوم أنه يسهُل على المرء أن يعيش فى تعب ونصب وكدّ ، فى بلد لا يعرفه فيه أحد ، خصوصاً فى هـــذا الزمن الذى يُـكْرَم به اليهوديّ لمالِه ، ويُهان الشريفُ لفقره وسوء حاله ، ورحم الله القائل ، من الـكامل :

---

(١) العج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : صب الدم وسيلان دماء الهدى أى الذبح، وفى الحديث : أفضل الحج ، العج والثج (اللسان) .

(٢) في الأصل : الزرقاء بالهمزة ، وهي عين بالمدينة .

يغــــدو الفقيرُ وكلُّ شيء ضِدَّه ... والأرض تُغلِــق دونه أبوابَها

وتراه ممقــــوتا وليس بمذنبٍ ... ويرى العــداوةَ لا يرى أسبابَها

حتى الـكلابُ إذا رأتْ ذا ثروة ... مالتْ إليـــه وحركتْ أذنابَها

وإذا رأتْ يوماً فقـــيراً عارياً ... نبحتْ عليـــه وكشَّرتْ أنيابَها

ولذا قال الإمام على كرم الله وجهـــه : الفقر داءٌ لا دواء له ، إن أذعتُـه فضحنى ، وإن كتمتُه قتلنى . وقد قيل : إذا افتقر الإنسان خوَّنه من كان يأمنُه ، وأساء فيه[1] الظنَّ من كان يحسنه ، وأبعده مَنْ (١١) كان يقرِّبه ، وملَّه من كان يحبُّــه . شعر من البسيط :

إنْ قلَّ مالى فلا خِــلٌّ يساعدُنى ... وإن غَنِيتُ فـكلّ الناسِ خِلاّنى

وليت الإنسان إذا افتقر ، يترك هو وشأنه ولا يحتَقَر ، لا والله بل يكذَّب فى المقال وإن كان صوابا ، ويهانُ وإن لم يكن عابا . شعر من الـكامل :

من كان يملِك درهمـــيْن تعلّمت ... شــفتاهُ أنواعَ الـكلامِ فقــالا

وتقـــدَّم الإخوانُ فاستمعوا له ... ورأيتَه بين الورى مختـــالا

لولا دراهمُـــــه التى فى كيسِه ... لرأيته أســــوَا[2] البريَّة حالا

إن الغنىَّ إذا تـكلم بالخطـــا ... قالوا : صدقتَ وما نطقت محـالا

وإذا الفقــير أصاب قالوا كلُّهم : ... أخطأت يا هذا وقلت ضـــلالا

---

(١) كذا ، وهو تعبير عامى بدل : أساء به ، وقد دأب المؤلف على هذا الاستعمـال فى جميع الكتاب .

(٢) فى الأصل : اسوء .

إن الدراهم فى المواطن كلها   تكسو الرجال مهابة وجمالا[1]

فهى[2] اللسانُ لمن أرادَ فصاحة   وهى السلاحُ[3] لمن أراد قتالا

وإذا كان كذلك فالموتُ خير لذوى الأحساب ، من أن تلصق أيديهم بالتراب .

شعر من مجزوء الكامل :

الموت خيرٌ للفتى   من أن يعيشَ بغير مالِ

والموتُ خير للكريـ   ـم من التضرُّع والسؤالِ

ولما علم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن الفقيرَ يُهانُ بعد (١٢) الإكرام ، ويذلّ بعد العزّ والاحترام ، قال : « أكرموا عزيزَ قوم ذلّ ، وغَنِيَّ قومٍ افتقر » . لكن كلُّ ذلك بحسب ما سُطِّر فى أم الكتاب ، وقدَّره فى علمه العزيز الوهاب . وإلا فكم من فقير أسعفته الأقدار ، وكم من غنى أصبح لا يملك ربع دينار !

ومن ذلك ما حُكى : أن الوزير المُهَلَّبى كان فى أول أمره فقيراً ، لا يملك نقيراً[4] ، واتفق أنه سافر راجلا من بغداد إلى مكة فى قافلة ، وقد أضرَّ به الجوع ، وأحرمه[5] الهجوع ، فأنشد يقول ، من الوافر :

ألا موتٌ[6] يباع فأشتريه   فهذا العيش ما لا خير فيه

---

(١) فى رواية : وجلالا .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى الأصل : اسلاح .

(٤) النقير : نقرة فى ظهر النواة منها تنبت النخلة (اللسان)

(٥) كذا فى الأصل . وقد دأب المؤلف على استعمال هذه الصيغة فى أكثر من موضع من الكتاب والصواب حرمه

(٦) في الأصل : موتا .

ألا رحم المهيمنُ روحَ عبـد　　تصدّق بالوفاةِ على أخيـه

فسمعه أحد التجار فأعطاه رغيفاً ودرهماً .

ثم تغيرت الأحوال ، فترقى المهلّبي للوزارة ، وافتقر التاجر حتى صار لا يملك قوت يومه ، و بلغـه أن المهلّبي ترقى للوزارة ، فذهب إليه ، وكتب له فى رقعة ما صورته ، من الوافر :

ألا قُلْ للوزير فدته[1] نفسى　　مقالاً مُذْكِرًا ما قد نسيهِ

أتذكر إذ تقول لضَنك عيش　　ألا موتٌ[2] يباع فأشتريهِ

وأرسـلها له مع بعـض خدمه . فلما قرأها بكى واستعبر ، وتذكر ما قد سلف ، (١٣) وأمر له بعمل وسبعمائة درهم ، وكتب له على رقعة : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ »[3] الآية .

فعلم من ذلك أنه ينبغى إكرامُ من افتقر بعد غناه ، وذلّ بعد أن بلغ فى العزّ منتهاه . وإذا عَنَّتْ للإنسان حاجةٌ وأراد [أن] يسأل فيها الناس ، فإن كان عاقلاً لا يسألُ إلا مَنْ كان ذا فضل ومروءة ، ولا يَسأل من تموّل بعد فقره ، وعزّ بعد ذلّه ، قال الشـاعر ، من الطويل :

سلِ الفضلَ أهلَ الفضلِ قِدْمًا ولا تسَلْ　　غنيًّا رُبِي فى الفقـرِ ثم تموّلا

ثم إنّ المالَ تميلُ إلى صاحبه القلوب ، وتنضمُّ عليه أزرارُ الجيوب ، به تتمّ

---

(١) فى الأصل : فداته .

(٢) فى الأصل : موتا . .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٦١ .

الإرادات ، وتُقضى جميع الحاجات . ولقد أجاد الحريرى فى مدح الدينار ، حيث قال ، من مشطور الرجز :

أكرم به أصفرَ راقتْ[1] صُفرتُهْ — جوّابَ آفاق ترامتْ[2] سَفرتُهْ
مأثورة سُمعتـــه وشهرتُهْ — قد أُودِعت سرَّ الغنى أسرّتُه[3]
كأنما من القلوب نُقرتُه[4] — به يصـول من حوتْه صُرّتُه
وقارنتْ نُجح المسـاعى خَطرتُه — وحُبّبت إلى الأنام غُرته
وإن تفـانت أو توانتْ عِترته — يا حبّذا نُضـاره ونَضرته[5]
وحبّـذا مَغناتُه[6] ونَصْرته — كم آمرٍ به استتبّتْ إمرته
ومُترف لولاه دامتْ حسرتُه — وجيشِ همٍّ هزمتـه كرّته
وبدرِ تمٍّ أنزلتْـه بَدرَتُه[7] — ومستشيطٍ تتلظى جَمـرته
(١٤) أسرَّ نجواه فلانتْ شِرّته[8] — وكم أسـير أسلمته أسرته
أنقذه حتى صـفتْ مَسرّته — وحقِّ مولى أبدعَتْـه فطرتُه
لولا التقى لقلتُ جَلّت قدرته

---

(١) راقت : أعجبت ٠
(٢) ترامت : بعدت
(٣) الأسرة : الخطوط التى فى الجبهة ، وعنى بها هنا النقوش التى فى الدينار ٠ مفردها سرار ، وجمع الأسرة الأسارير ٠
(٤) النقرة : القطعة المذابة من الذهب والفضة ٠
(٥) فى الأصل : نضرته بضم النون ٠ والنضرة : البهجة والحسن ٠
(٦) مغناته : غناه وكفايته ٠
(٧) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار ٠
(٨) شرته : نشاطه وحدته ٠

ولقد شوهد أن الألكن إذا استغنى يصير فصيحاً ، والأعمش إذا تموّل يعود بصرُهُ صحيحاً .

ومِصداقُ ذلك ، أنى رأيت فى سَفرتى هذه رجلا يسمى محمد المُكّنِى[1] ، وكان خادماً على باب يوسف باشا صاحب طرابلس الغرب ، وكان أعمشَ العينين ، مُسَلّقَ[2] الجفنين ، ترشح دموعه ، ويقلُّ هجوعه . ودام كذلك إلى أن تولّى حاكماً على إقليم فزّان ؛ فبرئ عَمَشُه ، ونبت رمشه ، وذهب وجعه ، و بطَل دمعُه ، وصار أجملَ أهل عصره ، وأوْجَهَ أهل قطره .

قلت : ولعل الأمراض إنما تعترى الفقراء ، لما يرونه من الذل والمسكنة والعُرْيِ والمسغَبة ، فيهتمون لضيق معاشهم ، وعدم ارتياشهم ، فتتشوّشُ أذهانهم ، وتسقَم أبدانهم . والغنىُّ ليس كذلك . نعم ، وإن كانت له هموم ، لكنها من جهة أخرى . شعر من الطويل :

ومن يحمَد الدنيا لشىء يسرُّه — فسوف – لعمرى – عن قليل يلومُها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً — و إن أقبلت كانت كثيراً[3] همومُها

لكنّ الغنىّ إذا بذل الدينار ، يبلغُ الأوطار .

ومن ذلك ما حُكى (١٥) أن على باشا الأول[4] صاحبَ تونس ، كان قبل ولايته فارًّا بالجزائر ، مستجيراً بحاكمها أن يُمدَّه بعساكر ليأخذها من ابن عمه حسين باشا ،

---

(١) ضبط الميم بالضم عن الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 401 وباقى الضبط وارد فى الأصل .
(٢) الانسلاق فى العين : حمرة تعتريها فتقشر . وبهذا يتضح المعنى .
(٣) فى الأصل : كثير .
(٤) انظر ترجمة حياته فى : « الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية » لمحمد الباجى المسعودى ، ص ١٢٢ ـ ١٣٠ .

وكان صاحبُ الجزائر يعدُّه بذلك ، والأخبار ترد على حسين باشا بذلك ، فكان يغتمّ إذا سمع شيئاً من ذلك ، لما يعلم مما يطرأ عليه من انحطاط شانه ، وذهاب ملكه وسلطانه .

فاتفق أن ورد عليه خبر أقلقه وأهمَّه ، وأحزنه وأغمه ، فركب وهو ضيِّق الصدر ، كثير الفكر . وشق فى وسط تونس بموكبه ، وكان أحد وزرائه محاذياً له يتحدث معه ، فرآه على تلك الحالة ، فسأله عن سبب تغيره ، فأخبره بما سمع من الخبر . فقال الوزير : أيَّد الله مولانا ونصره ، أتهتم بأمر لا أصْل له ؟ على أنى أقول إنك ما دمتَ موجودا ، لا تقوم له قائمة . والتفتَ عن يمينه ـ وكان بمحلّ يسمى : سوق البلاط ـ فرأى ساقَ شجرة يابساً مُلقًى على الأرض ، فقال له : إن كان هذا الساق يعود شجرة خضراء ، يملك على باشا تونس ويصير حاكما عليها . وأراد بذلك اطمئنان[1] صاحبه .

فما مرت إلا أيام قلائل ، حتى جاء على باشا بجيش كثيف من الجزائر ، وقتل حسين باشا ، واستوزر الوزيرَ المذكور مدةً حتى تمهّدتْ له الأمور .

فاتفق أنه ركب يوماً فى موكبه ودخل تونس ، و[كان] الوزير(١٦) المذكور محاذياً له كما كان محاذياً لحسين باشا ، فتماديا فى سيرهما حتى وصلا إلى سوق البلاط . فالتفت على باشا فرأى ساقَ الشجرة مُلقًى بمكانه ، فقال للوزير : إن عاد هذا الساق شجرةً خضراء ، يعود على باشا حاكماً على تونس .

وكان بعض أعداء الوزير ألقى إليه ذلك ، فأسرَّه فى نفسه إلى ذلك الوقت ، ثم أعرض عنه ، ولم يحادثه بعد ذلك . فعلم الوزير أنه مقتول لا محالة ، لِما يعلم من أخلاق على باشا ، لأنه كان سفّاكاً للدماء ، حتى أنه كان يقتل على الهفوة الصغيرة ، فضلاً عن مثل هذه .

---

(١) فى الأصل : اطمئنان .

وتمادياً على ذلك حتى وصل الباشـا إلى محل سلطنته ، وإيوان أُبّهته ، فتقدم إليه الوزير قبل أن يأمر فيه بأمر ، وقال : أيّد الله مولانا ، إن ابن عمك حسين باشا حين سمع بقدومك أودَع عندى أموالاً جمّةً خبأتُها فى محل لا يعرفه غيرى ، وأنا محقق أنك قاتلى ، وأخاف إن أنا مِتّ وهى بمكانها ، لا ينتفع بها مولاى . فإن رأى سيدنا أن يُسرِّحَنى لآتيَه بها فليفعل . ففرح على باشا وظنَّ صدقه ، وأمره بالتوجه ، وأن تصحَبه عشرة حَوانب[1] . والحوانب فى لغة تونس هم القوّاصـة[2] بلغة أهل مصر . وقبل توجههم ، قال للحوانب : إن فرّ منـكم قتلتـكم أجمعين .

فتوجهوا معه حتى وصل لداره ، فأوقفهم أسفلَ الدار ، وصـعد ليُبعِد الحريم عن الطريق فوقفوا . وحالَ صعودِه لم يكن له همٌّ إلاّ أنه قصد خِزانةَ أمواله ، فملأ منهـا جيبه ذهباً ، وأخذ معه صندوقاً صغيراً ، يسمَّى فى عرف أهل تونس بالقَنيق ، مملوءًا ذهباً أيضاً . وصعد على السطح وتسوَّر من دارٍ أخرى ، وخرج إلى الشارع وتوجه إلى دار قونصُل الإنجليز ، فدخل عليه وأخبره أنه مُستجير به ، وأعلمه بالقصَّة ، وأعطاه الصندوقَ بمـا فيه ، وقال له : أريد أن تأمر بإحدى سفائنك تتوجَّه[3] بى فى هذه السـاعة إلى إنجلاتيرَة . فـكتب له القونصُل فى الحال كتاباً إلى أحـد قَبُوداناته[4] أن : سـافِرْ إلى الإنجلاتيرةَ حال حلول جوابنا هذا إليك ، ولا تتأخَّرْ دقيقة واحدة . وأعطاه الـكتاب ورافقه بترجمانه ، ونزلا البحر حتى وصلا إلى السفينة . فحين قرأ مدير السفينة كتاب القونصُل أقلع عن المَرسَى وأطلق مِدفعاً علامة للقونصل بتوجُّهه .

---

(١) الحوانب ، جمع : حونب .
(٢) فى الأصل : « القواص » . والقواص ، مفرد جمعه قواصة .
(٣) فى الأصل : يتوجه .
(٤) القبودان هو القبطان فى اللهجة المصرية .

واستبطأه الحوانب ، فنادَوْا : يافلان ، انزلْ . فقال الحريم : إنه نزل من وقت صعوده . فـكذَّبوهُنَّ وهجموا الدار[1] فلم يروا فيها أحداً . وعلم على باشا بإفلاته ، فاغتاظ وعرف أنها حيلة وتَمَّتْ عليه .

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذه القضـية ، أترى أنْ هذا الوزير لو لم يبذُلْ هذه الدنانير ، أكان يبلغ مأمنَه[2] ؟ لا والله ! بل كان يُقتل ويؤخذ مالُه ولا ينفعه (١٨) بشيء ، لأن الدرهم والدينار إذا لم يُبذلا ، لم ينفعا ولا تُقضى لصاحبهما حاجة ؛ بل إن كان والياً عُزِل ، وإن كان تاجراً احْتُقِر .

وفى هذا المعنى أنشد شيخُ مشايخنا العلاّمة الشيخ محمد الأمير الـكبير ـ حين عُزل خورشيد باشا والى مصر سابقاً ، وتولاَّها صاحبُ السعادة ، لعدم إعطاء مرتبات العساكر ـ شعراً ، من مجزوء الـكامل :

عَزَلوك لمـــا قلتَ : ما أعطِى ، وولَّوْا مَن بَـــذَلْ
أوَ ما علمتَ بأنّ « ما »[3] حَرف يكُفُّ عن العمـــلْ

ولقد أجاد أبو القاسم الحريرى فى ذم الدينار ، من حيث إنه لا ينفع صاحبه إلا إذا فرَّ من يده ، حيث قال ، من مشطور الرجز :

وشرُّ ما فيــه من الخلائقِ[4] أنْ ليس يُغنى عنكَ فى المضايقِ

---

(١) كذا فى الأصل ، بدل « على الدار » .
(٢) فى الأصل : مامته .
(٣) فى الأصل : بانما .
(٤) الخلائق جمع خليقة وهى العادة والطبيعة .

إلا إذا فـــرَّ فرارَ الآبقِ   واهًا لمن يقذفُه من حالِق[1]

ومَن إذا ناجاهُ نجوى الوامق[2]   قال له قول المحقِّ الصـــادقِ

لا رَأْى[3] فى وصلكَ لى ففارِقِ

وفى الأمثال التونسية : إذا وضعتَ الدينـارَ على فم البَلاَ أشـكتَّه . وفى الأمثـال المصرية : حبيبْ مالُه ، حبيبْ مالُه . أى : مَن أحب مالَه وخزنَه ، لا حبيبَ له .

ومن هذا القبيلِ حكاية وقعت بتونس وهى[4] : أن المرحوم الأمجد أبو محمـــد[5] حمّودة باشا[6] ـ برّد الله (١٩) ثراه ـ كان له وزير يسمّى : يوسف صاحبَ الطابَع[7] ، ومعناه : المُهُردار ، أى : الذى فى يده الخاتم الذى تُختم به الأوامر . وكان يوسف المذكور قبل ذلك مملوكاً لقائد صفاقس المسمّى محمـــد الجلُّولِى ، وكان [على جانب] من الجمال والأدب والحياء ، فنُمِى خبرُه إلى الباشا ، فأرسل إلى الجلُّولى يقول له : إنه قد بلغنى أن عندك مملوكاً صفتهُ كذا ، واسمه يوسف ، فإذا وصلكَ كتابى هذا ، أرسلْه صحبةَ حاملِه والسلام .

فلمـا قرأ الجلُّولى الـكتاب ، لم يجد بدًّا من إرساله . فلما صار فى حيازة الباشا ، أعجبه حسنُه وذكاؤه وفطنتهُ ، وصدقه وأمانتهُ .

واتفق أن بعض المماليك اتفقوا على قتل الباشا ، ودخلوا عليه وهو نائم ، ووضعوا الشَّفرةَ على مذبَحه ، فاستغاث منهم . ولِبَختِ يوسفَ المذكور كان خلاصُ الباشا منهم

---

(١) الحالق : الجبل المرتفع .

(٢) الوامق : المحب .

(٣) فى الأصل : لارى .

(٤) فى الأصل : وهو .

(٥) كذا فى الأصل .

(٦) أنظر ترجمته فى : الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية ، ص ١٣٤ ـ ١٣٩ .

(٧) أنظر ترجمته فى : الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية ، ص ١٣٥ ـ ١٣٨ .

على يده . فنزل عنده منزلةً عظيمة ، وأحله محلّ ولده ، وقلّده الولاياتِ العظيمةَ ، وصارت الألوية تخفُق على رأسه حتى صار يشار إليه بأطراف البنان .

وكان يوسف المذكور سعيدَ الطالع ، جيِّد التدبير ، مظفَّرا فى الحروب ، ميمونَ الحركة ، سخيّ الكف ، يجذبُ القلوب بلطفه ، حتى أن الباشا جعله رئيساً على العساكر البرّية فى محاربة صَرّاط[1] ، وهى محاربة وقعت بين حاكم تونس وصاحب الجزائر ، فبيُمْنِ صاحبِ (٢٠) الطابع ، كانت الدائرةُ على أهلِ الجزائر . واغتنم عسكرُ تونس أخبيةَ الجزائرىّ وخيلَه وإبلَه وسلاحَه ، وأُسِر من عسكر الجزائر فى هذه الواقعة جَمٌّ غفير .

ثم صار مُدبِّر الجيوشِ البرية بحلْق الواد[2] ، وذلك حين قدم أسطول الجزائر لمحاربة تونس أيضاً ، فكان مقيما ببرج حَلْق الواد يدبِّر أمر الجيش والسفن والشّوانى والعَسَسِ على الشاطىء ، وكانت أكابرُ تونس تأتِى إليه لقضاء أشغالهم بحلق الواد ، لأن زمامَ الأمور كلِّها بيده .

وكان من جملةِ مَنْ يحضُر ديوانَه محمد الجلُّولِى ابنُ سيِّده سابقاً . لكن كان يأتى بتيهٍ وخَفَر ، مع عدم سلوكِ طريقةِ الأدب اللائقةِ بأمثاله . وكان صاحبُ الطابَع يرى منه ذلك ويتغافلُ عنه ، حتى أن أكابرَ ديوانِه تكلَّموا معه فى شأنِ ذلك . وذكروا له أمورًا كثيرة ، حتى قالوا : إنّه يراكَ إلى الآنَ مملوكَ أبيه ، وقد صرّح بهذا مِرارًا . فنقِم ذلك عليه ، وتحيَّل فى طريق الانتقامِ منه .

فأُخبِرَ أنه يدخلُ دارَه راكباً ، ولا ينزلُ خارجَ الدار كبقية الأمراء ، وأن

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى الخلاصة النقية ، ص ١٣٧ : سراط ، وهى مكان بين تونس وقسنطينة Voyage au Darfour p. 406

(٢) حلق الواد : ميناء فى تونس Voyage au Darfour p, 406

سائسَه يأخذُ بغلتَه ويربطُها فى مَربط دوابِّه ، فدعا برئيسِ الشّيّاس وقال له : قد بلغنى أن سائسَ الجلّولى يربطُ بغلته فى مربط دوابىّ . إنْ بلَغَنى أنه ربطها فى مربط خيلى بعد اليوم لا تلومَنَّ[1] إلا نفسَك . فقال : سمعاً وطاعة . (٢١) ثم إن الجلّولى جاء ونزل على عادته ، وأخذ سائسُه البغلةَ وربطها كالعادة ـ والسائسُ كان غائباً ـ وصعد هو إلى مجلس صاحب الطابَع وجلس .

وبينما هو جالس إذ سمع هيصَـةً[2] وصياحًا ، فنظر من أحد الشبابيك فرأى بغلته تركض عَائِرَةً[3] ، وسائسَه مضروبا والدمُ ينبع من رأسـه ، فانزعج ونزل ، فأخبره سائسه أن كبير الشّيّاس[4] جاء ووجد البغلةَ مربوطة ، فأطلقها وضربها ، فخرجت عائرة ؛ فسمعتُ بذلك ، فقلت له : لِمَ تُطلقُ بغلة سيدى ؟ فشتمنى وشتمك ، فرددتُ عليه ، فضربنى وترك حالى كما ترى .

فرجع الجلّولى إلى صاحب الطابَع وهو مغضَب وقال له : أَتطلَق بغلتى ويُضرَبُ خادمى وأنت موجود ؟ فلم يلتفت إليه ، ولم يردَّ عليـه جواباً . فزاد حَنَقُه ، وعلم أن الخادمَ لا يفعل مثل هذا الفعلِ إلا بإذن سيِّده .

فنزل وركب من ساعته ، وتوجّه إلى الحضرة ، ودخل على المرحوم حمّودة باشا ، وشـكا له جميع ما قد جرى عليه من صاحب الطابع فما أشـكاه ، ولا التفت إليه ،

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : هيضة ، ولعل المؤلف يقصد اللفظ العامى «هيصة» الذى أثبتناه فى المتن .

(٣) من : عار الفرس أى ذهب كأنه منفلت (القاموس) .

(٤) فى الأصل : السايس .

فكاد يتميَّز من الغيظ ، ونزل من الحضرة ، وتوجّه لداره كئيباً حزيناً ، لا يدرى ماذا يصنع .

فاجتمع عليه بعضُ أصحابه ورآه على تلك الحالة ، فسأله عن سبب حزنه ، فأخبره الخبر ، فلام عليه فيما صنع ، لا سيما فى شكواه للباشا ، وقال له (٢٢) : أما تعلم أن صاحبَ الطابع هو المقبول ، وكلمتَه هى المسموعة ؟ أتريد أن تعاديَه وتشكوَه للباشا ، ويسمَع لك عليه دعوى ؟ بِئْسَما فعلت ، وساء ما توهمّت ، أدركْ نفسك ، وتلافَ أمرَك ، وإلاّ حلّ بك ما يحِلّ[1] من التَّلَف وأنت المذموم . أما سمعتَ قولَ الشاعر ، من الكامل :

وإذا العنايةُ صادَفتْ عبدَ الشِّرا تمشِى على ساداته أحكامُهُ

فقال الجلّولى : وكيف الخروج من هذا الأمر ، و[ما] الحيلة فى الخلاص منه ؟ قال له صاحبه : اعلم أنّ المال إذا لم يبذُله صاحبُه فى مثل هذا المهِمّ كان هو [و] حجارةُ الدار سواءً ؛ والحيلة أن تحتفِل فى هديّة سنية وتقدمَها بين يدى صاحبِ الطابَع ، وتتوسلَ إليه بأعزّ أحبابه عليه ، كحضرة ابن أبى الضِّيَاف ، وقاسم البوّاب ، وصالح أبى غَدِير ، وأضرابهم ؛ وتبذلَ لهم من المال ما يُرضيهم وينشِّطُهم للشفاعة ، لأن المالَ لا يُطلب إلاَّ لمثل هذا المهِمّ .

فأخذ الجلّولى نصيحتَه بقبول ، واحتفل فى هديّة عظيمة منها : سيفٌ لا يقوَّم بمالٍ لُحسنِ جوهره ، وخاتمٌ من الماس عظيم لا يقوَّم أيضاً ، وخنجر مرصّع بماس وياقوت ، وعُلبة نُشوق وساعة مرصعتان[2] ، وعشرة آلاف محبوب[3] . وأخذ مالاً جزيلاً غير

---

(١) فى الأصل : ما يحل بك .
(٢) فى الأصل : مرصعتين .
(٣) فى الأصل : محبوبا .

هذا ، وتلطَّف حتى اجتمع بأصحابِ صاحب الطابع ، وأخبرهم أنه متوسّـــل بهم إليه ، أن يتوسّلوا له فى العفو ، و بذل لهم ما أرضاهم ، (٢٣) وسلّمهم الهدية . فأخذوها وذهبوا إلى صـاحبهم ، وأخبروه أن الجلّولى جاء معتذراً يطلب عفو سعادته ؛ وأطلعوه على الهديّة ، وزينوا له أمرَ الصلح ، والعفوَ عنه ، وتَرْكَ الانتقام منه إلا إنْ عاد لمثلها .

فشرِهتْ نفسُه [على] الهديَّة ، وقبِلَها وعفا عنه ، وأمرهم بإحضاره ، وأن يبالغوا فى وصيَّته على سلوكِ طريقِ الأدب ، وأن يتركَ ما كان عليه من التكبُّر ، ولا يرى لنفسه على غيره فضلاً ؛ بل يقف على قدَمِ العبوديَّة ، لأنه هو وأحد القواد عندنا على حدٍّ سواء ، وإن عاد إلى مثلِها لا يلومَنَّ إلا نفسه .

فامتثلوا أمره وأحضروه ، وبالغُوا[1] فى وصيّته ، ثم أدخلوه على صاحب الطابع . فلمّـا رآه بشَّ فى وجهه ، وأمره بالجلوس ، وأجلّ مجلسه ، واعتنى به ، ولم يفاوضْه فى شيء ممـا كان .

ثم إن صاحب الطابعَ كتب إلى مخدومه الباشا ، وأعلمه بمـا وقع من الجلّولى ومنه ، وأن الجلّولى استرضاه بهدية ، وأنه رضيَ عنه ، وأرسلَ الهدية صحبةَ الـكتاب .

فلمـا وصله الـكتاب قرأه ، وأحضر الهديةَ ونظرها ، ثم ردّها إليه ، وكتب له ما صورته : قد بلغنا كتابُك ، وفهمنا ما انطوى عليه ، ووقعتْ منا الهديّةُ أحسنَ موقع ، لـكننا [لمّـا] رأينا كلَّ ما فيها يصلحُ لك لا لنا ، فقد رددناها عليك ، وسامحناك فيهـــا ، لأنك شاب وتحبّ الزينة ، ونحن بمعزل (٢٤) عن ذلك . وأما العشرة آلاف [محبوب] فاصرفْها فى مصالح العسكر . وقد رضينا عن الجلّولى لرضاكَ عنه والسلام .

---

(١) فى الأصل : بالغوه .

ولما كان من الغد دخل الجلّولى على الباشا ، فأعظم مَلقاه ورحّب به ، وأضاف له عملاً على ما بيده من الأعمال ، وصار فى أحسن حال .

فتأمّل ــ رحمك الله ــ فى هــذه القضيّة بعين الاعتبار . أترى أن الجلّولى [لو] لم يبذل هــذا المــال ، أكان يرجع لحاله الأول ؟ لا والله ! بل تؤخــذ من يده الأعمال ، وربما قُتل فى الحال .

وإذ قد انجرَّ الكلام إلى سـيرة المرحوم حمّودة باشا ، ووزيره المرحوم يوسف صاحب الطابَع ، فلنذكُرْ نبذةً من سيرتهما ؛ لأن المقصِد ألاّ تخلوَ رحلتنا عن الفوائِد الجميلة . ولا أجملَ من ذكرِ الملوك العادلين ، الذين حسُنت سيرتهم ، فتنعّمت بهم رعيّتهم . ونبدأ بذكر الباشا فنقول :

هو المولى الأجلّ ، الفاضلُ العادل،الفطنُ الحازم ، أبو محمد حَمُّودة باشا ، بن على باشا، ابن حسين باشا بن على . وُلد ليلةَ السبت الثامنة عشر[ة] من ربيع الثانى سنة ١١٧٣[١]، و بُويع له يوم وفاة أبيه سنة ١١٩١[٢] ، وتوفى ليلة عيد الفطر ١٢٢٩[٣] .

كان من الحزم وحسنِ الرأى والعدل بمكان ، شجاعاً مهاباً ، عفيف النفس ، عالىَ الهمة . أنشأ بستان مَنُّوبَة[٤] المشهور الآن ، الذى أخفى ذكرَ بستان أبى فِهر ، الذى قال فيه أبو عبد الله محمد الوَرْغِى[٥] ، (٢٥) من البسيط :

---

(١) ربيع الثانى سنة ١١٧٣ هـ = ديسمبر سنة ١٧٥٩ م .

(٢) سنة ١١٩١ هـ = ١٧٧٧ م .

(٣) غرة شوال سنة ١٢٢٩ هـ = اكتوبر سنة ١٨١٣ م .

(٤) هذا الضبط عن : Voyage au Darfour p. 411

(٥) هذا الضبط عن : Voyage au Darfour p. 411

وَقِف[1] هنا بأبى فِهْرٍ الجميل فقـد ... مضتْ به دولةُ الشمِّ العـــرانينِ

تَرَى الحنـايا كسطرِ النخل مَدَّ به ... بعضٌ لبعض بحنيِّ العراجـــينِ

أو خُرَّدٍ نهضتْ للرقص فاعتنقت ... كيــلا تجيءَ برقصٍ غير موزونِ

وسوّر على تونس السورَ العظيم ، وحصَّنها بالأبراج والمدافع ، وشحن الأبراجَ بالعسكر ، ورفع التلالَ التى كانت بين تونس والبُحيرة . وقد كانت مثال الجبـالِ العظيمة مانعةً لجودة الهـــواء ، يُخشى على البلد منهـا ، وهى من مـــدة دولة بنى حفْص ، فاجتهد فى نقلها فى مدةِ سبع سنين ، حتى ترك محلَّها مزرعةً عظيمة ، وكشف بذلك غُمَّـةَ أهل تونس .

وأنشأ محلاّ لإنشـاء المدافع العظيمة ، وحصَّن حلقَ الواد بالأبراج والأبنية العجيبة ، بحيث صار لا تدخلُه فلوكة إلا و يُفتح لها بابان ، و بنى قلعة الـكاف .

وأخرج تونس وأعمـالها من ربقة الرقّ من أهل الجزائر إلى الحريّة المطلقة . وكان مظفراً ميموناً لا يعاديه أحد إلا خُذِل ، فلم تقدر له أهل الجزائر على شيء .

ومن سعادته أنه استوزر يوسفَ صـــاحب الطابع المذكور ، وأطلق يدَه فى جميع الأمور ، كما قدَّمْناه . فكان يوسف المذكور جيّدَ الرأى ، حسنَ التدبير ، عاليَ الهمة . محبًّا للعلماء وأهل الفضـــل ، مجبولاً على فعل الخير ، جواداً مهاباً . بنى الجامع المشهور به الآن بسوق الحَلْفَاوِيِّين بتونس ، وبنى (٢٦) بإزائه مدرسةً عظيمة لطلب العلم ، ورتّب فيها وفى الجامع رواتبَ جليلة ، منها :

أنه جعل نظر المدرسة لأوحد أهل زمانه علماً وديانة ، المولى الأجلّ الأديب البارع ،

---

(١) في الأصل : وقف بضم الواو .

سيِّدى الشيخ إبراهيم الرِّياحِى ، شيخِنا وشيخِ المشايخ الآنَ بتونس . وشرطَ عليها قراءةَ درسين فى كل يوم : درسٍ فى الفقه ، ودرسٍ فى التفسير . وزاد الشيخُ من نفسه درساً فى الحديث ، ودرساً فى النحو .

وصرف صاحبُ الطابع على بناية الجامع والمدرسة المذكورَين مالا جزيلاً ، حتى أن جامعَه الآن ،فى الحسن والإتقان ، أعظمُ جامع يوجد بتونس ؛ بل يمكن ألاّ يوجد أتقنُ منه ولا أعجبُ منه ـ وإن كان صغيراً ـ إلاّ فيما لم نشاهدْه . ولقد رأيتُ عدةَ جوامع بالقاهرة ، و بطرابلس الغرب ، والمورة ، والحجاز ، فلم أر أتقنَ منه ، اللهمَّ إلاّ أن يقال : إن الجامع الأُمويَّ بدمشق ، أو جامعَ القَرَوِيّين بفاس ، أو جامعَ أياصوفيا بقسطنطينية ، أعظمُ منه .

وبنى أَمام الجامع سوقًا عظيما للتُّجار ، و بنى فوقه سَرَايَةً عظيمة لجلوسه ، وأنشأ عدةَ مكاتبَ ومواردَ فى جملةِ مواضع .

ولقد رأيتُ أحدَ المواردِ التى أنشأها ، مكتوباً عليها تاريخ[1] لشيخنا العلاّمة الشيخ إبراهيم الرِّياحِى ، وصورتُه ،من مجزوء الرجز :

ذا مَوْرِدٌ جـــادَ به   راجى ثـــوابِ ربِّهِ
(٢٧) يوسفُ خُوجَـةُ الرِّضَى   صاحبُ طـابَعِ البَهِى
فخرُ العــــلا حَمُّودَةُ   باشـا وذا من سَيْبِهِ
يا وارداً أُدْعُ وقـــل :   تاريخُـــــه بِشُرْبِهِ
١٢٠٩

(١) في الأصل : مكتوب عليها تاريخا .

وهو على طريقة أيْقَش[1] ، أى طريقة حساب المغاربة .

قلتُ : وهذا التاريخ ، أعنى : قولَه « بشُرْ به » غير بليغ ، أى : ليس فيه من

---

(١) تقوم طريقة « أيقش » عند المغاربة وطريقة « أبجد » المنتشرة فى سائر البلاد العربية على أساس القيم العددية للحروف العربية فى حساب الجمل المعروف.

وتتكون طريقة أيقش من الكلمات الآتية : أيقش ــ بكر ــ جلس ــ دمت ــ هنث ــ وصخ ــ زعذ ــ حفض ــ طغظ . وقد عرفت الطريقة بهذا الاسم لأن « أيقش » أول كلماتها . أما قيم حروفها العددية فكما يلى :

ا	ى	ق	ش
١	١٠	١٠٠	١٠٠٠
ب	ك	ر	
٢	٢٠	٢٠٠	
ج	ل	س	
٣	٣٠	٣٠٠	
د	م	ت	
٤	٤٠	٤٠٠	
ه	ن	ث	
٥	٥٠	٥٠٠	
و	ص	خ	
٦	٦٠	٦٠٠	
ز	ع	ذ	
٧	٧٠	٧٠٠	
ح	ف	ض	
٨	٨٠	٨٠٠	
ط	غ	ظ	
٩	٩٠	٩٠٠	

وتتكون طريقة «أبجد » من الكلمات التالية : أبجد ــ هوز ــ حطي ــ كلمن

المعنى شيء حسن . وأين هذا من تاريخ الأديب البارع المولى الشيخ محمد شهاب الدين

= سعفص ــ قرشت ــ ثخذ ــ ضظغ . وقيم حروفها العددية كما يلى :

ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ى
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق
	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠
	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

وتتفق الطريقتان من ناحية القيمة العددية لكل حرف ، عدا ما يأتى :

(١) تساوى الشين فى طريقة أيقش ١٠٠٠ وفى طريقة أبجد ٣٠٠

(٢) تساوى الصاد فى طريقة أيقش ٦٠ وفى طريقة أبجد ٩٠

(٣) تساوى السين فى طريقة أيقش ٣٠٠ وفى طريقة أبجد ٦٠

(٤) تساوى الغين فى طريقة أيقش ٩٠ وفى طريقة أبجد ١٠٠٠

وكان كثير من الشعراء وبخاصة فى العصر الحديث ينظمون شعراً يتوخون فيه أن ينتهى بتاريخ يدل على العام الذى وقع فيه ما يريدون تأريخه ، كوفاة أحد العظماء أو كسوة لكعبة بيت الله الحرام ، أو انشاء مورد يستقى منه النــاس أو غير ذلك . ومن هنا سمى هذا النوع من الشـــعر شعر التأريخ . وتكون الكلمات الدالة عليهفى آخر بيت من القصيدة أو المقطوعة فى الغالب ، كمـــا تكون تالية لأحد الألفاظ الدالة على التاريخ ، كأن يقول الشاعر مثلا : « السعد أرخه » أو « والسعد قال مؤرخا » أو « لاغرو أن أرخته » أو «ادع وقل تاريخه» أو غير ذلك .

وفى شعر التأريخ السابق الذى أوله : «ذا مورد جاد به» نجد أن كلمة «بشربه» اذا جمعت قيم حروفها العددية على طريقة « أيقش » كانت كما يلى :

ب ش ر ب ه

٢ + ١٠٠٠ + ٢٠٠ + ٢ + ٥ = ١٢٠٩ هجرية

راجع فيما يختص بطريقة أيقش الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 417.

المصرى ، فى السبيل الذى أنشأه محمود أفندى بالمحروسة ، الكائنِ بين الأزهر والمَقامِ الحُسينى . وصورته ، من البسيط :

يا وارداً سَلْسبيلاً راقَ منْهَلُهُ — اِشْربْ هنيئاً فهذا العَذْبُ[1] موروردُ

وانظرْ إلى حسنِه والسَّعْدُ أَرَّخَهُ — سبيلُه عاطفٌ للخيرِ محمــــودُ

٩٨	٨٧٠	١٦٠	١٠٧
	١٢٣٥		

ومن[2] بعض تواريخ أديب زمانه ، الشيخ على الدرويش ، فى كُسوةِ البيتِ الحرام ، ونصُّه ، من مجزوء الرجز :

يانورَ ناظرِ كِسْــوةٍ[3] — يزهو بهــــا خَزٌّ وبزّ

بُشْرَى خليــــلٍ ناظراً — فلهُ بهــــا سَعْدٌ نجَزْ

والسَّعْدُ قال مؤرّخــــاً — سِترٌ لبيتِ اللهِ عَــزْ

٧٧	٦٦	٤٤٢	٦٦٠
	١٢٤٥		

وأين هذا التاريخُ من تاريخَىَّ اللّذَيْن[4] نظمتُهما للمرحومِ السيد محمد المحروقى ، حين أنشأ الزاويةَ التى تُجاهَ زاويةِ الشيخ العفيفى ، بالقرافةِ الصّغرى ، والموردَ الذى أنشأه ببركَة الرَّطلِى بالمحروسة ونصُّ الأول ، من الكامل :

أُنظرْ لزاويةٍ تــكاملَ حُسنُها — وصبا إليهــا لُبُّ كلِّ مَشُوقِ

---

(١) فى الأصل : العذب ، بضم العين .

(٢) معطوف على : « من تاريخ الأديب » .

(٣) بكاف مكسورة فى الأصل ، وفى القاموس : الكسوة بالضم ويكسر .

(٤) فى الأصل : الذين .

وبدَتْ بإتقانٍ فأعجـز وصفها ذا النطـقِ بالمفهومِ والمنطـوقِ
وقد استضاءتْ بالسّـيادة أرّخوا مُلِئتْ بنورِ السيد المحـروقي

٢٩٥	١٠٥	٢٥٨	٢٨٠

١٢٣٨

ونصُّ الثانى ، من الطويل :

تأمّلْ لِمَا شادتْ يدُ العِزّ والبَها ترَى موردًا باللُّطف والحسن قد زَهَا
وقد شادهُ من نسلِ أكرمِ مُرْسَلٍ هُمامٌ له مجـدٌ على ذِروةِ السُّها
محمـدٌ المحروقِي أنشاهُ راجيـاً ثوابَ إلهٍ حَـدُّهُ مالهُ انتِها
ومُذ تمّ قال السّعدُ للشّربِ[1] أرِّخوا زلالٌ شـفاءٌ جيّدٌ وهْو مُشْتَهَى

٧٥٥	١٧	١٧	٣٨١	٦٨

١٢٣٨

توفِّي المرحوم يوسف خوجة ، صاحب الطابَع ، في شهر صفر سنة ١٢٣٠[2] ، ومات قتيلاً ، وطيفَ بِشِلْوِه[3] يُجَرُّ فى الأسواق ، بعد أن كان البصرُ يَخشَى أن يمتدَّ إليه؛ فسبحانَ المعزِّ المذِلّ .

ورثاه شيخنا العـلاّمة الشيخ إبراهيم الرِّياحى ، بأبياتٍ كُتبت على قبره ، وهى هذه ، من مجزوء الـكامل :

لله قد وجبَ الدّوامْ وسِـواهُ نَهْبٌ للحِمامْ
سِيّانِ فى تنْغيصِـه عالٍ ومنخفِـضُ المَقـامْ
أينَ الملوكُ وأينَ مَن كانتْ لهم تُرْعَى الذِّمامْ

(١) فى الأصل : للشرب بكسر الشين . والشرب بفتحها : القوم يشربون (اللسان).
(٢) صفر سنة ١٢٣٠ هـ = يناير ١٨١٥ م
(٣) الشلو : الجسد .

لم يظفَروا بسوى الذى ... عمِلوه من خيرٍ فدامْ

هـذا الذى بصنيعه ... قد رامه هـذا الهمامْ

مِن فعْل خير عَزَّ أن ... يَغنَى الأَنامُ عن الغَمامْ

وجوامعٍ ومكاتبٍ ... ومواردٍ تَسقِى الأُوامْ(1)

الله يرحمُ يوسفاً ... ختْمَ الكرامِ بلا كلامْ

لا غرْو أن أرَّختُه ... بمماتِهِ يَـتِمَ الكِرامْ

٤٨٨ ٤٥٠ ٢٩٢

١٢٣٠

ولنرجعْ إلى ما نحن بصدَدِه .

ثم إن جدّى خرج من مكةَ المشرفة إلى بندر [جُدَّة] ، أى : مَرسَى جُدَّة ، ومكث ينسَخُ الكتب بالأجرة ، وكان جميلَ الخطّ كما قدَّمنا . فاتفق أنه اجتمع فى تلك المدة بأناس من أهل جزيرة سِنَّار(2) ، وتودَّد إليه بعضُهم ، وارتبطت بينهم صُحْبة ، فسأله : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من تونس . فسأله عن سبب إقامته بجُدَّة ، فأخبره بقصَّته وما جرى عليه . فقال له السنَّارى : ألا تتوجه معنا إلى مدينة سنَّار(3) ويحصلُ لك العزُّ والافتخار ؟ لأن مَكَّنا(4) أى ملِكَنا ـ رجلٌ مبسوطُ اليد ، لا يبالى بلُجَينٍ

---

(1) الأوام : العطش أو حره (القاموس) .

(2) المقصود بجزيرة سنار المناطق المحصورة بين النيلين الأبيض والأزرق وتعرف فى الوقت الحاضر بأرض الجزيرة أو جزيرة النيـل الأزرق . انظر : نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ١ ، ص ٢١ .

(3) مدينة سنار عاصمة مملكة الفونج من سنة ١٥٠٤ م حتى الفتح المصرى للسودان سنة ١٨٢٠ . انظر شقير : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(4) المك فى السودان هو الملك ، وقد يطلق على شيخ القبيلة ، وجمعه مكوك .

(٣٠) ولا مُسجد ، يحبّ الفضلَ وأهلَه ، ويُحلُّ كلاًّ منهم محلَّه ، وينيلُ الأشراف ، بما يقدِر عليه من الإسعاف . وأنا ضامن لك - إن ذهبتَ معنا - أن يجبرَ كسرَك ، ويسُدَّ خلَلَك ؛ وتصبح ذا مال ونوال ، ورقيق وجمال .

فطمع جدّى فى نوال الملكّ المذكور ، وتوجه معهم يأمُل الفرح والسرور . وحين وصل معهم إلى جزيرة سنار ، قابلوا به المَلِكّ ، وأعلموه أنه رجل من أهل العلم ، غريبُ الديار ، قد انكسرت سَفِينَتُه ، وضاع ما كان حِيلتُه[1] . فرحّب به وأعظم ملقاه ، وبشّره باليسر وهنّاه ، وأنزله دار إكرامه ، وأمر له بجزيل إنعامه . فكان فيما أنعم عليه به : جاريةٌ مَكَادِيّة[2] ، بهيّةٌ سنيّة ، غاليةُ القيمة ، تسمّى : حليمة . فتسرّاها جدّى لجمالها ، فجاءت له بغلامٍ وجارية مثالِها . وأجرى عليه رزقاً ، فاستقرّ جدّى بسنّار ، ونسى أهلَه بتونس وأولادَه الصغار .

وكان حين خروجه من تونس ترك ثلاثةَ أولاد مع أمهم ، أكبرُهم عمّى المرحوم السيد محمد ، كان عمره تسعَ سنين ؛ وأوسطُهم المغفورُ له والدى ، وكان عمرُه ستَّ سنين ، وأصغرُهم عمّى المرحوم السيد محمد طاهر ، وعمره ثلاث[3] سنين . هكذا سمعتُ من والدى وجَدّتى - عليها سحائب الرحمة - والعُهدة عليهما .

فانحنى عليهم خالُهم المولى الأجلّ الأكمل الأمثل ، الفقيه المحدِّث ، العالم الفاضل ،

---

(١) « ما كان حيلته » عبارة عامية معناها : ما كان يملكه من مال وغيره . وعلى هذا يسوغ ضم التاء الذى يقتضيه السجع ، كما يحسن تسكين النون فى سفينته، واللام فى حيلته .

(٢) نسبة الى «مكادة» وهم الأحباش النصارى . شقير : تاريخ السودان القـــديم والحديث وجغرافيته ، ج ١ ، ص ٦٤ .

C/f Palmer. R. : Bornu Sahara and Sudan pp. 38, 94, 137.

(٣) فى الأصل : ثلاثة .

السيد أحمد ابن العلامة الرُّحْل[١] (٣١) السَّنَدِ السيد سليمان الأزهرى ، صاحبُ التصانيفِ العديدة ، والتآليفِ المفيدة .

كان السيد أحمــد عالماً فاضلا ثقةً حجّةً فى المنقول . عُرِض عليه منصبُ القضاء بتونس فامتنع منه ؛ وكان مشتغلا بالتدريس ، ووُلِّىَ وظيفةَ التدريس بمدرســة على باشا الأول فلازمها . وأصيب فى آخر أمره بداء أَزْمَنَهُ[٢] ، فـكان يقرأ الدروسَ فى داره ، وتحضره أكابر طلبة العلم والفضلاء . ولم يزل كذلك حتى شبّ والدى و بلغ مبلغ الرجال ، وكان حفِظ القرآن ، وحضر بعضَ دروس فى العلم على خالِه وغيره .

وبينما هو كذلك إذ تحرّك شوقه إلى الحج ، فاستشار خالَه فى السفر ، فتحرك شوقُه هو أيضاً. فتجهزا للسفر معاً ، وركبا البحر من تونس إلى إسكندرية ، ومنها إلى مصر ، ومن مصر توجّها إلى القُصير ، وكان ذلك قبل أشهر الحج .

و بينما هما سائران فى القافلة ، إذ عرضت لهما قافلة قادمة من سنّار ، فناداهما منادٍ : يأيها المغاربة ! هل فيكم أحد من تونس ؟ فقــال أبى : نعم ، نحن منها . فقال : هل تعرفون السيد أحمد بن سليمان ؟ فقــال أبى : نعم ، نعرفه ! ومن أنت ؟ قال : أنا نسيبُ أحمد ، قد خرجتُ من تونس منذ كذا وكذا ، وتركتُ أولادى وأهــلى ، ولا أدرى أهم أحياء أم أموات ؟ وكان خال أبى فى شِبْرِيَّة[٣] مُرخًى عليها ستر . فسمع ذلك كلَّه ، فقال لأبى : ياعمر سلِّمْ على أبيك . فأكبَّ والدى يسلِّم على أبيه ويقبّل يدَه ، وأعلمه أن خالَه (٣٢) فى الشِّبْرِيَّة : فجاء جدى وسلّم على نسيبه .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) أزمنه : سبب له عاهة .

(٣) الشبرية هى المعروفة فى مصر بالتخت روان .

وبعد انقضاء السلام قال أبى لوالده : أيسوغ لك أن تتركنا هذه المدة بدون نفقة ونحن صغار ، ولولا أن الله سخّر لنا خالَنا كنا[1] ضائعين ؟ فقال والدى : ما حيلتى والقضاء والقدر يجريان على وَفق الإرادة العليَّة ، مفرد من الكامل :

إنّ المقــدَّر كائن لا ينمحِى ولكَ الأمانُ مِن الذى ما قُدِّرا

فقال أبى لوالده : ألم يأْنِ لك أن ترجعَ إلى بلدك ، وتقرَّ أعيننا برؤيتك ؟ فقال : يكون ذلك إن شاء الله . قال له والدى : متى ؟ قال : أنا الآن متوجّه إلى القاهرة ، أبيعُ ما معى من الرقيق ، وأرجعُ إلى سنّار ، وآخــذُ متاعى وأولادى ، وآتى[2] إلى القاهرة ، وأنتما تتوجّهان للحج ، وترجعان إلى القاهرة ، فنجتمع هناك ، وكل مَن سبق صاحبَه انتظره هناك . ثم ودّعهما وتوجّه كلٌّ منهم إلى سبيله ، على حــد قول الشاعر ، من الكامل :

لم أستتِمَّ سلامَــهُ لقدُومِه حتى ابتدأْتُ سلامَهُ لوَداعِهِ

فتوجّه والدى وخالُه إلى الحج ، وتوجّه جدّى إلى المحروسة . أما جدى فباع رقيقَه وتسوّق ، ورجع إلى سنار . وأما والدى وخالُه فتوجّها إلى الحجاز ، ومكثا بالطائف حتى جاء وقتُ الحج ، فقدِما مكة وحجّا . وبعد انقضاء الحج تُوفِّى خالُه فى مكة المشرفة ، ودُفن بباب المَعْلَى ، ثم رجع والدى إلى القاهرة فما وجد أباه ، فأقام ينتظرُه مدةً فلم يأتِ . (٣٣)

وكان أبى فى هذه المدة يحضرُ العلوم بالجامع الأزهر ، ولمّا أعياه الانتظار ، توجه إلى سنار ، مع قافلة أتت . فلما وصــل إليه ، وجده قارًّا فى داره ، مغتبطاً بأولاده وعيالِه ، لا يسأل عن غيرهم ، ولا يخطرُ له السفر على بالِه . فسأله عن سبب خُلْف الوعد ، ولِمَ جعل

(١) كذا فى الأصل .
(٢) رسم الكلمة فى الأصل : وااتى .

الهزل مكانَ الجِدّ؟ فاعتذر بعذر ساقط ، لايجدُله لاقط[1] . فقال له : يابُنى ! إن لى ديوناً على بعض الناس ، وقد ماطلونى فى دفعها ، ولا يمكننى الارتحال ، إلّا بعد خلاصها على كل حال ، ليستقيمَ بها أَوَدِى ، و يقوَى فى السفر عضُدى .

فمكث معه نحوَ ستّةِ أشهر ؛ و بعد ذلك تجهّزتْ قافلة إلى الأقطار المصرية ، فسأل أبى والدَه فى أحد أمرين ، بأن قال له : هذه القافلة متوجهة [إلى مصر] ، فإما أن تتوجَّهَ بنا صُحبَتها ، أو تأذنَ لى بالتوجّه معها . فأبى عليه فيها ، وقال : أما الذّهاب فلا سبيل إليه ، لِمَا علىّ فى تونس من الأموال ، لاسيّما وقد أُخبرتُ بأن أمَّك تزوجتْ ؛ وأما الإذن لك فيكونُ ، لكنْ فى قافلةٍ أخرى إن شاء الله تعالى ، حتى أجمعَ لك ما تسافرُ به من الرقيق والجِمال ، والذهب والأحمال ، بحيث إنك لاتعودُ إلّا مجبورَ الخاطر . فأبى والدى المُكْث ، واستطال اللَّبث[2] ، وقال : إنى مشتاق أطلب العلم ، وفى إقامتى هنا ضياعُ زمن بغير فائدة . فاختلف رأيُهما ، وحصَلتْ بينهما وَحشة .

فخرج والدى مُغْضَبا ، وتوجَّه مع القافلة لايملك شيئا ، فألحقه والده بعد ثلاثة (٣٤) أيام بثلاثة جمالٍ ، وأربع جوارى ، وعبدَين ؛ وعلى الجمال أُهبةُ السفر ، من مؤونة وماء ، وعلى أحد الجمال حِمل صَمغ ، فأخذها والدى وسار صحبةَ القافلة .

و بينما هم سائرون ، إذ ضلوا عن الطريق ، وأدركهم العطش ، وطال عليهم الأمد ، فمات الرقيقُ والجِمال ، ورجع إلى مصر فقيراً كما كان . مفرد من الطويل :

إذا أقبلتْ كانتْ تقَــادُ بشَعرةٍ   و إن أدبرتْ كانت تَقُدُّ السَّلاسلا

---

(١) كذا بالأصل ، وقد عدل المؤلف عن نصب لفظ « لاقط » مراعاة للسجع .

(٢) فى الأصل : الليث .

فمن لطف الله عزّ وجلّ [أن] مرض خبير القافلة بصداع أحرمه[١] الهجوع ، وعجز عن شفائه الجموع ؛ و بلغ والدى هذا الخبر ، فكتب رقعةً وأخذها الخبير باعتقاد ، ووضعها محلّ الألم ، فبرئ لوقته ، فاعتقد فى والدى الصلاح ، وأمر أن يُحملَ ، و يُحملَ له عِدْلُ صمغ على إبله .

فوصل والدى إلى القاهرة بعد غَصِّ الريق ، وباع عِدلَ الصمغ بخمسة وسبعين فُنْدُقْلِى[٢] ؛ ودخل الجامع الأزهر لطلب العلم ؛ وتزوج والدتى إذ ذاك ، ومكث معها نحو سنتين ، جاءت منه بولد سمّاه أحمد ، عاش سنةً وثلاثةَ أشهر ، ثم مات ، فحزن عليه وتمثّل بقول الشاعر ، مفرد من الطويل :

لقد خانتْ الأيامُ فيك فقرّبت ... يوم الرّدَى من ليلةِ الميلادِ[٣]

و بقول الآخر ، من الكامل :

عجباً لمولودٍ قَضَى من قبلِ أن ... يقضِى لأيامِ الصِّبا ميقاتَا

(٣٥) فكأنه من نُسْكِه وصلاحه ... وَهَبَ الحياةَ لوالديْهِ وماتا

و بقول التِّهامى فى [رثاء] ولده ، من الكامل :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عُمْرَه ... وكذا تكونُ[٤] كواكبُ الأسحارِ

ثم إن والدى توجّه إلى تونس ، وأخذ أمى وأمّها معه ، وكنت إذ ذاك حَمْلا .

---

(١) كذا بالهمز ، وقد دأب المؤلف على استعمال هذه الصيغة فى غير موضع من الكتاب .

(٢) الفندقلى المستعمل هنا قطعة ذهبية من العملة كانت تتراوح قيمتها بين ثلاثة قروش وأربعة . راجع ما جاء فى هامش صفحة ١٨ من الترجمة الفرنسية التى طبعت عام ١٨٥٠ .

(٣) هذا الشطر من الرجز لامن الطويل .

(٤) فى رواية : وكذاك عمر .

فلما وصل إلى تونس ، نزل بدار أخيه المرحوم السيد محمد ، وكان من مشاهير المعلِّمين بسوق الشَّوَاشِيَّة[1] ، أى : الطرابيشِيَّة[2] . فوُلِدتُ بعد ذلك بخمسة أشهر ، فى الساعة الثالثة من يومِ الجمعة منتصف ذا[3] القعدة سنة ١٢٠٤[4] . ومكثَ بعد ذلك نحو ثلاث سنين ، ثم حصلتْ بينه و بين أخويْه وَحشة ، فقفلَ بنا إلى القاهرة سنة ١٢٠٧[5] ؛ فصار يطلب العلم فى الأزهر ، ويحضرُ[6] درس العلامة المرحوم الشيخ عَرفَة الدسوقى المالكى ، وشيخِ مشايخنا العالمِ الأوحد المرحوم الشيخ محمد الأمير الكبير . وتولّى نقيباً برواق السادة المغاربة ، وكان فى عيش متوسط .

وما زال كذلك إلى أن دخلتْ سنة ١٢١١[7] ، ووَرَد[8] عليه كتاب من أخيه لأبيه من سنَّار مع القافلة ، مضمونُه بعد السلام :

إنَّ والدنا توفِّى إلى عفو الله تعالى ، وترك جملةً من الكتب ، فسرقها منا رجل يسمى بأحمد البَنْزَرْتى ، أمِنّاهُ على بيتنا ؛ لأنه ادَّعى القرابةَ لوالدنا ، و بقِينا فى حالة تسُرُّ العدوّ ، [و] تسىء الصديق . فإذا وصلك (٣٦) كتابى هذا ، عجِّل بالقدوم علينا لتأخذنا معك ، نعيش بما تعيشُ به ، والسلام .

فلما قرأ الكتاب ، بكى واستعبر ، وأخذته الشفقةُ على أخويه ، فتعجَّل وسافر

---

(١) الشواشية جمع شاشية ، أى : طربوش .
(٢) فى الأصل : طرابيشه .
(٣) كذا .
(٤) ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩ م .
(٥) ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ م
(٦) فى الأصل : وتحضر .
(٧) ١٢١١ هـ = ١٧٩٦ م
(٨) فى الأصل : ورد .

إليهما . وكنتُ إذ ذاك ابنَ سبع سنين ، قد ختمت القرآن بدايةً ، ووصلتُ فى العيادة[1] آخرَ آل عِمران ؛ وكان لى أخ عمره أربعُ سنين ، وترك لنا نفقةً تكفينا ستةَ أشهر . فمكثنا سنة ، باعت فيها والدتى أشياءَ كثيرة من نحاسٍ وحُلِىّ .

ثم جاء عمِّى الصغير المسمَّى بالطاهر ، فانحنى علينا يربّينا . وكان قد جاء للحجّ والتجارة ، ومعه ولد كالشمس الضاحية ، فى السماء الصاحية ، اسمه محمد ؛ وكان أسنَّ منى بنحو سنةٍ ونصف ؛ فكان يذهب معى إلى المكتب لقراءةِ القرآن ، حتى سافر به والده إلى الحجّ آخر سنة ١٢١٢[2] .

ثم دخلت الفرانسيسُ القاهرة وملَكوها فى أول سنة ١٢١٣[3] ، وكان عمى إذ ذاك مع الُحجَّاج ، فهرَبَ[4] الغُزّ ، وتمزقوا كلَّ ممزَّق . ودخل الُحجاج ، فوجدوا الفرانسيسَ فى مصر وأعمالها ، ومكثوا كذلك إلى أول سنة ١٢١٦[5] ، [ثم] جاء الوزير [يوسف باشا][6] بالعساكر ، وخرجت الفرنساويين .

وكان ابن عمى المذكور قد حفظ القرآن ، وابتدأ يَحضُر دروسَ العلم ، وكان من الحياءِ والأدب بمكان .

فوقعت فى تلك السنة أمراضٌ وبائية ، وألَمّتْ بابن عمى المذكور ، فأخرجته من القصور إلى القبور ، (٣٧) بل للملاعَبةِ مع الُحور . ولما قُضِى عليه ، حزن عليه والدُه

---

(١) فى الأصل : العبادة . والعيادة هنا حفظ القرآن للمرة الثانية ، وأما حفظه للمرة الأولى فيسمى بداية . يقال ختمت أو حفظت القرآن بداية وعيادة .

(٢) فى الاصل : ١٣١٢ ، و ١٢١٢ هـ = ١٧٩٨ م .

(٣) فى الأصل : ١٣١٣ .

(٤) فى الأصل : فهرت .

(٥) فى الأصل : ١٣١٦ ، و ١٢١٦ هـ = ١٨٠١ م .

(٦) مابين الحاصرتين مأخوذ عن الترجمة الفرنسية . Voyage au Darfour, p. 21

أشدَّ الحزن ، حتى كادَ يهلِك أسفا ، ويدخلُ رمسَه توجُّعا ولَهَفا . ورحم الله القائل ، من الرجز[1] :

النـاس للمــوت كخيل الطرادْ   فالسابقُ الســابق منها الجوادْ

والموت نقّــاد ، على كفِّـه   جواهرٌ ، يختــار منها الجيادْ

وكره المُقام بمصر لخلوها من ولده ، وفِلذة كبده ، وفى ذلك قلتُ ، من الوافر :

إذا رحل الحبيبُ من الديار   كرِهتُ لبُعـدِه تلك الديارَ [١]

فأراد أن يبرِّدَ نارَه ، ويوارىَ أُوارَه ، بحجِّ بيتِ الله الحرام ، ورؤيةِ قبر نبيـه عليه الصلاة والسلام . ولله درُّ من قال ، من الكامل :

نَقِّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى   ما الحبُّ إلا للحبيب الأولِ

وفى هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : « إذ أُصيبَ أحدُكم بمصيبة فليذكرْ مصيبتَه بى ، فإنها أعظمُ المصائب » . [شعر] من الكامل :

اِصبرْ لكل مصيبةٍ وتجــلدِ   واعلم بأن المرءَ غيرُ مخـلَّدِ

وإذا أصِبت بِفَقْــدِ من أحبيته   فاذكر مصابَك بالنبى محمــدِ

فتوجه إلى الحجاز وتركنى بمصر لطلب العلم بالأزهر ، وأبقى لى نفقةً تكفينا أربعة أشهر ، ومكث هو أكثر من ذلك ، فنفِدَت[2] وضاق ذرعى لذلك ـ وأنا إذ ذاك فى شَرخ الشباب ـ فبقيتُ متحيّراً لا أدرى ما أصنع . واستنكفت أن أترك طلب العلم ، وأتعلمَ إحدى (٣٨) الصنايع .

وبينما أنا متحيّر فى طلب المعاش ، وضيِّقُ الصدر لعدم الارتياش ، إذ بلغنى أن

---

(١) فى هامش الأصل : المنسرح .
(٢) فى الأصل : فنفذت .

قافلةً وردت من بلاد السودان ، من دارفور . وكان قبل ذلك بلغنا أن والدى توجَّه من سنار إليها صحبةَ أخيه . فلما استقرت بوكالة الجلاَّبة ، توجهتُ إليها لأسأل عن أبى ، أهو حىّ يُتوقَّع ، أم أُودِعَ اللَّحدَ البَلْقع ؟

فلقيتُ على سبيلِ المصادفة ، رجلاً من أهلِ القافلة مُسِنًّا ، ذا هيبة ووقار ، يسمّى السيد أحمد بدوى . فقبّلتُ يدَه ، ووقفتُ أمامه بُرهة . فسألنى بلطفٍ وقال لى : ماذا تريد ؟ قلت : أسأل عن رجلٍ غائبٍ لى فى بلدِكم ، لعل يعرفه منكم أحدٌ[1] يدُلُّنى عليه . فقال : مَن هو ، وما اسمه ؟ فقلت : اسمه السيد عمر التونسى ، وهو رجلٌ من أهل العلم . فقال : على الخبيرِ به سقطتَ ؛ هو صاحبى وأنا أعرَفُ الناسِ به ، وأرى بك شبهاً له ، فكنْ ابنَه ! فقلت : أنا هو ، على تغيرِ حالى ، وتبَلبُل بالى . فقال : يا بُنى ، ما يُقعِدك عن اللَّحاق بأبيك ، لترى عنده ما يَهنيك ؟ قلت : قِلّةُ ذاتِ يدى ، واعتدادى وعُدَدى . فقال : إن أباكَ من أعظمِ الناس عند السلطان ، وأكرمِهم عليه دون أهل الديوان . وإن أردتَ التوجُّهَ إليه فأنا علىّ مؤونتُك ، ومركوبُك وراحتُك ، حتى تصلَ إليه ، وتقفَ بين يديه . فقلت : أحقٌّ ما تقول ؟ فقال : إى[2] ، وحياةِ الرسول ، لأن أباكَ فعل معى معروفا لا أقدِر على (٣٩) مكافأته فيه ، ولو بذلتُ جميعَ ماتملكه يدى وتحويه . فقلت : أنا أطْوعُ لك من نعلك ، وأتبَعُ لك من ظِلّك .

فعاهدتُه على ذلك ، واستوثقتُ منه هنالك . وجعلتُ أتردَّد عليه ، حتى تأهّب

---

(١) كذا بالأصل وهو كما يبدو أسلوب ركيك ، وذلك بدل ان يقول مثلا : لعل أحدا منكم يعرفه .

(٢) اى ، بمعني : نعم .

[للرحيل] وقال لى : السفَرُ غداً ، فإن شئتَ بِتَّ عندنا لنُصبِح على السفر مبكِّرين .

فقلت : على الرأس والعين .

فبِتُّ عندَه فى ألذِّ عيشٍ وأهناه ، وأحسنِ حالٍ وأصفاه ، إلى أن لاح ابنُ الذكا[1]، والتحف الجوُّ بالضِّيا ، [ف] نهضْنا للمكتوبة[2] فأدَّيناها ، وأبرزنا الُحمولَ[3] وأخرجناها . وجِيءَ حينئذ بالجمال ، وحُمِّلت عليها الأَحمال ، فما ذرَّ قرنُ الغزالة ، إلاّ وقد تمَّ التحميل ، وأخذتْ العِيسُ[4] فى الذَّميل[5] . ولا زالتْ كذلك حتى أنيخَتْ بالفسطاط على شاطئ النيل ، وابتُدِئ فى شحن الفُلْك بها ، حتى تمَّتْ كلها . ثم صبرنا حتى صلينا الجمعة خلفَ الإمام ، ونزلنا الفُلكَ وودَّعنا مصرَ بسلام .

---

(١) كذا بالألف واللام فى الأصل . وفى اللسان : ذكاء اسم الشمس لاتدخلها الألف واللام . ويقال للصبح ابن ذكاء .

(٢) يريد الصلاة .

(٣) الحمول : الهوادج أو الابل عليها الهوادج (القاموس) .

(٤) العيس : الابل البيض مع شقرة يسيرة ، واحدها أعيس وعيساء (اللسان) .

(٥) الذميل : السير اللين .

الباب الثانى

من المقـــدمة

[الرحلة من الفسطاط إلى دارفور]

لما امتطَيْنا الدَّهْماء لهـذا السفر العظيم ، قلنا : « بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا ومُرْسَاهَا إنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »(١) ولما أقلعْنا عن ساحل الفسطاط ، ناويين(٢) البُعد والشَّطاط(٣) ، تذكرتُ متاعبَ الأسفار ، وما يحصلُ فيها من الأخطار ، خصوصاً لمن كان حاله كحالى فى الفقر المُدقِع ، والعُسر المقنِع . وتوَسوس صدرى وانزعج ، وبقيتُ فى مشقَّة وحَرج ، لاسيما وقد وجدتُ نفسى ، مع غير أبناء جنسى ، بل بين (٤٠) أقوامٍ لا أعرف من حديثهم إلاّ القليل ، ولا أرى فيهم وجهاً صبيحاً جميل(٤) . فقلتُ ودمعى بادى(٥) :

لجسمُكَ مـــعْ ثيابِك والمُحَيَّا سوادٌ فى سوادٍ فى ســـوادِ .

وندمتُ على تغريرى بنفسى مع أبناء حام ، وتذكرتُ ما بينهم من العداوة لأبناء سام ،

---

(١) سورة هود ، آية ٤١ .

(٢) كذا فى الأصل ، وهى صيغة عامية . والصواب : ناوين ، بياء واحدة .

(٣) الشطاط والبعد مترادفان .

(٤ ، ٥) عدل المؤلف عن نصب « جميل » مراعاة للسجع ، كما كتب لفظ « بادى » بالياء لتتناسب في السجع مع كلمة : « سواد » في آخر البيت التالى .

فداخلنى من الهلع مالا أقدِر على وصفه ، حتى كدتُ أن أطلبَ الرُّجوع ، إلى الرُّبوع .
ثم أدركتنى ألطافُ الله الخفيَّة ، وتذكرتُ ما مُدحَتْ به الأسفار على ألسنةِ البُلَغاء الأدبية ، خصوصاً ما وردَ فى الأثر ، عن خالقِ البشَر : « سافرْ أحدِثْ لكَ رزقاً جديداً » . وإن أفضلَ الأنام ، سافَر من مكة إلى الشام . وقد قالت العلماء : إن السفَر يُسفِر عن أخلاق الرجال ، وهو المميِّزُ للذكور عن ربّات الحِجال . وقد قيل : إنّ الدرَّ لو لم يُنقلْ من معدنه لَمَا رُصِّعت به التيجان ، ولو لم يَسِرْ البدرُ لكان فى غاية النقصان .
قال الشاعر ، من الكامل :

سافِر تنلْ رتبَ المكارم والعُلا ... فالدُّرُّ سارَ فصار فى التيجانِ
والبدرُ لولا سَيرُه فى أُفْقِه ... ما كان إلا زائدَ النقصانِ

وقال الآخر ، من الطويل :

تغرَّبْ[1] عن الأوطان فى طلب العُلا ... وسافرْ ففى الأسفار خمسُ فوائدِ
تفرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ
(٤١) وإن قيلَ فى الأسفار ذلٌّ وغربةٌ ... وتشتيتُ شملٍ وارتكابُ شدائدِ
فموتُ الفتى خيرٌ له من حياته ... بأرضِ هوانٍ بين واشٍ وحاسدِ

ولله دَرّ الطُّغرائى حيث يقول ، من البسيط :

إنّ العُلا حدثتنى — وهْى صادقةٌ ... فيما تحدِّثُ — أن العِزَّ فى النُّقَلِ
لو كانَ فى شرفِ المأوى بلوغُ منًى ... لم تبرَحْ الشمسُ يوما دارةَ الحَمَلِ

على أنى لو كنتُ أقمت بالقاهرة فى هذا الحال ، ما كنت أرى فيها إلّا الوبال ،
وحينئذٍ تمثلتُ بقولِ الطُّغرائى المفضال ، حيث قال ، من البسيط :

---

(١) فى الأصل : تعرب .

فيمَ الإقامـــةُ بالزَّوْراء لا سَـكنى فيها ولا ناقتى فيها ولا جَمـــلى

و يقول الآخر ، من البسيط :

اِرحلْ بنفسك من أرضٍ تُهانُ بها ولا تـكنْ من فراقِ الأهلِ فى حُرَقِ

ألم ترَ التبرَ تُرْباً فى معـــادنِه وفى التغرُّبِ محمُولاً على العُنُقِ

فوطَّنت نفسى على الأسفار ، ولو كنتُ أُكْوى بالنار .

وكنا قد أقلعنا بريحٍ طيبٍ ظَلَّ معَنا يومَه ، وسفينتُنا تميسُ به عُجْباً ، وتمايلُ بحسنه طَربا ، وقد ملأ شراعَها ، وأطالَ فى المسيرِ باعَها .

وعلى ذكر السفينةِ ووصفِ سيرِها ، تذكَّرتُ لُغزى ، الذى كنتُ سألتُ فيه العلاّمةَ الشيخ مصطفى كسّاب ، شيخَ مدرســة الطبِّ البَيطَارى ، التى أنشأها صاحبُ السعادة بإزاء مدرسة الطبِّ البَشرى ، (٤٢) بأبى زَعبَل ، وهو هذا ، من الطويل :

أمولاىَ يا كسابُ للعـــلم والتُّقى ويا بحرَ عرفانٍ لدَى الناسِ يعذُبُ

ســألتُكَ عن شىء ثلاثىِّ أحرفٍ به كَلِفٌ قلب الشقىّ[1] معـذَّبُ

لقد جاء فى التنزيل والأمر واضح ومثلُـكمُ يتـــلُوه دَومًا ويكتُبُ

وأيضــاً لهُ إسمٌ خماسىٌّ قد أتى مُؤنثَ لفـــظٍ للبرية يُعجِبُ

يهيمُ به المُضْنَى وتجـــرى دموعُه ومادَّتَه[2] يُشتقُّ منها المهـــذَّبُ

كذاك له إسمٌ شهير لدى الورَى رباعِى حروفٍ وهْو منهـا مركبُ

مسمَّى الذى قد قلتُ ، يا حَبر، واحد وأنت لبيب ليس ذا عنك يُحجَبُ

مَطِيَّةُ عَزْمى الآنَ دهماء قد أتت إليكَ ، فريدَ العَصر ، واحَلَّ أطلُبُ

---

(١) في الأصل : السقي • (٢) كذا ، وتقرأ الكلمة بغير مد ليستقيم الوزن •

وأوصافُ ما قد قلتُ أضحتْ شهيرةً ... بجاريةٍ حسناءَ للُّبِّ تسلبُ

تميسُ متى تُكْسَى ويكثُرُ سعيُها ... وإن جُرِّدَتْ للسعي تخشَى وتَرْهَبُ

وتحمِلُ ما يَعسُرُ على الناسِ حَملُهُ ... ومحمولةٌ يا قوم منها تعجَّبُ

وفى سعيها تمشى على حُرِّ ظهرِها ... وأرجلَها للبطشِ قد تتجنَّبُ

تطيعُ الهوَى تخشَى اشتدادَ عصوفِهِ ... ولكنْ به تزهُو وتَلْهو وتلعبُ

وحسبكَ توضيحى فهاتِ جوابَه ... فلا زلتَ ، يا مفضالُ ، للحَل تُطلَبُ

فأجابَ[1] ــ حفظه الله ــ بما نصُّه ، من الطويل :

أيا عالماً بالعلمِ منه وبالنُّهى ... وبالفضلِ عند العالمين محبَّبُ

(٤٣) ومَن حِذْقُه قد شاعَ شرقاً ومغرباً ... ومَن هو بالشِّعرِ المُهَذّبِ يُغْرِبُ

ولِمْ لاَ ، وقد حازَ القريضَ[2] بأسرِه ... وطاوعَه ما قد يضِلُّ ويعزُبُ

وأنَّى لقُسٍّ وامرئِ القيسِ مِثله ... كلامٌ يثير العاشقين ويُطرِبُ

أتيتَ بشعرٍ كالنسيم لطافةً ... فمَن يدَّعيه فهْو لا شكَّ كاذبُ

وألغزتَ فى اسمٍ عَمَّ فى البحر نفعُه ... ويحملُ أثقالاً تُكِلُّ وتُتعِبُ

ونُوحٌ تولاَّه وأبدع صنعَهُ ... ونُجِّى من الطوفان والموجُ لاعبُ

وقال : اركبوا فيها فبالله مجراها ... كذلك مُرسَاها فلا تترسَّبُ

وقد حُلَّ لغزُ التونسىِّ محمدٍ ... إمام له العَلياءُ تُنْمَى وتُنسَبُ

فلا زال يبدِى مِن نتائج فكرِه ... نفائِسَ دُرٍّ تَنْبُ[3] عنها المطالبُ

---

(١) فى الأصل : فاحاب .

(٢) فى الأصل : جاز الفريض .

(٣) كذا ، بدل : تنبو . وقد حذفت الواو مراعاة لوزن الشعر .

وقد ألغزتُ فى لفظِ « بحر » فقلت ، من الطويل :

ألا قُل لتحريرِ العلومِ ومن غدا ... له اللغزُ طوعًا قد يزولُ نقابُهُ

فَدَيتُكَ ما اسمٌ من ثلاثةِ أحرفٍ ... مُسمّاه يسطُو بالأنام عُبابُهُ

وفى قلبه معنى اتساعٍ لمن أتى ... وإن شئت فعلاً ماضيًا لا تهابُهُ

وأولُ حرفٍ منه إن كنتَ حاذقًا ... فسمٌّ بضدِ البردِ وهو انقلابُهُ

بتشويشِهِ تبدو معانٍ ثلاثةٌ ... تأملْ لها فهو العجيبُ عجابُهُ

إمامُ علوم ، والمدادُ ، وثالث الـ ... ـمعانى[1] أمرٌ لا يَسُرُّ مُصابُهُ[2]

وإنْ تحذفْ الثانِي فضدٌ لِإسمِهِ ... يصيرُ ، فلا يعسُرْ عليك جوابُهُ

(٤٤) وقلت ملغزاً فى « مصباح » ، من الطويل :

ألا قلْ لمن حاز البلاغةَ والفهما ... وأعطاهُ ربُّ العرشِ بينَ الورى علما

فِداكَ أبى ، ما اسمٌ خماسىٌّ أحرفٍ ... به النفعُ ، يا حَبرَ البريّة ، قد عمّا

صغيرٌ كأُنمُلَةٍ إذا قستَ جسمَه ... ويملأُ بيتاً وهو فى حجمه جَزْمَا

إذا ما نسيمٌ هبّ مال صبابةً ... ومهما تقوّى مات من وجدِه حتما

فريدٌ بأوصافٍ حسانٍ سما بها ... وأحسنُها إرشادُ شخصٍ له أمّا[3]

ويمرَض مهما طالَ ، يا صاحِ ، أنفُه ... وإن قُطِعتْ يصحُو ولا يذكر الغَمّا

ويزهُو متى حلّ البهيمُ ، وإن رأى الـ ... ـغزالة ذرّت نالَ من ضعفِه وَصْمَا

ومِن إسمِهِ حرفان شىءٌ محبّب ... إذا كان من حُلو المراشِف ، أى : ألْمَى

وباقيهِ فعلٌ ماضٍ كن متفطّنا ... وفاعلُه فى الناس يستوجبُ الذَّمّا

(١) كذا ، ويقتضى الوزن تشديد الياء .

(٢) فى الأصل : مصبابه .

(٣) أم : قصد .

وأول حرفٍ منه فاحذف ، ترى الذى تبقّى رديفاً للغـداةِ فـكن شهما

وحسبى لقد أوضحتُ . هاتِ جوابَه وقد جاء فى التنزيل فانظره قد تمَّا

وقلت ملغزاً فى « السماء » ، من البسيط :

يا من رَقِى لسماء العلم والحِـكَمِ وفضلُه قد غدا ينهـلُّ كالدِّيَمِ

بيِّنْ لنا ما اسمُ شىء راق منظرُه وحسنُه قد بدا للعُرْب والعَجَـمِ

لـكنه ذو ارتفاع لا يَحُـلُّ[1] به إلاّ[2] الذين حُبُوا من بارِىء النسمِ

منه المصابيحُ تبـدو وهى زاهية بها الهداية فى داجٍ لنـا بَهِمِ

(٤٥) وحسنُه البـاهرُ الزاهى نَقَرُّ بهِ لأنه جاء فى التنزيلِ ذى الحِـكَمِ

مركب من حروفٍ أربع رُسمت فى النظم ، كن فاهما للنظم والـكلمِ

قد تم ، أرجو جواباً شافيا حسَنا لا زلتَ ، يا حَبْرُ ، فى عالٍ من الهممِ

وقد تذكرتُ بهذه الألغاز ما ألغز[3] به خاتمةُ المحققين الإمام ابن حَجَر الشافعى ــ رحمه الله ــ فى لفظة « مُدام » ونصُّه ، من الوافر[4] :

وما شىء حَشـاهُ فيه داء وأولُه وآخـرُهُ سَـواء

إذا ما زال آخِـرُه فجمع[5] يكونُ الحـدُّ فيه كذا المَضاء[6]

وإن أهمَلتَ أوله ففعـلٌ له بالرفـع والنصـب اعتناء

---

(١) فى الأصل : لايحل ، بضم الياء وكسر الحاء وتشديد اللام .

(٢) كتبت كلمة « الا » فى الأصل فى آخر الشطر الأول .

(٣) فى الأصل : ما للغز . (٤) فى هامش الأصل : الهزج .

(٥) فى الأصل : بجمع . (٦) فى الأصل : المعناء .

ولنُمسكْ عِنان القلم عن جريه فى هـذا المَيدان ، إذ لو تتبَّعتُ ما قلته من الأُشعار والألغاز ، لطال الحال ، وجلَب المَلال . ونرجعُ إلى ما نحن بصدده فنقول :

وعند المساء سكن الهوا[1] و بطَـل هبو بُه ، وفُقِد شماله وجَنو بُه ، وقد جئنا مقابلَ المِنْية ، وكان فيها جماعة من الغُزِّ ، الذين ابتزَّ الله منهم حُلَّةَ العزّ ، فأخذونا بالقوة والقهر ، وأمالوا سفينتَنا إلى جانب البرّ ، وكان معسكرهم مخيَّمًا فى عرض البلد على النيل . وكانوا مقيمين هناك لنهب السُّفَّار المارِّين . فغرَّموا صاحبَنا جملةً من المـال ، وبعد الخلاص أقلعْنا عنهم فى الحال .

وفى اليوم الثالث حللَنا مَنْفَلوط ، فأخذنا منها ما احتجنا إليه[2] ، ثم أقلعنا حتى دخلنا (٤٦) بنى عَدِىّ ، فأقمنا فيها ريثما تأهبتْ القافلة ، وخرزُوا أسقيتَهم ، وصنعوا زادَهم .

ثمَّ جىء بالمطِىِّ فحُمِّلت أحمالَها ، وضربنا مَهْمَهًا[3] قفْرًا ، حتى وصلنا إلى الخارجة فى عشية اليوم الخامس ، فوجدناها قد دار بها النخيلُ دورةَ الخلخالِ بالساق ، أو التفافَ يدَىْ العاشق على معاطفِ المعشوق للعناق . وفيها من التَّمر ما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ به الأعين ، مع رُخْص الأسعار ، وحسن تلك الثمار[4] ، فأقمنا بها مدةَ خمسةِ أيام .

وفى صبيحة اليوم السادس ارتحلنا ، وسرنا نحو يومين ، وفى الثالث حللنا بلدةً

---

(١) فى الأصل : الهوى

(٢) فى الأصل : ما احتاجنا .

(٣) المهمه : المفازة القاحلة البعيدة (القاموس) .

(٤) فى الأصل : التمار .

يقال لها : أبيريس[1] ، وهى بلدٌ قد استولى عليها الخراب من ظلم الحُكام ، وتمزّق شملُ أهلها بعد الانتظام ، ففسَد ما به من النخيل ، وذهب رونقُه بعد أن كان جميل[2] . فأقمنا بها يومين ، حتى أفاقت دوابُّنا ، وزال عنها العَنا .

ثم سافرنا يومين ، ونزلنا فى ثالثهما بلداً يقال لها : بولاق[3] ، وهى[4] من الساكن فى إملاق ، قد دُرِستْ معالم أكثرِها ، وتصدَّع بناء أقْوَمِها وأشهرها . ومن العجائب أن نخلها فى غاية القِصَر ، وهو حامل للتَّمر ، لا يتكلَّف جانيه القيام ، بل يتناول منه ولو فى هيئة النِّيام ؛ فتذكرتُ باسمها بولاقَ مصر المحميّة ، حرسَها اللهُ من كل آفةٍ وبليَّة ، فانهملتْ دموعى ، وهاج وجدى ووُلوعى ، فأنشدت أقول شعراً ، (٤٧) من الطويل :

تذكرتُ بولاقاً ومصر وأهلَهـــا
وأذكَرَنى هذى التى تُدعَى[5] بولاقا

فبالله يا عينى اسعفينى بأدمـعٍ[6]
عسى يبردُ القلبُ الذى زاد إحراقا

---

(١) ورد اسم هذه البلدة فى Browne, W.G. : Travels in Africa, Egypt and Syria, p. 186. بدون ألف بيريس (Beirîs)
(٢) كذا بالأصل : وقد عدل المؤلف ـ كما هو ظاهر ـ عن نصب خبر كان مراعاة للسجع .
(٣) يقول المؤلف انه مر بالخارجة ثم أبيريس ثم بولاق ، على حين يقول براون الذى سلك نفس الطريق (درب الأربعين) سنة ١٧٩٣ م انه مر بالخارجة ثم بولاق ثم بيريس . Browne W. G. op. cit. p. 186
انظر كذلك : شو Shaw فى مقال له عن درب الأربعين .
راجع : S.N.R. Vol. XII. Part I, PP. 63-71.
(٤) فى الأصل : وهو
(٥) تقرأ هذه الكلمة بحذف حرف العلة مراعاة للوزن .
(٦) فى الأصل : يادمع .

ثم سافرنا مجدّين من غير لبس ، حتى نزلنا عشيّةَ النهار على بلد يسمّى: المَقْس [١] .

مفرد من الرجز :

وبلدةٍ ليس بهـــا أنيــسُ
إلا اليعـــافيرُ [٢] وإلا العِيسُ

قيل إن هـذا البلد ، كان أعمَرَ من كل بلد ، فأخنى عليه الذى أخنى على لُبَد ، وتمزّق شملُ أهله ، ولم يبق به أحد . وليس به من الأشجار إلا ما قلّ ، وهو بعضُ أثْل وعَبَل . فأقمنا فيها يومين وملأنا القِرَبَ وارتحلنا ، والمفازة الحقيقية دخلنا . فمكثنا خمسة أيامٍ فى مَهْمهٍ قَفْرا [٣] ، وبَيْدَاء غَبْرَا ، لَيس فيها من الحشائش إلا عاقُول قليل ، كما لا يوجد بها شجرٌ يصلُح للمقيل . وكان يُطبخ لنا فى تلك المـدة بما تلتقطه الخدمُ من بَعْر الإبل الجاف ، لقلة الوَقيد [٤] الذى يحصل به الإسعاف .

وفى عشية اليوم الخامس ، وردنا محلاًّ يقال له: الشَّبّ [٥] ، وهو محلٌّ بين غُرودٍ [٦] من

---

(١) ورد هذا الاسم فى : (Browne : op. cit. p. 186) بالغين بدل القاف « Mughess » وهذا هو النطق الشائع للقاف فى اللهجة السودانية

(٢) اليعافير جمع يعفور وهو ظبى بلون التراب (القاموس) .

(٣) كذا بالأصل وقد يكون المؤلف عدل هنا عن جر اللفظ ليتناسب مع « غبرا » .

(٤) فى الأصل : الوقد . والتصحيح عن القاموس ، ففيه : الوقود كصبور الحطب كالوقاد بكسر الواو والوقيد .

(٥) ذكر لها اسم آخر فى هامش الترجمة الفرنسية هو «عين شب» Voyage, p. 30. وفى براون أنها تشتهر بانتاج حجر الشب ، ويسكنها جماعة من العبـــابدة هاجروا اليها من جهة النيل . Browne, op. cit. p. 186.

(٦) غرود جمع غرد ، بفتح الغين ، وهو — كما فى القاموس — الخص بضم الخاء

الرمل عليه ريحُ الوحشة قد هبّ ، فأرحنا فيه يومين وارتحلنا ، وللمفازة الثانية دخلنا ، فقطعناها عَنَقاً وذَميلاً فى مدة أربعة أيام ، نزلنا فى ضُحَى خامسها ببئر يقال له : سَليمة [1] ؛ و بهذا البئر رسومُ أبنية قديمةٍ ، وهو فى عرض جبل يسمى بهذا الاسم أيضاً ، (٤٨) فمكثنا فيه يومين ، حتى قضينا منه غرضاً . ومن خواصِّ[2] هذا المحل ، أن الحالَّ به يستأنس به ، ولا يستوحش منه .

ومن العجائب أن الشبّان من أهـــل القافلة يصعَدُون على الجبل الذى هناك ، و يضربون الحجارةَ بعصِىّ صغار كما يضربون الطبول ، فيُسمعُ لها صوتٌ كالطبل ، ولا يعرفُ سببُ ذلك ، أهو تجاويف فى الحجر ، أو هى موضوعة على خلُوٍّ ؟ فسبحان من يعلم حقيقة ذلك . وأخبرنى أهلُ القافلة أن فى بعض الليالى – وأظنهم قالوا فى ليلة كل جمعة – يُسمعُ من الجبل أصواتُ طبول ، وكأنه عُرْس ، ولا يعرفون حقيقته .

ثم ارتحلنا صبيحة اليوم الثالث بعد مَلء أدوات الماء ودخلنا مفازة ، سافرنا فيها خمسة أيام ، وصلنا فى ضحى سادسها إلى محل يقال له : لَقِيَّة[3] . فوجدنا هناك آباراً محاطةً بالرمل ، وماؤها عذب زلال . وقبل وصولنا لهذا المحلّ عَرضتْ لنا قافلةٌ صادرةٌ من بئر

---

(١) تقع هذه البئر فى واحة سليمة القريبة من قرية عكاشة عند خط عرض ٢١:٣٢ وخط طول ١٩ : ٢٩ . وكانت هذه الواحة فى الزمن القديم تحت حـــكم أميرة اسمها سليمة . واشتهرت فى الأساطير بكثرة اغاراتها على جيرانهـــا فى بلاد النوبة . Browne, op. cit. pp. 186-187.

(٢) فى الأصل : خواض .

(٣) ورد اسم « لقية » فى براون بهذا الرسم : " Leghea " Browne, op. cit. p. 187. وفى مقال شو عن درب الأربعين " Lagia " وهى على مسافة ١٤٠ ميلا جنوب غربى سليمة . S.N.R. XII. Part I, p. 68.

النّطرون[1] المسمى بالزّغاوى ، وأهلُها من عرب يقال لهم : العمايم ، فقابلونا بالسلام ، ثم انصرفوا عنا بسلام .

فمكثنا فى لَقِيَّة يومين ، وفى صبحية اليوم الثالث ارتحلنا للزّغاوى قاصدين ، وإذْ بهجّان أقبل من ناحية دارفور يخبر بوفاة المرحوم الملك العادل المجيد ، السلطانِ عبد الرحمن الرشيد ، ملكِ دارفور وما والاها ، وسلطانِ أقصاها وأدناها ؛ وأنه ذاهب إلى مصر لتجديد الخاتم (٤٩) الذى تختم به الأوامر السلطانية ، لعدم من يتقنه هناك ، لابنه السلطان محمد فضل ، وذلك لليالٍ مضت من رجب الفرد سنة ١٢١٨[2] . فحزن أهلُ القافلةِ على موت سلطانهم ، وخافوا من وقوع الفتن فى أوطانهم ، لأنه كان سلطاناً عادلاً كريماً ، محبًّا للعلم وذويه ، مبغضاً للجهلِ ومن يليه . وسنتكلم على عدله وأحكامه فيما يأتى بأبسط عبارة إن شاء الله تعالى .

ثم سافرنا من هناك[3] ، خمسة أيام ، أنخنا فى سادسها ببئر الزّغاوى ، وهو بئر النّطرون ، و بينه و بين دارفور مسيرةُ عشرة أيام كاملة . فأقمنا به أحدَ عشر[4] يوماً ، نُصْلح شؤوننا ونرتاحُ ، وترعى دوابّنا[5] ، لتقوَى على قطع هذه المفازة الدّهماء . ونُحِرَتْ فى إقامتنا تلكَ عِدة جُزُر ، وفُرِّق لحمُها على أهل القافلة . واجتمعنا هناك بأعراب البادية من دارفور ،

---

(١) بئر النطرون : يذكر براون أن اسمه بئر الملحة وعلى مسافة قريبة منه يستخرج النطرون الذى يأخذه التجار الى مصر حيث يبيعون الكمية القليلة منه بثمن مرتفع . Browne. W.G. op. cit. p. 187.

(٢) رجب سنة ١٢١٨ هـ = نوفمبر ١٨٠٣ م .

(٣) فى الأصل : ثم سافرنا من هناك ثم سافرنا خمسة أيام .

(٤) فى الأصل : احدى عشر .

(٥) فى الأصل : دوبنا .

وأَتَوْنا بلبن الإبل وسمنها ، فاشترينا منهم ما احتجنا إليه . وكانوا أَتَوْا لهذا البئر ليأخذوا[1] منه مِلْحاً ونَطروناً لدارفور ، لأن النَّطرونَ وأكثرَ الملح لا يُجلبُ لها إلا من هناك .

وكنا قبل حلولنا بالزَّغاوى ، أرسَلَتْ أهلُ قافلتنا هجَّاناً لدارفور بأوراق إلى الدولة وإلى أهاليهم ، تُعلِمُهم بالمجىء وأنهم قد قفلوا ســالمين . وكنت قد كتبت معهم كتاباً لوالدى ونصَّه :

إلى حضرة والدى ، وأعزّ الناس عندى ، (٥٠) السيد عمر التونسى أبقاه الله آمين .

بعد تَقبيل أياديه الشريفة ، إني قد أتيت مع قافلة الخبير[2] فرج الله ، صحبةَ السيد أحمد بدوى صاحبِكم وحبيبكم ، وفعل معنا من المعروف من أجلِ خاطرِكم ، ما لا نقدر على وصفه لسعادتكم ، والسلام .

كاتبه

ولدكم محمد عمر ابن سليمان

فأخذها الهجَّان وارتحل من وقته . ولم أر فى أسفارى التى سافرتها أهونَ منها ، لأنى كنتُ فيها فى غاية الراحة : وذلك أنه[3] حالَ خروجنا من بنى عَدِىّ ، أمر الســيدُ أحمد

---

(١) فى الأصل : ليأخذون .

(٢) الخبير : لقب يطلق على قائد القافلة فى الصحراء ، ومعناه العــالم بالطريق ، وفى دارفور يبقى متمتعا بهذا اللقب كل جلابى (أى تاجر) رافق — ولو مرة واحدة — القافلة التى تسير سنويا من شمال بلاد دارفور مخترقة الصــحراء ومارة بدرب الأربعين ، وهو الطريق المعروف الذى يبدأ من شمال البلاد وينتهى فى أسيوط . ومثل هذا القائد أو الدليل تعينه الحكومة كل مرة عندما تقوم الرحلة . ولكن اللقب يظل صاحبه يحتفظ به . هذا ومن الواجب ملاحظة أن هذا الخبير غير الخبير الذى يطلق على رئيس الجلابة فى الاقليم .

Nachtigal, Gustav: Sahara und Sudan, Teil III, S. 333.

(٣) فى الأصل : ان .

بدوى عبيدَه أن يضعوا الخيمة على أهْدَا[1] جمل ، وأن يُوَطِّئوها للركوب تَوطِئةً حسنة ، ففعلوا . وأخذ بيدى إلى أن سـلّمنى خِطامَ الجمل ، وأمر أن يأتوا بزمزمية ملآنةٍ ماءً ، فجيئَتْ وعُلِّقت على الجمل ، وقال : هذا جملُك تركبه مهما أردت ، وتنزلُ عنه مهما أردت ، وهذه الزمزميةُ تشربُ منها كلّما احتجتَ إلى الشرب ، وكلّما فرغتْ مُرْ أحد العبيد يملأها[2] لك . وأمر جميع العبيد والخَدَمةِ بطاعتى فى ذلك .

وكان معه من العبيد الكبارِ سبعة ، وعبد صغير ، وثمانيةٌ من الخدمـة ، ومعه من الجمال ثمانية وستون جملاً ، قد أعدَّ منها ثمانيةً للمـاء ، وأربعةً للزاد . وفى وقت الدخول إلى المفازة كان يعلّق عَلَى كل جمل قربتين . وكان معه من السَّرارِى (٥١) خمسةٌ ، وسادستُها ابنةُ عمِّه السيدةُ جَمال ، وكانت من أجمل نساء [عصرها] ، وكان معه حصان دُنقلاوى أسود ، لا يُقوَّم بمـال لحسنه ، وعليه سرجٌ غِشاؤه قطيفةٌ خضراء ، يقودُه عبدٌ خاص به .

وكان السيد أحمد يلاطفُنى ملاطفة الوالد لولده . فكنتُ إذا نزلتْ القافلة ، ربمـا نمتُ من تَعَبِ الرُّكوب ، وهزِّ الجمل ، وحرِّ الشمس ، فكان يُدَثّرنى ، وإذا جىء بالعَشاء يوقظُنى بلطفٍ ، و يطلب ماءً و يغسلُ وجهى و يدىَّ ، و يأمرنى بالمضمضة لأُفيق من النوم ، و يأخذ يدى و يضعُها فى الإناء ، وربمـا أخذ الطعام ووضعه فى فىَّ ؛ ولم يزلْ هذا دأبَه[3] معى حتى وصلنا بالسلامة .

ثم ارتحلنا من بئر الزّغاوِى ، [و] سـافرنا عشرة أيام سفر الجِدِّ ، نأخذ من أول

---

(١) كتب اللفظ فى الأصل : أهدى .

(٢) فى الأصل : يملاوها .

(٣) في الأصل : دابه .

الليل قطعة ، ومن آخره دَلْجَة[1] ، حتى وصلنا ضحى حادى عشرِها إلى المَزْرُوب[2] ، وهو بئر فى أول أعمال دارفور ، وقبله بنحو ثلاثِ ساعات أو أربع ، جاءتنا أعرابٌ بِقِرَبٍ من المـاء واللّبن ، فاستبشرنا بالسلامة ، ثم نزلنا البئر المذكور فأقمنا فيه يومَنا ، وفى صبيحته ارتحلْنا نحو أربع ساعات ووردنا بئراً يقال له : السُّوَيْنَة[3] ، وهناك قابلَنا قائدُ الولاية وحاكمُها ، وكان يسمَّى الملك[4] محمد سَنْجَق ، وهو قائد الزَّغاوة[5] ، وهى قبيـلة عظيمة من السودان ـ وأهل السودان يسمُّون القائد ملكا ـ ومعه جيش كثيف أظنه نحو خمسمائة فارس ؛ (٥٢) فسلَّمَ عَلَى أهل القافلة ، وهنأهم بالسلامة .

فأقمنا فى هذا المحلِّ يومين ، ثم ارتحلنا وتفرَّقت الناس ، فكل أناس أخذوا طريقَ

---

(١) فى القاموس أن الدلجة السير من أول الليل ، وقد جعلها المؤلف السير من آخره.

(٢) لعل « المزروب » من مجموعة الآبار التى أشار اليها براون أثناء رحـــلته الى دارفور ، وقال انه أول بئر فى حدود دارفور ، ويقع فى وادى مسروق المعروف الآن بوادى زروق الواقع عند خط عرض ١٥ وخط طول ٢٥ ـ

Cf. Browne, op. cit. p. 189, S.N.R. XII Part I, p. 70.

(٣) بئر السوينة : بالقرب من بلدة " Sweini " حيث يقيم حاكم من قبل سلطان دارفور وهناك يتحتم على جميع الأجانب وتجار دارفور القـادمين بالقوافل أن يبقوا مدة حتى يخطر السلطان بمقدمهم ، ثم يدفعوا الضرائب المفروضـة على بضائعهم • Browne, W.G. op. cit. pp. 189-190

(٤) دأب المؤلف على أن يطلق لقب « ملك » فى ثنايا كتابه على كل حاكم فى سلطنة دارفور من شيخ القبيلة فصاعدا حتى السلطان ، وهو لفظ استعاره الفور من القبائل العربية التى هاجرت الى دارفور • •

(٥) الزغاوة : خليط من الزنوج والتبو والليبيين • ويبدو مما ورد فى كتب المؤلفين العرب مثل المسعودى وابن سعيد والادريس وابن خلدون ، أن أوطان الزغاوة كانت تمتد غربا الى اقليم النيجر • غير أنهم يعيشون فى الوقت الحاضر شمال غرب دارفور • ولهم شعبة تسكن اقليم كامجار "Kamgar" فى كردفان • ويتكلم معظم الزغاوة اللغة العربية الى جانب لغتهم الأصلية وهى لغة التبو •

MacMichael, H. A. op. cit. p. 54.

بلادهم ، لأن أهلَ القافلة كلَّهم ليسوا من بلدة واحدة ، فأكثرهم من بلدهم المشهور المسمى كوبيه[1] ، وبعضهم من كَبْكابيَّة[2] وبعضهم كالسيد أحمد بدوى صاحبى من سَرَف الدجاج[3] وبعضهم من الشَّعيرِيَّة[4] ، وبعضهم من جديد كَرْيو[5] ، وبعضهم من من جديد السَّيْل[6] .

---

(١) كوبيه : من أكبر مدن دارفور وقتذاك . تقع عند خط عرض ١١ : ١٤ وخط طول ٠٥ : ٢٨ وهى مركز تجارى هام عند ملتقى عدة طرق فى شمال دارفور . طولها حوالى ميلين من الشمال الى الجنوب ، ولكنها ليست عريضة ، وهى محاطة من جميع الجهات بحلات عديدة تعتمد فى حياتها على ما يجلب من كوبيه . ومعظم سكان كوبيه من الأجانب أو التجار . Browne, W. G. op. cit. pp. 234-5. ولقد اندثرت معالم كوبيه فى الوقت الحاضر ولم يبق سوى الوادى الذى يحمل اسمها وهو وادى كوبيه : راجع خريطة الفاشر نشر مصلحة المساحة السودانية .

(٢) كبكابية : مدينة هامة آهلة بالسكان على بعد ٩٢ ميلا غربى الفاشر . وكبكابية المنفذ الرئيسى للطرق المؤدية الى الأقاليم الغربية ومحطة لمنتجات هذه الأقاليم . Ibid. op. cit. pp. 237-8 ويذكر Lampen أن سلطان وادای أغار على دارفور زمن السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ — ١٧٢٢ م) ونشبت بينهما عدة وقائع كان آخرها قريبا من مكان عرف فيما بعد باسم هذه الوقعة التى أحرز فيها سلطان دارفور نصرا على أهل وادای . وكبكابية اسم مركب من كلمتين «كبى ـ كابيه» ومعناهما فى لغة الفور «ألقوا دروعهم»
S.N.R. XXXII, Part I, P. 185.

(٣) سرف الدجاج : اسم يطلق على بلدة وعلى آبار وربما كان المقصود بها آبار سرف الدجاج الواقعة قرب كبكابية عند خط عرض ١٤ : ١٤ وخط طول ١ : ١٤ وتعرف فى السودان باسم : سرف الجداد . وسرف فى لغة الفور معناها : بركة ، بكسر الباء

(٤) الشعيرية : اسم قرية وواد يقعان على مقربة من الفاشر عند خط عرض ٢٨ : ١٤ وخط طول ٣٦ : ٢٥ .

(٥) جديد كريو : لفظ «جديد» من الأسماء المألوفة فى اقليم دارفور . ويحمل بعض القرى والآبار والوديان والجبال ، اسم جديد فقط ، أو يحمل اسم جديد مضافا اليه اسم آخر ، مثل جديد رأس الفيل وجديد السيل الخ . غير أن « جديد كريو » لم يرد له ذكر فى تقويم الأماكن والبلدان السودانية ، ولعله هجر .

(٦) جديد السيل : يقع قريبا من الفاشر عند خط عرض ٥٢ : ١٣ وخط طول ٢٨ : ٢٥ .

فذهب كل منهم فى مذهبه ، وأخذنا طريقَ سَرَفَ الدجاج ، فسافرنا سفرا هيّنا نحو ثلاثة أيام ، ونزلنا فى رابعها قربَ الظهر فى ظلّ جبل بقرب بئر ، فَقِلْنا هناك . وجاءتْ أناس كثيرون[1] يهنّوننا بالقدوم ، وجاء هناك بدوى ابن السيد أحمد ، ومعه عبيد وخدم بأطعمةٍ كثيرة ، فسلّم على والده وهنّأه بالسلامة ، وتغدّينا وأقمنا حتى أنهر النهار ، وأخذ الشمسَ الطَّفَلُ والاصفرار ، [ثم] حُمِّلتْ الأحمال[2] ، ورُفعتْ الأثقال ، فلم يأت المغرب إلاّ ونحن على ظهر [رواحلنا] مُقِلّون ، [و] على الجادّة سائرون . فدخلنا سرفَ الدجاج بعد العِشاء . مفرد من الطويل :

فالقَتْ عصاها واستقرّ بها النّوى كما قَرّ عيناً بالإياب المسافرُ

وبتنا تلك الليلةَ فى مشقة من كثرة المسلّمين ، وازدحام الداخلين والخارجين ، ومع ذلك لم يتهاونْ السيّد أحمد بأمرى ، ولا شَغَلهُ(٥٣) ماهو فيه عنى ، بل أفرد لى حجرة ، وجعل فيها من الفُرُش والآنية ما أحتاج إليه ، وأنا لا أعلم ذلك ، بل حين طال علىّ السهر دخلتُ عليه ، وقلت له : أين أنام ؟ فنادى بأحد العبيد وقال له : أَرِ[3] سيِّدَك حجرته . فأخذنى وأدخلنى حجرةً رأيت فيها سريراً وفُرُشاً وآنية ، بل وجميعَ ما أحتاج إليه . وبِتُّ بأنعم ليلة ، حتى إذا أصبحتُ لبست ثيابى ودخلتُ عليه ، فوجدته جالساً فى أُبّهة عظيمة ، بين خدمه وجواريه وأولاده ، قارًّا سارًّا ، كأنه لم يكن مسافراً .

فرحّب بى وأكرمنى ، فقبّلتُ يدَه وجلست معه ، ثم قال لى : إن ابن أخى السيد أحمد الصغير ، قد صنع فى هذا النهار وليمةَ القدوم ، والتمس منى أن تتوجّه إليه ،

(١) فى الأصل : كثيرون .
(٢) فى الأصل : الاحملا .
(٣) فى الأصل : أرى ، بضم الهمزة .

وتشرِّف مجلســـه بحضورك ، فإن رأيتَ بك نشاطاً وأردتَ جبر خاطره فذاك إليك ، وما أريد أن أشقَّ عليك . فقلت : سمعاً وطاعة ، لـكنِّى لا أعرف منزله . فأمر أحد غلمـانه أن يعرِّفنى منزله ، فذهبتُ وحضرتُ ضيافته ، فأعظم مَلقاى ، ورحَّب بى وكان يوماً عظيما .

ثم إن جميع أهل القافلة صاروا يصنعون الولائم فتوالت ، وكل وليمة يدعوننى فأحضرها ، حتى جاء عمِّى وتوجهتُ صحبتَه إلى والدى . وذلك أنى كنت فى ضـــيافة بعض الأصحـاب ، وأتيت قرب المساء ، فدخلت الحجرة المعدَّة لى ، فرأيت فيهـــا رجلين (٥٤) وعبدَيْن .

أما الرجلان ، فأحدهما أسمر قصير ، ذو هيئة حسنة ، جميل البزَّة ، يقرب لونه من لون الحبشة ، والآخر أسود رثُّ الهيئة . فسلَّمتُ عليهما فردَّا علىَّ الســلام ، وجلستُ متعجباً كيف دخلا فى حجرتى بغير إذنى ، فرأيتهما يتغامزان ، ويقول أحدهما للآخر : أهو هو ؟ فيقول الآخر : نعم ، هو . ولا أعرف علامَ[1] يقولان ذلك . ثم ســـألنى الرَّجل الأول وقال لى : أنت من هنـا ؟ فقلت : لا ، أنا من مصر ، جئت ملتمساً لأبى . فقـال : ومَن أبوك ؟ فقلت : أبى الســيد عمر التّونسى . فقـال لى السودانى : ســلِّم عَلَى عمِّك السيد أحمد زَرُّوق . فسلَّمت عليه حينئذ . و بعد السلام أخرج لى مكتوباً فيه بعد السلام :

إنه قد جاءنا كتاب من ولدنا السيد محمد ، أخبرنا فيه أنه قدم صحبتَك وفعلتَ معه من المعروف ما أنت أهلُه ، فجزاك الله عنا خيرا ، وهذه مِنَّة لا أكاد أقوم بشـكرها ،

---

(١) في الأصل : علي م .

وصنيعةٌ لا أقدر على مكافئتها ، ومن المعلوم أن المهاداةَ[1] سُنَّة من أول الزّمان ، وقد قَبل الهديةَ سيّدُ وَلَدعدنان ، ولذا قال عليه صلاة ربنا المنَّان . « تهادَوْا تحابُّوا وتذهبْ الشَّحناء من قلوبكم » . وقد أرسلتُ لحضرتك صحبةَ أخى السيد أحمد زَرُّوق عبدَيْن سُداسيَّين[2] ومُهراً أحمر ، أرجو من سعادتكم قبولَهم ، وهم على قدر مقامى ، لا(٥٥) على قدر مقامك ، ولله [درُّ] القائل ، شعراً ، من البسيط :

جاءت سليمانَ يوم العَرض هُدهدةٌ أتتْ له بجرادٍ كان فى فيها

وأنشدتْ بلسان الحال قائلةً إن الهدايا على مقدار مُهديها

لو كان يُهدَى إلى الإنسان قيمتُه لكان قيمتُك[3] الدُّنيا وما فيها

ومنا السلامُ عليكم وعلى أولادكم وأهلِ منزلكم ، ومن يحويه مجلسكم السعيد .

وقال لى : خذ هذا الكتاب واقرأه على عمِّك السيد أحمد . فذهبت به وقرأته عليه ، وأحضرت الهدية فرآها وبارك فيها ، ثم قال : إنى قبلتُها ووهبتها لابنى هذا . يعنينى . فألححتُ عليه أنا وعمىِّ فى قبولها فأبى إلا ذلك ، وقال : إنىّ لو أفنيتُ أموالى كلَّها فى مرضاته ، لما كان ذلك جزاء له بما صنع معى من المعروف ، فتجاسرتُ عليه حينئذ ، وسألته بالله العظيم ، إلَّا ما أخبرنى عن هذا المعروف الذى صنعه معه .

فقال لى : اعلم ياولدى أن أعدائى وشَوْا بى إلى حضرة السلطان بأنى أبيع

(١) فى الأصل المهادات .

(٢) العبد السداسى : هو الذى يبلغ طوله ستة أشبار من أخمص قدمه الى شحمة أذنه . Voyage au Darfour, p.39.

(٣) وفى رواية : لكنت أهديتك .

الأحرار[1] وزخرفوا له القولَ حتى استقر فى ذهنه أن الأمر صحيح . فغضب لذلك وقال : تاجرٌ مثلُ هذا فى غَنائه يفعلُ هذا الفعل ؟ ! الفقر أولى به ! فأحضرنى من دارى على غير صورة ، وحين دخلتُ عليه وبّخنى وقرّعنى بالكلام المؤلم ، وطلبتُ تحقيق ما قيل فىّ فلم أتمكن من ذلك ، ولا سُمع لى قولٌ ،(٥٦) بل أَمر بالقبض علىّ ، وأن توضع الأغلال فى عنقى ، ويضيَّقَ علىّ فى الحبس .

وكان من لطف الله تعالى أنّ أباك حاضر بالمجلس ، فلم يتجاسر أحد [على أن] يَشفعَ لى عندَه لما قام به من الغضب . وحين رأى والدُك ذلك تقدَّم وتنحنح ، وذكر أحاديثَ فى العفو عن الجانى ، وتلا : « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فتَبَيَّنُوا »[2] . ثم شفع فىَّ فشفَّعه السلطان وأمر بإطلاقى ، وبعد ذلك ظهرت له براءتى ؛ ولكن لو لم يُسخِّرْهُ الله لى فى تلك الساعة لذهبتْ نفسى وأموالى كلُّها ! فأىُّ جميل أكبر من هذا ، وأى صنيع[3] أعظم من هذا ؟ !

ومع ذلك كله فأجرُ أبيك فيما فعله معى على الله ، وإنى طالما كنتُ أترقَّب له حاجةً تأتى على يدى فأقضيها له ، فلم[4] يتيسر لى إلا هذه الخدمة ، وعسى أن يكون فيها قضاء بعض ما وجب علىّ ، ولا أظن ذلك .

ثم أراد عمّى أن يسافر صبيحَ ذلك النهار ، فأبَى السيد أحمد . فمكثنا بعد ذلك ثلاثة[5]

---

(١) فى الأصل : الاحرارى .

(٢) سورة الحجرات ، آية ٦ .

(٣) فى الأصل صنع .

(٤) فى الأصل : لم .

(٥) في الأصل : ثلاثا .

أيام ، وفى صبيحة اليوم الرابع دخلتُ عليــه لأودِّعه ، فاعطــانى خرزاً كثيراً يضعنه[1] نســاء السودان فى أوساطهنَّ من قَبيل الزينة يسمَّى عندهن : رُقادَ الفاقَة ، ومعناه : نوم الراحة . وأعطانى خَرزاً آخر غالىَ الثمن ، يجعلنه فى أجيادهن ، وهو على أنواع .

منه ما يسمَّى بالرِّيش ، وهو (٥٧) خرز أبيض مستطيل ، فيه بعض خطوط سُمر ، معروف بهذا الاسم فى مصر أيضاً .

ومنه ما يسمَّى بالمنصوص ، وهو خرز أصفر من كَهربان[2] مستدير مفَرطح .

ومنه خرز كروىّ الشكل أحمر غير ناصع ، يسمى بالعقيق ، فأعطانى منها ما يزيد على عِقدين ، وثمنُه ينوفُ عن ثلاثة رؤوس من الرقيق .

وأعطانى عمــامةً خضراء من الشاش جديدةً ، وسُنبُلا ومَحْلَبا وصَندلاً كثيراً ، وهــذه الثلاثة من العِطريَّات ، يتطيبن بهــا نساء السودان . وقال : فرِّق هذه الأشياء بين نساء أبيك . وذبح لنا شاةً وحنَّذها[3] . وبلغتهم يقال لها : نِصــيص ، ثم زوَّدَناها وودَّعَنا وركبنا .

وكان مع عمِّى عبــد آخر كبير . فركبتُ الفرس ، وركب عمى هجينــا ، وركب الرجل حمارا فارها ، وسعت العبيد أمامنا ، وسرنا قاصدين محل أبى . وكان بمحل يقال له : أبو الجدُول[4] ، وبينه وبين سَرَف الدجاج ستة أيام سفر .

---

(١) كذا بنون النسوة وقد دأب المؤلف على مثل هذا التعبير فى مواضع كثيرة من الكتاب . وسترى بعد قليل قوله : « يتطيبن بها نساء السودان » .

(٢) كذا بالباء ، بدل : كهرمان .

(٣) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ . أو هو الحار الذى يقطر ماؤه بعد الشى . (القاموس)

(٤) أبو الجدول : منطقة كانت تستمل زمن المؤلف على عدة قرى جنوبى الفاشر . ويطلق هذا الاسم الآن على قرية وواد في هذه المنطقة عند خط عرض ٠٢ : ١٣ وخط طول ٢٨ : ٢٥ .

فخرجنا من سرف الدجاج ، ومررنا بالبلد المسمى بكَبْكَابِيَّة ، وهى بلد أشبه ببلاد ريف مصر ، إلاّ أنها أعمر منها وأخصب ، لأنها آهلة بالساكن ، مغتصّة بالقاطن . وأهلها تجار أغنياء ، وعندهم من الرقيق ما لا يُحصى كثرة .

ولهم نخيل وأرض واسعة[1] ، فيها آبار قريبة الماء ، يزرعون بها أنواع الخضروات والبقول ، من بامية وملوخية وقرع و باذنجان وفقّوس وقِثّاء و بصل وحُلبة (٥٨) وكمّون وفُلفل وحبّ رشاد ، وكلّه كما نعهد إلا الفلفل ، فإنه حب رفيع أغلظ من الشعير بقليل . وعندهم بعض شجر الليمون الحامض .

و بقربهم جبل يقال له : مَرّة ، وهو جبل يشق إقليم الفور من أوله إلى آخره مع الاستقامة ، وله عدة طُرق تصعد الناس منها إليه ، ولكل قطعة منه اسم خاص به غير الاسم[2] العام . والفور يسكنون فى أعلاه ، ولا يألفون الوِهاد ، بل يروْن أن ذلك أصونُ لهم ولأموالهم . وسيأتى لهذا مزيدُ توضيح .

وحين مرورِنا بكَبْكَابِيَّة وَجدنا سوقها عامرا ، فأخذنا منه ما احتجنا إليه ، ثم توجهنا فسافرنا ثلاثة أيام فى عَرض جَبل مَرَّة ، وصرنا نبيت ببلاد أقوام مستوحشين يكرهون الضيوف ، خصوصا إن كانوا من أولاد العرب . فأصابتنا منهم مَشقّة عظيمة ، حتى صرنا لا نبيت عندهم إلا كَرها عليهم ، مع أن معنا أزوادَنا ولا نحتاج لهم فى شىء ، فكانوا ينفرون منا بالطبع .

و بعد ذلك خرجنا إلى السهل فبتنا ليلةً واحدة بمحل يقال له : تَارْنِيه[3] ، فأكرمونا هناك وصنعوا لنا ضيافة عظيمة .

---

(١) فى الأصل واسع .   (٢) فى الأصل : اسم .

(٣) يقع هذا المحل الى الجنوب الغربى من الفاشر حسبما جاء فى خريطة المؤلف المنشورة ضمن الكتاب . والموجود مكانه فى الخرائط الحديثة واد وجبل يحملان هذا الاسم عند خط عرض ١٧ : ١٣ وخط طول ٥٦ : ٢٤ .

وفى ضحى اليوم السادس دخلنا البلدة التى فيها والدى ، المسماة : بحلّة جولْتو ، وهى من جملة حِلل أبى الجدُول . فرأينا على باب دار والدى خيلاً وحميراً وخَدما لأضيافٍ كانوا عنده ، فدخلنا الدار ، وعرضنا جوارىَ وعبيداً يسلّمون علينا ويُهنّونى(٥٩) بالسلامة .

ثم جاء والدى بعد أن ركب أضيافُه وسلَّم علىّ ، فقمتُ وقبلتُ يدَه ، ووقفت أمامه خِدمةً له . فأمرنى بالجلوس فجلست . فسألنى : ما الحرفة التى تعلمتها ؟ فقلت له : القرآنَ وشيئاً من العلم . فسُرّ لذلك وصنع ثانى يوم مجيئى وليمةً ذبح فيها عدة شياهٍ و بقر ، ودعا الناس ، فجاء خلق كثير فأكلوا وكان يوم سرور .

ثم إنه بعد ثلاثة أيام جهّزنى وعمّى السيد أحمد إلى الأعتاب السلطانية ، بهدايا من عندِه إلى حضرة السلطان ، ووزيره الأعظم إذ ذاك [الأب] الشيخ[1] محمد كُرّا ، والفقيه مالك الفُوتاوى ، وهو وكيل أبى ، وحوائجُه التى تعرضُ للدَّولةِ كلّها على يده ، وهو من

---

(١) منصب الأب الشيخ من أهم المناصب وأشدها خطرا فى سلطنة دارفور بعد السلطان . فهو الوزير الأعظم ـ أى رئيس الوزراء ، والقائد العام للجيش . فضلا عن أنه كان يتولى حكم احدى الولايات الأربع التى أقطعها اياه السلطان. والمعروف أن الرسم جرى فى دارفور ألا يتولى منصب الأب الشيخ سوى عبد خصى ، ومع هذا تولاه محمد كرا وهو من الأحرار . وتفسير ذلك أنه التحق بحرس السلطان تيراب ثم غدا مشرفا على تربية أولاده ومصالحه الخاصة . ويقال انه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده ، فألحقه السلطان بخدمة أحد الوزراء وأبدى كفاية ممتازة فى عمله. ثم تمكن بمهارته أن يساعد عبد الرحمن الرشيد فى الوصول الى عرش السلطنة بعد وفاة أخيه السلطان تيراب ، فعينه فى منصب الأب الشيخ . Voyage au Darfour. pp. 44, 62, 65, 78, 80, 137, 173 . وكان الاب الشيخ يتولى ـ فضلا عن ذلك ـ النظر فى القضايا الهامة التى يحتاج الفصل فيها الى الرجوع الى قانون دالى ، وهو القانون العرفى للبلاد . فقد كان الأب الشيخ المرجع الأعلى لهذا القانون . ثم انه كان الأمين على نحاس السلطنة . S.N.R., XXXIII. I, pp. 134-135. شقير نفس المصدر ، ج ٣ ، ص١٣٦ .

[فُوته إحدى حِلّل][1] قبيلة تسمى : الفُلاَّن[2] . وأهلُ دارفور يسمُّونها . الفَلاَّتَةُ ، وفَلاَّتا بالألف فى الآخر أصحّ . والفقيهُ مالك المذكور أعظم الوزراء من أولاد العرب ، وكان يومئذ السلطان محمد فضل ابن المرحوم السلطانِ عبدِ الرحمن صغيرا . وكان زمام الأمورِ كلّها بيد [الأب] الشيخ محمد كُرّا ، و [كُرّا] معناه بالفوراوية : الطويل ، لأنه هو الذى عضَد السلطان محمد فضل بعد موت أبيه ، وأجلسه على سرير ملكه ، وناب عنه فى الأحكامِ وتدبير المملكة لِصِغرِ سنّه ، وقد شاع على ألسنةِ الناس [من] أهلِ دارفور أنه من عبيد السلطان ، وليس كذلك ، بل هو حُرّ ، خَدم السلطان ، وأغنى فى خدمته ، وقام بأَعباء[3] (٦٠) الأمور حتى ترقى للوزارة العظمى بحسن تدبيره ، وتصرف فى مملكة دارفور حتى كان لا تعلو على كلمته كلمة غير [كلمة] السلطان . وكان رحمه الله فيه دَهاء ومكر ، وشجاعة و إقدام ، وحِيَلٌ على الأمور حتى ينفِّذَ أَغراضَه ، وستأْتى سيرتُه و سيرةُ السلطان عبد الرحمن ، وابنِه السلطان محمد فضل ، وأخيه السلطانِ محمد تيراب مفصَّلةً إن شاء الله تعالى .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن الترجمة الفرنسية . Voyage au Darfour, p. 44,

(٢) يعرف الفلان فى السودان باسم الفلاتا ، ولا يقتصر هذا الاسم على الشعبة التى تعيش فى جنوب جبل مرّة ، بل يطلق على جماعة كبيرة منهم انتشرت فى كثير من جهات السودان ولاسيما فى شرقه . وهم من الحـاميين الذين امتزجت دماؤهم بالدماء العربية . واذا كانت بعض جماعات منهم هاجرت من مواطنها الأصلية ، شمال نيجريا وغرب أفريقيا فى أزمنة حديثة الى دارفور ، فان غالبيتهم هاجرت اليها من زمن بعيد.ولعل أكبر هجرة لهم كانت زمن السلطان أحمد بكر (أواخر القرن ١٧ م) ، وهم يتكلمون اللغة العربية ويعيشون على نسق الحياة الذى اعتادوه فى غرب افريقية . MacMichael, H.A.: op. cit. p.83 .

(٣) فى الأصل : بعبآء .

فركبنا من أبى الجدول إلى تَندَلْتى[1] ، وهو مقر السلطان[2] ، فى أول شعبان سنة ١٢١٨[3] ، و يسمَّى بلغتهم : الفاشر[4] . وكل محل سكنه السلطان يسمَّى فاشراً . فسافرنا يومين سفراً غيرَ شطيط ، ودخلناه ضحوةَ الثالث ، فوجدنا بلداً يموج بالساكن ، ويرتجّ بالقاطن ما بين راكب وماشى[5] ، وجالس وغاشى[6] ، وطبول ترعد ، وخيول تركض .

فدخلنا دار الفقيه مالك ، فوجدناه جالساً بين خدم وحشم ، وأرباب الحوائج محتفُّون به . فدخلنا عليه ، فسلَّم عليه عمى ، فأعظم مَلقاه ورحب به ، فعرَّفه عمِّى بى ، فسلَّم علىَّ و بشّ فى وجهى ، ورحَّب بى .

ثم إن عمى أعطاه الكتاب الذى له ، والكتبَ التى للدولة ، فقرأ كتابه ورحب [بنا] ، وأفرد لنا محلًّا وضَعْنا فيه متاعَنا ، ثم أخذَنا فى الحال إلى دار [الأب] الشيخ محمد كُرَّا ، فرأينا داراً على بابها من الخيل والدوابّ ما لا يُحصَى كثرةً ، ودخلنا فرأيناه جالساً فى (٦١) مجلس

---

(١) تندلتى : اسم قديم لبحيرة (أى : فولة) ، وقد نشأت حولها مدينة الفاشر الحالية . S.N.R. XXXIII, Part I, p. 138.

(٢) فى الأصل : السلطانى .

(٣) شعبان سنة ١٢١٨ هـ = ديسمبر سنة ١٨٠٣ م .

(٤) كان يطلق اسم الفاشر أول الأمر على مجلس السلطان . ولما كان هذا المجلس ينعقد فى الغالب فى ميدان واسع يقع أمام قصر السلطان ، فقد عرف الميدان كذلك باسم الفاشر ، ثم صار الاسم يطلق بعد ذلك على أى مكان يستقر فيه السلطان .

Barth, H, : Travels and Discoveries in North and Central Africa, Vol. III, pp. 552-53.

(٥، ٦) فى ورود اللفظين : « ماشى » ، و « غاشى » ، بالياء فى الأصل دليل على أن المقصود هو الاستعمال العامى وليس الفصيح الذى يقتضى حذف الياءين . ومن هذا وكثير غيره نلاحظ أن المؤلف يزاوج كثيرا بين الفصحى والعامية فى أسلوبه .

حَفْل ، وأرباب الدولة محتفون به ، فسلم علينا ولم يعلم مَن أنا ، ثم سأل وقال: من هذا ؟ فقال له الفقيه مالك : هذا ابن الشريف عمر التونسى ، العالم ، المقيم بأبى الجدول ، وقد أرسله صُحبةَ عمِّه ليسلِّم على سعادتك ، وهذا كتاب أبيه .

فأخذ الكتاب وفتحه ، ولما علم ما فيه صار يلاطفنى و يحيّينى[1] إكراماً لوالدى ، وقُدِّمَتْ له الهدايا فقبِلَها ، وأمر بإدخالها إلى خزائنه ، وأقبل يلاطفنى بالتحية إكراماً لوالدى ، ثم أمر الفقيه مالك أن يبقِيَنا عنده حتى يأذنَ لنا فى التوجُّه ، فبقِينا عند الفقيه مالك ثلاثة أيام ، ونحن فى أكرم ضيافة وألذِّ ائتناس .

وفى اليوم الرابع دعانا [الأب] الشيخ محمد كُرّا على يد الفقيه مالك ، وكسانى كشميراً أخضر ، وجُبّةً خضراء ، وقفطاناً من القطن الهندى ، وأمر لى بجاريتين وعَبد ، وكتب لأبى كتاباً قرأته بعد ذلك عند أبى وصورته :

من حضرة من أكرمه الكريم ، ولا يفارقُه الخير والنعيم ، الوزير الأعظم ، المتوكِّلِ على مَن يسمع و يرى ، الأب الشيخ محمد كُرّا ، إلى حضرة الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأفخم ، علّامةِ الزمان ، ونُخْبةِ سلالة سيد ولد عدنان ، السيد الشريف عُمر التونسى دام مجده آمين .

أما بعد : إنه قد حضر لدينا نجلُكم المكرَّمَ ، صُحبةَ أخيكم المحترم المعظم ، بما أهديتموه لنا ، حسبما هو مشروح فى جوابكم ، ففرحنا غايةَ الفرح (٦٢) بأمرين : الأول اجتماع شملك بقُرَّة عينك . والثانى بأننا نؤمِّل إقامتك فى بلدنا ، وهذا هو المقصود الأعظم ، لتحصلَ لنا البركة بكم أهلَ البيت . وقد أتحفْناه بما صحِبه ، ونرجو أن يكون مقبولاً لديكم .

---

(١) فى الأصل : يحيننى .

ولولا ما نحن فيه من الأشغال ، لـكان الأمر أبلغ من ذلك ، فالمعذرة إليك ، وأُؤَمِّل ألَّا تنسانى من صالح دعَواتك ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

ثم إن الفقيه مالك قدَّم لى جاريةً ناهدًا ، وجواباً قرأتُه بعد ذلك أيضاً ، مضمونُه بعد السلام :

إنه قد ورد علينا كتابكم ، صُحبةَ نجلـكم وأخيكم ، وقدَّمناهما إلى حضرة [الأب] الشيخ محمد كُرّا ، وقد دخل عليه من السرور ما لا يعلمه إلا اللهُ بقدوم نجلك ، كما يُفصح لك كتابه عن ذلك ، ونحن أشد فرحاً منه ، لما بيننا من المودَّة ، وما أهداه [الأب] الشيخ محمد كرّا لنجلك يُتلَى عليك ، ويصـــل بين يديك ؛ وها نحن قد أتحفْنا نجلَك الـكريم بجاريةٍ كوعَبةٍ مَتْرَبَة — أراد هنا : كاعبة[1] ، وأما قوله : مَتْرَبَة، لا[2] معنى له ، وذلك من جهل الفقيه ، وهذا أى «كاعِبة» و «مترَبة» مذكور فى القرآن فى وصف الحُور[3] ؛ وأراد الفقيه أنه يدّعى عالماً فإنه غلط[4] ، وقال هنا قولاً بدون معنى — واسمها حُمَيْـدَة[5] ، عسى أن تُلحَظ بالقَبول ، كما هو المأمول ، والسلام .

فأَخذنا جميع (٦٣) ذلك ، وتوجَّهنا لوالدى فرحين مسرورين ، ففرح بقدومنا ، ثم أقمنا جميعاً مدةَ شهر رمضان ، وحين انقضائه توجَّه أبى إلى الفاشر للسلام ، وقابل الأبَ

---

(١) يقال : جارية كاعب ، أى : نهد ثديها ، ولا يقال : كاعبة .

(٢) كذا فى الأصل بدون فاء ، وكثيرا ما تحذف الفاء فى مواضع أخر كهذا الموضع .

(٣) يقصد بذلك قوله تعالى : « وكواعب أترابا وكأسا دهاقا » سورة النبأ ، آية ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) كذا فى الأصل : وهى عبارة مضطربة الاسلوب .

(٥) بدون ضبط فى الأصل : وقد ضبطناه هكذا فى المتن عن الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour p. 48

الشيخ محمد كُرّا ، وطلب منه الإذن فى التوجه إلى تونس ليرى أمّه وأخويه ، ويجتمعَ بهم قبل وفاة أمّه . وأعلمه أنه سيتركُنى فى بيته وبلاده ، لأن البلد التى كان فيها إقطاعٌ له ، أقطعها له المرحومُ السلطانُ عبدُ الرحمن قبل وفاته ، وكان قبل ذلك أقطعه بلاداً فى المحلِّ المسمّى بقِرْلِى[1] ، فأبى والدى الإقامةَ فيه لعُجمةِ لسانِ أهله ، وعدمِ معرفتهم العربىّ ، فنقلَه إلى هذه البلد .

وهذا الإقطاعُ يشتمل على ثلاثةِ بلاد : حِلّة جُولْتو الذى فيه بيتُنا ، والدَّبَّة ، وأمّ بعوضَة[2] . فاتفق مع الشيخ محمد كُرّا أن يتركَنى فى هذه البلاد ، أجمعُ خراجَها ، وأنتفع بزرعها . فأخذ عليه المواثيقَ بالعَوْد ، وأذِن له ، وكتب له عدَّةَ أوامرَ إلى العمّال الذين بطريقه أن يُعطوه جميعَ ما يحتاج إليه ، وأن يرسلوا معهُ جنداً يوصِّلُه إلى محلِّ الأمْن . وودَّعه ورجع إلينا مهتمّاً بأمرِ السفر .

فجهَّز نفسه فى أقرب وقت : وذلك أنه باع ما عنده من القطن ، وكان عنده قطنٌ كثيرٌ يُنوف عن[3] مائة قنطار ، لأنه كان زارعاً قطعة أرض تزيد عن[3] عشرين فدّاناً من أفدِنةِ برِّ مصر قطناً ، وكانت هذه القطعةُ يُجمَع منها وقتَ (٦٤) هجومِ القطن فى كل يوم أربعَ عشرةَ رِيكَة[4] ، والرِّيكَة فى عُرف أهلِ دارفور كالقُفَّة فى عرف أهلِ مصر .

---

(١) قرلى : يقع هذا المحل شرقى كبكابية كما ورد فى خريطة المؤلف المنشورة مع الكتاب ، وجنوبى كبكابية كما ورد فى خريطة المترجم بيرون ، وفى لامپن فى S.N.R. XXXI Part. II p. 186 انه بجوار كبكابية . ولم يرد لهذا المكان ذكر فى تقويم البلدان والأماكن السودانية ، والراجح أنه هجر .

(٢) الدبة وأم بعوضة حلتان كانتا تقعان فى منطقة جولتو فى الجنوب الغربى من الفاشر ، وليس لهما ذكر فى تقويم البلدان والأماكن السودانية .

(٣) كذا ، بدل : على ، فى الموضعين .

(٤) ريكة تنطق هذه الكلمة : بامالة الراء .

وهى ربّما لو صُبّت فيها غِلال تَسَع[1] نحوَ خمسةِ أرباعٍ بالرُّبع المِصرى . فباع كلَّ ذلك ، وباع مُراحَ غنمٍ كان عندَه ، وكذا باع البقَر والحمير ، وأخذ جواريَه وعبيدَه ، وما حصل لى من السيِّد أحمد بدوى ، ومن الأب الشيخ محمد كُرّا ، ولم يترك لى إلاَّ جاريةً بعينيها بياض تسمّى فَرْحانة ، وعبدَيْن وامرأتيهما ، وحماراً وهجيناً ضعيفاً ، وترك لى إحدى نسائه [و] تسمى : زُهرَة ، وامرأةَ أخيه ، وكلٌّ منها[2] معها بنت . وباع مطاميرَ الغِلال ، ولم يُبْقِ لى إلاَّ مَطموراً واحداً ، وأعطاني وثيقةَ الإقطاع التى كتبها له المرحوم السلطان عبد الرحمن حين أقطعه الأرض المذكورةَ ونصُّها :

من حضرة السلطان الأعظم ، والمَلاذ الأفخم ، سلطانِ العرب والعجم ، ومالكِ رقابِ الأُمم ، سلطانِ البرَّين والبحرَين ، وخادِمِ الحرمَيْن الشريفَيْن ، الواثقِ بعنايةِ المَلكِ المُبدِى المُعيد ، السلطان عبد الرحمن الرَّشيد[3] ، إلى حضرة الملوكِ[4] والحكام والشَّراتى[5]

---

(١) فى الأصل : يسع .

(٢) فى الأصل : منها .

(٣) السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ ـ ١٨٠١ م) . كان من بين الألقاب التى تلقب بها عبد الرحمن : اليتيم والعادل والرشيد . ويقال انه لقب باليتيم لأن أباه مات وتركه طفلا رضيعا . ولقب بالعادل لعدله ، وبالرشيد لأنه أرسل هدية للسلطان العثمانى فأرسل اليه السلطان كتابا يشكره فيه على هديته ويلقبه بالرشيد ، وهو اللقب الذى عرف به فى أختام سلاطين دارفور . شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، جـ ٢ ص ١١٨ ، وستأتى سيرته مفصلة فى هذا الكتاب .

(٤) سبقت الاشارة الى هذا اللفظ فى ص ٥٤ حاشيته ٤ .

(٥) الشراتى أو الشراطى ، جمع مفرده : شرتاى أو شرطاى . وهو لقب يطلق على حاكم الاقليم . وفى MacMichael. H.A. op. cit. p. 104 أن الفور يطلقون على الشرطاى لقب « كيزو » أو « كيزونج » .

والدمالج[1]، وأولاد السَّلاطين والجَبَّايين[2]، وأهلِ دولةِ السلطان، من العرب والسودان.

أما بعد: فإن السلطانَ المذكورَ المبرور، المؤيَّدَ المظفَّر المنصور، تفضَّل وأمَدَّ بمعونته، وأعطى العلاَّمةَ السيدَ الشريفَ عُمَرَ التُّونسيَّ قطعةً من الأرض، كائنةً بأبي(٦٥) الجدول، حاويةً لثلاثِ حِلل[3]: حِلَّة جو لتو والدَّبة وأمّ بعوضة، بحدودِها المعروفةِ، وأتخامها الموصوفة، حسْبما حدَّده الملكُ جَوهر للملك خَميس عرْفان[4]، لا يعارضُه فيها معارض، ولا ينازعُه منازع من أهل المملـكة، خصوصاً جَبَّايِي العيش[5] يتصرف فيها بأي نوعٍ من وجوه التصرُّفات شاء، هبةً لوجه الله تعالى، وطلبا للثواب، في دار المآب. والحَذرَ ثم الحذرَ من الخِلاف، والتعرُّضِ من الخاصِّ أو العام.

ثم إن والدى حمَّل أثقالَه، وأخـــذ رقيقَه وسُرِّيَّتَه وأخاه، وتوجَّه وأبقاني في الحِـــلَّة.

وفي شهر رجب سنة ١٢١٩[6]، قُتل الأب الشيخ محمد كُرَّا في حرب عظيم،

---

(١) الدمالج جمع: دمــلج. وهو لقب يطلق على شــيخ القبيــلة. ويرأس الشرتاى عددا من الدمالج. والدملج لفظ عربي معناه: السوار. وقد حور الفور اللفظ الى دلمونج وجمعوه على: كلمو، بكسر الكاف راجع:

Mac Michael, H.A. op. cit. p. 104

(٢) الجبــايين جمع جبــاى أى جابى. وهو لقب يطلق على من يجبى الضرائب المفروضة على أهل اقليمه. ويعرف رئيس الجبـــاة عند الفور باسم: ملك الجبايين Voyage au Darfour. p. 51

(٣) فى الاصل: حلل من.

(٤) كذا فى الأصل، وفى الترجمة الفرنسية: عرمان، بالميم

Voyage au Darfour p. 51

(٥) العيش: بامالة العين، معناه فى اللهجة السودانية: الذرة بأنواعها، ويعمل منها الخبز.

(٦) رجب سنة ١٢١٩ هـ = اكتوبر – نوفمبر سنة ١٨٠٤ م.

وقع بينَه و بين السُّلطان محمد فضل . وسببُه : أن أعداء الأب الشيخ محمد كُرّا دخلوا بالفتنةِ والسِّعاية بينه و بين السلطان ، وقالوا للسلطان : إن الأب [الشيخ] يريد نزعَ المملكةِ من يدك ، و يولّى عليها أخاه باسى[1] عوّضَ الله ! فأظلم الجوُّ بينهما ، واحتال السلطانُ وجماعتُه فى القبض عليه ، فلم يتيسَّرْ له ذلك . وانعزل الأب [الشيخ] بجماعتِه فى بيتٍ آخر كان له بتَنْدَلْتِى، بعيدٍ عن بيتِ السُّلطان . وأرسل له السلطان أن يأتى إليه فأَبى ، فلما لم يجد السلطانُ وجماعته حيلةً للقبض عليه وامتنع عنهم[2] ، منعوه المـاء . فمكثَ ثلاثةَ أيام يستقى من جديد السيل . ثم لمـا اشتدَّ العطشُ بجماعتِه قالوا له : إنَّا قد (٦٦) عَطِشْنا ، وليس عندنا من الدوابِّ والقِرَبِ ما يأْتى لنا بالماء الذى يكْفينا ، فارحَلْ بنا إلى محلٍّ آخر نَشْربْ منه المـاء ، أو دبِّرْ لنا حيلة .

فركب حينئذٍ هو وعسكرُه ، وتوجَّه للرَّهَد ، وهو غدير الماء بتَنْدَلْتِى ، فوجَد عليه حارساً من دولة السلطان ، مع عسكرٍ كثيف يمنع جماعته ، وهو الملك محمد دَلْدَن ، ابنُ عمّةِ السلطان محمد فضل ، فقتله وقتل جماعتَه قتلاً ذريعاً .

وسمع بذلك جماعةُ السلطانِ فخرجوا عليه ، ونشِب الحرب بينهما ، فانكشفت جماعة السلطان ، وكان [ذلك] ظهرَ يوم الخميس ، وخاف السلطانُ على نفسه ، ففرَّ إلى جديد السيل . وكان يوماً على السلطان وجماعتِـه لا لَهم ، وما زال الحرب بينهم حتى أَمسَى المساء ، فنزل [الأب] الشيخ محمد كُرّا بجماعته فى عَرض الغدير ، ونزل جماعةُ السلطان قُبالتَهم من الجانب الآخر ، حتى أصبح الصباح .

---

(١) باسى : لقب ، معناه فى لغة الفور : عظيم أو طويل ، وعمل صاحب هذا اللقب الاشراف على أمراء البيت المالك فى دارفور ومراقبة سلوكهم وتصرفاتهم . ويشترط فيمن يحملون هذا اللقب ان يكونوا من نسل السلاطين السابقين :
Nachtigal : op. cit. p. 427, S.N.R, XXXII, Part I,p 44.

(٢) كذا

وكان الأبُ [الشيخ] افتقد بالليل جماعتَه ، فوجد أخاه باسى عوضَ الله قد قُتل فى الحرب . فحزن لذلك وقال : لمن أُقاتلُ وقد مات أخى وأعزُّ الناس عندى . وكان قد أخرج معه باسى طاهر بن السلطان أحمد بُكر[1] ، عمّ السلطان محمد فضل ، وبايعه على السَّلطنة .

وتلك حيلة عملها لئلا تنفر منه أهل دارفور ، لأن من عاداتهم ألَّا يتولَّى عليهم إلا مَن كان من أولاد الملوك ، من (٦٧) بيت سلطنتهم[2] .

ولما علم بقتل أخيه قال لمن حَوله : إنى قد كرهتُ الحياة ، ففى غدٍ إياكم أن تقاتلوا ، بل أَدخلونى فى الحرب وانجُوا أنتم بأنفسكم . فحين شاع عنه ذلك ، فرَّت جميعُ عساكره الأباعد ، ولم يبق معه إلَّا ذوو قرابته فى نفَرٍ يسير ، تبلغ عِدَّتهم ألفاً أو أكثرَ بقليل .

فلما أصبح ضُربتْ طبولُ الحرب ، وركبتْ جماعة السلطان ، وركب هو أيضاً فى جماعته ، وأدخلوه فى الحرب ، والتحم القتال ، وغاص الأَب [الشيخ] فى جماعة السلطان ، واخترق الصفوف حتى لم يبقَ بينه وبين السلطان أحد ، ولو أراد قتله لفعل ، ولكنْ تذكَّر معروفَ أبيه ، فمنع يدَه عنه ، ووقف أمامه برهةً وقال له : يا ابنَ الفاعلة ، أتسمع

---

[1] حكم هذا السلطان بلاد دارفور أربعين عاما من ١٦٨٢ الى ١٧٢٢ م ، وأحبته رعيته لما اشتهر به من الحزم • واليه يرجع الفضل فى تعميم الاسلام فى بلاد دارفور • واعتنى هذا السلطان ببناء المدارس والمساجد واستقدم عـددا من المشايخ من مختلف البلاد ومنحهم أراضى وأعفاهم من الضرائب • وجعل هـذا السلطان عاصمته أحيانا فى قرلى وأحيانا فى مرة وأحيانا أخرى فى أبو عسل، وأخضع جماعات القمر لسلطانه • واستعان السلطان أحمـد بكر بالأمراء المماليك فى مصر لامداده بالأسلحة لدفع اغارات أهل وادای •

Lampen, G.D. op. cit. pp. 185.

[2] في الأصل : سلطانتهم •

فيّ كلامَ الناس ، ويكونُ هذا جزائى معك ؟! وخاف السلطان حينئـذٍ على نفسه منه ، وأراد أن يفرّ ، ونادى : قد جاء ليقتلنى ! فانطبقت عليـه الناس من كل جانب ، وداروا به كالخاتم بالإصبع ، ولم يجد معيناً ولا مساعدًا ، فقاتل حَسب طاقته ، وقتل عدّة أبطال ، وجُرح جِراحاتٍ غيرَ بالغة فلم يكترث بها ، وخافوا أن يدركَه أحد من جماعته فَيَخلُصَ من أيديهم ، مع أنّ جماعته كلّها انـكشفت عنه ، و بقى فيهم وحدَه ، فصار يقاتلهم نحو ساعة ، ثم لمّا عجزُوا عنه (٦٨) عَقروا جوادَه ، فوقع على الأرض ، فما استطاع النُّهوض لِثِقَلِه : لأنه كان لابساً درعين من الحديد ، فتـكاثروا وَتـكالبوا عليه بالرماح والسيوف ، حتى قُتل رحمةُ الله عليه . ولقد جُرِّد بعد موته فوُجِد فيه ما ينُوف عن مائة جُرح ، من ضربة سيف وطعنة رمح .

ورجع ابن زوجته محمد شِيلْفُوت[1] ظنًّا منه أن يجدَه حيًّا فينقذَه من أيديهم ، فوجده قد قُتل ، فجرّد سيفه وغاص فيهم ، فقتل منهم عدّة أبطال وهو ينادى : يا لَثارات [الأب] الشيخ محمد كُرّا ! وأخيرا تـكالبوا عليه ، و قُتل هو الآخرُ بعد أن قَتل أكثر من عشرين من المعدودين .

وإذ قد ذكرنا مقتلَ الأبِ الشيخ محمد كرّا ، فلنذكُرْ مبدَأ أمره ، وكيف ترقّى به الحال .

ونتعرّض لسلاطين دارفور حَسْبما علمنا من ثِقاتهم ، وأخبرنى به الجمُّ الغفيرُ من مُسنِّيهم ، فأقول :

إنّ السلطان محمد فضل ، هو ابنُ السلطانِ عبد الرحمن بنِ السلطانِ أحمد بُكُر .

(١) شيلفوت : لفظ عربى مركب من كلمتين عاميتين هما : « شيل » و « فوت » ، أى : احمل وامض . Voyage au Darfour pp. 54,55

قيل : إن السلطان أحمد بُكُر كان له من الولَد سبعةُ بنين ، وهم : عُمر[1] وأبو القاسم[2] وريز وريفا وتيراب[3] وطاهر وعبد الرحمن[4] ، وهو المدعو باليتيم ، لأن أباه مات وتركه حَمْلاً ، فلما حضرتْه الوفاة جمع أربابَ دولته ، وجعل ولايةَ العهد لجميع أولاده ، يتولّاها كلُّهم الأكابرُ فالأكابر ، وشَرَط ألّا يتولّى هذا الأمر أحدٌ من أولادهم إلّا بعـد (٦٩) انقراضهم . فلما تُوُفّي تولّى أكبرهم المسمّى بعُمر . فمكث في المُلكِ سبعَ سنين ، ثم قُتل في حربٍ كان بينَه وبين السلطان [محمد][5]

---

(١) امتد حكم هذا السلطان من ١٧٣٢ الى ١٧٣٩ م · وتذكر المراجع أنه لم يكن ابن السلطان أحمد بكر ، بل حفيده ، وأنه خلف أباه السلطان محمد دوره ابن السلطان أحمد بكر · وفي شقير : (تاريخ السودان ، ج ٢ ، ص ١١٥ ـ ١١٦) أن عمر هذا من أعدل سلاطين دارفور وأكثرهم محافظة على الكتاب والسنة وفي Lampen, G.D. op. cit .pp. 185-186 انه لقب بعمر ليله ، أي : عمر الحمار ، بسبب ما اشتهر به من عناد وقسوة ·

(٢) حكم هذا السلطان من ١٧٣٩ الى ١٧٥٢م ، وهو ابن السلطان أحمد بكر ، وجاء بعد ابن أخيه عمر ليلة في حكم دارفور·وبدأ أبو القاسم عهده بمحاباة جماعات العبيد دون الأحرار ، وامتلأت وظائف الادارة والحكم بالعبيد ، فكره الناس حكمه ، وعزم على الانتقام لسلفه عمر ليله من أهل واداى · وأدى اختفاؤه واشاعة قتله في أثناء حربه ضد أهل واداى الى تنصيب أخيه محمد تيراب عرش السلطنة · ولما ظهر أبو القاسم بعد شفائه على يد الأعراب الذين آووه ، أصر رجال الدولة على أن يتنازل لأخيه عن السلطنة، وما زالوا بتيراب حتى وافق على خنقه ودفن في مدافن السلاطين بتره Lampen, G.D. : op. cit. p. 186

٣ و ٤) سيأتي ذكر هذين السلطانين : تيراب وعبد الرحمن بالتفصيل ·

(٥) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour p. 56

جَودَة[1] ، سلطانِ دار صُلَيح[2] المسمّاة بدار وَدَّاى[3] وبدار بَرْقو[4] .

ثم تولّى بعده أخوه أبو القاسم ، فمكث ثمان سنين ، وقُتل فى الحرب مع سلطان بَرْقُو أيضاً .

ثم تولّى بعده السلطانُ محمد تيراب ، فكره الحربَ وأقام فى بلده آمراً ناهياً سلطاناً ، ثلاثاً وثلاثين سنة . [و] إنما سُمّي تيرابَ أرضِ الشام ، لأن الفُور يسمعون أن أرضَ الشام مخصبة ، وأنها من أرض الجنّة ، سيّما وفيها المحشر . وهى عُشُّ الأنبياء . فلقّبوه بهذا اللّقب ، لصدورِ الأفعالِ الجميلة منه ، كما أنَّ أرضَ الشام نباتُها كلُّها جميل ، ومعنى التِّيراب بلغتهم : الحبوبُ التى تُزرع فى التُّراب ، [و] التى يُعبِّر عنها أهل مصر بالتَّقاوِى . وأهلُ المغربِ بالزَّرِّيعة . ولقّبوه بذلك لأنّه كان رجلاً كريماً حليما ، واسعَ

(١ و ٢ و ٣) كانت الأقاليم الواقعة بين كردفان وبحيرة تشاد خاضعة لحكم التنجور ، ثم قامت علىأنقاض دولة التنجور فىالقرن السابع عشر للميلاد ثلاث ممالكاسلامية هى من الشرق الى الغرب : سلطنة دارفور وسلطنة واداى وسلطنة باجرمى • أما سلطنة واداى فتأسست حوالى سنة ١٠٢٠ هـ (١٦١١ م) على يد أسرة من قبيلة الجوامعة تعرف بالجَمير بقيادة زعيمهم وودا • ثم دخل هذا الزعيم مدة فى خدمة ملك التنجور واستطاع حفيده عبد الكريم أن يقضى على حكم التنجور سنة ١٦١١ م وأن يؤسس دولة اشتهرت باسم واداى نسبة الى جده وودا • وخلف السلطان عبد الكريم من سلالته عدة سلاطين منهم السلطان محمد جودة الذى عرف كذلك باسم محمد صليح أى المخلص وذلك لأنه نجح فى صد هجوم قام به أبو القاسم سلطان دارفور (١٧٣٩ ــ ١٧٥٢ م)وغدت بلاده تعرف كذلك باسم دار صليح أو دار واداى

Barth H. : Travels and Discoveries in North and Central Africa, III, pp. 528-530.

Cf, Palmer, R. : The Bornu Sahara and Sudan, p. 102.

(٤) سبقت الاشارة الى أن البرقو من سكان واداى ، وأن جماعة منهم هاجرت الى دارفور • وقد تعرف بلاد واداي كذلك ببلاد برقو نسبة الي سكانها •

الصدر ، جيّد التدبير ، شفُوقاً[1] على المساكين . وكان إناءة[2] ، وكان فيه مُجون ، يحبُّ الزينة وأنواع الملاهى .

وكانت أيامه كلُّها خِصباً ودَعَةً ورخاءَ أسعار . إلاَّ أنه[3] آخرَ أمرِه كرهتْه الناس ، لظلمِ أولاده ، لأن له ما ينوفُ عن ثلاثين ولداً ذكراً[4] غير الإناث . فصاروا يركبون ويجوسون خلال البلاد ، وكلَّما سمعوا بشيء جميل أخذوه من (٧٠) صاحبه ، ويكلِّفون الرعيةَ ما لا تُطيق ، حتى كان فيهم ابنٌ له يقال له : مُساعد ، كان من عُتُوِّه وتجبُّرِه يأبَى أن يَركبَ الخيلَ ، بل كان يركَبُ ظهورَ الآدميِّين . فكلما وجد شابًّا أمر بالقبضِ عليه وركبَه حتى أعياه ، وربَّما سافَر السَّفَر البعيد ، لا يركبُ فيه جواداً ولا حماراً ، بل ينتقلُ على الناس حتَّى ينتهىَ سَفَرُه . وإذا لم يجد غريباً ركبَ [رجلا][5] من جماعته ، وكانت الرعيَّةُ ترفع شِكايتَهم لأبيهم ، فكان لا يشكُوهم[6] ولا يقبلُ منهم [شكاية] . بل ربَّما غضِب وقال : إن هذا لَهُو العَجَب . إقليمٌ مثلُ هذا لا يتحمَّلُ أولادى ، وكلَّما عملُوا صغيرةً يشكون إليَّ ؟ ! فلما رأى الناسُ ذلك أبطلَتْ الشكوَى ، ورفَعت أمرَها إلى الله عزَّ وجلَّ .

وكان قد وَلَّى المناصبَ الجليلَة لأقارب أزواجه ، فكانت جميعُ وزرائه أقاربَ زوجاته ، وكان أكبر أولادِه إسحاق المسمّى بالخليفة .

---

(١) كذا ، وهو خطأ شائع ، والصواب شفيقا .
(٢) كذا بالأصل ، ولعل المقصود : ذا أناة .
(٣) فى الأصل : أن
(٤) فى الأصل : ولد ذكر .
(٥) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 57
(٦) كذا .

وكان إسحاقُ المذكورُ شجاعاً مُهابا ، ذا رأيٍ وحزم ، إلّا أنه كان فيه نوع ظلم وجَور . وسببُ تسميته بالخليفة : أنّ أباه جعلَه خليفةً بعده ، ولقّبه بهذا الاسم ، وجعل له دولةً كدولته ، ووزراءَ كوُزرائه . فكلُّ وزيرٍ كبيرٍ له ولد ، كان السلطانُ يأمره أن يأتى بابنه للخليفة ، ليكونَ عنده بمنزلةِ أبيه عند السلطان ، ومكث على ذلك مدةً ، حتّى سافر السلطانُ تيراب (٧١) إلى كُرْدُفال[1] ، وأبقاه خليفةً فى دارفور ، كما يأتى بيانُه إن شاء الله تعالى .

وكان السلطان تيراب يحبُّ الخلاعةَ والانبساط ، حتى كانت الشبان تلعبُ مع البناتِ أمامه ، أى يرقُصْنَ البناتُ والشبّان ، وهو ينظر إليهم . فمّا اتفّق أنْ جاءت أمامه طائفةٌ من البِرْقِد[2] ، وهم قبيلةٌ من السودانِ لهم رقصٌ معلوم ، يسمَّى: تَنْدَنْجيه[3] .

ومن عاداتهم إذا تعبوا من الرّقص ، تجلس كلُّ فتاةٍ وشاب معا على حِدة . فلعبوا حتى تعبوا ، وتفرّقوا وجلسوا على عاداتهم ، فقال الشاب للفتاة : أترضِى[4] أن أكونَ لكِ زوجاً ؟ فقالت : نعم ، ما الذى تعطينى من المهر ؟ فقال لها : أنا رجل فقير ، ولا أجد شيئاً أعزَّ من المُقابلِ لنا هذا ! وأشار إلى السلطان ، وكان السلطان جالساً على كرسيّ ، مقابلاً لها . فقالت الفتاة : قد رضيتُ . ونظر السلطانُ

---

(١) فى الأصل كوردفال بالواو واللام ، وقد حذفنا الواو لأنها سترد كثيرا بدونها بعد ذلك . أما الصيغة المتداولة فى الوقت الحاضر فهى كردفان بالنون .

(٢) البرقد : قبيلة تسكن شمال وشرق قبيلة الداجو ، بين جبل حريز ومنطقة الرزيقات . وتسكن شعبة منهم على مسيرة يوم شمال شرقى مدينة الفاشر ، وشعبة أخرى فى وآداى : ويقول بارت : انهم من أصل زنجى . انظر .
Mac Michael, H.A. : A. History of the Arabs in the Sudan, Vol, I, pp. 77-79

(٣) فى الأصل : تندكه بكاف فوقها ثلاث نقط .

(٤) كذا بدل : أترضين .

لإشارتهما له ، فدعَا بهما ، فلما مَثَلا[1] بين يدَيْه سـألهما عن ذلك ، فقال الشاب : إنى سألْتُ محبو بتى هذه فى أن تتزوَّجنى فرضِيَت ، وطلبتْ منِّى المَهر ، فقلت : لا أملك شيئاً أعزَّ من هذا المُقابلِ لى . وأشرتُ إليكَ . فانبسطَ لقوله وقال : أرضيَتْ بى مهراً لها ؟ قال : نعم . فقال السـلطان : أترضينى[2] بالفـداء وأنا أفدِى نفسى ؟ قالت : نعم ، أرضى . فدعَا بأبيها وخَطَبها منه ، وعَقد له عليها ، وأمهرها جاريتين ، وأعطى الرجلَ (٧٢) عَبداً ، وأمر لهما برزقٍ يعيشان منه[3]. وهذا نهايةُ مكارم الأخلاق ، إذ لا شيء أعظمُ من جمعٍ بيْن مُتحابَّين فى الحلال .

ومن ذلك ما حُـكى عن أبى بكر الصِّديق رضى الله عنه ، أنه كان فى أيام خلافته يطوفُ فى المدينة المنوَّرة بالليل ، ليقفَ على أحوال الناس ، و يعلمَ مظلومَهم من ظالمهم[4]. و بينما هو فى طوفه ، إذ سمع جاريةً تغنِّى وتقول ، شعراً من الكامل :

وهَويتُه من قبـلِ قَطعِ تَميمَتى ... متمايسٌ مثـلَ القضيب النَّاعمِ
فـكأنَّ نورَ البـدرِ يشبهُ وجهَه ... يغيب و يبدُو من ذؤابة[5] هاشم[6]

فطرَق — رضى الله عنه — البابَ ، وقال لها : مَنْ هَويتِ ؟ فقالت : إليكَ عنِّى . فقال : لا بدَّ وأن تُعلمينى . فقالت له : بحقِّ صاحب القبر إلا انصرفت عنى . فقال : والله لستُ بزائلٍ من مكانى هذا حتى تُعلمينى .

---

(١) فى الأصل : مثلا ، بضم الميم .
(٢) كذا .
(٣) فى الأصل : فيه .
(٤) فى الأصل : ظالم .
(٥) فى الأصل : ذواية .
(٦) كذا ، والشطر على هذه الصورة من الطويل لامن الكامل .

فتنفست الصُّعَداء ، وقالت :

وأنا التى قرح الغرامُ بقلبها فُتِنَتْ[1] بِحُبِّ محمدِ بنِ القاسمِ

فقال لها : أَحُرة أنتِ ؟ فقالت : لا ، بل مملوكة . فقال : لمنْ ؟ قالت : لفلان . [و]سمَّته له . فتوجَّه رضى الله عنه ، ولمَّا أصبح سأل عن محمد ابن القاسم ، فوجده غازياً بالعراق . فأرسل إلى مولاها واشتراها منه ، وأرسلها إلى محمد بن القاسم بالعراق ، وكتب له القصَّةَ ، ثم قال : واعلمْ يا بنيَّ أنه كم مات بهنَّ سقيم ، (٧٣) وعَطِبَ بهِنَّ سَليم !

ومن ذلك ما حُكى أنَّ[2] سليمانَ بن عبد الملك بن مروان كان غيوراً على النساء جدًّا ، حتى أنه ربما سَفكَ دمَ مَن ظنَّ أنه نظَر لبعضِ محاظِيه نظرَ عِشق .

فاتفَّق له أن أَحْضر مُغَنِّياً فى بعض الأيام ، وكان فى النهار ، فأجلسَ المغنِّيَ تحتَ السرير وأمره أن يغنِّى ، واستلقى على ظهره على السرير ، وكانت معه جارية تُروِّح عليه من شدةِ الحرّ ، فأخذه النَّوم ، فرفع المغنِّى رأسَه على حين غَفلة ، فرأى الخليفةَ قد نام ، والجاريةُ تروِّح عليه . فتأمَّلها فوجدها كالشمس فى رابعة النَّهار ، فافتَتن بها ، ولم يقدِر على التكلُّم خوفاً من الخليفة ؛ فانهملتْ دموعُه ، وهاج وُلوعُه ، فأخذ قرطاساً وكتب فيه ، شعراً من الكامل[3] :

إنِّى رأَيتُكِ فى المنامِ ضجيعَتى مُسترشِفاً من ريق فيكِ الباردِ
وكأنَّنا وكأننا وكأننا بِتْنا جميعاً فى فِراشٍ واحدِ

---

(١) فى الأصل : فتنت ، بسكون النون وضم التاء الثانية .

(٢) كذا ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى مواضع أخرى .

(٣) فى هامش الأصل : الرجز .

ثم ألقاهُ عليها ، فأخذته وقرأته ، وكتبتْ له فيه ، من الكامل[1] :

خيراً رأيتَ ، وكلُّ ما أمَّلتَـــهُ ســـتناله منِّى برَغم الحاســـدِ

وتبيتُ بينَ خـــلاخِلى ودَمالجى وتحُلُّ بين مَراشِفى وســـواعدِى

ونــكونُ أولَ صاحبيْنِ تلاقيا رغمَ الزمانِ بلا مخافةِ حاســـدِ

ورمتْ القرطاسَ إليه ، فالتَقَفه[2] الخليفةُ قبل أن يصلَ إليه . فلما قرأه احمَرَّتْ عيناه ، وكاد يتميزُ غيظاً ، وقال : ماحملَكُما على ما صنعتُما ، أحُبٌّ (٧٤) قديمٌ بينكما ؟ أم عشقٌ خامَرَكُما فى هذه الساعة ؟ فقالا : بل واللهِ فى هذه الساعة ، ولم يكن لنا به عهد قبل ذلك . وانهمَلَت دموعُها ، فلما رأى منهما ذلك رَقَّ لهما ، وقال للمغنى : خـذها ولا تَعُدْ تقارِبُنا . انتهى .

فعاش السلطانُ تيراب مدةً مديدةً كما ذكرنا ، وأكثرمن الأزواج والسَّرارِى ، حتى كان له من الوَلد أكثرُ من ثلاثين ذَكَراً راكبينَ الخيلَ ، غيرَ الإناث والصِّغار .

وفى أيامه تلك خَدمَه [الأب] الشيخ محمد كُرَّا ، وكان غلامًا مراهقًا ، فأمره أن يكونَ فى الـكُورْكُوَا[3] ، أى : أهل الحرب . أى : يكون مع الجماعة الذين يحملون الحِراب خلف السلطان ، حين يركبُ وحين يجلس للحكم . ولا خصوصيَّةَ للسلطانِ فى ذلك ، بل كل ملكٍ من ملوك الفور ، وقائدٍ من قوادِهم ، له جماعةٌ يحملون الحرابَ خلفه ، حين يركبُ

---

(١) فى هامش الأصل : الرجز .

(٢) التقفه : تناوله بسرعة .

(٣) يطلق اسم كوركوا فى دارفور على حاملى الحراب وهم حرس السلطان أو غيره من الولاة والشراطى والدمالج ، ويطلق كذلك على الفرقة الموسيقية الملحقة بقصر السلطان ومن هم دونه من الحكام كذلك . فمن الكوركوا : المغنون ونافخو الصفافير وضاربو الطبول ومن اليهم Voyage au Darfour, pp. 62, 161, 178 وفى (Arkell: S.N.R., XXXIII, I, p. 59) أن الكوركوا كانوا من طبقة العبيد .

أو يجلسُ للحُـكم ، يُسمَّوْن : كُورْ كُوَا . ويرونَ أنَّ ذلك من تمامِ نظامِ المُلك ، حفظاً للناموس ، وهيبةً للمخدوم فى قلوب رعاياه .

فخدم [الأب] الشيخ محمد كُرَّا فى تلك الخدمة مدةً ، وظهرتْ منه علاماتُ النجابة ، فأحبَّه السلطانُ تيراب ، ونقلَه إلى « سو مِينْدُقُلَه » ، والسُّوم ، هو : الدُّرَا[1] ، و « ين » هو علامةُ الإضافة . و « الدُّقُلَه » هو العيال . ومعناه : دُرَا العيال . و« الدُّرَا» بلغتهم العربية: اسم للمحلِّ أو الدار . وأهل « سو مِينْدُقُلَه » هم الأُمناء على مصالح المخدوم ، يرسلُهم فى أسراره . [و] رئيسُهم (٧٥) أعظمُ مقاما من رئيس كُورْ كُوَا .

فأغنى فى خدمته ، حتى أَنَّ السلطانَ كان لا ينادى فى أكثر حوائجه غيرَه . فحسدَه بعضُ أهل الدار ، فسعى به إلى السلطان قائلا[2] : إنَّ محمد كُرَّا خائن غدّار ، وأنا أراه يجتمع هو وفلانةُ الحظِيّة فى كل ليلة ، وتأتيه بالطعامِ الجميل ! فغضبَ السلطان لذلك ، وهمَّ بالبطشِ به . فبلغ الخبرُ إلى كُرَّا ، فأَخَذ مُديةً واختلَى بنفسه فى حجرة ، واستأصل مَذَاكيرَ نفسه بيده ، وجاء بها إلى السلطان ، وكان قريباً منه ، وألقاها بين يديه وقال : إنَّما قيل فىَّ ما قيلَ لمصاحبتى لهذه ، وها أنا قد استأصلتُها لئلاَّ يبقى فى قلبِ مولاى منّى ريب . ثم سقط مغشيًّا عليه . فرحمه السلطان وأمر بمداواته ، فعولجَ حتى بَرِئَ .

ثم إن السلطان أمرَه أن يكون صُحبةَ الأَمينِ[3] عَلِى وَدْ جامع أحدِ الوزراء

---

(١) فى الأصل : الدار .

(٢) فى الأصل : قائل .

(٣) كان مجلس السلطان أو فاشره يضم حوالى اثنى عشر وزيرا من بينهم الأمنـاء الأربعة أى الوزراء العظام ورئيسهم الأب الشيخ وهو الوزير الأعظم (Balfour-Paul, V.G. op. cit p. 18) ويبدو أنه كان لكل من أولئك الأمنـاء الأربعـة =

العظماء[1] ، ووصّى عليه الأمينَ المذكورَ ، بأن قال له : خذ هذا الغُلام إلى دُرَاك ، واعتنِ به وأكرمْه ، وإياك أن تتهاون به ، فإنى أرجو أن يخلُفك فى منصبك .

فأخذه الأمينُ على مَضَض منه ، ووضعه فى سوميندُقْله[2] ، كما كان عند السلطان. وقد ذكرنا قريباً أن أهل سومِينْدُقْلَه هم الأمناء على المصالح المهمّة ، يرسلُهم المخدومُ فى أسراره .

فجلس كُرَّا فى ذلك المحلِّ مدةً ، وكان لا يغيبُ عن باب مخدومه . وكلما نادى الأَمينُ على أحدٍ من أهل (٧٦) سُومِينْدُقْلَه يجيبُه محمد كُرَّا ، بل ربَّما لم يجدْ غيرَه ، فـكان يرسلُه فى قضاء مصالحه ، وكان من عادته أَلَّا يذهبَ لقضاء مصلحةٍ إلّا نجح

= عمل خاص فى الحكومة المركزية . فأمين لشئون العسكر السلطانى وأمين لأموال السلطان وخزائنه ، وأمين لشئون الخيل والدواب ، وأمين للأسلحة . ويقوم مجلس الأمناء ــ فضلا عن مساعدة السلطان فى تدبير شئون الدولة ــ باختيار السلطان الجديد عقب وفاة السلطان بعد استشارة وجوه القوم حسبما يقضى به الرسم فى وراثة عرش السلطنة . وللأمين مجلس للحكم وحرس وأمناء على مصالحه الخاصة مثل السلطان ما عدا شارات الملك ولكل منهم اقطاع خاص وجيش خاص كذلك Voyage au Darfour, pp. 64, 65, 71, 84, 85, 173, 174.

(١) المقصود بالوزراء العظماء هنا وزراء السلطان فى دارفور ويلاحظ أن الرسم جرى فى سلطنة دارفور على أن يكون لحكام الأقاليم كالشراتى مثلا نظام حكومى على غرار نظام السلطان ، يحمل موظفوه فى الغالب نفس الألقاب التى يحملها موظفو السلطان فى العاصمة cf. MacMichael, op. cit. pp. 104- 105

(٢) أى : وضعه فى السوميندقله الخاص به أى بالأمين . ولعل أهم عمل السوميندقلة تربية أبناء السلطان والأمراء وأفراد البيت المالك تربية تؤهلهم ــ فيما بعد ــ للاضطلاع بأعباء الحكم . والسوميندقله كاتم أسرار السلطان ومبعونه الخاص . ويلاحظ أنه كان لكل من كبار رجال الدولة سوميندقلة خاص ، يؤدى عمل سوميندقله السلطان . وعلى جماعة السوميندقلة رئيس يعرف بملك السوميندقلة وهو « عظيم القدر ذو أبهة عظيمة واقطاع »

Voyage au Darfour, pp. 62. 63, 64, 174.

وأغْنَى فيها ، فأحبّه الأمينُ قهراً عنه ، لمـاَ رأى من كفايته ، فجعله مَلـكاً[1] على أهل سو مِينْدُقُلَه ، وميَّزه عنهم ، فصارتْ جميع الخدَمةِ تحت يده ، يأتمرون بأمره .

وحين وُلّى هذا المنصبَ اجتهدَ فى الخدمةِ زيادةً عما كان عليه ، ولازمَ باب مخدومه ، وكان فى الأمين نوعُ إهمالٍ للأمور .

منه : أنه كان يأتيه من الطعام وقتَ الغداء والعَشاء ، ما ينُوفُ عن ألفِ إناء ، فـكان لا يلتفتُ إلى ذلك ، بل كان يأتيه هو ومَن معه ما يكفيهم ، والباقى تتوزَّعُه الخدَمه بغيرِ ترتيب ، وكثير من الآنية ما يرجعُ إلى الحريم ملآ نا[2] ، فالتفت محمد كُرَّا إلى ذلك ، ورتَّبه أحسنَ ترتيب ، وهو أنه كان يبثُّ الخدَمة فى أتباعِ سيِّدِه ينظرون مَنْ عنـدَه ضيفٌ منهم ، فيأتونه بالأخبـار ويقولون : فلان عنده ضيف ، وفلان . وهَلُمَّ جرًّا .

فـكان إذا حضر الطعامُ ، اختار لمخدومِه مِن أحسنِه ما يكفيه هو ومن معه ، ثم يوزِّع على الخدَمة كفايتَهم ، ثم يوزِّع الباقىَ على محالِّ الضيوفِ ، كل منها على حسبِ حالِه فى المرتبة والغنى والجاهِ والعِلم ، ويوصّى الحاملين أن يقولوا : إن الأَمينَ أرسل لـكم هذا ضيافةً . والأمينُ لا يعلمُ شيئاً من ذلك . فصارتْ الناسُ تشـكر الأَمينَ وتتمدَّح به . (٧٧) وحين يأتون إليه يقولون : جزاكَ اللهُ خيراً . أرسلتَ لنا الضِّيافةَ العظيمة ، فلا يوجَدُ نظيرك فى أمناء السلطان . ويُثْنُون عليه غَيْبةً وحُضوراً .

فـكان الأمين يتعجَّب من ذلك ويقول : هؤلاء يُثْنُون علىَّ ، ويقولون إنى أرسلتُ لهم الطعام ، مع أنى لم أفعلْ شيئاً من ذلك ، لأنَّه لا يعلَمُ سببَه . وبقى متحيِّراً ،

---

(١) المقصود بالملك هنا رئيس جماعة سوميندقله .

(٢) كذا

كيف يعلمُ سببَ ذلك ، حتى اتَّفقَ له أَنْ كان فى الحريم عند المَساء ، وجاء خارجاً إلى الدِّيوان ، فرأى محمد كُرّا يوزِّعُ الأطعمة . فلما أحسَّ بذلك تربّس وأكمن[2] فى محلٍّ ، فسمعَ [الأب] الشيخ محمد [كُرّا] يقول للخَدَمة : كم فى بيتِ الملكِ فلان من الضّيوف ؟ فقالوا له : كذا وكذا . فقال : احمِلُوا لهم كذا وكذا إناءً ، وقولوا لهم : قد أرسل هذا العَشاء الأمينُ . حتى وزَّع الطعامَ كلَّه . فقال : مِنْ هُنا جاء العمل . فضَنَّ به وأكرمه ، وأعْلى رتبتَه ، وجعله [ملكاً][3] على الكورايات . وفى عُرفِهم : هو الّذى يحكُمُ على الخيلِ وجميع الخَدَمة ، وهو منصبٌ جليلٌ عندهم ، وإن كان فى عُرفِ غيرهم لم يخرجْ عن كونه رئيس السُّيّاس .

وأقام محمد كُرّا فى صحبة الأمين عَلِيّ عَلَى هذه الحالة ، حتَّى سافر الأمينُ عَلِيّ إلى كُردُفَال ، صحبةَ السلطانِ تيراب ، وسافر معه [الأب] الشيخ محمد كُرّا .

سبب سفر السلطان محمد تيراب إلى كردفال[4]

قد حَكى لى الثِّقة العارف بالأنساب أنّ السلطانَ سُلُونْج[5] (٧٨) المدعُوّ سليمان، الجدَّ الأولَ لسلاطين دارفور ، كان له أخ يقال له : المُسَبَّع ، فاقتسم هو وأخوه الإقليمين

(١ و ٢) كذا ، بالسين فى الكلمة الأولى ، والهمزة فى الثانية ولعلهما لهجتان ، بدل : تربص وكمن .

(٣) هذه الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 66 .

(٤) انظر حاشية ١ ص ٧٦ .

(٥) فى الأصل : بفتح السين ،

والسلطان سلونج أول سلاطين دارفور الذين حكموا البلاد من حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى الى سنة ١٩١٦ م ويحيط بنسب هذا السلطان الغموض . فثم رواية تقول انه عربى من بنى هلال وانه اتصل بالفور عن طريق المصاهرة . ورواية أخرى تقول انه ابن أحمد المعقور من بنى هلال أيضا أو من سلالته . ورواية ثالثة تقول انه سبق حكم سليمان أربعة عشر سلطانا يحملون=

فأخذ السلطان سليمان إقليمَ دارفور ، وأخذ المُسَبَّع إقليم كُردُفال . وتعاهدا ألّا يخون أحدٌ منهما صاحبَه ، فبقيا كذلك ، حتى فى زمنُ السلطان محمد تيراب .

كان الوالى عَلَى كُردفال من أولاد المسَبّع ، السلطان هاشم المُسَبَّعاوِى ، وكان فيه شهامةٌ وشجاعة ، و إقدام على الأمور الشـاقّة . فأكثر الغَزَوات على بلاد التُّروج (1) والعَرب البادية ، حتى صار ذا مالٍ عظيم ، وصـار عنده من العبيد ما ينوفُ عن عشرةِ

= أسماء عربية . ومما زاد هذه الروايات اضـطرابا ادعاء كل من الكنجـارة والتنجور الانتساب الى بنى هلال . والراجح أن الكنجـارة ــ وهم خليط من العرب والفور ــ صاهروا التنجور ، ونشأ عن هذه المصاهرة ظهور أسرة كيرا التى انتزعت حكم دارفور من التنجور . وكان السلطان دالى أول سلاطين هذه الأسرة ثم خلفه ابنه كورو ثم سليمان بن كورو . وهو سليمان سلونج . ومما يؤيد اتصال سليمان بالنسب العربى أن لقب سلونج فى لغة الفور معنـاه « العربى » أو « من يتكلم اللغة العربية » أو « من يدين بالاسلام دين العرب » .

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن سليمان سلونج خاض غمـار ٣٣ معركة استطاع بعدها أن يعيد للبلاد وحدتها وأن يخضع لسلطانه جمـاعات البرقد والزغاوة والبرتى والبيقو وبعض جماعات المساليط . كما قضى على حركة قام بها التنجور لاسترداد ملكهم . ثم تفرغ لبناء سـلطنته على أسس سـليمه باستئناف حركة نشر الاسـلام التى يحتمل أن يكون أصابها الركود خـلال الحروب الداخلية . وتوفى سنة ١٦٧٠ ودفن فى ترة ، فخلفه ابنـه موسى . أنظر :

MacMichael, H.A. op. cit. p. 92, Lampen, S.N.R. XXXI, II, pp. 183-185.
Arkell, S.N.R. XXXIII, II, pp. 266-268.

نعوم شقير : (تاريخ السودان ، ج ٢ ، ص ١١٤ ــ ١١٥) .

C.F. Nachtigal, op. cit. pp. 356-360

Slatin, Fire and Sward in the Sudan, p. 38

(١) كانت جبال نوبا بجنوب ووسط كردفان ــ ولاسيما منطقة جبـل تقلى زمن المؤلف ــ تعرف ببلاد التروج ، حيث دأب السلطان تيراب على جلب اعداد من الرقيق أسكنهم بجوار مدينـة كبكابية . وعرف أولئك الرقيق المجلوبون ابانئذ باسم العبيدية MacMichael, H.A. op. cit. p. 90

آلاف عبدٍ حامل للسلاح . واجتمعَتْ عليه أوباشُ[1] الناس من الدَّناقلة[2] والشايجية[3] والـكَبابيشِ[4] وعرَبِ الرِّزيقات[5] ، حتى صار فى جُندٍ كثيف .

---

(١) فى الأصل : ارباش

(٢) الدناقلة : احدى المجموعات النوبية الخمس ، وتسكن المنطقة الممتدة على طول النيل مابين بلدتى الدبة وأبو فاطمة • ويتكلم الدناقلة ــ الى جانب اللغة العربية ــ لهجة نوبية تشبه لهجة الكنوز فى الشمال • ويشبه الدناقلة فى مظهرهم الطبيعى جيرانهم العرب البديرية ، بسبب كثرة الدماء العربية التى تجرى فى عروقهم • محمد عوض محمد : (السودان الشمالى ص ٣٠٢) •

(٣) كذا فى الأصل بالجيم والشايقية : أبناء عمومة العرب الجعليين • وتمتد أوطانهم على طول ضفتى النيل من نهاية الشلال الرابع الى مصب وادى الملك • ويصف ماكمايكل الشايقية بأنهم يمتازون بغلبة النزعة العسكرية عليهم والميل الى المغامرة • وكان الشايقية فيما مضى تحت حكم أربعة مكوك منهم خاضعين للعبد اللاب فى مدينة قرى • ثم انتهزوا فرصة النزاع الداخلى بين الفونج والعبداللاب ونالوا استقلالهم • أواخر القرن السابع عشر الميلادى • وفى خلال القرن الثامن عشر أغار الشايقية على بلاد النوبة حتى أرغموا كثيرا من سكانها على هجر أوطانهم ، ووصلوا فى اغارتهم غربا الى كردفان
MacMichael, H.A. op. cit. pp. 213-220.

(٤) الكبابيش : من أعظم القبائل الأبالة وأكثرها شهرة فى السودان • ويملك الكبابيش ــ الى جانب الابل ــ أعدادا ضخمة من الضأن وهى أصل ثروتهم ولذا سموا الكبابيش • ويمثل وادى الملك المحور الأساسى لأوطانهم الواقعة كلها شمالى خط عرض ١٤ شمالا • وليس للكبابيش حدود واضحة فى الشمال • أما فى الغرب فانهم يقتربون فى تجوالهم من حدود دارفور ، ويقتربون شرقا فى فصل الجفاف من اقليم دنقلة على النيل • وينتمى الكبابيش الى بطون عربية من جهينة مختلطة بعناصر قديمة من بينها البجة والنوبيون (العنج) وهؤلاء لاتتجاوز نسبتهم ٣٠ ٪ كما يبدو من أسماء بعض البطون ذات الصبغة الحامية • MacMichael, H.A. op.cit. pp. 307-315
محمد عوض محمد : (نفس المرجع ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤٥)

(٥) الرزيقات من أكثر قبائل البقارة فى دارفور ثروة وأشدها قوة • وموطنهم بأقصى جنوب شرق دارفور • وهم رعاة ماشية • وينقسمون الى ثلاث شعب : الماهرية والمحاميد والنوايبة وهناك ثلاث قبائل بهذه الأسماء فى شمال دارفور ، وكلهم رعاة ابل (أبالة) وبعض الرزيقات يعيش على حدود وادى
Maç Michael. H.A., op. cit. pp. 290-92

فطمعتْ نفسُه فى تملُّك دارفور ، واستشار أربابَ دولته فى ذلك ، فأشــاروا عليه أن يبثَّ السَّرايا أوَّلاً على أطراف البلاد ، ليُضعِفوا أهلَ مملـكةِ دارفور ، ثم بعـد ذلك يتوجَّهُ إليها . فســمع قولَهم و بثَّ السَّرايا على أطرافِ مملـكةِ دارفور ، فقتَلَتْ وسَبَتْ واغتنمتْ أموالاً عظيمة . فأرسلَ الـسلطانُ تيراب إلى السلطانِ هاشم يقولُ له بعدَ السَّلام :

يا ابنَ عمِّى ، أرسلتَ سَراياكَ على أطراف[1] بلادى ، وأنتَ تعلمُ ما بيننا من (٧٩) المودّة ، ولم يقعْ منَّا ما يخالفُ المودَّة ، مع أنكَ تعلم أن الذين أُخِذتْ أموالُهم مسلمون ، والذين قُتِلوا موحِّدون ، وهذا الفعل لا[2] يبيحُه أحد ، ولا يفعلُه عاقل. فإذا وصلكَ كتابى هذا فانْتَهِ ، و إلاّ سيَلْقَى الباغى مَصْرَعَه والسلام .

فلمـا وصلَه الـكتابُ ما زاد إلا عُتُوًّا واستكباراً ، و بثَّ السَّرايا ثانياً. فعلم السلطانُ تيراب أنه إن لم يتداركْه و يستأصِلْ شأفتَه ، زاد شرُّه وأَخْرَبَ البلاد . فتجهَّز وتوجَّه إليه . وهذا هو السببُ الظاهر .

والسببُ الباطنُ أنه يعلَم أن النَّاس غير راضيين[3] عنه ، ولا يَرضَوْن بتوليةِ أحد من أولاده ، خصوصاً مع وجودِ أولياء عهـدِ السلطان أحمد بُـكُر ، الذين هُم أعمامُهم ، ولا سيَّما إذا تذكَّروا ماوقع منه ومن أولاده من الظُّلم ، وهو يريدُ أن يعهَدَ إلى أكبرِ أولاده المسمَّى بإسحاق الخليفة كما تقدَّم .

فاغتنم الفرصة حين وقع من هاشم ملكِ كُردُفال هذا الأمر ، واغتاظ فى الظَّاهر ، وأعلن أنَّ هذا الأمر لا يقومُ به غيرُه ، مع أنه لو بعث الأمين علِي أو أحد وزرائه ،

---

(١) فى الأصل : أطرف.

(٢) فى الأصل : لم

(٣) كذا وهى صيغة عامية وقد دأب المؤلف على استعمال مثل هذه الصيغة مرارا .

لكفاه مؤونَة السفر[1] والمشقّة ، ولكنْ أراد أن يسافرَ ويأخذَ معه جميعَ أولادِ السلطان [أحمد بُكُر] [2] كباراً وصغارا ، ويقتحِمَ بهم الحروبَ حتى يُهلِكَهم، ويُهلِكَ الوُزراءَ الذين لا يُحبُّون الولايةَ لابنِه ، ليتمكّنَ إسحاقُ من البلاد والأموالِ والرّجال ، (٨٠) وينفَرِدَ بالذِّكْر .

ولما كانت هذه نيّته ، جمع جميعَ أولادِ السلطان والوزراء الكبار ، وأبقى مع الخليفة أولادَ الوزراء ، كلّ منهم فى منصبِ والده ، وارتحلَ بهم عَلَى هذه النِّية ، وإن كان أخفاها فقد ظهَرتْ ، عَلَى حَدِّ قول القائل ، من الطويل :

ومهما تكُنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ   وإن خالها تخفَى على النّاسِ تُعلَمِ

مع أنّه عُومل بخلافِ قصدِه ، وأعقبهُ الله تعالى بقتلِ ولدِه ، ولم ينفعْ تدبيرُه بشىْءٍ ، ورحم الله القائل ، من مجزوء الرمَل[3] :

إنَّ ألطافَ إلَهى   لم تدعْ فى الكونِ ضَنكا

كلَّما رُمتُ احتيالاً   لِىَ ، قالت : خَلِّ عَنكا

سَلِّمِ الأمرَ إلينا ،   نحنُ أولىٰ بكَ منكا

وفى كون الأُمورِ دائماً تأتى على خلافِ المُراد قال المتنبىِّ ، من البسيط :

ما كلُّ ما يتمَنَّى المرءُ يُدركُه   تأْتى الرياحُ بما لا تَشتَهِى السُّفُنُ[4]

فلما سمع [هاشم] ملكُ كُردُفَال بقدومه ، فرَّ هو وجماعتُه ، واستجار بملكِ سِنّار[5] ،

---

(١) فى الأصل : للسفر .

(٢) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 62

(٣) فى الأصل : المديد

(٤) وفى رواية : تجرى الرياح بما لايشتهى السفن والسفن بكسر الفاء الملاح .

(٥) لعل ملك سنار وقتذاك هو الملك عدلان الثانى
وفى نعوم شقير : (تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته جـ٢ ، ص١٢١)=

وأقام عنده ، فدخلَها بغيرِ حَرب ، وصار يبُثُّ السرايا والجندَ فى أطراف البلاد حتى دوّخها، وجَبى الأموالَ ، واستقامت الأحوال .

فمكثَ على ذلك حتى حال الحَوْل ، وملَّتْ الناسُ من المُقام وسألوهُ العوْدَ إلى بلادهم ، فغضبَ لعدمِ ظَفَره بما أمَّل . لكنَّهُ أخفى ذلك وقال (٨١) لهم: كيف ترجعون ، وقد بلغنى أن هاشم استجار بملكّ سنّار ، والملكُ قد جهَّز له جيشاً و يريد القدوم علينا ؟ فإن رجعنا وجاء بعدَنا ، ظنَّ أنَّا فررْنا منه ، ونال من البلد مرادَه ، و بعــد ذلك يغزونا ، ويحوجنا إلى الرجوع له ثانياً . وأنا الآن مضمرٌ أنى أتوجّه إليه قبل أن يأتى ، ولكنْ حتى أتحقّقَ الخبر .

ومكثوا بعد ذلك مدةً ، فلم يظهرْ لمــا قالَه أثر ، فتنكَّرتْ قلوبُهم ، وساءتْ أحوالُهم ، واشتاقوا إلى أهلِهم وعيالِهم . وتذاكروا مع بعضِهم فى ذلك فى خَلوة . فقال الوزيرُ الأمينُ عَلِى وَدْبَرْقُو ، وكان صِهرَ السلطانِ ، أى أن السلطانَ كان متزوجاً بابنته : ماذا جعلتُم لى إن قتلتهُ وأرحتكُم منه . وتُولُّون بعدَه عليكم من شئتم ؟ فضمِنُوا له مالاً عظيما ، وتعاهدوا معه على ذلك . وجعل بينَه وبينَهُم العلامةَ صوتَ الطَّبل . فمهما سمعوا الطَّبلَ يكونوا على أهبةٍ مستحضَرين[1] .

= أن السلطان تيراب وصل فى تقدمه شرقا حتى بلدة أم درمان حيث نشب قتال بينه وبين جيش العبد اللاب انهزموا بعده الى سنار . واستولى السلطان تيراب على نحاسهم . وحاول عبور النيل فلم ينجح وعاد الى دارفور وفي طريقه اليها توفى فى بارة . انظر تفاصيل هذا الحادث فى نعوم شــقير : (نفس المرجع والصفحة) .

(١) مستحضرين ، أى : مستعدين ، وهي لفظة عامية .

فصبر الأمين عَلِيّ حتى جَنَّ اللّيل ، ولبس دِرعَيْن سابغَيْن متينيْن ، ولبس ثيابه عليهما ، وتقلَّد بسيفه[1] . ودخل دار السلطان وقصد حجرة ابنته ، لِمَا يعلم من حب السلطان لها ، لأن السلطان كان له بها مزيدُ اعتناء ، فكثيراً ما كان يجده عندها .

فلما دخل عليها عرفت الشَّر في وجهه ، وخانه جَدُّه أَن السلطانَ لم يكنْ عندها فى تلك الليلة . فسألها عن السلطان . فقالت : لا أعلم أين هو . ولكنْ إن (٨٢) أردتَ ، بحثتُ لك عنه ، وأعلمته[2] بقدومك . فقال لها : نِعم ماتَصنعين ، لأَنِّى شديدُ الاحتياج إليه فى هذه الليلة . وكانتْ فى وقتِ محادثتها له ، رَأَتْ طَوقَ الدِّرعِ من تحتِ طوقِ الثوب فتأكّدتْ الشَّرَّ ، وذهبتْ إلى محلِّ السلطان ، وأعلمَتْه أَن أباها جاء طالباً له ، وأنها رأت منه أموراً أنكرتها . منها : أنه لابسٌ درعاً تحت ثيابه ، ومتقلِّدٌ سيفَه . مع أن العادة [أنهم] لا يدخلون على السُّلطان بسيفٍ أبداً . ومنها : أن فى وجهه علامةَ الغضَب . فأحسَّ السلطانُ بالشر لأنه هو الذى كان يُلحُّ عليه بالعَود . و يبالغ فى القول له . فأمرها ألاَّ تعودَ إليه . وخرج السلطانُ ، ونادى كبراءَ العَسَس ، وأمرهُم بالقبضِ عَلَى مَنْ جاءَ خارجاً من الدار ، وإنْ أفلتَ منهم لا يَلُومون إلاّ نفسَهم . وأخذ هو جماعةً منهم حرساً له ، متأَهِّبين بأسلحتهم ، وغاص فى لُجَّةِ داره ، ودخلَ فى حجرةِ[3] بعض نسائه ؛ واحتاط الحرسُ بها .

فجلس الأمين عليّ فى انتظار ابنته تعود ، فلم تعد إليه بخبر السلطان ، أو أنَّ السلطانَ يأتى إليه ليبلُغَ أَرَبَه منه ، فلم يأته أحد ، بل كان كالباحثِ عن حَتْفه بِظِلْفه ، والجادعِ

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : واعلمه .

(٣) في الأصل : حجر

مارنَ أنفِه[1] بكفِّه ؛ عَلَى حدّ قوله ؛ من مجزوء الهزج :

إلى حَتْفِي سَـعَى قَـدَمِى أرى قَـدَمِى أراقَ دَمِى

ولما أعياه الانتظارُ قام يريدُ الذهاب إلى داره ، خوفاً من أن يطلُعَ (٨٣) النّهـارُ عليه ويفتضح ، فمشى قليلاً حتى إذا قاربَ العَسَسَ نهضوا إليه ، وقالوا له : ارجِـع حيث كنتَ . فأبَى وعرَّفهم بنفسه ، لأجلِ أنْ يُخَلُّوا سبيلَه فما أمكن ، بل قالوا له : نحن مأمورون بالقبضِ عليك ، إنْ لم ترجِـعْ إلى المحلِّ الذى جئتَ منه . فسبَّهم وأراد أن يخرجَ قهراً عنهم ؛ فهجموا عليه ليُوثِقُوه حتى يُصبِح ؛ فقاتَلهم وجرح أناسًا منهم ، فتـكالبوا عليه وقتلُوه ، ولم يستفِدْ من بَغْيه ، إلا فَناءَ أَجَله . وهذا كما قال[2] عليه الصلاة والسـلام : « لـكلِّ باغٍ مَصرع » . أو كما قال ــ رحمه الله ــ السيد عَلِي الغراب ، حيث يقول ، من الخفيف :

زارعُ البغيِ حاصِـدٌ للنَّدامهْ فاطلبِ السِّلْمَ إنْ أردتَ السلامهْ

لا تثِـقْ بالمُنَى فما كلُّ باغٍ نال ما يرْتجِى ووُفِّى مَرامَـهْ

ربَّمـا كانتِ الأمانى مطاياً للمنـايا وموْرِدًا للندامـهْ

رُبَّمـا خيَّلَتْ لراجٍ مَنـالا مثلَمـا خيَّلتْ لرَاءٍ منامَهْ

رُبَّ ساعٍ ليَجتنى طِيبَ عيشٍ وهْوَ يَجْنِي ــ وليس يدرى ــ حِمامَهْ

وأُخبِر السلطان حينئذ بموتِ الأمين فقال : اجعلوهُ فى رداء ، وضعُوه فى محلٍّ حتى يُصبح . وحين بزغَ الفجر ، أمر السلطانُ بإحضار عبيدِه كُلِّهم ، لابسين السلاح ، فحضروا ورتَّبهم على الأبواب ، وأمر البوَّابين أن يفتحوا الأبواب ، حتى إذا لم يبقَ أحد

---

(١) مارن الأنف : طرفه أو مالان منه ، وجدعه : قطعة ، ومنه الجادع .

(٢) فى الأصل : ولهذا قال .

أغلقوها عليهم ، وأمرهم (٨٤) ألاَّ يدَعُوا[1] حَواشيَ القُواد[2] يدخُلون معهم بل لا يدخلُ إلاّ الأمراء فقط . ووصَّى العبيدَ : إذا أُغلقتْ الأبواب تأتى جماعةٌ منهم ، ويقفون أمامه ، محيطينَ بالعالَم الذين يكونون[3] فى المجلس ، ثم أمر أن تُضرب الطُّبول ضَرْبَ حُزنٍ وإزعاج ؛ لأنّ لهم فى حال السرور ضرباً معروفاً ، وفى حال الحُزن كذلك . فضُربتْ الطبول كما أمر .

وجاءتْ الوزراء والملوك على طبقاتهم ، ظَنًّا منهم أنّ عَلِي وَد بَرْقُو فعل ما اتَّفق معهم عليه ، فجاءوا متهيئين ، فحين وصلوا إلى بابِ دار السلطان ، رأوْا الأمرَ على غير ما يعهدون ، فلم يجدوا بدًّا من الدُّخول ، ودخلت أَتباعُهم معهم ، فمُنِعوا وبَقُوا منفردين عن أتباعِهم . وجاء العبيد الذين أوصاهم بالإحاطة بهم ، فأَحاطوا بهم شاكين السلاح ، مظهِرين الغضب ، وخرج السلطانُ عليهم ، غارقًا فى ثيابٍ سود ، مُتَطَيْلِسًا بكشمير أحمر ، وهذا نهايةُ الغضبِ .

فجلس السلطان فى محلّه المُعدِّ له ، وأمر بإحضار القتيلِ ، فأُحضِر ملفوفًا بالرداء ، فأمر بوضعِه فى وسط الحلقة ، وقال : أُريدُ منكم أن تعرفُوا هذا مَنْ هو ؟ فبادروا إليه وكشفوا وجهَه فعرفوه ، ولم يتجاسَرْ أحدٌ منهم على التكلّم ، لما قام عنده من الغضب . فقال لهم السلطان : هل عرفتُم هـذا ؟ فسكتوا كلهم . فقام رجلٌ منهم ذو دهاء ، و[هو] صِهرُ السلطان أيضاً ؛ فقال : قد عرفناه ، (٨٥) وهو الأمين عَلِي وَد برقو ، وقد دَخل عليك باطِّلاعنا أجمعين ، فإنْ أردتَ قَتْلَنا فها نحنُ بينَ

---

(١) فى الأصل : يدعون .

(٢) حواشى القواد : الجنود المكلفون بحراستهم .

(٣) في الأصل : يكونوا .

يديك ، وإن عفوتَ فالأمرُ إليك . فقال السلطان : وما حملكم على ذلك ؟ قال : إنك أتيتَ بنا إلى هنا ، و [أنت] تعلم أن لنا فى بلادنا أهلاً وعيالاً وأولاداً ، قطعْتنا عن رؤيتهم ، والتمتعِ بمعاشرتهم ، وليس لنا هنا شغل ، نعذِرُك فى الإقامة بسببه ، ولسنا نراكَ ناوياً أَوْبةً ، ولا يطيبُ لنا عيشٌ إلاَّ بمكاننا ، فأجَلُّ ما تصنعُ معنا ، أن تردَّنا إلى أوطاننا ، فإنّ قلوبنا أنكرتْ الغُربة ، وحنَّتْ إلى الأوطان .

[شعر] من الطويل :

حَنينى وأشـــواق لأوّلِ تُربةٍ « وأوّلِ أرضٍ مَسّ جِلدِى ترابُها »

لا سيَّما وقد ورد عن سيِّد ولَد عدنان : « حبُّ الوطنِ من الإيمان » .

فلما سمعَ مقالَ ذلكَ الرجل ، عَرف صدقَه ، وخاف إنْ بطَش بأحد منهم قامت عليه القيامة ؛ لأنهم معذورون فى ذلك . فتخلَّص منهم بأن قال : لا تستعجلوا[1] موتى ، فإنى ميِّت لا مَحالة ، لأنى مريضٌ مرضاً لا يمكنُنى إطلاعُكم عليه ، وهو الذى يمنعُنى عن السفر ؛ فإن عافانى اللهُ فى هذه المدةِ رجَعتُ بكم ، وإياكم أن تفعلوا مثلَ هذه والسلام .

ثم إنَّه بعد ذلك بأيام ، أظهر أنه مريض ، وصار لا يخرجُ إلى الديوان ولا ينظرُ فى أحوال الناس ، مع أنه مُعافَى الجسم ، ولم يعلم أنّ مَن (٨٦) تمارض انقلب الهَزلُ جِدًّا ، ومرض حقيقةً ، وربما مات . وقد قال عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمّ التسليم : « لا تَمارضُوا فتمرضُوا فتموتوا » . فانقلَب عليه الدَّست ، وحلّ به المرضُ والمقْت ، وأيقن أنه هالك لا محالة .

---

(١) فى الأصل : لاتستعجلون .

وكتب حينئذ للخليفة كتاباً يقول فيه بعد السلام :

اعلم يا ولدى أنه قد اعترانى مبادِى ما لاَ بدَّ منه ، ولا محيصَ عنه ، فإذا وصلك كتابى هـــذا فخلِّف ولدَكَ خليل على دارفور ، وعجِّل بالقدوم ، عسى أن تدركنى وبى رَمَق ، لعلِّى أدبّر لك شيئاً ينفعك والسلام .

وختم الـكتابَ وأرسله صحبة هجَّان .

وطاش الخبرُ أنَّ السلطان ثقُلَ عليه المرض ، وأُرجف بموته ، وصارت الناس لا يتحدَّثون إلاَّ بذلك .

وكان محمد كُرَّا كثيراً ما يدخل دار السلطان ، ويجتمعُ على نسائه . وكان ممَّن يجتمع عليها إيَا كُرِى[1] كِنَانة ، أعظمُ نساء السلطان ، صاحبةُ الرتبة الجليلة . لأن كل سلطانٍ يتولى لابدَّ وأن يحبَّ أحدَ نسائه ، ومن أحبَّها وقلَّدها أمور الحـكم فى بيته ، هى التى تسمَّى إيَا كُرِى حقيقةً . وهذا اللفظ معناه السيِّدة الملَـكية ، وإن قيل لغيرها من نساء السلطان إيا كُرِى ، فذلك من قَبيل التعظيم لا غير . وهذه كنانة كانت صاحبةَ رأى وتدبير ، [و] كان السلطان تيراب لا يألف غيرها إلاَّ لِـمامًا[2] ، ولهذا قلَّدها هذا المنصِب ؛ لأن هذا المنصبَ له (٨٧) إقطاعٌ ومعاليم ، وأموال تُجْبَى لها منه ، وتصدُر منها أوامر ، ولها قوَّاد يضبُطون أموالَها وأحوالها .

فلما رأتْ أن السلطان ميّت لا محالة ، خافتْ على نفسها ، وكان لها ولد يسمى

---

(١) اياكرى : لقب كان يطلق فى دارفور على السيدة الأولى فى القصر السلطانى ، سواء كانت هذه السيدة أم السـلطان أو أخته الكبرى أو زوجة السـلطان المتوفى . وهو يقابل لقب ملكة .

(٢) فى الأصل : لماسا .

حبيب ، خافتْ عليه أيضاً . فاجتمعتْ عَلَى محمد كُرّا ، وقالتْ له : يا محمد ، هل لكَ في حيلة تخلّصنى وولدى من هذا الأمر ؟ قال لهـا : نعم ، الحيلةُ أنكِ تصِلين حبلَكِ باليتيم ، لأنه هو صاحبُ الدولة بعد السلطان تيراب ؛ لأن كلّ الناس راضون عنه . فقالت : هل لكَ أن تجعل بينى وبينه عهــدًا وتتوثّقَ منه ، بأنه إذا تولى يجعلُنى إيا كُرِى ، ويجعلُ ولدى حبيب خليفة ؟ فقال لها [محمد] كُرّا : أفعلُ ذاكِ ولكِ ما يسُرُّكِ إن شاء الله .

وكانت كنانةُ تخاف على ولدها حبيب من الخليفة إسحاق ؛ لأنه ابن ضَرّتها ، وعرفتْ أن اليتيم لا ولد له . فقالت : يربّى ولدى .

فذهب إليه محمد كُرّا وأقرأه سلامها ، وأخبره أنها تريد أن تعينَه على التّولية ، بشرط أن يتزوجَها ويجعلَ ولدها خليفة . فعاهده على ذلك . فقال محمد كُرّا : وماذا لى أنا أيضاً إن كتمتُ سرّكما ، وأعنتُك بجهدى على التّولية ، ودبرتُ بحيلتى على قدر طاقتى ، من الطويل :

ولا تحتقِرْ كيدَ الضّعيفِ فربّما تموتُ الأفاعى من سُموم العقاربِ

فقال اليتيم : إن فعلتَ ذلك ، وأغنيتَ فيه ، قلّدتُك منصب (٨٨) الأب [الشيخ] . وعاهده على ذلك . فرجع إليها محمد كُرّا وأعلمها أنه استوثق منه بما أرادت ، فاطمأنت لذلك وصارت ترسلُ معه أخبار السلطان وقتاً فوقتاً .

ولما ثقُل مرضُ السلطان تيراب ، ويئس من مجيئ ولده إسحاق الخليفة ، أحضر الأمينَ عَلِى وَد جامع ، سيِّدَ محمد كُرّا ، والأمين حسبَ الله جِرَان ، والأمين إبراهيم وَد رَمَاد ، والأب الشيخ عبد الله جُثَا[١] ، وأمينا آخر نسيتُ اسمه ، وقال : اعلموا أنى

(١) كذا بالثاء ، وفى الترجمة الفرنسية : جتا بالتاء Voyage, p. 79 (Djoutà)

صنعتُ معكم معروفاً ، وأرجو أن تكافئونى عليه بتنفيذ وصيتى ، التى أريد أن أوصيكم بها . فقالوا : سمعاً وطاعة . فقال للأمين عَلِى : إنى أوصيك إذا أنا مِتُّ بأن تجمع العساكر كلّهم تحت يدك ، وتوصّلهم إلى إسحاق ولدى بدارفور . فقال : سمعاً وطاعة . وقال للأمين حسب الله : قد جعلتُك أميناً على خزائن أموالى ، إذا أنا مِتُّ توصّلها إلى ولدى . فقال : سمعاً وطاعة . وقال للأمين إبراهيم ود رماد : قد جعلتُك أميناً على دوابّى وخيلى ، إذا أنا مِتُّ توصّلها إلى ولَدى بدارفور . وقال للأب [الشيخ] : قد قلّدتُكَ الحريم والعيالَ والخدم ، إذا أنا مِتّ توصّلها إلى ولدى . وقال للآخر : قد جعلتُك أميناً على أسلحتى وملبوساتى وأولادى ، إذا أنا مِتّ توصّلها إلى ولدى . فقبلوا منه ذلك بالسّمع والطّاعة ودعَوْا له بالعافية . (٨٩) وبكَوْا لما هو فيه من المرض ، لأنهم أصهارُه ما عدا الأب [الشيخ] لأنه خَصِىّ .

ثم ذهبوا إلى محلّهم ، وقضى السلطانُ نحبَه وهم غائبون ، وحين تُوفى أرسلت كِنانة إلى اليتيم بسُبحةِ السلطان ومنديلِه وخاتمه وحِجَابه ، تُعلمُه بموته على يد محمد كُرّا .

وجاء أولئك الوزراء الذين أوصاهم فوجدوه قُضِى عليه ، فندموا على خروجهم من عندِه ، ودبّروا حيلة ، وأجمعوا أمرهم أن يجعلوا السلطان فى تَخْت بعد فتحه ، وإلقاء ما فى أمعائه[1] وتصبيره ، [ثم] يُغطّى ويحَفّ بالعساكر ، ولا يتركون أحداً يصل إليه . وكلُّ مَن سأل عليه قيل له : مريض ، حتى يصلوا إلى دارفور ، ويسلّموا كلّ ذلك إلى ولده إسحاق الخليفة ، و [الأب] الشيخ محمد كُرّا أخذ الأشياء المذكورة ، وتوجّه إلى اليتيم ، وقال له : عوّضك الله فى أخيك خيراً . وأعطاه الخاتَم والسُّبحة والمنديل ، فتحقّق موتَ أخيه .

---

(١) فى الاصل : امائه .

وأخذ الأشياء ، وذهب إلى أخيه الأكبر المسمّى برِيز ، فحين أعلمه نهض قائماً ، وأخذ رِيفَا وطاهراً ، وتوجهوا إلى دار السلطان ، فلم يقدر أحد على منعهم . وما زالوا داخلين حتى وصلوا إلى المحلّ الذى فيه الجماعة ، والسلطان تيراب مُسَجَّى أمامهم ، وهم يبكون عليه . فدخلوا عليهم ولم يخاطبوهم ، بل جلسوا حولَ أخيهم وبكوا حتى فاءوا ، ثم التفتوا إلى الجماعة ، وقال لهم رِيز : أما كفاكم أن مدة حياة أخينا كان خيرُه لكم ، والآن تريدون (٩٠) أن تأخذوا شِلْوَه أيضاً ، لأجل أن يكونَ لكم حيّا وميّتا ! ها نحن قد اطّلعنا على موته ، فافعلوا ما بدا لكم ، فقد تركناه لكم .

ثم خرجوا وتركوهم ، فاختلف رأىُ الجماعة بعدهم ، وقالوا : قد فسد تدبيرُنا ، واطّلعوا على موت السلطان ، فلا يمكننا أن ننفذّ وصيته الآن .

فقال الأمين عَلِى ودْجامع : لابدَّ لى من تنفيذ وصيته أو أموت دونها ، ثم نادى : يا محمد كُرّا ، اذهبْ إلى محمد [دُكّمِى][1] ولدى ، وقلْ له يجمعْ عساكرى ويلبسوا دروعَهم وأسلحتَهم ، ويأتون إلى باب السلطان . فقال : سمعاً وطاعة . وذهب إلى محمد [دُكّمِى] ابن الأمين [على] ، وقال له : إن حضرة الأمين يأمُرك أن تجهّز العساكر ، وتركَبَ معهم ، وتذهبَ إلى أولاد السلطان ، وتكونَ مُعيناً لهم حتى يأتيَك أمرى . فقال الأمين محمد [دكّمى] : سمعاً وطاعة . ونادى فى العساكر ، فتأهبوا وركبوا ، وتوجهوا إلى أَولاد السلطان ، ورجع هو بعد ذلك للأمين [على] وقال له : قد ذهبتُ فوجدتُ سيدى قد أخذ العساكر ، وتوجّه إلى أولاد السلطان . فاغتاظ الأمين علِى [من] ذلك ، وعلم أنه لا يقدر على تنفيذ وصية السلطان تيراب[2] .

---

(١) الزيادة عن الترجمة الفرنسية . Voyage, p. 82

(٢) فى الأصل : تيرب .

وخاف من الايمان والعهود ، فأخرج عُلبةً صغيرة كانت معه وفتحها ، واستفّ منها شيئاً مما كان فيها فوقع ميتا .

ولمّا مات انخذل [الأمناء][1] الباقون وتفرّق رأيهم . وهذه أقوى مكيدةٍ عملها محمد كُرّا (٩١) فى الأمين [على] وولدِه ، وبسببها وقعت العداوةُ بينه و بين الأمين محمد بن الأمين عَلِى المذكور .

ثم إن الجماعة تفرقوا وذهب كلٌّ منهم إلى جيشه ، وهاجت الناس وماجت ، وعلموا أنه لا بدّ للدولة من سلطان يقوم بأمرهم ، ويجمع كلمتَهم . وكانت أَولاد السلطان أحمد بُكُر ، الذين هم إخوان المتوفَّى جالسين هم وأتباعهم على حِدَة ، وأولاد إخوانهم وأتباعهم على حِدة ، والرعايا على حِدة . فنهضتْ جماعة من المدبِّرين[2] ، ودعَوْا بالقاضى والعلماء ، وأرسلوهم إلى أولاد السلطان أحمد بُكُر ، لأنهم هم الكبراء وأولياء العهد من أبيهم[3] ، وقالوا لهم : قولوا لهم بعد السلام :

اعلموا أنه لا بد لهذا الأَمرِ من سلطانٍ يجمع كلمة الناس ، ويقوم بأمرِهم ، والمُلك لكم ، وأنتم أربابُه ؛ فعيِّنوا لنا سلطاناً نَرضَى نحن وأنتم [به] : فتوجَّهت العلماء والقاضى وأخبروهم بذلك ، فقالوا : قد عيّنا لهم أخانا رِيزًا ، لأنه هو أكبرُنا وسيِّدنا ، ونحن تحت أمرِه ونهيِه .

فتوجهت العلماء لأولاد السلاطينِ الصغار[4] ، وأخبروهم أن باسِى ريز يكون

(١) الزيادة عن الترجمة الفرنسية : Voyage au Darfour, p. 83
والمقصود بالأمناء هنا : الوزراء .

(٢) المقصود بالمدبرين هنا : الوزراء وكبار رجال الدولة Voyage au Darfour, p. 84.

(٣) راجع نظام ولاية العهد فى ص ٧٣ .

(٤) لعل المؤلف يقصد بأبناء السلاطين الصغار أبناء السلاطين الثلاثة عمر وأبى القاسم وتيراب ممن لا حق لهم فى ولاية العهد التى كانت من حق أعمامهم وقتذاك حسبما يقضى نظام ولاية العهد .

عليهم سلطاناً ؛ فأبوا وقالوا : إن باسى ريز عمُّنا ووالدنا ، لـكنْ لا نريد أن يتولى علينا ، لأنه صعب المراس ، فيـه حدَّة ، تُخشَى غائلتُه ، خصوصاً ونحن أولادٌ صغار ، نريد سلطاناً حليماً يربِّينا ، وإن صدر من أحدنا (٩٢) بادرةٌ يعاملُنا فيها بالحلم . وقالت الرعية : إن باسى ريز ملـكنا وابنُ ملـكنا ، ولـكنْ به حِدَّة ، والأَوْلى أن يختارَ هو غيرَه ، لأنه هو سلطان ، تولَّى أم لم يتوَلَّ .

فرجعتْ العلماء وأخبروهم بذلك . فقـال باسى ريز : قبِلْنا عذرَهم ، وولَّينا عليهم باسى طاهرًا . فأخبروا به أيضاً أولادَ السلاطين[1] ؛ فقالوا : لا نرضى بعمِّنا طاهر ، لأن له أولاداً كثيرة ، لا ينتبه لتربيتنا بسببهم .

وقالت الرعية : إنمـا كرهنا السلطان تيراب لـكثرة أولادِه ؛ فإن يوَلُّوا علينا طاهراً ، فنحن نرضَى بالخليفةِ[2] أن يكون سلطاناً ؛ لأنه أقل أولاداً منه . فرجعوا وأخبروهم ، فقال ريز : قد ولَّينـا عليـكم اليتيم . فأخبروهم فرَضُوا به كلُّهم ، رعيةً وأولادَ ملوك . وانعقد أمرُهم عليه وأخذوه ، وتوجهوا به إلى دار السلطان ، وألبسوه الخاتَم ، وأقعدوه على كرسى المملـكة ، ولم يختلف عليه اثنان .

---

(١) فى الأصل السلطان ، والتصحيح عن الترجمة الفرنسية .
Voyage au Darfour, p. 85

(٢) يريد الخليفة ريز بن السلطان أحمد بكر ، اذ هو أكبر اخوته بعد السلطان تيراب . فهو على هذا الخليفة الشرعى حسبما يقضى به نظام ولاية العهد .

الباب الثالث

من المقـــدمة

فى ذكر نبذة من سيرة السلطان عبد الرحمن الملقب بالرشيد وأول أمره وولايته ووفاته

قد ذكرنا فيما مضى أن السلطان أحمـــد بُكُر خلَّف سبعةً من الولَد ، منهم السلطانُ عبد الرحمن المذكور ، وهو أصغرهم ، لأن أباه توفى وهو حَمْل فى بطْن أمّه ، ولذلك سُمِّى باليتيم .

نشأ على أحسن حال . حفظ القُرآنَ ، وقرأ فى الفقه ، وعرف الحلالَ والحرام ، (٩٣) ولم ينتبهْ إلى ما انتبه له أولادُ الملوك فى دارفور . لأن أولادَ الملوك هناك متى كبر الواحد منهم يخوضُ فى البلاد ، يتضيَّف وينهب أموالَ الناس ، وكلما رأى شيئاً أعجبه أخذه بدون ثمن ، و يقول إن جميعَ ما فى دارفور من العالَم عبيدٌ لأبيه ، إلاَّ عبدَ الرحمن ، فإنه من صِغرِ سنِّه كان صالحاً تقيًّا نقيًّا عفيفَ النفس . وكان فى غايةٍ من ضيق العيش ، وكان إذا سافر وأمسى عليه المساء فى بلد ، قال لمن ينزل عنده : أنا ضيف الله . فإن قبلَه مكث ، و إلاَّ ذهب إلى محل آخر . ولم يُسمَع عنه أنه ظلم أحـداً قط . وكان لا ينسى الصنيعةَ لمن فعلها معه ، بل يتذكرها ويجازيه عليها .

ومن ذلك أنه كان مسافراً ، فنزل عند رجل من قبيلة يقال لها : البَرْتي[١] ، فعرفه الرجل وذبح له كبشاً سميناً ولاطفه ، ولما جاء العَشاء وحضر الطعام ، رأى السلطانُ عبد الرحمن أنَّ الرجل قد تكلَّف له ، فقال له : يا هذا ، أما كان يُغنِي عن هذا ما هو أقلُّ منه ؟ لو ذبحتَ لنا دجاجةً لقامتْ مقامَه ، وكنتَ أدّيتَ ما وجب عليك . فقال : لا ، يا مولاى ، واللهِ لو ملكتُ جَزُوراً لنحرتُها لك ، ألستَ عبدَ الرحمن اليتيم ابنَ سلطاننا ؟ فقال له اليتيم : ومن أين تعرفُنى ؟ قال : عرفتُك بحسن خُلقك وتقواك ، وإنَّه سيصيرُ لك شأن . فقال اليتيم : لئن ملكتُ لأطعِمنَّك (٩٤) أسمَن ممَّا ذبحتَ لنا . وكان الأمر كذلك .

فإنه لما وُلّىَ دعا بالرجل — وكان يسمَّى محمد دَرْدُوك — وولَّاه منصباً جليلاً ، وأخرجه لجباية أموالِ قبيلةِ العربِ المجانين[٢] ، وهى قبيلة عظيمة ، أهلُها أصحاب إبل ، فحصَّل منها من الأموال والنُّوق والجمال ما لا يوصَف .

ومنها أنه مرَّ ببلاد الرِّيح[٣] ، ونزل على رجل فقير يقال له : جِدَّوْ[٤] فأكرمه على قدر طاقته ، وكان هذا الرجل من بيتٍ كبير ، وأبوه كان ملكا عظيما ، يقال لمن تولّى

---

(١) البرتى : قبيلة كبيرة من أصل مختلط تسكن جنـــوبى تلال ميدوب فى شرق دارفور عند خط عرض ٢٤ : ١٤ وخط طول ٤٣ : ٢٥ هجروا موطنهم الأصلى فى تلال تجابو بسبب ضغط سلاطين الفور .

Mac Michael. H.A., op. cit. p. 64.

(٢) المجانين : شعبة من قبيلة دار حامد التى تنتسب الى فزارة ، وموطن دار حامد فى وسط كردفان . Mac Michael, H.A., op. cit. p. 256

(٣) بلاد الريح أو دار الريح هى الولاية الشماليه فى اقليم دارفور

Nachtigal, G., op. cit. p. 362

(٤) كذا بالأصل وفى الترجمة الفرنسية : Djiddau

فى منصبه : التَّكَنْيَاوِى[1] . فلما وُلّى اليتيم ولّاه منصب أبيه ، و[قد] رأيتُه واجتمعتُ به .

ومنها أن الفقيه مالك الفُوتَاوِى الذى أسلفنا ذكره ، كان رأى له منامًا ، وصورته : أنه رأى قمراً فى السماء ، والناسُ ينظرون إليه ويقولون : هذا اليتيم . فأوَّلَه أنه[2] يَلِى المُلْكَ . وذهب وبشَّره بذلك ، فقال : إن صدقَتْ رؤياكَ لأرفعنَّ قدرَكَ . فكان كما قال .

وكان يصوم الخميسَ والاثنين على الدوام ، ويصومُ رجبَ وشعبانَ ورمضان . وكان يحبُّ أهلَ العلم ويكرِمُهم .

وقبل ولايته بأيام ، شاع عند المنجّمين وأصحابِ خط الرمل ، أن اليتيم هو الذى يتولَّى السلطنةَ بعد السلطان تيراب . وسمع السلطانُ بذلك ، فحقَد عليه وأراد قتله مراراً ، والله يمنعُه منه . وكان يدعوه للطعام ويجعلُ له السُّمَّ فيه ، فكان اليتيم يقول : (٩٥) إنى صائم . ولا يأكلُ منه شيئاً .

ولقد أخبرنى من شاهده[3] وقت توليته ، حين أدخلوه لدار السلطنة ، أنه كان عليه قميص قد بَلِى حتى أنَّ كتفيه ظاهران منه . وبيده سُبحة من خشب تساوى فى برِّ مصر عشرين فضة[4] ، ومكث عزَباً حتى بدا الشيبُ فى لحيته ، وما ذاك إلّا لفقره ، وعَدَمِ المال الذى يتسرَّى أو يتزوجُ به ، ولم يرَ النساءَ إلّا حين سافر إلى كُرْدُفَال ، صحبةَ

---

(١) التكنياوى لقب يطلق على الوالى فى ولاية شمال دارفور ، التى كانت تسمى : دار تكنياوى . Nachtigal, G. op. cit. p. 418

(٢) فى الأصل : أن .

(٣) فى الأصل : شاهد .

(٤) تساوى العشرون فضة نصف قرش .

أخيه السلطان محمد تيراب ، فمرّ على بلاد يقال لها : البيقو[1] ، فأعطاه ملكها جارية وَخْشا تسمّى أُنْبُوسَة ، فغشيها فولَدَتْ منه السلطان محمد فضل .

ولما انعقد الأمرُ عليه ، أجلسوه على سرير المُلْك — كما تقدّم — وبايعوه ، وكان أولَ من بايعه أخوهُ الأكبر رِيز ، ثم رِيفَا ثم طاهر ثم أولادُ السلاطين ، فبايعوه ، ثم القاضى والعلماء ، ثم الأمراء . وضَرَبَتْ طبولُ الحزنِ إعلاناً بموتِ السلطان تيراب ، ثم بَطَّلَتْ قليلا ، وضَرَبَتْ طبولُ الهناء إعلاناً[2] بتولية السلطان عبد الرحمن .

وكان من عادة ملوك الفور أن السلطان إذا تولّى يمكثُ سبعةَ أيام فى بيته ، لا يُسأل عن حُكمٍ ولا أمرٍ ولا نَهى ، بل يجلس للتهنئة والسرور ، تدخلُ عليه العلماء والوزراء وأرباب الدّولة . فلما تولّى السلطانُ عبد الرحمن أبطل تلك العادةَ ، وخرج صبيحةَ توليته ، فجاءتْ الوزراء (٩٦) فرأوه جالساً فى ديوانه ، وتناول بعضَ أحكام فلاموه وقالوا : ليست العادة كذا فقال : بئس العادة . ليستْ فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله .

ثم جمعَ جميعَ أربابِ الدّولة وقال لهم : إن كان لكم أربٌ فى أن أكونَ سلطانا عليكم ، تُبْطلوا الظُّلمَ ولا تتحدَّثْ به أنفسُكم ، وتتوبوا إلى الله تعالى منه ، فإن الظلمَ يُخرِّب الدُّول ، ويقصِّر أعمارَ الملوك . فقالوا : سمعاً وطاعة .

ثم لما كانت صبيحةُ اليومِ الثالث ، أمر بإخراج خزائن السلطان تيراب

---

(١) البيقو : يقال ان موطنهم الأصلى فى منطقة الغزال ، وأنهم هاجروا منها الى دارفور منذ زمن بعيد ، حيث منحهم سلطان دارفور أرضا ينزلون بها ، بشرط أن يقدموا للحريم السلطانى فتاة كل عام . ولما كانت أم السلطان محمد فضل (١٨٠٢ — ١٨٣٩ م) تنتمى الى هذه القبيلة فقد أعفاهم من هذا التقليد ومنحهم حريتهم وفرض عقوبة الاعدام على من يتجر فى أبنائهم .

Mac Michael, H.A. op. cit. pp. 80-81

(٢) فى الأصل : اتملانا

فأخرِجَت ، ففرّق ما كان فيها من العَين[1] ، من ذهب وفضة وثياب ، على العلماء والأشراف والفقراء . ووُجِد فيها من الكشمير والجوخ الذى عَثَّ شىء كثير ، فأمر أن يُرمَى خارج الدار ، وكلٌّ من وَجد شيئاً ينفعُه أخذه . فأخرِج فكان كالطَّود العظيم ، واجتمعت عليه الفقراء ينهبونه ، وبسطوا أيديَهم بالدُّعاء للسلطان عبد الرحمن .

ثم لما كان سابعُ يوم أُخْرِجَ جواريَ السلطان تيراب وفرّقها أيضاً ، ولم يتركْ إلّا الحرائرَ وأمهاتِ الأولاد التى تزوجها أخوه بالعَقد . ثم نصَّب المناصبَ ، فجعل محمد دُكُّمِى أميناً فى منصب أبيه الأمين عَلِى ودْ جامِع ، وأمرهم بالأُهْبَة للرحيل إلى دارفور فتجهَّزوا .

وحين خرج من كُردُفال مرَّ على جَبل التُّرُوج ، فأوقع بهم وأخذ جميع مافيه من الشَّباب والبنات ، ولم يترك (٩٧) فيه إلّا المُسنِّين

واجتمع بمشايخ عرب البادية من الرِّزيقَات ، والمَسيريَّة[2] ، فالتمس منهم المسير معه لحرب الخليفة[3] ، وكلٌّ ما اكتسبوه من المال والسلاح والخيل فهو لهم . فاجتمع عليه منهم ألوف ، وتوجه إلى دارفور ، لكنّه لم يأتها من جهة المشرق ، بل أتاها من جهة

---

(١) راجع : ص ٢ حاشية ١ .

(٢) المسيرية : احدى قبائل البقارة ، وكانوا هم والحمر قبيلة واحدة فى وقت من الأوقات ، وقد ورد ذكرها فى كتب الرحالة الذين زاروا دارفور وما يليها غربا . وقالوا انها تتألف من شعبتين : المسيرية الحمر والمسيرية الزرق . ثم انفصل الحمر عن الزرق وأصبحت كل منها قبيلة مستقلة . وموطنهم فى الجنوب الغربى من كردفان .

MacMichael, H.A., op. cit. pp. 284-87

(٣) الخليفة هنا هو اسحاق بن السلطان تيراب الذى عينه أبوه وليا للعهد . مخالفا بذلك وصية أبيه السلطان أحمد بكر .

الجنوب . وقبل وصوله كتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه :

من عبد الرحمن سلطان دارفور ، إلى ولد أخيه إسحاق ، أما بعد : فإنى أعزّيك فى والدك وإن كان أخى ، لأنك أقرب منى إليه ، وأوصيك ببرّ الوالدين ، فإذا علمت هذا فاعلم أنى عمك ، وحرمتى كحرمة أبيك ، وعارٌ على الولد أن يصادِرَ أباه أو عمّه ، فضلا عن أن يجرِّد فى وجهه حساماً ؛ فأنهاك عن القتال ، وإيَّاك أن تستفزَّك رُعونةُ الشباب ، وتسمعَ قولَ المفسدين ، فيحولوا بينى وبينَك . ولك علىَّ عهدُ الله وميثاقُه ، أن أُقِرَّك خليفةً كما كنتَ فى أيام أبيك ، وأجعلَك ولىَّ عهدى كما كنتَ ولىَّ عهد أبيك ، فاسمعْ قولى واحقن دماءَ المسلمين . وإن خالفتَ حلَّت بك الندامة ، وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنقلَب ينقلبون .

فلما وصل الكتاب إلى الخليفة وعلم ما فيه ، كتب إلى السلطان عبد الرحمن ، بعد السلام :

أما بعد : فإنى عاهدتُ اللهَ تعالى ألاَّ أطأَ غير بساطِ أبى ، وأنا ولىُّ عهدِه ، ولا حقَّ لك علىَّ ، (٩٨) وإن قاتلتَنى فأنا مظلوم ، والسلام .

ثم جهَّز له جيشاً كثيفاً بنظر[١] الحاج مفتاح[٢] ، دَادَاه[٣] ، وأكبرِ عبيدِه .

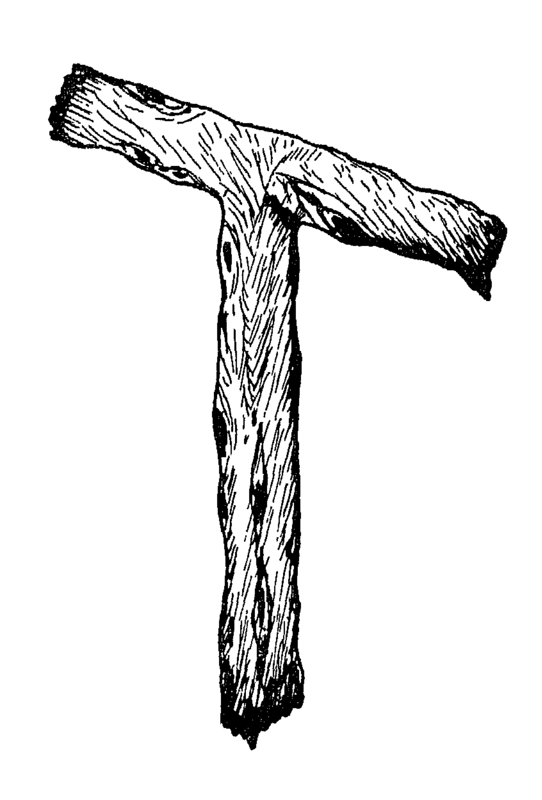
---

(١) فى الأصل : لنظر

(٢) ذكر الاسم فى الاصل هكذا بدون ضبط ، وفى الترجمة الفرنسية بضم الميم وهو النطق العامى للفظ . Vayage p. 92

(٣) الدادا هم – كما شرحه ناختجال فى « يومياته فى دارفور » العبيد الذين ينشأون مع أطفال السلطان فى القصر الملكى ويعتبرون كأخوة لهم Nachtigal, G., Sahara und Sudan p. 431 ويظهر من الشرح ومن المتن أن لفظ « دادا » يستعمل مفردا وجمعا .

فتلاقى هو وجيشُ السلطانِ عبدِ الرحمن فى محلٍّ يقال له : تَبَلْدِيَة[1] ؛ فكان مع كلِّ إنسان من جيش السلطان عبد الرحمن سَفْروك ، والسَّفروك : قطعةٌ من العِصِيِّ صورتها هكذا :



فحين التقى الجمعانِ ، ألقى جماعةُ السلطانِ السفاريكَ على جماعةِ الخليفة ، وقالوا : اللهُ أكبر . ففرُّوا ، وتبعهم جماعةُ السلطان ، يأسِرون ويأخذون الأسلابَ والخيول ،

(١) يطلق اسم تبلدية فى الوقت الحاضر على بعض الجبال والوديان والأخوار والابار والقرى والبلدان فى كل من كردفان ودارفور · ولعل المقصود به هنا حسبما جاء فى خريطة التونسى مكان يقع عند جبل تبلدية الواقع جنوب شرق مدينة نيالا الحالية عند خط عرض ١٣ : ١١ وخط طول ١٣ : ٢٦ ·

وتبعهم العرب أيضاً ، فاغتنموا منهم غنيمةً عظيمة ، ونجا الحاجُّ مفتاح ، وفُلّ من أصحابه برأسِ طِمِرَّة[1] .

وحين دخل الحاج مفتاح على الخليفة قال له : ما وراءك ؟ قال : يا سيِّدى ، إنى ناصح لكَ . صالِحْ عَمَّك . و إن طَلب منك مالاً فأعطه إياه ، واجعلْنى أولَ ما يُعطَى ، فأنا فداؤك .

فلما سمع الخليفةُ منه هـذا الـكلام زجره وقال : رجعتَ إلى أصلك يا عبدَ السُّوء ، لـكن اللّوم علىَّ فى أن أقدِّمك على العساكر . ثم إن الخليفة حشَد الحشود ، وفتح الخزائن ، وفرَّق الأموال ، وأعطى الإقطاع . فجمع جيشاً عظيماً لا أوَّل له ولا آخر ، و برَز يؤمِّل النُّصرة على السلطان ، فوصل إلى محلٍّ يقـال له : تَالْدَوَا[2] ، فأدركه السلطان هناك ، ولما عاين كلّ منهما صاحبَه ، رتَّبا جيوشَهما ، وصفَّا صفوفَهما . (٩٩) وكان مع جماعةِ الخليفة رجل من الملوك يقال له : « بَحْر » الجَبَّاى ، وهو الذى يَجْبِى الغلالَ للسلطنة ، ومعه [من] أتباعه ما ينوف عن عشرة آلافٍ من الخيل خلافَ الرجَّاله . فلما تلاقى الجمعان أخذ جماعته ، وزحفَ على جيش السلطان عبد الرحمن كأنه يريد قتالهم ، ودخل فيهم ، وألصـق صفَّه بهم ، و بقى يقاتل الخليفـةَ ، فترك فى صفوف الخليفة ثَلْماً عظيماً ، وفُرجةً ما قدِرُوا على سدِّها ، فانـكسرتْ قلوبُ عسكر الخليفة بما فعل الملك بَحْر ، والتحم القتال ؛ فلم يكنْ إلا كلَمحةِ بارق ، حتى تقهقر جيشُ الخليفة .

---

(١) الطمر بتشديد الراء : الفرس الجواد أو المستفز للوثب والعـدو أو الطويل القوائم الخفيف . والأنثى طمرة (اللسان) .

(٢) تالدوا اسم يطلق الآن على جبل يقع شمال شرقى مدينة نيالا الحالية عند خط عرض ٢١ : ١٢ وخط طول ٢٥:٣٢ .

وحين رأى الخليفة ذلك ، خرج يقاتلُهم بنفسه ؛ فكان كل من عرفه يُعرِض عنه إكرامًا له ولأبيه . وما زال يفعل كذلك ، حتى رأى جيشه انهزم ، و بقى هو فى نفر قليل ؛ فلحق بجيشه فرأى [أنه] قد قتل أكثره ، وتبعتهم عساكرُ السلطان يأسرون و يسْبُون ، حتى أمسى المساء .

وحكَى لى من كان حاضراً : أنه وقت التحام القتال بينهما ، رأى النجومَ فى السماء ، وكان الوقت ضحىً . ولقد شاهدتُ محلَّ الوقعة ؛ فرأيته جدباً فى وقت الربيع ، فسألتُ عن سبب ذلك ، فقيل لى : إنه لا ينبُت فيه نَبتٌ لِمَا سال فيه من الدماء .

ثم إن الخليفة توجّه بأصحابه إلى الجهة الشمالية ، وترك السلطانَ بالجهة الجنوبية ، ولما انفرد الخليفةُ عن السلطان وأبعد[1] عنه ، ظَلَم وتعدَّى[2] وجار ، وصار يُخرِجُ الناسَ معه قهراً عليهم ، وكلّما عثُر بجواد (١٠٠) أخذه ، أو بمال استأصله . فاجتمع له بذلك مال عظيم ، وخلْق كثيرون ؛ وعظُم شرُّه ، واستغاثت الناسُ منه إلى السلطان ، فأراد أن يتوجَّه إليه بنفسه ، فمنعه أربابُ دولته ، فكتب له كتاباً يقول فيه :

بعد ما يليقُ ، فإنك طغيت و بغيت ، وظلمت وتعدَّيت ، وقد نصحتُك أولا أن تحقِن دماءَ الناس فأبيت ، وكان منّا ما كان ، والآن فقد استعنْتَ على قتالنا بظلم العالَمَ ، ونهبِ أموالهم ؛ وأنا أنصَحُك ثانياً أن تترك ما أنت عليه من الرُّعونة والجبْر والعُتُوِّ ؛ فإن رجعتَ إلينا ثانياً قبلناك ، وجعلنا لك ما جعلناه أولا ، وإن

---

(١) كذا ، بدل : بعد .

(٢) في الأصل : وتعدا .

ابيتَ فالإثم عليك ، وأنت المذموم ؛ وإن أصررْت على القتال فالرعيةُ لا ذنب لها ، فعِفَّ نفسَك عن أموال الناس ، وها هو مالى بين يديك ، خذ منه ما شئتَ ، حتى يحكمَ الله ، والسلام .

فلما وصل إليه الكتاب وعلِمَ ما فيه ، مزَّقه ولم يردَّ له جواباً ، وزاد شرُّه ، وكثر شاكوه ؛ فأرسل إليه ملكَ الجهة الشمالية ، ويسمى بالتَّكَنْياوى فى جيش ، فذهب إليه التكنياوى فأدركه فى محلّ يقال له : بَوَّا[1] ، فحين رأى الخليفةُ الجيشَ قد أقبل ، رتَّب صفوفَه ووقف حتى وصل إليه الجيش ، والتقى الجمعان ، وكان جيشُ الخليفةِ قد أثَّر فيه الرُّعبُ من وقعة تَالْدَوَا ، فأراد الانهزامَ فثبّتهم الخليفة ، واقتحم الحربَ بنفسه ، هو وجماعةٌ من تِرْبِه[2] ، (١٠١) فكان كلَّما حلّ فى جهة يفرُّون منه ، حياءً لا خوفا ، حتى دخل فى القلب ، ووصل إلى التكنياوى ، فقال له : يا عبدَ السُّوء ، ألست عبدَ أبى ، تغدر وتقاتلنى ؟ ، وجرَّد حسامه وضربه حتى قتله ، وحين خرّ قتيلا تشوَّشَ صَفُّه ، وانهزم جندُه ، وتبعهم عسكرُ الخليفة ، فأخذوهم قتلاً وأسراً ونهبا ، ولم ينْجُ من الفَلِّ[3] ، إلا القليل . وغنم الخليفة خيلَهم وسلاحهم ، وما كان معهم ، فانجبر خاطرُه ، وأمَّل النُّصرةَ على عمّه ، وتقوّى بما حصل له من الغنيمة .

وبلغ ذلك السلطانَ عبدَ الرحمن ، فاغتاظ ، ثم أرسل أخاه ريفا مع جيش آخر ، فأدرك الخليفةَ فى بَوَّا أيضاً . وحين رآه الخليفة رتَّب صفوفَه وعَبَّا[4] عساكرَه . وكان قد

---

(١) بوا : واد يقع شمالى دارفور عند خط عرض ١٤:١٦ وخط طول ٢٤:٣٧ .

(٢) الترب هنا بمعنى : السن

(٣) الفل : المنهزمون .

(٤) فى الأصل : عبى .

أعدّ كميناً فى محلٍّ منخفض ، وقال لهم : إنى أتقهقر بالعساكر ، وهم يطمعون فىَّ ويأتون خلفى ، فإذا رأيتموهم فعلوا ذلك ، فاصبروا حتى تروْهم أمامكم ، ثم اكْمُنوا[1] من خلفِهم ، وانزِلوا فيهم ، وأثخنوا فيهم ، ونحن نرجِع عليهم ، فنكون أمامهم ، وأنتم خلفَهم ، فلا يُفلِت منهم أحد .

وكان الأمر كذلك . فحين التقَى الجمعان تقهقر جماعةُ الخليفة ، فظنَّ جماعةُ السلطان أنه انهزم ، فأوغلوا فيهم ، حتى صاروا أمام الكمين وهم لا يعلمون ، فخرج الكمينُ عليهم ، وأثخنوا فيهم بالقتل ، وكرَّ الخليفةُ راجعاً ، فتضعضع جيشُ السلطان ، واختلَّ أمرهم ، وتشوَّش (١٠٢) صفُّهم ، وقُتِل باسى ريفا أخو السلطانِ [و] أميرُ الجيش ، وقتل أكثر الجيش ولم ينج منهم إلا القليل . وحينئذ قَوِيَت شكيمةُ الخليفة ، وطمِع فى أن يرجعَ إلى السلطان ويقاتلَه ، وما علِم أن الأمور بالخواتيم .

ولما سمع السلطانُ بموت أخيه ريفا ، اغتمّ غماً شديداً ، ولام نفسه على القعود عن الحرب ، وقال : لو لم أسمع كلامَ الناس ، وتوجَّهتُ بنفسى ، لم يحصلْ هذا الأمر ، « وكان أمرُ الله قدَرًا مقدورًا »[2] . ثم ارتحل من يومه ، وقصدَ جهةَ الخليفة بجيشٍ يسدُّ السهلَ والوعْر ، وجاءت عيونُ الخليفة ؛ فرأَوا جيشَ السلطانِ وما فيه من العساكر ، التى لا يقدِر الواصف على وصفها ، والعادُّ على حصرِها ، وأسرعوا بالخبر إليه ؛ فخاف على نفسه وجماعته ، فأصبح راحلاً قاصداً بلاد الزَّغاوَة ، لأن ملكها خالَه يريد أن ينزل عليه ، ليُمِدَّه بجندٍ من عنده . فسار يقطع الأرض ليلاً ونهارًا ، والسلطانُ على أثره ، لأن الجواسيسَ أخبروه بقصده ، فخاف السلطان أنه إذا وصل إلى زَغاوة يمدُّه خاله

---

(١) فى الأصل : كنوا .
(٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٨

بجيش ، ويعسُر أمره ، ويطولُ الحال بينهما . فجَدَّ فى طلبه ، حتى أدركه بمحلّ يقال له : جَرْكو[1] . وكان فى طليعةِ جيش السلطان ، الأمينُ محمـد دُكُّمى بن الأمين على ودجامع ، الذى سمّ نفسَه فى كُردفال كما سبق .

فلما التقى الجمعان ظنّ الخليفة أن الجيش هذا فقط ، فكرّ راجعاً (١٠٣) عليهم ، وناوشهم القتال ، وقاتل بنفسه ، ففرَّت الناس أمامه ، حتى وصل إلى الأمين محمـد دُكُّمى ، فوقف أمامه وصار يضرب به بالسيف ، و يقول له : يا عبدُ يا خائنُ يا غدّار ، ألك عين ترفعها ، تخون نعمتى ونعمة أبى ، وتأتى لقتالى ؟ والأمين ساكتٌ لا يتفوّه بحُلوةٍ ولا مُرَّة ، لكن كان لابساً درعين ؛ فلم يعمل سيف الخليفة فيه شيئاً . فلما أعيا الخليفةَ أمرُه ، تركه وأراد أن يذهب ؛ فصبر عليه الأمين محمد حتى التفت ، وضربه على عاقه الأيمن بالسيف — وكان ذا قُوة — فكسر عظمَ تَرْقُوَته ، وانكسر السيفُ من مقبضه ، وطار فى المجال ، فخدِرتْ يدُ الخليفة وأرخَى ذراعَه ، وعلم بذلك الأمين محمـد ، فطمع فيه وأراد أن يقبض عليه ، فأدركتْهُ جماعتُه فخلَّصوه منه . وانهزم حينئذ جيشُ الخليفة ، وتبعه الأمين محمـد بجيشه ، وأرسل السيفَ المكسور إلى السلطان عبد الرحمن يُعلمه بما وقع ، فأرسل السلطان فى الحال للأمين محمد سيفين عظيمَيْن مُحَلّيَيْن ، وأمره بالمسير خلفَه ، وأنه على أثرهم .

وكان حينئذ بالعسكر رجلٌ من أبناء العرب يقال له : زَبادِى ، قيل إنه من فلاحين[2] مصر ، وكان يصطاد بالبُنْدُق و يصيب . فتجاسر على السلطان وقال له :

---

(١) الراجح أن المقصود بذلك جركول الواقعة على مسافة قصيرة من مدينة الفاشر عند خط عرض ١٤:٣ وخط طول ٢٥:٥٥ .

(٢) كذا فى الأصل : بثبوت النون فى جمع المذكر السالم المضاف ، وهو ماتبيحه العامية ولاتعرفه الفصحى .

يا مولاى ، إن أرحتُك من عدوِّك فى هذه الساعة ، فماذا يــكون لى عليك ؟ قال السلطان (١٠٤) عبد الرحمن له : إذا أرحتَنى منه لك علىَّ مائةُ رأس رقيق . فقال : أرسلْنى إلى الأمين [محمــد] لأكون فى عسكره ، وترى ما يصير اليوم . فأرسَله فى الحال إلى الأمين ، بكتابٍ من عند السلطان يقولُ فيــه : إن زبادى قد التزم براحتنا من عدوِّنا ، والتزمْنا له الجزاءَ فى ذلك ، وطلب أن يكون فى عساكرك ، فها هو واصل إليك ، فإن التمس منك شيئاً فساعدْه وأكرمه ، وإنى على أثركم . وركب زبادى على هجين ، ولحق بعسكر الأمين ، فأعطاه أمرَ السلطان ، فقرأه ورحَّب به ، وسار فى الجيش .

و بالأمر المقدَّر أن الخليفة آلمــه ذراعُه ، وأراد أن ينزل للراحة ، فمنعه أربابُ دولته عن النزول ، فقال لهم : ولِمَ تمنعونى ؟ [1] . فقالوا : إن الأمين محمد قافٍ أثرَنا بجيشه ، والقتالُ بيننا وبينه دائر . فغضب وقال : ألم يرجعْ عنا ؟ فقالوا : لا . فكرَّ راجعاً على عسكر الأمين فتعرَّضوا له أيضاً ، فقال : [أنا ذاهب][2] ولابدّ .

و بينما هو ينازعُهم على الرُّجوع ، و يلاطفونه فى التَّرك ، إذ جاء زبادى وتأمَّل الخليفة وعرفه ، وأخذ عليه النيشان ، وأطلقَ البندقيَّة فأصابته ، قيل فى صــدره ، وقيل فى رأسه ، فخرَّ فأسندوه ومشى قليلا ، وصار يجود بنفسه . فحين رأى أربابُ دولته أنه يجود بنَفَسه ، نصبوا له سُرادقاً وأدخلوه فيه ، ووقف الجيش يذُبُّ عنهم عند السلطان ، كلَّما وقع منهم أمر مع أعدائهم من القبائل الأُخر والقتالُ دائر (١٠٥) بين فريقين ،

(١) كذا ، بدل : تمنعوننى .
(٢) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 100

حتى وصل الأمين فرأى العسكر وقوفاً ، ونار الحرب تستعر ، فسأل عن الخبر فقيل له : إن الخليفة أصيب بالرصاص ، وهو يجود بنفسه ، و [قد] عجز عن الحركة ، فنصبوا له هذا السرادق ، ووقف جيشُه يذُبُّ عنه . فقال : أما إذا كان الأمر كذلك ، فاتركوا القتال وأحيطوا بهم ، حتى ننظر ما يكون .

وأرسل [الأمين] إلى السلطان يُعلِمه أن الخليفة أصيب برصاصة من زَبادِى وهو يجود بنفسه ، فإن كان يمكن مولانا أن يحضُره قبل إزهاق رُوحِه فليفعل . و بعد ذَهاب الرسول إلى السلطان بقليل قُضِي على الخليفة ، وأعلن بالبكاء . ونزل الجيش الذى كان يقاتل من ظهور الخيل ، وكذا نزل جيش الأمين . مفرد من البسيط :

لا يَأْمنِ الدَّهرَ ذُو بَغيٍ ولو مَلِكاً ... جنودُهُ ضاقَ منها السَّهْلُ والجَبَلُ

مفرد لكاتبه ، من الكامل :

لا يَمنَعُ الجيشُ الكثيفُ مِنَ الرَّدَى ... ولا يَمنَعُ المقدورَ بُرجٌ مُشَيَّدُ(١)

و بعدها بقليل حضر السلطانُ وجيشُه فاخترق الصفوف . وحين رآه جيشُ الخليفة أعطَوْه الطاعة ، فدخل السرادقَ هو والأمين محمد ، وجماعةٌ من أرباب الدولة ، وكشف الغطاء عن وجه الخليفة ، و بكى بكاء شديداً وقال : يا ولدى ، أنتَ فعلتَ هذا بنفسك ونصحناك (١٠٦) فلم تقبلْ ، « وكان أمرُ الله قَدَرًا مقدورًا » . ثم التفت إلى أرباب دولة الخليفة وقال لهم : لقد زينتم القتالَ لولدى حتى قتلتموه ؛ أَمَا فيكم ذو عقل يَكفه

---

(١) ضبط الشطر الثانى فى الأصل بضمتين على الجيم فى « برج » وشدة على الياء فى « مشيد » . واذا كان الشطر الأول من بحر الكامل فان الشطر الثانى بهذا الضبط ليس من الكامل بل من بحر الطويل .

و ينصحه ؟ فحلفوا كلهم أنهم بُرَآء مما كان فيه ، وأنهم نصحوه فلم يقبَلْ ، وقالوا له : يا سيِّدَنا ، نحن تقلّدنا نعمته ، وقاتلنا عنه حتى قضى الله فيه ، وما خنّاه . و إن أنتَ قبلتَنا نقاتلْ عنك كذلك ، ولو خُنّاهُ وخدمناك نخونُك أيضاً . فعرف صحة قولهم وقال : قد عفوتُ عنكم ، فمن أراد أن يكون معى منكم فهو على رتبته ومقامه ، ومَن أبَى يلقَ خيراً . ثم أمر بدفن الخليفة فى ذاك المحل ، وأبَى يدفنه[1] فى مقبرة الملوك[2] ، وقال : هذا عاقٌّ لا يُدفَن فى مقابرنا . فدُفِن هناك .

وأقام السلطانُ بقيةَ نهارِه ولياته ، وأصبح قافلاً إلى الفاشر ، محفوفاً بالنصر ، مستبشرا بذَهاب العُسْر[3] ، كأنَّ أبا الطيّب رآه على تلك الحال ، حين أنشد وقال ، من الكامل :

سِرْ حيثُ شئتَ تَحُلُّهُ الأنوارُ[4] ... وأراد فيكَ مُرادَكَ[5] الأقدارُ

و إذا ارتحلتَ فرافقتْك[6] سلامةٌ ... حَيثُ اتّجهتَ وديمَةٌ[7] مِدْرارُ[8]

[وأراكَ دهرُكَ ما تحاولُ فى العِدَى ... حتى كأنَّ صروفَه أنصارُ][9]

---

(١) كذا ، وهو تعبير عامى .
(٢) تقضى التقاليد فى سلطنة دارفور أن يدفن السلطان المتوفى فى مقابر السلاطين بترّة اذا مات ميتة طبيعية . أما اذا مات قتيلا فانه يدفن فى المكان الذى قتل فيه . وقد سمعنا هذا عن الأمير سليمان ابن السلطان على دينار بمدينة الفاشر بدارفور .
(٣) فى الأصل : عسر .
(٤) فى رواية أخرى : « سر حلَّ حيث تحـُله الأنوار »
(٥) فى الأصل : مراده .
(٦) فى الأصل : فشيعتك .
(٧) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولابرق .
(٨) المدرار : الدائم الدر .
(٩) الزيادة عن الديوان

وصدَرتَ أغنَمَ صادرٍ من موردٍ — مرفوعةٌ لقدومك الأبصارُ

أنت الذى لَهِجَ[1] الزمانُ بذكرِه — وتزيَّنتْ بحديثِهِ الأسمارُ

وإذا تنكَّر فالفناءُ عقابُه — وإذا عفا فعطاؤهُ الأعمارُ

(١٠٧) وله ـ وإن وهبَ الملوكُ ـ مواهبٌ — دَرُّ الملوكِ لدرِّها أغبارُ[2]

للهِ قلبُك لا يخاف[3] من الرَّدَى — ويخافُ أنْ يدْنُو إليك العارُ

وتَحيدُ عن طَبعِ الخليقة[4] كلِّه — ويحيدُ عنكَ الجحفلُ الجرَّارُ

يا مَن يعِزُّ على الأعِزَّة جارُهُ — ويذِلُّ من[5] سَطَوَاتِه الجبّارُ

كن حيث شئتَ فما تحُول تنُوفةٌ[6] — دون اللقاء ولا يَشِطُّ[7] مَزارُ

وكان الفاشر[8] إذ ذاك بالمحل المسمَّى: قِرْلِي ، وكان فاشرُ السلطان تيراب بالرِّيل[9]، وفاشرُ الخليفة بجديد راس الفيل[10] ، ثم انتقل [السلطان عبد الرحمن] بعد ذلك وجعل الفاشرَ بالمحلِّ المسمى : تَنْدَلْتِي ، وهو فاشر ابنه [السلطان محمد فضل] الآن . ولم يُعهَد للفور إقامةٌ فى فاشرٍ كإقامتهم فى فاشرهم هذا ، المسمى تَنْدَلْتِي .

(١) فى رواية أخرى فى الديوان : بَـهِجَ بكسر الجيم أى : فرح .
(٢) الأغبار جمع غبر بضم الغين وسكون الباء وهو بقية اللبن فى الضرع .
(٣) فى رواية : ما تخاف .
(٤) فى رواية : الخلائق .
(٥) فى الأصل : فى
(٦) التنوقة : الفلاة الواسعة .
(٧) يشط : يبعد .
(٨) سبق شرح « الفاشر » فى ص ٦٤ حاشية ٤ .
(٩) الريل : اسم جبل يقع شمال شرق مدينة نيالا عند خط عرض ١٢:٢٧ وخط طول ٢٥:٣٨ .
(١٠) جديد راس الفيل : اسم يطلق الآن على حلة وبئر يقعان شمال شرق مدينة نيالا وشرق بلدة منواشي ، عند خط عرض ١٢:٤٠ وخط طول ٢٥:٤٢ .

ولما أراح [اليتيم][1] قلبه من قتال الخليفة وسكن جأشه ، نظر في أمر الرعية ، فأبطل المكوس ، ورفع المظالم ، وولّى المناصب ، وانتبه لعمار البلاد ، ورفاهية الحال ، وقطع الإعلان بشرب الخمر والزنا ، وأمّن الطرق وكانت مخوفة . فبعد ذلك صارت أمنًا ، حتى أنّ المرأة كانت تسافر من أقصى البلاد إلى أدناها ، محمّلة من الحليّ والمتاع ، لا تخشى إلا الله . وكثرت التجارات ، وتتابع الخصب ؛ وأظهر العدل التامّ ، فكان لا يُكرم ظالمًا ولا يُعينه ، ولو كان من ذوى قرابته .

ولقد أخبرني الثّقة :أنّ أعرابيّين تعرّضا له يوما ـ وكان (١٠٨) قادمًا من الصيد ـ فقال له أحدُهما : أنا مظلوم ، يا رشيد ، الله يخلّيك ، يا رشيد ، أنا مظلوم . ومن عادتهم أنّ المظلومَ إذا جاء أمام السلطان ، يضع إصبعَيْ يده اليمنى ، أى السبّابةَ والإبهامَ ، على شدقيه ، ويردّدُهما مع إخراج صوتٍ عالٍ ، فيه كافٌ واحدة وراءاتٌ كثيرةٌ مضمومة ، فيخرجُ من فيه صوتٌ يقال له : الكرْورَاك . وهذا الصوتُ لا يصوّت[2] به أحد ، إلّا إذا كان أُصيب بمصيبة . فكان الأعرابيُّ يصوّت كذلك ، ويقولُ بعد كل صوت : الله يخلّيك ، يا رشيد ، أنا مظلوم . وشُغِلَ عنه السلطان ، إمّا لأمرٍ قام به ، أو لأنه لا يسمعُه ، لكثرة الطبولِ والغناء وأصواتِ الجند . فكرْورَك الأعرابيُّ مرارًا ، فلمّا لم يجبْه السلطان ، قال له صاحبه : خلّه عنك ، رشيدٌ لنفسه لالك . فسمعه السلطان ، فوقف وسألَ الأعرابيَّ عما قال ، فقال : إنّ أخي هذا كرْورَك مرارًا ، واشتكى لك ، وهو ينادى : يا رشيد ، أنا مظلوم . فلمّا لم تجبْه قلتُ له : خلّه ، فإنه رشيدٌ لنفسه ، غيرُ رشيدٍ لك . فضحك السلطانُ وقال : بل أنا رشيدٌ لك أيضـًا ، قل لى : مَنْ

---

(١) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 103

(٢) فى الأصل : لايصوته به .

ظلمك ؟ قال : ظلمنى باسى خَبير . وكان باسى خبير من أقاربه . فقال : وما أخذ منك ؟ قال : أخذ منى خمسَ نياق . فوقف مكانه ، ودعا بباسى خبير وسأله ، فاعترف . فأمر أن يَدفَع له عَشْر[1] نياقٍ ، خَمْسًا حقّه ، وخَمْسًا تأديبًا (١٠٩) له . فدفعها ، وذهب الأعرابيّان ، وهما فى غايةِ الغبطة والسرور .

وفى أيامه تلك نُصِّب محمد كُرًّا فى منصِب الأب الشيخ ، وهو أجلُّ المناصبِ هناك . صاحبُه مطلوقُ السَّيف ، له دولةٌ كدولةِ السلطان ، وشاراتٌ كشاراته . ومن عادة هذا المنصب [أنه] لا يتولّاه إلا خَصِىّ ، لأنه يُخشَى من غيرِ الخصِىّ ، إذا تولّاه ، وقَوِيتْ شكيمتُه ، أن يصادِرَ السلطانَ ، و يطلبَ المُلْكَ لنفسه و بعد توليةِ الأب الشيخ محمد كُرًّا ، وجّهه إلى البلاد ، فنزلَ فى أبى الجُدُول ، وسلك طريقَ العدلِ فى العالم ، وضبطَ الأمور ، حتى أنه قتل أُناسًا كثيرين ، لِمَا وقع منهم من الظّلم .

ولَمَّا ظهرَ عدلُ السلطان ، وحُبُّه للعلماء وأهلِ الفضل والأشراف ، وفد عليه الأشرافُ والعلماء من جهاتٍ عديدة ، فكان أولَ وافد عليه والدى ، عليه سحائبُ الرحمة والرضوان . وكان حينَ قدومِه إلى دارفور ، نزل بكُوبِيه على الفقيه حسن وَدْ عَوُوضَة . و بلغ أهلَ كُوبِيه أنه جاءهم رجلٌ عالم من تونس ، فاجتمع عليه أكابرُهم ، كالفقيه محمد كَرْنَتِيم ، والشريف سُرور بن أبى الجُود، وعبدِ الكريم ابن الفقيه حسن وَد عَوُوضة ، وأضرابِهم . وطلبوا منه قراءةَ مختصرِ الشّيخ خليل ، فقرأ لهم منه رُبعَ العبادات . ووصلَ خبرُه إلى الفقيه مالك الفُوتاوى ، فأعلَمَ به السلطان ، فأرسل إليه ، فذهب له فأكرمه ، (١١٠) وأعطاه عدّة جوارى ، وأمره أن يكون عند الفقيهِ نُور الأنصارى ، زوجِ ابنتِه المِيرَم[2] حَوّاء.

(١) فى الأصل : عشرة

(٢) الميرم : لقب يطلق على كل بنت من بنات السلطان فى دارفور ومعناه : الأميرة ، وهو مأخوذ عن مملكة برنو . Balfour - Paul (H. G.) History and Antiquities of Darfur p. 19, SNR, XXXIII, Part I. pp. 129 - 130, Browne : Travels,p.296.

وكان رجلاً من سلالةِ الأنصار ، محبًّا لأهل العلم ، وفيه فقه[1] ، فقرأ على والدى نبذة من صحيح البخارى .

وأعلم السلطانَ بِعِلْمِيَّته ، وأنه ماهر فى العلوم العقليةِ والنَّقلية . فأحضره لديه ، وقرأ عليه فى شهر رمضانَ جزءًا من الحديث ، وتعلَّقت به آمالُ الفقيه مالك ، فأمر أولادَه أن يحْضُروا عليه ، فحضر عليه من إخوانه الفقيهُ إبراهيم والفقيه مَدَنِى ، والفقيه يعقوب ، ومِن أولاده الزَّاكى ، والسَّنُوسِى ، ومحمد جلالُ الدين ، وابنُ أخيه الفقيهُ محمد البزْكاوِى ، وحَضر عليه الفقيهُ حُسين وَدْ تُورِس . وأمره السلطان أن يكتُبَ [شرحًا] على الخصائص ، التى ألَّف مَتْنَها مُغْلَطَاى التُّركى ، فكتب عليها شرحًا عظيما ، نحو ستَّةَ عشرَ كُرَّاسًا ، سماه : الدّرة الوفيَّة ، على الخصائِص المحمديّة . وسأله فى شرح على مختصر الشيخ خليل المالكى فى الفقه ، فكتب عليه شرحًا فى مجلّدين ، سماه : الدُّر الأوفاق ، على متن العلّامة خليل بن إسحاق . وكتبَ على الآجُرُّومِيّة شرحا كبيراً ، أدخل فيه نحوَ مائتىْ بيتٍ من ألفية ابن مالك ، فأتى مجلداً ضخماً ، ثم اختصره فى كراريس . وكتب عَلَى السُّلَّم المُرَوْنق ، شرحًا لطيفا فى كراريس . وألّف (١١١) رسالةً فى علم الكَفّ[2] .

ووفَد على السلطانِ عبد الرَّحمن ، الفقيهُ الزاهدُ الناسكُ الشيخ التَّمُرُّو الفْلّانى ، ووفد عليه الفقيهُ النبيهُ الشيخ حسين عَمَّارِى الأزهرى . ووفد عليه من أشراف مكة الشريفُ مُسَاعد ، يقال : إنه من أولاد الشريفِ سرور . وكان قاضيه الفقيهَ النزيهَ الشيخ عزَّ الدين الجامعى ، وهو قاضى القضاةِ بدارفور وأعمالها .

وكان السلطانُ عبدُ الرحمن جواداً كريماً عادلاً عفيفَ النَّفس . وكان وسَطَ

---

(١) كذا .

(٢) في الأصل : الكتف .

القامة ، شديدَ السواد ، قد وَخَطه الشيب ، أبحَّ الصوت ، شديدَ الغضب ، سريع الرضا ، ذا تدبيرٍ حسن .

فمِنْ حُسن تدبيرِه أنه لمَّا دخلتْ الفَرانْسَاوِيّة مصر ، وهربَ الغُزُّ عنها ، توجَّه إلى دارفور منهم كاشف يسمَّى : زَوَانَة كاشف . قيل إنه من مماليك مراد بيك ، أو هو أحدُ كُشّافِ الأَلْفي ، ومعه أكثر من عشرة مماليك ، ومعه أمتعة زائدة ، وجمالٌ وخَدَم وطبّاخ وفرّاش وسُيَّاس . وأخذ معه مِدفعاً وهاوُن بُنْب . فحين حَلَّ بدارفور ، أكرمه السلطانُ عبد الرحمن ، وأحسن ماقاه ، وأنزله نُزُلاً حسناً ، وأجرى عليه من الأرزاقِ شيئاً كثيراً ، حتى صار لا يَعرفُ رقيقَه لكثرته .

ثم طلبَ من السلطان أن يبنيَ بيتاً كبيوت مصر ، فأذِن له في ذلك . فضرب الآجُرّ ، واستخدم العبيدَ في قَطعِ الأحجار ، وصنع بيتاً (١١٢) جميلا ، وسَوَّرَه بِسُور ، وجعل السُّورَ عريضاً ، وجعل فيه مزْغَلَتينِ[1] مقابلتَيْن لبيتِ السلطان ، يضعُ في إحداهما المِدفع ، وفي الأخرى هاونَ البُنْب .

وكان محلُّ هذا البيتِ أعلى من محلِّ بيتِ السلطان ، بحيثُ كان يَرَى السلطانَ حين يدخُل وحينَ يخرُج . فسوَّلت له نفسه أن يقتلَ السلطان ، ويملكَ البلد ، بأن يَرْصُدَه[2] وهو داخلٌ أو خارجٌ ، ويطلقَ عليه مِدفعاً يُهلكُه به . لكنْ خاف إن قتل السلطان لا يطيعوه[3] أهلُ المملكة ، وأربابُ الدولة . فاحتال أنْ اجتمع بالفقيه الطَّيِّب وَدْ مصطفى ، وكان هذا الفقيهُ وزيرَ السلطانِ تيراب وصِهرَه ، أعني أن السلطانَ

(١) المزغلة : فرجة فى الحائط .

(٢) فى الأصل : يرصد .

(٣) فى الأصل : يطعوه .

تيراب كان متزوجاً بأخته ، وأتتْ منه بولد . فلمَّا اجتمع عليه زَوَانة كاشف ، فَشَى[1] سرَّه له ، بعد أن عاهده على الـكتمان ، وقال له : إنه قد بلغنى أن ابنَ أختك ابنُ السلطان ، وأريدُ أن تجعلَ يدَكَ معى ، فنقتل هـذا ، ونُوَلِّى ابنَ أختك ، وتصير المملـكة بيننا . فرضى الفقيهُ الطيبُ بذلك ، ثم قالوا : إن هـذا الأمر لا يتمّ لنا ، إلاَّ بإدخال بعض الناس ، الّذين تـكونُ لهم عساكر . فقـال زَوَانة : ذاكَ إليك ، وأنت أعرفُ الناس به .

فصـار الفقيهُ الطيب يخادعُ الناسَ ، ويأتى بهم إلى الـكاشف ، والـكاشفُ يعطيهم الأموال ، ويُحلِّفهُمْ أن يكونوا معه ، حتى أَدخـلوا فى أمرِهم عدَّةَ (١١٣) رجال .

واتَّفق أن رجلاً من الأمراء خادعه الفقيهُ الطيب ، وجاء به إلى الـكاشف ، فأعطاه عطية سنيَّة ، وأطلعه على الأمر ، وحلَّفه على الـكتمانِ فحَلَف . وأَخـذ العطاءَ وتوجَّه به إلى السلطان ، وأطلعـه على جَلِيَّة الأمر وحقيقته . فقال له السلطان : خذْعطاءكَ واذهبْ ، وكُنْ معهم على ما أنتَ عليه ، وإيَّاك أن تُخبر أحداً أنك أتيتَنى .

ولـما كان من الغد ، جاءَ زَوَانة كاشف إلى بيت السلطان ، فأكرمه أكثر مما كان يُـكرِمه ، وأعطاهُ فى ذلك الوقتِ مائةَ عَبد ، ومائةَ جارية ، ومائةَ ناقة ، ومائة جرَّةٍ سمناً ، ومثلَها عَسلاً ، ومائةَ حِمْلٍ دُخْنا ، وكساه كشميراً أحمر ، وجُوخة حمراء ، وقلَّده سيفاً ، وأعطاه جواداً سرجُه من ذهب . وتوجَّه الـكاشفُ إلى منزله مغتبطاً

---

(١) كذا في الأصل بالياء وبدون همزة ، وهي صيغة عامية ، بدل : أفشى .

بما حصّل له من السلطان ، وقال : هــذه أموالٌ ساقها الله إلىّ ، أستعينُ بها على هذه المصلحة[1] .

ولما أمسى المساء ، وكان بعدَ العِشاء ، أمر السلطانُ بإحضــار مَلكٍ من الملوك بعسكره ، وأمره أن يقفَ حتى يرى الـكاشف دخل دارَ السلطان ، [وحينئذ] يعقُبه ويضبطُ جميعَ ما فى بيتِ الـكاشف من الأموال ؛ وحذَّره من[2] أن يُفلتَ منه شيء .
ثم أرسل للـكاشف غلامًا يقول له : إن سيدى جلس للسَّمر ، وقد أراد أن تحضر مجلسَه الآن . ورتَّب عبيداً للقبض عليه عند أمر السلطان به .

فذهب (١١٤) الغلامُ وأخبره بمقالِ السلطان ، فحضر معه . ولمَّا دخل على السلطان أكرمه ، وكان معه بعضٌ من الخدم [3] دخلوا معه بابَيْن ، ومُنعوا أن يدخلوا من الثالث . وقيل لهم : اصبروا هنا حتى يأتِيَ سيدكم . فـكَدَّسوا مكانهم[3] . وجلس السلطانُ يتحدَّث مع الـكاشف ، حتى فاتتْ من الليل حِصَّة ، فقال السلطان : إنى جائع ، وألتمِسُ ما يُؤكل . فأُتِى بلَحمِ نصــيص ، أى حنيذٍ غيرِ مقطَّع ، فالتمسوا سكِّينا فلم يجدوا ، فأخرجَ الـكاشفُ سكيناً كان معه ، وأراد أن يقطع اللحم ، فحلَف عليه بعضُ الحاضرين ألاَّ يفعل ، وأنه هو الذى يقطع . فأخذ منه السكين وصار يقطع بها ، فأخرج الـكاشفُ الخنجرَ وأخذه آخر ، وحينئذ أمر السلطانُ بالقبض عليه . فلما قُبض عليه ، قال له السلطان : أىُّ ذنبٍ جرَى لك منِّى ، حتى أنك تريدُ قتلى ،

---

(١) يريد بالمصلحة هنا مشروع المؤامرة التى دبرها للتخلص من السلطان .
(٢) فى الأصل : عن .
(٣-٣) العبارة فى الأصل : « دخلوا معه بابين ومنع أن يدخل من الثالث وقيــل له اصبر هنا حتي يأتي سيدك فكدس مكانه » . وكدسوا بمعني : سكتوا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتُغْوِى عساكرى وتخادعُهم ؟ فقال : أَقِلْنِى . فقال : لا أقالنى اللهُ إن أَقَلْتُك . وأمر بذبحه فى الحال ، فذُبح كالشاة .

وفى الحال جِئَ بأمواله ، وما كان عنده من رقيق[1] وغيره ، حتى لم يبق فى البيت شىء . وأمر السلطانُ بهدم بيته فهُدم ، ومُحِيَتْ رسومُه ، وكأنه لم يكن . وقُبض على أتباعِه فى تلك الليلة ، وباتوا محبوسين .

ولما أصبح الصباح ، دعا بهم السلطان فحضروا ، فعفا[2] عنهم وأطلقهم ، وأمَّر عليهم خازندارَ الكاشف ، وكان يسمى (١١٥) يوسف ، ثم[3] تتبَّع جميعَ من تعاهدَ مع الكاشف ، وقبض عليهم واحداً بعد واحد ، حتى لم يبقَ منهم أحد . وكان آخرَهم الفقيهُ الطيّب ، فإنه قَبض عليه ، وقتله أشرَّ قِتلة ، وسجن ابنَ أخته سَجْن الدّوام إلى أن يموت .

وكيفيةُ القبض على الفقيه المذكور : أنّه أرخى له العِنان ، وبذَل له الأموال ، وأظهر له الودَّ التام ، بحيث أن الفقيه الطيبَ لم يخطُر بباله أنَّ السلطانَ معه علم بأنه كان مع زَوَانة كاشف . ومضتْ على ذلك مدة ، حتى كان فى بعض الأيام ، [أنْ] حضر الفقيهُ الطيبُ دارَ السلطان ، وكان السلطانُ جالساً فى ديوانِه ، وحضرتْ له إبل موقورةٌ عسلا ، فأعطاها للفقيه الطيِّب وأمر له بكُسوَة ، فأحضر له كشميرٌ أحمر ، وكُسوَةٌ جليلة ، فلبسَها ودعا للسلطانِ بدوامِ العزّ وجلس . ومن عادةِ ملوكِ الفُور إذا كسَوْا

---

(١) فى الأصل : رقيقه .

(٢) فى الأصل : فعفى .

(٣) فى الأصل : يوسفا وثم .

إنساناً كسوةً حمراء فإنهم [يكونون] فى غضب عليه ، ولا بدَّ ما يقتلونه[1] .

وتذكَّر السلطانُ ما كان منه ، ونفاقَه مع الكاشف فى آخر المجلس . فالتفتَ إلى الحاضرين ، وقال لهم : أُشهدكم بالله ، هل هذا الفقيهُ فى أيام أخى أرْفَهُ حالاً ، وأكثرُ مالاً ، أم [فى] هذا الوقت ؟ . فقالوا كلّهم : لا والله ، بل فى هذا الوقتِ [هو] أرفهُ وأغنَى ، وأنفذُ كلمةً . فقال السلطان : سلُوه حينئذ لم خاننى وتواطأ مع الكاشف على قتلى ، وخرابِ دارى ؟ . فسألوه ، فأقسم على السلطان (١١٦) بالله العظيمِ أَنْ يقتلَه ، ولا يكلِّفَه جوابَ هذا السؤال ، لأن الموتَ عنده أهونُ من ذلك . فأبرَّ السلطانُ قسمَهُ حينئذ ، وأمر فذُبح كالشاة ، وأخذَ جميعَ ما عنده من الأموالِ والضِّياع ، ولم يُفلِتْ منه شىء .

وقد سمعتُ أنه أرسل العساكرَ لأخذ مالِه من ضياعِه قبل ذلك بمدّة ، وعيَّن لهم أنْ يكْبِسوها فى ذلك اليوم بعينِه ، خوفاً أنْ يطيشَ الخبر ، ويُفلِتَ منها شىء ، وذلك كلُّه من سعادته .

ومن سعادته أيضاً أنّ جميعَ من رامه بسوءٍ يُخذَل ، ويمكِّنُه الله منه .

ومن ذلك ما حصل من إياكُرِى كنانةَ أمِّ حبيب المتقدمِ ذكرُها[2] . وذلك أن السلطان تغافل عنها ، ولم يَفِ بما وعدها به ، إمَّا لأمر قام به ، أو خوفا على نفسه منها أو من ولدها . فلما رأتْ تغافُلَه عنها[3] وكانتْ فى دار السلطان ، وابنُها حبيب متأهِّل فى دارٍ له ، عَقدتْ له بالمكاتبة مع بعض الملوكِ عَقداً ، واتفقتْ معه أن يساعد حبيباً ليتولّى

---

(١) كذا ، بدل : ولابد أن يقتلوه .

(٢) راجع ص ٩٣ ، حاشية ١ .

(٣) فى الأصل : لها .

سلطاناً ، خصوصاً [و] قد انقطع أملُها ، حين رأت أن السلطان وُلِدَ له ، فخافتْ على ولدها . لكنَّ السلطان ، وإن كان تغافل عنها ، إلا أنه كان مُبقيَها فى منصبها آمرةً ناهيةً ، [و] مقاليدُ أمور الدار كلُّها بيدِها . فلما نوتْ الغدْرَ بالسلطان ، استأذنته فى أنَّ حَبيباً[1] يريد أنْ يصنع وليمةً : (١١٧) وأريدُ أن أُمِدَّه بطعـــام من هنا ، فأذِن لها السلطانُ فى ذلك . فصنعتْ الطعام ، وصارت تأتى بالجفنات ، وتضعُ الدروعَ فى الجَفْنة ، ثم تجعلُ الطعامَ فوقها ، بحيث أن مَن يرى الجفنةَ لا يظُنّ أنّ فيها غيرَ الطعام . وكانتْ تضعُ فى واحدةٍ دروعًا ، وفى أخرى سيوفًا . فأخرجتْ ما يزيد عن[2] مائةِ جَفنةٍ بهذه الصورة .

ثم مكثتْ مُدّة أيام ، واستأذنتْ له فى وليمةٍ أخرى ، فأذن لها ، ولم يخطُرْ بباله شىءٌ مما فى نفسها ، لأنه كان سليمَ الصّدر ، غير ظنَّانٍ بالسوء . ففعلتْ كما فعلتْ فى المرة[3] الأولى .

وبعد أيام أيضا استأذنته كذلك ، وقبْلَ إبراز الوليمة الثالثة ، كانت عندها بنتٌ من بناتِ الأكابر ، جميلةُ الصورة ، تربّيها ، فرآها السلطان على حين غفلة فأحبها ، ونوى فى نفسه أنْ يخاطب إياكُرى فى شأنها ، ويعقدَ عليها . وكأنَّ أمَّ حبيب فهمتْ من السلطان ذلك ، فصارت تُؤْذيها لأنها أَعدَّتها لولدها حبيب . فلم تُطِقْ البنت الأَذِيَّةَ[4] ، خصوصاً وقد انكشفتْ على غَدْرِها بالسلطان ، وما تريد أن تصنعَه معه . فاختلستْ نفسَها ،

---

(١) فى الأصل : حبيب

(٢) كذا ، بدل : على .

(٣) فى الأصل : بالمرة .

(٤) فى الأصل : الاذاية .

وقابلتْ السلطان على خلاء ، وأخبرته أن أمّ حبيب أَخربَتْ خزينةَ السلاح والأمتعة ، وأن الولائم كلّها مملوءةٌ بالدروعِ والسيوف ، وأنها تعاقدتْ مع الملكِ فلانٍ وفلان (١١٨) بأنهم يساعدوها[1] على قتلك ، وتوْليةِ « حبيبٍ » المُلْك وإن كنتَ في شكٍّ مما أقوله ، اِقلِبْ[2] جفنةً من الجفان التي تخرج في الوليمة في غدٍ فإنك تعلمُ صحّةَ قولي . فقال لها السلطان : اِرجِعي إلى مقرِّك ، وإياكِ أن تقولي إنك أعلمتيني[3] بشيء . فرجعتْ ، وضاق صدرُ السلطان لذلك ، وأخبر بعض الخَدَمة أن : أخبرني في غدٍ ، قبل خروج الوليمة إلى حبيب . واستكتمه فكتم .

وبقي الحال كذلك حتى أصبح الصباح ، وصنعت [أمّ حبيب] الوليمة ، ونادت العبيدَ والجواري يرفعْنَ الجَفَنات ، فأخبره الخادمُ بأن الوليمة قد تجهّزت . فدخل فرأى أمَّ حبيب ترتّبُها للحَمْل . فقال : على رِسْلِكُمُ[4] ! ثم قال : ارفعوا الأغطية ، وأرُوني وليمةَ ولدي حبيب . فرفعوا الأغطيةَ فرأى طعامًا حسنا ، فجاء إلى جَفنةٍ فيها طعام يحبُّه ، وقال : اتركوا هذه لي ، واجعلوا مافيها في أوانٍ صغار ، لآكل منها أنا وبعضُ أضيافٍ لي . فقالوا : سمعاً وطاعة .

وجاءت أمُّ حبيب حين بلغها ذلك ، وقالت : فِداك أبي وأمي ! عندنا من نوعِ هذا الطعام كثير[5] ، فليَتْرُكْ مولاي الجفنة ، ونحن نأتيه بكثيرٍ منه . فقال : قد علمتُ ، وإنما نَفسي طَلبتْ من هذه ، ولعلّ ما تأتون به — وإن كانَ من هذا بعينِه — لاتتوقُ إليه

---

(١) كذا ، بدل : يساعدونها .
(٢) كذا ، بدل : فاقلب .
(٣) كذا ، بدل : أعلمتني . والصيغة المذكورة بالمتن عامية .
(٤) على رسلكم ، أي تمهلوا .
(٥) في الأصل : كتير .

نفسى . فحينئذٍ لم تجِدْ بُدًّا من طاعته ، وقالت: دعْ الخــدمَ يرفعنَ هذه (١١٩) الجفَنات ، واحبسْ أنت هذه . فقال : لا ، بل حتى تفَرّغ هذه الجفنة ،وتُملأْ كما كانت ، ويحمَل كلُّه مرةً واحدةً .

ولما جِيءَ بالأوانى ، واغترفَ من الجفنة ، ظهر الدروعُ من تحتِ الطعام ، فنادى : يا أمَّ حبيب ، ما هذا ؟ فخجلتْ ولم تُحِرْ جواباً . فعند ذلك أمر بالقبض عليها ، وقلَبَ جميعَ الجفنات ، فوَجد فيها كلِّها دروعاً وسيوفاً ور يالات فرَانْسا ، ونحوَ ذلك . فقال لها : أىَّ ذنب وقع منى حتى دَبَّرتى[1] على هــلاكى ؟ فلم تردَّ جوابا ، فأمر بقتلِها فى تلك الساعة فقُتلتْ .

وفى الحال أرسل ملــكاً من ملوكه إلى بيتِ حبيب ، بعد أن دعا حبيباً إليه ، فحضر على حالةِ الطمأنينة ، فلما مَثَل بين يدَىْ السلطان ، أمر بالقبض عليه ، فوضِع [فى] المَحْبِس ، ثم أرسله تحت جِنْح الليل [إلى] جبل مَرَّه ، واستصفى ما عنده من المال ، وردَّ الدروعَ والسلاحَ إلى مقرّها ، ثم قبض على جميع مَن تواطأ مع حبيب ، ولم يُبقِ منهم أحداً .

وتمهَّدت أمورُه ، واستوزر الفقيهَ مالك الفُوتاوى لِظَنٍّ عِلْمِيَّته وصلاحه ، وكان يدَّعى أنه يعرفُ سِرَّ الحروف[2] ، وعلمَ الأوفاق ، مع أنه كانت فيه عامِّيّة ، وكثيراً ما كان يُظهِر الورعَ والصلاح ، ويُبطِن ضدَّه . وكنتُ أظنُّ ذلك منه ، حتى حقَّق اللهُ ظنِّى فيه فى مجلسٍ واحدٍ .

وذلك أنه لما ترقّى الوزارة ، أدخَل جميعَ قبيلةِ الفُلّان التى بدارفور تحتَ أمره ،

---

(١) كذا ، وهى صيغة عامية .

(٢) فى الأصل : الحرف .

وصار يذُبُّ عنهم ، وحَرَّرهم عند (١٢٠) الدَّولة ، حتى صار [لا][1] يُجبَى منهم مال ، وكُلُّ ما[2] نهبوه من غيرهم من القبائل بَرَدَ[3] لهم ، حتى صاروا من أقوى القبائل وأغناها .

فاتَّفق أنّ قبيلةَ الفُلّان أغاروا على قبيلة المساليط[4] ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ونهبوا منهم أموالا جَمَّـــة ، من بقرٍ وخيلٍ ورقيق . وجاء رئيسُهم — وكان يُسَمَّى بجدِّ العَيَّال—وأتى بخيلٍ و بقرٍ ورقيقٍ من المنهوب، هديةً إلى الفقيه مالك ، ليذُبَّ عن القبيلة .

وكان فى شهر رمضان ، وكان وقت العصر ، والفقيه مالك إذ ذاك يقرأ فى تَذْكِرَة القُرْطُبِى ، فى صفة أهلِ النار . فأتى على قوله : ولا زالتْ النار تقولُ : يا ربِّ زِدْنِى ، حتى يضعَ الرحمنُ فيها رِجْلَه . والرِّجْلُ : هى الجماعةُ من الناس ، وعليه قولُ الشاعر :

فمرَّ بنــا رِجْلٌ من الحيِّ وانزوَى

فقـــال : ولا زالتْ النار تقول : يارب زدنى . وكان من عادته أن يقولَ بعد كل كلمة أو كلمتين : أىْ نعم ، قال الـكتاب . فقال : ولا زالتْ النار تقول : يارب زدنى ، أى نعم ، قال الـكتاب . ولا زالتْ النار تقول : يارب زدنى ، أى نعم ، قال الـكتاب . حتى يضعَ الرحمنُ فيها رِجْلَه ، أى نعم ، قال الـكتاب . والرِّجلُ هى الجماعةُ من الناس ، أى نعم ، قال الـكتاب . وعليه قولُ الشاعر ، أى نعم ، قال الـكتاب . فَرَّ بِنَا رَجُلٌ ،

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى ، عن الترجمة الفرنسية Voyage p. 119

(٢) فى الأصل : وكلما .

(٣) أى نبت

(٤) المساليط خليط من الزنوج والعرب ، يتكلمون لغة تختلف عن لغات سـكان دارفور . وتبلغ مساحة دار مساليط ما بين ٧٠٠٠ الى ٧٥٠٠ ميـــل مربع ، تحدها واداى فى الغرب ودار صـــــليح فى الجنوب ودار قمر ودار تاما فى الشمال ، والفور فى الشرق . وهى بلاد فقيرة وتمثل الأغنام والماشية الثروة الرئيسية للمساليط . Mac Michael, H.A. : op. cit. pp. 58-88

أى نعم ، قال الكتاب . وكرّرها مراراً ، فقال له السّنوسِىّ ولدُه : يا أبتُو ، فِرْ بِنا رَجُلٌ . فقال : أى نعم ، فِرْ بِنا رَجُلٌ . وكرّرها مِراراً ، (١٢١) وكنتُ جالسا ، ولم يسعنى السُّكوت ، فأخذتُ نسخةً من رجُلٍ بجانبى ، فرأيت فيها : فمرَّ بنا رجْل من الحىِّ ، فقلت : يا أبتُو ، فمرّ بِنا رِجْلٌ . فقال لى : اسكتْ ، أنتَ الآن صغيرٌ عن هذا وأمثالِه . مع أن هذا هو الذى يصلُح لأنْ يكونَ شاهدًا ، فسكتُّ .

ومن عامّيّته ، ما حكَى لى والدى — عليه سحائبُ الرحمةِ وَالرِّضوان — أن السلطانَ التمس من الفقيه المذكور أن يخطُب يومَ العيد ؛ فقصدَ والدى أن يؤلِّف له خطبة ، فألّفها وكتب فى آخرها : تمّت على يد مؤلّفها ، الفقيرِ إلى المنّان ، عُمَر التُّونسى[1] ابن سُليمان ، فى يوم [كذا] وسنة كذا ، وأعطاها إياه. فلما كان يومُ العيد ، صلَّى بالسلطان ، ثمّ رَقِىَ المنبر فخطب ، وبعد الخطبةِ قال : تمّتْ ، إلى آخر ما كُتب . ولم يتفطّن أنَّ هذه الكلماتِ خارجةٌ عن الخطبة .

وكان من أغنى أرباب الدولة ، وكان له من الإقطاع ما ينوفُ عن خمْسِمائةِ بلد . وذلك غير إقطاع إخوانه .

ثم [إن] السلطان أجَلّ مقامَ [الأب] الشيخ محمد كُرّا ، وأعلى كلمتَه ، حتى صار لا تعلّى[2] على كلمتِه كلمة . و بلغهُ أن هاشم المُسَبَّعاوى ، ملكَ كردُفال ، رجع إليها وأخذها من يدِ عامل السلطان . فجهّز جيشاً كثيفا لنَظَر الأب الشيخ محمد كُرّا ، فتوجه

---

(١) فى الأصل : التنسى .

(٢) كذا فى الأصل .

إلى كُردفال وأغنى غَناءً حسنا ، وأخذ كُردفال من يد السلطان هاشم ، وقتل عساكره ، وشرّده فى القفار . واستوطن (١٢٢) كُردفال مدةَ سبع سنين .

وفيها أرسلَ للسلطان أموالاً جمةً ، من رقيق وذهب وغيره ، وسعى به بعضٌ من أعدائه[1] إلى السلطان ، فأرسل السلطانُ الأمينَ محمد بنَ الأمين عَلِىوَدْ جامع بجيشه إليه ، وأرسل معـه قيدًا ، وقال له : خذ هـذا القيدَ وقيِّده به ، وأرسلْه مع جيشه . وكان ذلك امتحانا من السلطان . فلما وصَل الأمينُ محمد إلى كردفال ، ظنَّ فى نفسه أن الأب الشيخ محمد [كُرّا] يعارضُه أو ينازعه ، فلم يفعل شيئاً من ذلك . بل حين وصل إليه قال له : بماذا أمرَكَ السلطان ؟ قال : بتقييدك[2] و إرسالك إليه . فقال : سمعاً وطاعة . هاتِ القيدَ . فأعطاه إياه ، فأخذه وقيَّد نفسه بيده ، ودعا الحدّادَ وأمره أن يسمِّرهُ ويَبرُد عليه ، امتثالاً لأمر السلطان ففعل . وأصبح مسافراً والقيد فى رجليه ، حتى وصل إلى دارفور . وحين أُخبر السلطانُ بقدومه ، أرسل له من يَنزِع القيدَ من رجليه ، وقال : أمَا قلتُ لـكم إن محمد كُرّا لا يعصانى[3] ؟ ثم أمره أن يأتى إلى الفاشر فى موكبه ، فأتى على أحسن حالة ، وخرج إليه السلطان ، وأحسن مَلقاه ، وسوّره بسُوار من ذهب ، أمام الوزراء والحاضرين ، وبالغ فى إكرامه ، وردَّه إلى منزلته ، بل صار أعظم مما كان . وكان هذا الفعلُ من السلطان ، هو عينَ البختِ التامّ لابنه محمد فضل .

فإنه لمـا (١٢٣) توفِّى السلطان ، قام بأمره الأب الشيخ محمد كُرّا ، ولولاه لما نظَر إليه أحدٌ ولا عُنِى به .

وكيفيةُ ذلك أن السلطانَ لمـا ثقُل به مرضُه ، دخل عليه الفقيهُ مالك الفُوتاوى ،

---

(١) فى الأصل : اعداد .
(٢) فى الأصل بتقيدك .
(٣) كذا ، وهى صيغة عامية .

فوجد الأب الشيخ محمد كُرّا عنده ، فقال له الفقيه مالك : يا سيّدى ، إن الوصيةَ فيها خيرٌ عظيم ، وإنك فعلتَ مع الناسِ من المعروف ما لا يوصَف ، وكل وزرائكَ وأهلِ مملـكتِك راضون عنك . فإن وصَّيتَ بشىء أظنُّه بل أتحقّقُه أنه ينفّذ ولا بُدّ . فأوصِ لعل ولدَك ينتفعُ بوصيّتِك . فقال : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1] . فأعاد عليه الفقيهُ مالك هذَا القولَ ثانيا ، فقال هو ذلك أيضا . فأعاد عليه ثالثا ، فقال ذلك أيضا . فتركه بعد الثالثة ، ثم قضى نحبَه ، عليه سحائب الرحمة .

فحين توفِّى بكى عليه الأبُ [الشيخ] والفقيه مالك . و بعد البـكاء قال الفقيه مالك للأب[الشيخ] :ماذا أنت صانع الآن؟. قال الأب[الشيخ]:سأُريك ماأصنع. فقام من وقته ، ودخل الدار ، ودعا محمد فضل ، وكان أكبر ولديه ، لأنه لم يتركْ من الذكور إلّا محمد فضل ، و [محمد] بُخارِى[2] ، ومن الإناث حَوّاء[3] ، وستّ النساء ، وأمّ سَلْمَى ، فأقعد محمد فضل ولَبَّسه الخاتم ، وعمَّمه وقلَّده بالسيف ، وأجلسه على كرسىِّ السلطنة ، وأدخله فى حجرةٍ ، وأرخى عليه سِترا ، وأرسل فى الحال إلى جماعته ، فحضروا متقلّدِينَ سيوفَهم ، شاكينَ السلاحَ . فأوقفهم (١٢٤) على الأبواب ، ورتَّب منهم جماعةً يحرسونه . ونفعه فى ذلك بابُ سِرٍّ كان بين بيتِه و بيتِ السلطان ، بحيثُ أنَّ العساكر دخلتْ منه ، ولم يشعرْ بها أحد . ثم أرسل إلى أكثر الوزراء جماعةً ، وأقواهم شوكةً ، المَلِكِ إبراهيم ودْ رَماد ، إنساناً يقول له : إن السلطان يأمرك بالذّهاب إليه . فجاء ، فلمّا دخل الباب وجد العساكرَ وقوفاً ، فراعه أمرُهم ، ولم يجدْ بدًّا من الدخول . ولمـا وصل إلى محلِّ

---

(١) سورة : الطلاق ، آية : ٣ .

(٢) كان للسـلطان عبد الرحمن ولدان آخران ، أحدهما الأمير محمد أبو مدين والآخر لم يعرف اسمه . Voyage au Darfour, p. 373.

(٣) فى الاصل : حوى ، بفتح الحاء والواو .

السلطان ، وجد الأب الشيخ محمد كُرًّا والفقيه مالك ، جالسيْن ، والسلطانُ بينهما مُسجًّى . فلما رآهُ كذلك بكى ، ثم بعد استرجاعه قال له الأبُ الشيخ : إن السلطانَ قدتُوُفِّى ، فماذا ترى ؟ فقال : لا أرى سِوَى[1] رأيك . فقال له الأب [الشيخ] : أتعاهدُنى على ذلك ؟ قال : نعم . فحلَّفه وأخذ مواثيقَه ، أنَّه لا يتعدَّى رأيَه . ثم رَفع السِّتر وقال: هذا السلطانُ . يعنى : محمد فضل . فقال الملك إبراهيم : وهو كذلك . فقال :قم فبايِعْه . فبايَعَه حينئذ وجلَس .

ثم أرسل إلى الوزراء والملوك ، واحداً بعد واحد ، وكلما جاءه أحدٌ ، فعل معه كما فَعل بالملك إبراهيم ، حتى استوثَق من أكابر الدَّولة كلِّهم ، ولم يتركْ منهم إلا مَن لا قُوَّة له .

ثم أعلَن بموتِ[2] السلطان ، وضَربت طبولُ الحزن ،وسمعها أولاد السلاطين،فركبوا وجاءوا شاكِينَ السلاح ، هاجمين على دار (١٢٥) السلطان . فرأوا الأمر مهُولاً ، والجندَ محيطاً بها ، حارساً لها منهم ومن غيرهم .

فلمّا لم يجدوا إلى الدخول سبيلاً ضربوا فى البلادِ ، وصاروا ينهبونَ أموالَ الناس ، وتجتمعُ عليهم الغَوغاء ، حتى صاروا فى جند كثيف ، وثقُلتْ وطْأتُهم ، وعظُم شرهم . فجهَّز لهم الأب الشيخُ جيشاً لِنَظر الملك دَلْدَن ، الذى أسفلنا ذكره ، وهو ابنُ عمَّة السلطانِ محمد فضل ، فخرج إليهم ، وأوقع بهم ، وانهزمتْ الغوغاء الملتفَّةُ عليهم . وقُتل منهم كثير ، وظُفِر بأولاد السلاطين ، وجئَ بهم إلى الأب [الشيخ] مصفّدين . فأرسلهم الأب [الشيخ] إلى السجن فى جبل مَرّة ، وسكنتْ الفتنة ، وتمهَّدت الأمور .

---

(١) فى الأصل : سوء .

(٢) فى القاموس : أعلنه وأعلن به .

ثم أمَر السلطانَ بالقراءةِ وطلب العلم ، لصغَر سِنّه ، وعدم خِبرتِه بالأمور .
فثقُل ذلكَ عليه ، ولم يَجِدْ بدًّا من الامتثال ، فـكابد مشَقَّة التعليم نحو سنتين .

وقَتَل [الأب] الشيخ محمد كُرّا فى تلك المدةِ ، بعضَ الملوك لفتنةٍ وقعت منهم ، ورمَى بعضَهم فى السُّجون ، وكلُّهم من أُسرةِ السلطان وعصابته ، وولّى مناصبَهم لجماعتِه ، فثقُل ذلك على أربابِ الدَّولة ، وخافوا شرّه ، فأغْرَوْا السلطانَ على قتله أو سَجنه ، فوقع بينهما الحرب ، وقُتل كما قدّمنا ذلك كلَّه ، والله أعلم .

المقصد

وفيـــه ثلاثة أبواب

الباب الأول

(١٢٦) فى صفة دارفور وأهلها وعوائدهم وعوائد ملوكهم ، وأسماء مناصبهم ومراتبهم ، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول

فى صـــفة دارفور

أمَّا دارفور فهو الإقليمُ الثـالث من ممالك السودان[1] ، وذلك أنَّ القــادم من المشرِق إلى بلاد الســودان ، أولُ مملـكة وإقليم يعــرض [له] ، مملـكةُ

(١) يطلق اسم السودان على جميع الأقاليم شبه الصحراوية من افريقية التى انتشر فيها الاسلام · وتمتد جنوبى الصحراء الكبرى ومصر ، أى من المحيط الأطلنطى فى الغرب الى الحدود الغربية للحبشة فى الشرق · وتساير حدودها الجنوبية بصفة خاصة خط عرض ١٠ شمالا · وتنقسم هذه الأقاليم الى ثلاثة أقسام : (١) السودان الغربى ويشمل حوض نهر السنغال ونهر غمبيا والمجرى الأعلى لنهر فولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر · (٢) السودان الأوسط ، ويشمل حوض شاد · (٣) السودان الشرقى ويشمل الحوض الأعلى والأوســط لنهر النيل ·

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، لفظ : «السودان » ·

سَنّار[1] ، ثم كُرْدُفال[2] ، ثم دارالفور ، فظهر أنها الإقليم الثالث ، وبحسب ذلك [يكون] إقليم وَدَاىْ[3] هو الرابع ، والبَاقِرْمَه[4] الخامس ، وبَرْنُو[5] السادس ،

---

(١) مملكة سنار هى مملكة الفونج وهى المعروفة فى السودان باسم السلطنة الزرقاء . قامت هذه المملكة على انقاض مملكة علوة المسيحية أوائل القرن ١٦م على يد زعيم الفونج عمارة دونقس وحليفه عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة . وامتدت مساحة هذه المملكة من سواكن شرقا الى النيل غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا الى الشلال الثالث شمالا . انظر : مصطفى مسعد : (الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ٢٠٦) .

(٢) مملكة كردفال أو كردفان هى التى أسسها المسبعات أبناء عمومة سلاطين دارفور . فتذكر روايات أهل البلاد أن سليمان سولونج اقتسم وأخوه مسبع « تونسام » الحكم فكان لسليمان اقليم دارفور ولأخيه « تونسام » اقليم كردفان . وظل هذا فى أبنائهما حتى اذا كان عهد السلطان محمد فضل سلطان دارفور تم ضم كردفان الى سلطنة دارفور بعد طرد آخر ملوك كردفان ويدعى هاشم المسبعاوى . وتولى حكم كردفان حاكم يعرف بالمقدوم وظلت هكذا حتى الفتح المصرى للسودان سنة ١٨٢٠ ، فأضحت تحت الادارة المصرية.

انظر : شقير : (تاريخ السودان ، جـ ٢ ، ص ١١٧) .

(٣) سبقت الاشارة الى هذه السلطنة . راجع ص ٦٩ .

(٤) الباقرمة ـ بجرمى ـ بقرمى ـ بكيرمى : تقع هذه المملكة جنوبى بحيرة شاد . وتأسست فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) على يد جماعة من المغامرين الذين قدموا من ناحية الشرق . واستطاع هؤلاء أن يتغلبوا على البلالة ، ثم اندمجوا فيهم ، واستطاعوا بمساعدتهم أن يبسطوا سلطانهم على الفلبة والعرب المستوطنين فى هذه البلاد . وزعم أولئك الغزاة أنهم عرب وأنهم أتوا من بلاد اليمن ، واعتنق أحدهم الاسلام ، وكان معاصرا للسلطان عبد الكريم سلطان وادای . ثم اعتنق أهل البلاد الاسلام على يديه . كانت عاصمة باقرمة زمن الرحالة بارت " Barth » مدينة مسينا .

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، لفظ : « بجرمى » .

(٥) برنو : من دول السودان الأوسط . تحد شمالا بالصحراء ، وغربا ببلاد الحوصا ، وجنوبا بـ « أدموه » ، وتحد من ناحية الجنوب الشرقى بـ «بجرمى»، وشرقا ببحيرة شاد . وورد ذكر البرنو فى كتب كثير من المؤلفين العرب مثل=

وأُدِقِز[١] السابع ، ونُفَه[٢] الثامن ، ودار تُنْبُكْتُو[٣] التاسع ، ودار مَلَّا[٤] أو مَلِى

= ابن سعيد ، وابن خلدون ، والمقريزى ، وابن فضل الله العمرى . ويسكن برنو أجناس مختلفة وهم الكنورى والسودان والعرب والبربر . وحكمت برنو أسرة تدعى الانتساب الى سيف ابن ذى يزن وظلت على حكمها حتى حوالى منتصف القرن ١٩ م . ونقلت مقر الحكم الى الضفاف القريبة لبحيرة شاد بعد أن حكمت كانم عدة قرون . وعرفت المملكة باسم مملكة برنو أو مملكة كانم . وامتد نفوذ هذه المملكة فى عز أيام توسعها شرقا الى حدود النوبة ومصر .
انظر : دائرة المعارف الاسلامية لفظ : « برنو » .

(١) أدقز ــ أدجز : تحريف للفظ أغاديس وهى التى تقع بالقرب من طريق القوافل الممتد بين أقاليم السودان الأوسط وبلاد المغرب Voyage au Ouaday p.14.

(٢) نفه : اقليم يقع الى الغرب من أغاديس ، وتربطــه بتونس وطرابلس علاقات تجارية هامة . وينقسم اقليم نفه الى ثلاثة أقسام أو مدن كبيرة هى : حوصا ، وكشنا ، وعفنو Voyage au Ouaday, p. 15.

(٣) تاسست مدينة تمبكتو على نهر النيجر حوالى سنة ١١٠٠ م . وكانت تمبكتو ــ الى جانب شهرتها التجارية ــ مدينة اسلامية منذ نشأتها « ما دنســتها عبادة الأوثان ، وماسجد على أديمها قط لغير الرحمن » . وغدت تمبكتو مركزا للتعاليم الاسلامية ، وتوافد عليها الطلاب والعلماء . ولقد أثنى ابن بطوطــة فى القرن ١٤ م على الزنوج المقيمين بها لحماستهم للدين الاسلامى واقبــالهم على حفظ القرآن . وجاءت أول أسرة حكمت تمبكتو من مالى ، وظلت على حكمهــا من ١٣٣٦ ــ ١٤٣٣ م ثم حكمها بيت آخر ٤٠ عاما حتى سنة ١٤٩٢ م . وبلغت تمبكتو شأوا عظيما فى عهد أسكيا الهادى محمد ، ثم انتقلت الى حكم مراكش من ١٥٩٠ الى ١٧٥٠ م ثم استولى عليها الفلبة سنة ١٨٢٧ ثم وقعت فى أيدى التكارير .

أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ ؛ وانظر دائرة المعارف الاسلامية ، لفظ تمبكتو .

(٤) ملا ــ ملى ــ مالى : تعرف ملا أو ملى فى المراجع العربية القديمة باسم مملكــة مالى ، وتمتد من بلاد السنغال غربا الى ممالك الهوســـا المعروفة فى الوقت الحاضر باسم شمال نيجريا شرقا ، وتحد شمالا بالمفاوز والسلاسل الجبلية الفاصلة بينها وبين بلاد البربر ، وتحد جنوبا بجهات ساحل العاج والذهب . بلغت هذه المملكة أقصى اتساعها فى عهد ملكها منساموسى (١٣١٣ ــ ١٣٣٨م) الذى ضم اليها مملكة غانة حتى أصبحت تشمل ــ حسبما أورد القلقشندى ــ اقليم مالى وصوصو وغانة وكوكو وتكرور . وتعتبر مملكة مالى ومضافاتها أكبر ممالك غرب افريقية وعاصمتها مدينة مالى نفسها .

القلقشندى : « صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٨٢ » Incy. Isl. Art. Mali;

Roland Oliver, ed. : The Dawn of African History, p. 40

العاشر ، وهى قاعدة مَلِك الفُلَّان ، وهم الفَلّاتا كما ، ذَكرنا . وأما الذى يأتى من المغرب فإنه يَعُدُّ مَلّا الأول ، وتُنْبُكتو الثانى ، ونفَه الثالث وهكذا .

واعلم أن القُدَماء يطلقون على بعضِ أهل السودان اسم التَّكْرُور[1] ، ويعنُون به أهلَ مملكة بَرْنُو . لكن الآنَ قد عمَّ هذا الاسمُ على ممالكَ متعدِّدَة ، أوّلُها : دار وَدَاىْ أو ودَاىْ المعروفة أيضا بدار صَلِيح ، وآخرها : بَرْنُو . فيدخل فى ذلك بَاقِرْمَهْ وكَتَكُو[2] ومَنْدَرَهْ[3] . فيقالُ لأهلِ كلّ منهم تَكْرُور ، حتى أنه صار عُرفا بينهم .

ولقد لقيتُ منذ أيام رجلا من أهل السودان ، فسألتُه من أين أنت ؟ فقال : من التَّكْرُور بل أظنه قال : تكْرُورِى . فقلت : من أىٍّ (١٢٧) مِن التكارير ؟ فقال : من بَاقِرْمَه . لكنْ لم يخبرنى إلا بعد مَشقَّة ، ظنّا منه أنى لا أعرف تلك الجهة . فلما أخبرنى وسألتُه عن بعض مواضعَ منها ، تعجّب تعجباً عظيما ، وألانَ القولَ .

---

(١) التكرور : شعب من الزنوج يسكن معظم وهاد فوته السنغالية ، وتعيش شعبة منهم فيما بين النيجر وبحيرة شاد ولاسيما فى سكوتو • ومن المحتمل أن يكون تكرور هو الاسم الذى كانت تعرف به فى وقت من الأوقات مدينة بالقرب من نهرالسنغال ، والمملكة التى كانت عاصمتها هذه المدينة ، وموضعها الآن فوته السنغالية ثم أطلق هذا الاسم على شعب هذه المملكة • وجرى العرب من بعد على اطلاق اسم تكرور على جميع بلاد السودان التى دخلها الاسلام ، وهى الممتدة من المحيط الاطلنطى الى حدود وادى النيل • واضحت كلمة تكرورى — فى نظر العرب — مرادفة لكلمة سودانى .

انظر : دائرة المعارف الاسلامية • لفظ « تكرور » •

(٢و٣) كتكو — مندره :
كتكو : اقليم يقع الى جنوبى اقليم بجرمى ، ويخترقه نهر شارى • ويعتبر اقليم كتكو من أغنى بلاد السودان الأوسط ، ولذا حمل حاكمه لقب سلطان ويتبعه خمسة حكام للأقاليم يحمل كل منهم لقب ملك • أما مندره فتقع بالقرب من كتكو وبجرمى ويحمل حاكمها لقب سلطان كذلك • Voyage au Ouaday, pp. 13-14.

وحدُّ الفور من جهة الشرق أقصى الطُّويشَه[1] ، ومن الغربِ آخرُ دار المَساليط ، يعنى : مملكة المساليط ، وآخرُ دار قِمِر [2] ، وأولُ دار تَامَه[3] ، وهو الخلاء الكائن بين دار صَليح وبينها ، ومن الجنوب الخلاء الكائن بينها وبينَ دار فَرْتِيت[4] ، ومن الشمال المزرُوب ، وهو أول بئر يعرِض لمن يتوجَّه لها من الديار المصرية .

وتتبعُها[5] عدة ممالك صغيرة : فمن الشمال مملكة الزَّغَاوَة ، وهى مملكة واسعة ، وبها خلقٌ لا يُحْصَوْن كثرةً ، ولهم سلطانٌ وحدَهم ، ولكنه بالنسبة إلى سلطانِ الفور أشبهُ

---

(١) الطويشة اسم كان يطلق على منطقة تكسوها رمال غزيرة ناعمـــة خالية من السكان شرقى دارفور • ويطلق فى الوقت الحاضر على بلدة تقع شرقى مدينة نيالا الحالية ، عند خط عرض ٢٥ : ١٢ وخط طول ٣٠ : ٢٦ •

(٢) دار قمر : تقع شمال بلاد المســـاليط وشرق دار تامه ، وهى بلاد فقـــيرة فى مواردها الطبيعية • وتعيش جماعات القمر على زراعة الدخن ورعى الأغنـــام والماشية • ويدعى القمر الانتساب الى أصــــل عربى ولكن على الرغم من أن معظمهم يتكلمون العربية فانه ليس هناك ما يؤيد هذه الدعوى

MacMichael, H.A. op. cit. p. 84

(٣) تقع دار تامة غرب دار قمر على حدود واداى ، وكانت دائما همزة وصل بين دارفور وواداى ، وكثيرا ما أخضعت الدولتان دار تامة لسلطانهما فى أزمنـة مختلفة ولجماعة تامه لغتهم الخاصة MacMichael H.A., : op. cit. p. 85

(٤) الفرتيت : أطلق العرب زمن المؤلف على القبائل الزنجية والوثنية التى تسكن فى أقصى جنوب دارفور وشـــمال غرب بحر الغزال وفى اقليم واداى كذلك اسم فرتيت • وفى : MacMichael, H.A. : op. cit. p. 90. أن الفرتيت كانوا سكان جبل مرة الأصليين وأزاحهم الداجو ثم التنجور والعرب عن مواطنهم الأصلية فى جبل مرة الى الجنوب • والفرتيت قبـــائل شتى منها : رونجه ، وبندلا ، وشت ، وبنجا ، وفراوجيه .

Lampen, G.D. : op. cit. p. 183.

(٥) أى دارفور •

بقائد من قوّاده . ومن جهة الشمال أيضا مملكة الميدْوب[1] والبَرْتِى ، وهما مملكتان كبيرتان ، إلا أن أهل الثانية أكثرُ من أهل الأولى ، و [هم] مع كثرتهم أكثر انقياداً لسلطان الفور من الميدْوب .

وفى خلال دارفور مملكة البِرْقِد ، ومملكة بَرْقُـو[2] والتُّنْجُور[3] وميمَه[4] ،

---

(١) الميدوب : اسم جبل يقع فى الركن الشمالى الشرقى من دارفور على بعد ٤٠٠ ميل من مدينة الخرطوم الحالية و ٣٥٠ ميلا جنوب غربى بلدة الدبة وعرف سكانه باسمه • ويرجع جماعة الميدوب الى أصل نوبى ، ويتكلمون لغة تشبه لغة النوبيين على النيل ، مما يرجح هجرتهم من بلاد النوبة الى منطقة جبل ميدوب ومازالوا يحترمون نظام الأمومة فى الوراثة • فاذا مات الملك خلفه فى منصبه ابن اخته • Mac Michael, H.A. : op. cit. p. 97.

(٢) البرقو : من سكان وادای وبرنو • انتقلت جماعات منهم الى دارفور حيث عرفوا مع غيرهم من الجماعات القليلة الوافدة من وادای باسم المراريت • ومعظهم يسكن شرق ووسط دارفور MacMichael, H.A. : op. cit. p. 83

(٣) التنجور : يذكر أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة فى منطقة دارفور الحالية وتلاهم التنجور ثم الفور • ومن هذا الاسم الثالث جاء اسم دارفور • واختلفت الآراء فى أصل التنجور • ففى (MacMichael, H.A. : op. cit. pp. 66-71) أنهم من النوبيين وبنى هلال وأنهم هاجروا من بلاد النوبة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد ، واشتهروا هناك باسم التنجور وأسسوا دولة فى شمال دارفور وعاصروا دولة الداجو فى جنوب جبل مرة • ثم بسط التنجور سلطانهم على وادای غربى دارفور فأدى ذلك الى اضعاف سلطانهم فى دارفور خاصة ، ولذا انتزعته منهم أسرة من الفور تسمى أسرة كيرا وأسست سلطنة دارفور • ومن التنجور جماعات موزعة بين دارفور ووادای وكانم وبرنو •
انظر Arkell, A.J. : The Hist. of Darfur. S.N.R. XXXII, Part II, pp. 207-218.
Barth, H. : Travels and Discoveries in North and Central Africa, III, p. 430.
Lampen, G.D. : Hist. of Darfur. S.N.R. XXXI, Part I, p. 183.

(٤) ميمه : أشار ابن بطوطة فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى الى بلدة ميما التى لاتبعد كثيرا غربى مدينة تمبكتو • ولاحظ هذا الرحالة أن معظم سكان مدينة تمبكتو من الميما أو قبائل الملثمين (الطوارق) ولابد أن شعبة منهم =

إلّا أن مملكةَ البرْقِدو التُّنْجُور فى الوسَط ، ومملكة البَرْقُـو والمِيمَه من جهةِ الشرق ، ومملكةَ الدَّاجُـو[1] ، والبيقُـو من الجهـة الجنوبية ، وكذا مملـكةُ فَرَاوُجية[2] .

ولكلٍّ من هذه الممالك حاكمٌ يسمَّى: سلطانا ، لكنْ يولِّيه عليهم سلطانُ الفور ، وكلّهم (١٢٨) على نسقٍ واحد فى الهيئة والملبوس ، إلا ملكَ التنجور فإنه يلبسُ عمامةً سوداء . وسألتُه عن سببِ سوادِ عمامته ، فأخبرنى أن أصل مملكة دارفور لأجداده ، وتغلَّب عليها سلطان الفور . فلُبْسُ العمامة السوداء إشعار بحزنه على فقدِ مملكته .

=انتقلت ناحيةالشرق-الى دارفور. ويقول الرحالة ناختيجال (ان الميماقبيلة كبيرة فى واداى ، ولكن معظمها انتشر جنوبا حيث اختلطوا بسكانها ، ففقدوا صفاتهم الجنسية ، واحتفظ البقية الباقية منهم بلغتهم الخاصة التى تقرب من لغة الزغاوة والقرعان وعليهم ملك منهم » . MacMichael, H.A. : op.cit. p. 82.

(١) الداجو : من أقدم عناصر السكان بدارفور . مواطنهم شرق وجنوب شرق جبل مرة . وتعيش جماعات من الداجو فى دار صليح (واداى) وجماعات أخرى فى دار مسيرية فى جنوب غرب كردفان . والمتواتر أن الداجو أول من أسس دولة فى منطقة دارفور ثم أزاحهم التنجور عن وسط دارفور فاستقروا فى مواطنهم الحالية

Mac Michael. H.A. ; op. cit.,. pp 71 - 76

Seligman, C.G. : Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, pp. 455-457. MacMichael, H.A. : op.cit., pp. 71-76.,

ويذكر كل من بامر Palmer وآركل Arkell أن الداجو هم التاجوين أو التاجو الذين ورد ذكرهم فى مؤلفات الادريسى وابن سعيد وابن خلدون وأن مواطنهم كانت بين الكانم وبلاد النوبة

Palmer, R. : Bornu Sahara and Sudan, p. 212

Arkell, A.J. : Hist. of Darfur. S.N.R., XXXII, Part I, pp. 62-70.

Balfour-Paul : Hist. and Antiq. of Darfur, pp. 9-10.

(٢) الفراوجية : احدى قبائل الفرتيت التى تسكن جنوب دارفور بين خطى عرض ١٠ : ٩ ، ١٣ : ٩ وخطى طـول ٢٥ : ٢٥ ، ٣٧ : ٢٥ . وكان الفراوجيـه زمن المؤلف تحت حكم أباديما MacMichael, H.A. : op. cit. p. 90.

قارن مقدمة Voyage au Darfour, p. 44.

وقد أحاط بجانبها الشرقيّ والجنوبيّ كثيرٌ من عربِ البادية كالمسيريّة الحُمْر والزِّيقات والفُلَّان . وكل قبيلةٍ من هذه القبائل لا تحصَى كثرةً ، وهم أهل بقرٍ وخيلٍ وأثاث . وأكثرُهم أهل ثروةٍ لا يألَفون الحاضرة ، بل يتْبعُون الكلأ أينما كان . ويلحَقُ بهم القبيلةُ المسماةُ بنى حِلْبَة[1] ، لأنّهم أهلُ بقرٍ أيضا ، لكنهم يتوغّلون فى دارفور ويزرعون .

وأما أهلُ الإبلِ فمنهم[2] الفَزَارَةُ[3] ، وهم : المَحَاميد[4] ، والمَجَانين[5] ،

---

(١) بنو حلبة : يعرفون فى السودان ببنى هلبة • كانوا فيما مضى قبيلة كبيرة ، وطنهم الأصلى فى منطقة عد الغنم الى الجنوب الغربى من جبل مرة • وتعيش جماعة منهم شرق جبل مرة وجنوب جبل حريز ،وأخرى فيما وراء حدود دارفور فى وادای • وقد تعرض بنو حلبة فى دارفور لضغط سلاطين الفور الذين كانوا يطالبونهم بدفع اتاوات ضخمة • ومن ذلك أن السلطان أحمد فضل استولى على معظم مواشيهم • MacMichael, H.A. : op.cit. p. 293.

(٢) فى الأصل : منهم

(٣) بنو فزارة : كان اسم فزارة زمن المؤلف يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الابل فى دارفور وكردفان • وتعد فزارة من قبائل جهينة فى السودان ، وذلك على الرغم مما هو معروف من أن أصلها من العدنانيين • والتفسير الراجح أن أوطان قبيلة فزارة كانت متاخمة لأوطان جهينة فى الجزيرة العربية ، وأن هجرة القبيلتين الى مصر حدثت فى وقت واحد • فكانت جماعات من الفريقين تنتقل معا ، وكانت بينهم مصاهرات أدمجت احدى القبيلتين فى الأخرى • انظر ، محمد عوض محمد : (السودان الشمالى ، ص ٢٢٠) •
Cf. MacMichael, H.A. : op.cit. pp. 255-270.

(٤) المحاميد : انظر ص ٩٧ حاشية ١ •

(٥) المجانين : راجع ص ٩٤ حاشية ١ •

وبنو عَمْران(١) وبنو جَرّار(٢) والمَسِيرية الزُّرق(٣) وغيرهم . وعلى كلٍّ من هذه القبائل ضريبةٌ ، يأخُذُها السلطان من أموالهم فى كل سنة ، لكنْ فى ذلك تفاوُت : أما المسيريةُ الحُمْر والرِّزيقَات لقوّتهم وتوغُّلِهم فى الخلاء ، فلا يُعطون للسلطان إلا أقبَح أموالهم ، ولا يقدِر العاملُ أن يأخذَ من كرائِمها إلا برضاهُم ، وإن تاقتْ نفسُه إلى ذلك طُرِدَ ، وربما قُتِل ، ولا يقدِر السلطانُ لهم على شىء .

ولقد بلغنى أن الرِّزيقات عصَوْا أمرَ السلطان تيراب ، وجهَّز لهم جيشا فكسروه ، فخرج إليهم بنفسه ففروا أمامه ، ودخلوا (١٢٩) فى البَرَجْـوب(٤) بمواشيهم ، فتبِعهُم فقتلوا منه خلقا كثيرا ولم يملكْ شيئا .

والبَرَجْـوب : موضع يسافرُ فيه المسافرُ عشرةَ أيام [حتى] يقطعه ، وهو طين ليِّن مغطًّى بماء يبلغ نحو عانة الرجل ، ومن لينِ طينته تَسُوخُ فيه قوائمُ الدوابّ ، ومع ذلك فهو ذو شجر شائك . وهذا الموضع لا ينقطعُ عنه المطر إلا شهرين فى السنة فى فصل الشتاء .

---

(١) بنو عمران : يذكر بنو عمران أن أسلافهم قدموا من دراو بصعيد مصر تجارا ورجال صوفية منذ سبعة أجيال مضت ، وانتشر بعضهم فى وسط كردفان وسط قبيلة البديرية وغيرها ، على حين استقر البعض الآخر فى شرق دارفور عند حدود كردفان . MacMicha-l, H.A. : op. cit. p. 249.

(٢) كان بنو جرار من أقوى قبائل كردفان ودارفور . ويرى ماكمايكل أنهم كانوا يرتبطون بأواصر قربى مع قبيلة فزارة التى كانت تسكن صعيد مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى MacMichael, H.A. : op. cit. p. 264.

(٣) المسيرية الزرق : راجع ص ١٠٣ حاشية ٢ .

(٤) البرجوب : الراجح أن المقصود بالبرجوب هنا مستنقعات بحرى الغزال والجبل، كما تدل عليه خريطة دارفور الملحقة بالترجمة الفرنسية (Voyage au Darfour) اذ جعل لها المترجم منطقة خاصة فى بلاد الشلك والدنكا ، كما صورها له التونسى نفسه .

ثم إن طولَ إقليم دارفور ، من أول بلادِ الزَّغَاوة[1] إلى دار رُونْجَـه[2] ، نحوُ ستّين يومًا . بل إن اعتُبر المُلْحَقَاتُ بها ، كدار رُونجَـه ، وفَنْقَرُو[3] ، ودار بَنْدَلَه[4] ، وبينْجَـه[5] ، وشَالا[6] كانت أكثر من سبعين يوما. هذا كلُّه بحسب تعريفِ البلد ، لكن الذى أظنُّه أنها لا تصِل لذلك ، بل نهايةُ مساحتها[7] تبلغ نحو من[8] خمسين يوما أو أقلّ ، وإن عُدَّتْ [معها] ممالكُ الفرْتيت الخمسةُ المذكورة ، وهى فى ذلك الزمن المُلْحَقَاتُ المعاهِدةُ لسلطان دار الفور ، ويُؤَدُّون له الخراجَ فى كل سنة .

فإذا دخلتَ دار الزَّغَاوةِ من جهةِ المَزْرُوب ، متوجهاً على خط مستقيم إلى كُوبـيْه ، تمكثُ نحو ستَّةِ أيام ومن كُوبـيه إلى تَنْدَلْتِى الذى هو الفَاشِر[9] يومان ، ومن الفاشر إلى جديد كريو يومان ، ومنه إلى الرِّيل يومان ، فهذ اثنا عشر يوماً . ومن الرِّيل إلى جديدِ راس الفيل أربعةُ أيام ، ومنه إلى تَالْدَوَا[10] ثلاثةُ أيام أو أربعة ، ومنها إلى تَبَلْدِيَّة ثمانيةُ أيام . وتبلدِيَّة على الحدود الشرقية للفور ، ومنها (١٣٠) يدخلُ الإنسانُ فى بلد الدَّاجُـو والبيقُـو فيمشى فيها نحو من ثمانية أيام أيضا ، فهذه أربعة وثلاثون يوماً .

ثم إذا خرجتَ منهما إلى جهة الشرق ، تجد خلاءً مشحوناً بأعرابِ البادية ،

---

(١) سبق التعريف بها فى ص ٥٤ حاشية ٥ .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) : هذه كلها من القبائل التى عرفت زمن المؤلف باسم فرتيت التى تقع مواطنهم فى أقصى الجنوب من دارفور وشمال بحر الغزال

Mac Michael, H. A ; op cit p. 90

(٧) فى الأصل : مساحته

(٨) كذا فى الأصل .

(٩) فى الأصل : الفاشر بفتح الشين .

(١٠) فى الأصل : تلدوا .

كالمَسيريّة الحُمْر والحَبّانيّة[1] والرِّزيقات ، عالَمٌ لا يحصيهم إلا خالقهم . وإن ملتَ إلى جهة الغرب دخلتَ فى دار أَبادِيما[2] ، فتقطعُها فى نحو عشرة أيام ، ثم تدخلُ فى خلاء تمشى فيه يومين ، وتدخلُ إلى دار رُونْجَـه ، ومسافتُها نحو ثلاثة أيام ، ودار فَنْقَرُو مثلُها أو أقلُّ منها بشيء يسير . ومنهما خلاء يَمشى فيه الإنسان نحو يومين ، ومنه يدخل فى دار بِينجَـه وشَالاَ ، ومسافتهما يومان ، فظهر لك بما ذكرناه أن طول دارفور بملحقاتها لا يبلغُ نحو خمسينَ يوماً .

وهذه الملحقاتُ هى البلاد الجنوبية التى بعد دار الفَرَاوُجـيهْ،لأن الفَرَاوُجـيهْ آخرُه

---

(١) الحبانية : يعرفون فى السودان بالهبانية ، وهم احدى قبائل البقارة ، وكانوا فيما مضى رعاة ابل . ولهم شعبتان : احداهما فى دارفور ومواطنهم بين الرزيقات فى الشرق والتعايشة فى الغرب والمساليط فى الشمال والدنكا فى الجنوب . والشعبة الأخرى تعيش فى كردفان جنوب بلدة الرهد

MacMichael, H.A. : op.cit. pp. 278-279.

(٢) أباديما ـ أباديمانج : جرى الرسم فى سلطنة دارفور بتقسيمها من الناحية الادارية الى أربع ولايات على كل منها نائب للسلطان (viceroy) ، وأطلق على كل واحد منهم لقب خاص ومن أولئك « أباديما » أو « أباديمانج » . ويحكم القسم الجنوبى الغربى من دارفور والذى عرف باسم « دار أباديما » . وتمتد دار أباديما شمالا الى وادى أزوم Azum . وعرف سكان هذا الاقليم باسم ديمانجا Dimanga ، كما عرف حاكمه كذلك باسم ديمانجوى . وتشمل دار أباديما جغرافيا ـ حسبما جاء فى خرائط ناختيجال ـ معظم بلاد التعايشة وبنى هلبة والمساليط والفلاتا . وسلطته مطلقة فى اقليمه، ولكن عليه الرجوع الى السلطان فى المسائل الهامة كالحرب مثلا . وله اقطاع كبير ، ويسير بقواته زمن الحرب أو فى الحفلات الرسمية على يمين السلطان

Cf. Voyage au Darfour, pp. 131-132, 137-138, 172-173.

Mac Michael, H.A. : op.cit. pp. 95-96. ; Balfour-Paul : op. cit. p. 19.

Nachtigal, G. : Sahara und Sudan, III, pp. 418-419; Lampen, G.D. : op.cit. S.N.R., Part II, p. 201.

حدود ممالك الفوراوية الحقيقية ، وما يسمِّيه[1] أهلُ الفورِ بالسَّعيد[2] [هو] المساحةُ الممتدَّة من الرِّيل لآخر دار الفور من جهة الجنوب .

ودار أبادِيمَا إنما كانت مساحتها نحوَ عشرة أيام ، لأن أَبادِيما يحكمُ على اثنَيْ عشرَ ملكًا ، كل ملِك له إيالَة مستقلّة . و [دار] أَبادِيما هي[3] دار تَمُورْكَهْ[4] .

وأبادِيما اسم مَنصِب ، كما سنذكُره ، معناه : الجناح الأيمن للسلطان ، والحاكم المسمَّى بهذا الاسم يحكم على دار تَمُورْكَهْ ، فسمِّى لذلك دار تَمُورْكَهْ بدار أبادِيما . ويقابله التَّكَنيَاوِى[5] ، الذى هو أيضًا اسم منصِب ، معناه : الجناحُ الأيسر للسلطان . ويحكم التَّكَنيَاوِى على اثنَيْ عشر ملكًا[6] أيضًا ، وهو حاكم الزَّغاوَة (١٣١) وما يليها لجهة الشرق ، ولذلك أيضًا سمِّى دارُ الزَّغاوة بدارِ التَّكَنيَاوى .

وإن قلت : من حيث أن أبادِيما والتَّكَنياوِى متعادلان[7] ، لِمَ كان طولُ

---

(١) فى الأصل : يسمون .

(٢) كذا فى الأصل ، بدل : الصعيد . ويقصد بالصعيد الاقليم الجنوبى فى دارفور

(٣) فى الأصل هو .

(٤) تموركة : كان التونسى أول من أشار الى أن الفور ينقسمون الى ثلاث شعب أو بطون : الأولى الكنجارة ومعظمهم فى شرق جبل مره (وسيأتى الحديث عنهم بالتفصيل) والثانية الكراكريت وهم سكان جبل سى الأصليون . والثالثة التموركة ويعيشون فى جنوب غرب دارفور وهو الاقليم الذى يحكمه أباديما MacMichael, H.A. : op. cit. pp. 94.

(٥) التكنياوى : نائب السلطان فى الاقليم الشمالى من دارفور . وهو على قدم المساواة مع أباديما فى النفوذ والسلطان . انظر مراجع حاشية ٢ فى الصفحة السابقة

(٦) فى الأصل : ملك .

(٧) فى الأصل متعادلين .

دار أُبادِيما عشرةَ أيام ، وطولُ دار التَّـكَّنِيَاوِى خمسةَ أيام ؟ قلتُ : دارُ التَّـكَّنِيَاوِى أعرضُ من دار أبادِيما ، لأن دارَ أبادِيما عرضُها نحوُ خمسةِ أيام وشىء يسير ، وعرضُ دار التَّـكَّنِيَاوِى نحوُ سبعة أيام ، فما نقص من طولها جُبِر بزيادةِ عرضها .

ثم اعلمْ أن دارفور منظمة تنظيماً على وجه مُحْـكَم ، لأننا ذكرنا أن جبَل مَرَّةَ يشقُّها ، وأن نصفَها من جبلِ مَرَّة إلى جهةِ الشرق سهل ، وعرض جَبل مَرّة - بِقَطْعِ النَّظَرِ عن ارتفاع الجبال - نحوُ يومين ، ووراءه من جهة الغربِ سهل أيضاً ، لـكنْ من جهةِ الشمال الزَّغاوة والبَرْتِى ، وهما قبيلتان عظيمتان . فالبَرْتى من جهة الشرق ، والزَّغاوَةُ من جهة الغرب . وفى وَسطِها من جنوبِ جديد كَرْيُو يسكنُها التُّنجور والبِرْقِدْ ، وهما قبيلتان عظيمتان . وهكذا إلى جديد راس الفيلِ وأزْيَد ، بل إلى تَبَلْدِيَّه ، وإن كان بينهما بلاد وقبائل صغار .

ثم من هناك إلى الخلاء من جهة الجنوب والشَّرق ، وجهة دار أَبادِيما يسكنُهُ الدَّاجْـو والبيقْـو ، فالدَّاجْـو من جهة المغرب ، والبِيقْـو من جهة المشرق ، وشَرقِى جديد كَرْيُو يسكنه البَرْقْـو والمِيَمه ، وهما قبيلتان عظيمتان .

ثم إنّ جبلَ مَرَّة لا يسكُنه إلا أعجام الفور ، وأعجامُ الفور ثلاثةُ قبائل ، أحدها : كُنْجارَة[1] ، وهى تسكن من قِرْلِى إلى بعد الُجبيل الصغير المسمَّى مَرَّة بالُخصوص ، وهو مَرَّة حقيقةً[2] . و بعده بقايل إلى حد دار أبادِيما ، تسكنه الفُور المسمّوْن: كَرَا كْرِيتْ[3] ، وأما الفُور الساكنون بدار أبادِيما فيسمّوْن : تَمُورْكَهْ .

---

(١) سمعنا من أهل جبل مرة أنه سمى بهذا الاسم لأنه لم يخلق مثله ، فلا ثانى له ولا نظير .

(٢،٣) المعروف أن الفور تفرعوا ثلاث شعب ، وهى الكنجارة والكراكريت والتموركة، وامتاز الكنجارة منهم بتسرب الدماء العربية اليهم . ويقال بصدد اختـــلاط

وبعد دار أُبادِيما دار رُونجــَه ودار فَرَاوُجيه ، لــكن رُونجــَه من جهة المغرب ، وفَرَاوُجــيه من جهة المشرق . ودار فَنْقَرُو بعدَ دار فَراوُجــيه . وبعدَ دارِ رُونجَه دار سِلاَ[1] ، لــكنْ تميلُ إلى المغرب أكثر ، ولهذا يحكمها أهلُ الوَادَايْ .

واعلم أن جبل مَرَّة ليس جبلاً واحداً كلُّه ، بل هو عِدَّةُ جبالٍ كبار وصغار . وقبل الدُّخولِ فى دار أبادِيما ينقطع الجبل ، وتبقى أرضٌ سهْلة يسكنها الفُلّان ، حتى أنَّهم يقرُبون من المَساليطِ من جهـــةِ المَغرب . ويليهم بنو حِلْبَة والمَسيرِيَّةُ الزُّرْق . وجميعُ ما ذكرناهُ غيرُ البدوِ الحافِّينَ بها من شمالها وشرقها وجنوبها ، وغيرُ المولَّدِين من القبائلِ ، والفُور يسمُّونَهم : الدَّارَاوِيَّة[2] ، أى المنسوبين للدَّار ، فإنهم فى الوسَط لا يُعتَبرُون بقبيلة .

وإن أردتَ أن أبيِّن لك كيفيةَ دارِ الفُور ، ووضْعَ منازلِ هذه القبائل، والأعرابَ

=الكنجارة بالعرب، أنه وفد على بلاد دارفور جماعة من عرب بنى هلال بقيادة أحمد المعقور ، وانهم صاهروا الكنجارة وأن أسرة تدعى كيرا نشـــأت عن هــذه المصاهرة. ثم استطاعت هذه الأسرة بقيادة زعيمها سليمان سلونج أن تؤسس سلطنة دارفور فى القرن ١٧ م . ويسكن الكنجارة شرق جبل مرة ويســـكن الكراكريت جبل سى . أما التموركة فيعيشون فى الجنوب

Mac Michael, H.A. : op.cit. pp. 91-95.

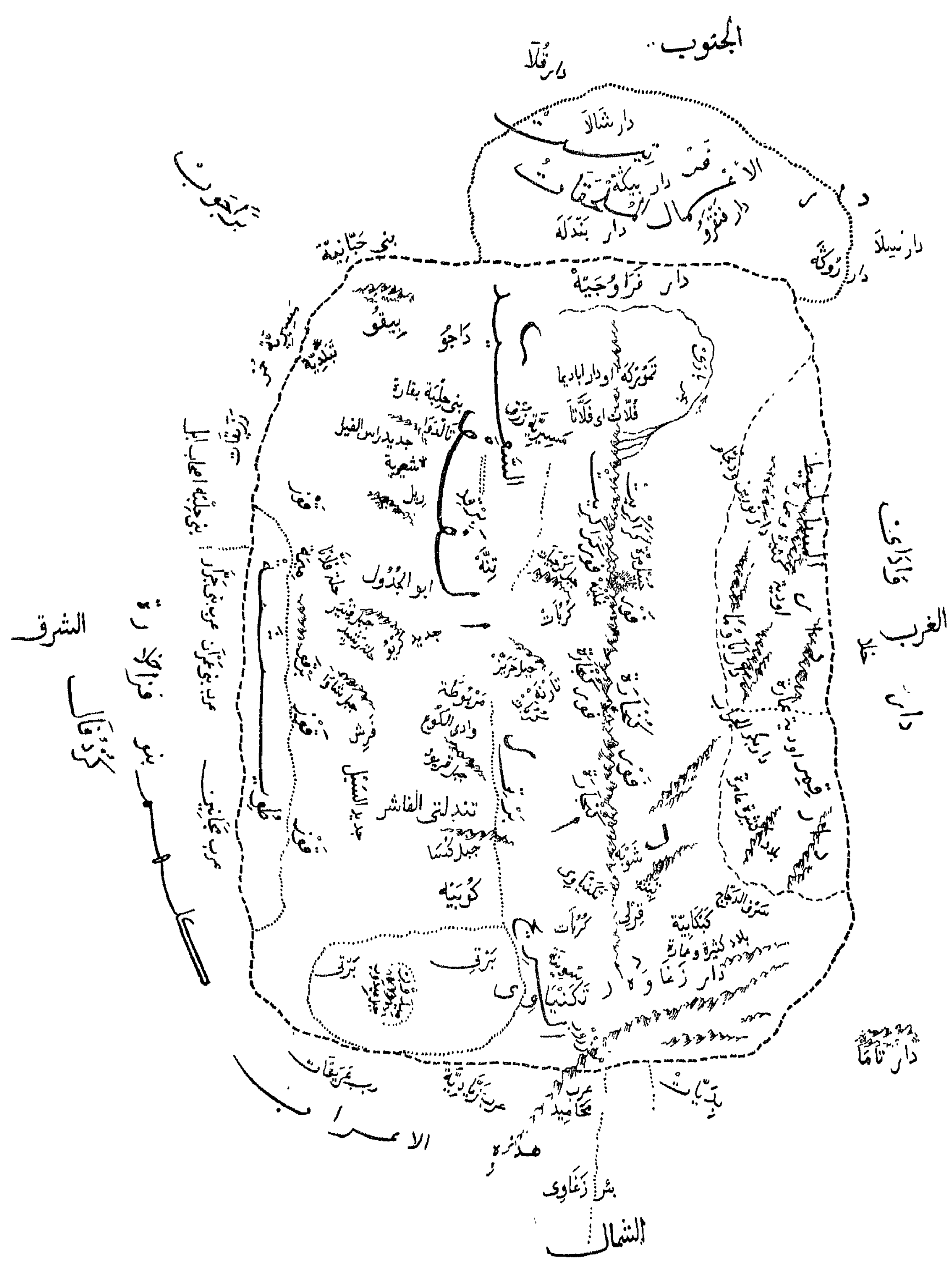
(١) دار سلا هى دار صليح أو واداى. ويعرف الاقليم الجنوبى من واداى خاصة بدار صليح فقط . قارن مقدمة Voyage au Ouaday, pp. 25-26.

(٢) المقصود بالداراوية هنا خليط من قبائل مختلفة ليست لهم عصبية .

المحتفِّين بها ، فها أنا أرسُم لك ما هو على هيئةِ الجدْوَل[1] ، تقريباً للفهم ، وهو هذا .
فنفرضُ أن هذه الجهةَ هى جهة (١٣٣) الجنوب .

---

(١) يعنى بالجدول هنا : الخريطة .



جدول يبين كيفية دارالفور ووضع منازل القبائل والأعراب المحتفين بها ٠



(١٣٥) هذا وإن كنتُ لم أبيّنْ فى هذا الجدول البيانَ الشافى، لعدمِ معرفتى بالرسم ، ولضيق الورق ، فهى[1] فى نفسها كذلك ، لـكنَّ الماهرَ يستنتج منها صورة حسنة .

ثم اعلم أن أعمرَ البلادِ من جهة الشمال بلاد البَرتِى والزغاوَة ، لـكثرة ما فيها من العالَم . وانظرْ حكمَةَ الله : فإن القبيلتين فى خطّ واحد ، لـكن البَرتى أرقُّ قلوباً ، وأحسنُ وجوهاً ، وأجملُ نساء ، والزَّغاوَةُ بالعـكس .

كما أن الدَّاجـْو والبيقـْو فى خط واحد ، وبناتُ البيقـْو أجملُ من بنات الدَّاجـْو .

وأما البِرْقِد والتُّنْجُور ، فيوجد فى كل منهما المليح والقبيح ، لـكنَّ البِرْقد خائنون سُرّاقٌ ليلاً ونهاراً ، لا يخافون اللهَ ولا رسولَه ؛ والتُّنجورُ معهم بعضُ دِين، وبعضُ عقل يمنعهم.

وأما أهل الجبل ، فـكلُّهم على حدٍّ فى الوحاشةِ والوخاشة[2] ، لـكنْ متى جئتَ فى دار أبادِيما ، تجد الرجال والنساء حِسَان[3] ، فسبحان من هذا صُنْعُهُ .

وأما المساليطُ فنســاؤهم يسبِين العقلَ ، ويذهبنَ باللُّبّ . وأجملُ النساء فى دار الفورِ على الإطلاق نساء العرب ، بل ورجالُهم كذلك . وبين الوَادَاى ودارفور لا يوجدُ ساكن ألبتَّةَ ، ما عدا أهل جبل تَامَه الذى سنتحدث عنه [ونذكر] أنّ السلطان صَابُون[4] — وهو سلطانُ الواداى — غَزاه واستولى على أهله .

---

(١) أى : هيئة الجدول .

(٢) الوخاشة : الرداءة ، من وخش الشىء بالضم رذل وصار رديئا ، أما الوحاشة فلفظة عامية بمعنى القبح .

(٣) كذا فى الأصل ، بدل : حسانا .

(٤) هو السلطان عبد الكريم ولقبه صابون . وهو حفيد السلطان محمد صـليح . حارب عبد الكريم صابون أباه السلطان محمد درت وانتزع منه عرش السلطنة سنة ١٨٠٥ م . ونجح فى بسط سلطانه على اقليم بجرمى الغنى فزادت ثروة البـلاد وتوفى سـنة ١٨١٥ حين كان يسـتعد لقتـال حاكم برنو
Barth, H. : Travels. III, pp. 530-531.

واعلم أن جميعَ (١٣٦) البلادِ التى فى دارفور مقسومةٌ على أكابر الدولة ، فكلّ منهم له فيها على قدر منصبه وحاله ، فأوسعُهم داراً[١] : أبادِيما[٢] ، والتِّكَنِيَاوِى[٣] ، لأن كُلاًّ منهما تحت يده اثنا عشَر ملكاً ، لكل ملك منهم عملٌ مستقلّ ، و يسمُّون ذلك الملكَ : شَرْتاى[٤] .

---

(١) فى الأصل : دار .

(٢و٣) المعروف أن سلطنة دارفور تنقسم الى أربع ولايات يحكم كلا منها حاكم اقطاعى (نائب سلطان) يلى منصبه بالورانة وبتقليد من السلطان . وتلقب كل من أولئك الحكام بلقب خاص ، هو «أباديما» لجنوب غرب دارفور ، و«التكنياوى» للولاية الشمالية ، و « الأب شيخ » للولاية الشرقية . أما نائب السلطان الرابع فهو «أباؤما — أباؤمانج» ويحكم مقاطعة جنوب شرق دارفور . وفى (Balfour Paul : opicit. p. 19) أن ألقاب نواب السلطان ليست مشتقة من أعضاء جسم السلطان كما يقول التونسى ، بل ترجع الى أسماء قبلية ، أى أن « أباديما » ينتسب الى مورمينجا ، و « التكنياوى » الى كونبونجا ، و «أباؤما» الى بلدانجا أو سومينجا . أما الأب شيخ فلم يكن كذلك لأنه خصى (Nachtigal : op.cit. p.418) . وتذكر المراجع أن هذا النظام عدل فى عهد السلطان محمد فضل وصارت الولايات تسمى مقدوميات مفردها مقدومية يتولاها مقدوم بطريق التعيين لا الاقطاع ، كما الغى منصب الأب شيخ عقب النزاع الذى نشب بين الأب شيخ محمد كرا والسلطان محمد فضل .

وبقيت المناصب الاقطاعية : أباديما والتكنياوى واباؤما الى جانب المقاديم وهو ما يعرف بالنظام المزدوج dual organization ، ثم مالبث منصب المقدومية أن أضحى وراثيا بمرور الزمن كذلك

Arkell : S.N.R., XXXIII, Part I, pp. 132-133, Lampen : op.cit. pp. 201-202.

ومن الملحوظ هنا أن الحكام الاقطاعيين الأربعة القدامى كانوا من بين الأعضاء الاثنى عشر الذين يتكون منهم مجلس السلطان ، وهو المجلس الذى كان يتولى اختيار السلطان الجديد بعد السلطان المتوفى . أما عن عمل المقدوم واختصاصاته — وهى فى الغالب نفس اختصاصات الوالى الاقطاعى القديم من قبل — فانظرها فى Beaton, A.C. : S.N.R., XXIX, II, p. 5.

(٤) راجع ما كتب عن هذا اللقب فى ص ٦٨ حاشية ٥ .

فأَبادِيما يحكُمُ على التَّمُورْكَه[1] .

والتَّكَنِيَاوِى يحكُمُ على دار الزَّغاوَة والبَرْتى وما ولاهما[2] .

وأَبَاوُمَا[3] ويساوِى الكَامْنَه[4] يحكُمُ على أربعة ملوكٍ من المساليط .

وفُورَنـيجْ أَبَا[5] يحكُمُ على أربعة ملوك من الكَرَاكْرِيت .

والأُرُونْدُولُونـيجْ[6] وهو وجهُ السلطان يحكُمُ على أربعـة ملوك من بلاد البِرْقِد ،

---

(١) فى الأصل : التاموركه ·

(٢) كذا فى الأصل وقد تكررت فى مواضع ، بدل : وليهما ·

(٣) انظر الصفحة السابقة حاشية (٢ ، ٣) ·

(٤،٥) ليس لدينا من المراجع ما يساعد على التعريف بلقب الكامنه وأصل حامله سوى طبيعة عمله ، مع العلم بأنه لايوجد للكامنه معنى فى أية لغة من لغات دارفور ، كما أنه لايرمز لعضو من أعضاء جسم السلطان كما يقول التونسى · أما فى لغة كنورى فى برنو فان اللفظ مكون من كلمتين : الأولى «كام» بمعنى شخص ، والثانية «نى» ومعناها ملك · وربما كان المقصود به فى دارفور على هذا القياس الاستنتاجى ـ ظل السلطان أو نفسه الثانية Cf. MacMichael : op. cit. p.95. Arkell: S. N.R. XXXIII, PartI ,p. 142. ويعرف الكامنه كذلك باسم « فورنج أبا» أى « أبو الفور » · ولعله يرجع بنسبه الى بيت ملكى فوراوى قديم · ويبدو أن صاحب هذا المنصب كان غالبا ما يطمع فى ملك دارفور · ومن ذلك مايشير اليه ناختيجال بصدد نزاع نشب بين السلطان أحمد بكر والكامنـة · وفى ذلك تفسير لما جرى عليه الفور من قتل الكامنه اذا مات السلطان قتيلا ، بل يقال انه كان يقتل سواء قتل السلطان أو مات ميتة طبيعية Arkell : S.N.R. XXXII, II, pp. 337 - 38. والكامنة حاكم اقطاعى على مقاطعة فى غرب دارفور ، غير أن مقره كان دائما بالعاصمة الى جوار السلطان ، وكان الكامنه ذا خبرة بتقاليد البلاد القديمة وعادات سكانها . ويقال انه كان زمن السلطان على دينار المسئول عن ترتيب زواج الميارم (الأميرات) Arkell : S.N.R., XXXIII, I, P. 142.

(٦) موظف اقطاعى يحكم اقليم البرقد من مقره بالعاصمة حيث يوجد السلطان ، وهو لا يمثل وجه السلطان ، بل عتبة باب السلطان فيما يراه آركل . وهو الموظف الذى يأذن لأصحاب الدعاوى وغيرهم ممن يريد مقابلة السلطان بالمثول بين يديه . ثم انه كان حاكم مدينة الفاشر العاصمة ورئيس البوليس بها وهو الذى يفصل فى القضايا الجنائية . Arkell : op. cit. p. 140

ويلاحظ أنه كان لكل شرطاى موظف يحمل لقب أوروندولنج وكان يقوم فى الغالب بعمل القاضى · Cf. MacMichael : op.cit. p. 94.

والأب الشيخ يحكمُ على أربعة ملوك أيضاً .

وَورَّنـيحْ[1] أبا يحكمُ على مَلِـكين .

وهذه البلاد غيرُ بلاد الأمناء والأشراف والفقهاء العظام والقضاة ، وليس للسلطان بلادٌ خالصة له إلا بيوتَ آبائه وأجدادِه ، مثل قِرْلِي والرِّيل وتَنْدَلْتى وغيرها .

ومحلُّ حكم الأب الشيخ من أبى الجُدُولِ إلى الجنوب ، حتى يأخذ أيضاً قطعةً عظيمة من بلاد البرْقِد .

والأمناء يحكُمون على جِهة مَرَّة .

وأما السـلاطينُ الصغار[2] ، فإن كلّ سلطان منهم يحكم على بلاد جماعته ، كالبَرْقـو ، والمِيمَه ، والتُّنْجُور ، والدَّاجـو ، والبِيقـو ، والزَّغَاوَة . وهؤلاء السلاطين لهم إقطاع يتعيَّشون منها ، وإن كانت المملـكة لهـا حاكم غيرُه . فمثلاً سلطانُ زَغاوة حاكم على جماعتِه ، مع أنه فى دار (١٣٧) التَّكَنِيَاوِى ، ولـكنْ له إقطاع من زمن أجداده ، لا يتعرَّض لها التَّكَنِياوِى . وبقيةُ البلاد يأخذ التَّكَنِياوِى خيراتِها ، وهكذا [الأمرُ بالنسبة] لغيره من السلاطين الصغار .

وبقيةُ الأقاليم غيرِ الستةِ المذكورة حكامُها ملوكٌ .

وأما عَرْضُ دارفور ، فإنه من الخلا الـكائن بينَه وبين دار صليح ، أىْ دار

---

(١) راجع حاشية ٣،٢ ص ١٥٠

(٢) جرى الرسم في دارفور بأن يحتفظ بلقب سلطان رؤساء القبائل التى كانت فيما مضى تتمتع باستقلالها ، ثم خضعت لنفوذ سلطان دارفور وذلك بالرغم من تبعيتهم له وتلقى الأوامر منه .

وَادَاىْ[١]، إلى آخر الطُّويشَة ، أى لأوّل الخلا ، الكائن بينه و بين كُرْدُفَال نحوُ ثمانية عشرَ يوماً . وهذا الإقليم نصفُه سهلٌ ، [و] أرضه[٢] مُرْمِلةٌ قليلاً إلا آخره من الشرق ، فإنه كَثيبٌ[٣] من الرَّمل ، ولذلك يسمَّى بالقَوْز .

وأما أراضى جبل مَرَّة ، فهى طين أسود ، وهو جبل يشقُّ دارَ الفُور من أولها إلى آخرها ، حتى قيل إنه مُتَّصل بالمقَطَّم المطِلِّ على القاهرة ، لكنَّه ليس قطعةً واحدة ، بل هو متقَطِّع من عدةِ أماكن ، وله طُرقٌ عديدة .

وفى هذا الجبل أممٌ وعالَمٌ لا يُحصَى كثْرةً ، وفيهم القبيلةُ المعروفةُ بالكُنْجارَة[٤] ، التى يُنسب إليها سلطان دارفور . وفى هذا الجبل كهوفٌ عديدة ، تحبَسُ فيها أولادُ الملوك ، وأُخرى[٥] لحبس الوزراء .

وفيه من الخيرات شىءٌ كثير ، وذلك أن فيه من البقر والغنم ما لا يوجد فى غيره من الأماكن . ومن العجيبِ أنّ جميعَ مواشيهم ترعَى وحْدَها بدون راعٍ ، ولا يخشَوْن عليها سارقاً ولا سَبُعاً ولا ذئباً .

ولقد استأذنتُ السلطانَ محمد فضل سنة ١٢٢٠[٦] فى التوجُّه (١٣٨) إلى جبل مَرَّة للفُرجَة ، فتوقَّف أولاً فى الإذن خوفاً علىَّ من غائلةِ أهلِ الجبل ، ثم أذِن لى ، وعَيَّنَ معى خُدَّامًا ، وكتب لى فَرَماناً إلى جميع عُمَّال الجبلِ يقولُ فيه :

---

(١) سبق التعريف بها فى ص ٧٤ حاشية ٣ .
(٢) فى الأصل : أرض .
(٣) فى الأصل : كثير .
(٤) الكنجارة سبق التعريف بهم فى ص ١٤٤ حاشية ٢ .
(٥) فى الأصل : وآخرون .
(٦) سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م .

من حضرة السلطانِ الأعظم ، والخاقان المُكَرَّم ، سلطانِ العربِ والعجَم ، الواثقِ بعناية الملكِ العدْلِ الصَّبور ، السلطانِ محمـــد فضل المنصور ، إلى جميع ملوكِ جبل مَرَّة .

أما بعـد : فإن السَّيدَ الشريفَ محمدَ التونُسى ابن الشريف العلاّمةِ السيد عمر التونُسى ، التَمَسَ منَّا إذنًا فى أن يرى الجبلَ وما فيه ، ويختبر ظاهرَه وخافيه[1] ، وقد أَذِنَّاه[2] بذلك ، فلا يُمْنَعْ من محلٍّ يريدُ النظرَ إليه ، وأَأْمُرُ[3] كلَّ ملكٍ نزل به أن يكْرِمَه ويعظِّم مَلْقَاه . وقد أصحبتُه بفَلْقَناوِيَّيْنِ[4] من خواصِّ فَلاَقِنَتِى ، ليكونا واسطةً بينكُم وبينَه ، و[لِيُمَكِّنَا من] تبليغ الكلام ، ونيل المَرام ، والسلام .

فتوجهتُ صحبةَ الفَلْقَنَاوِيَّيْنِ ، وعبدَيْنِ لى ، ورجلٍ من أهل البلدة التى أنا فيها . فسافرنا يومينِ ، وفى اليوم الثالث أتينا أطرافَ الجبَل ، فنزلنـا فى بلَدٍ يقالُ لها : نُمْـلِيه[5] ، ولها رئيس يقال له : الفقيه نَمْر ، وله ولدٌ يقال له : الفقيه محمد ، وآخرُ يقالُ له : سليمان . فنزلنا فى بيتِ رئيسِ البلدةِ ، وحضر هو وأولادُه واستقبلونا بصدرٍ

---

(١) كذا ، بدل : خافيه بفتح الياء ، وذلك مراعاة للسجع .

(٢) كذا فى الأصل ، وهى عبارة عامية ، بدل : أذنا له فى ذلك ، أى سمحنا له به

(٣) كذا فى الأصل ، بهمزة مفتوحة على الألف الأولى وهمزة ساكنة على الثـانية . ومن هذه الطريقة فى رسم اللفظ نرجح أن المؤلف يريد الصيغة العـامية لا الفصحى التى هى : آمر .

(٤) المفرد فلقناوى والجمع فلاقنة . ويقوم الفلقناوى عادة بعمل الحاجب والمترجم والمراسلة كذلك Voyage au Darfour, p. 140.

(٥) يقع هذا المكان فى وسط جبل مرة فى منطقة الكراكريت حسبما جاء فى خريطة المؤلف المنشورة ضمن الكتاب . ويلاحظ أن المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ليس فيها ما يساعد على التعريف به أكثر من هذا .

رَحب ، فأخبرناهم بمقصدِنا ، وأظهرنا لهم أمر السلطان ، فاهتموا حينئذ بشأنى ، وأعظموا ضيافتى ، فبتنا ليلتَنا تلكَ .

ومن الغد(١٣٩) توجَّهُوا بِى إلى سوقِ نُمْـلِيه ، وهو سوقٌ يعمُرُ فى كلِّ يومِ اثنين ، [و] يحضره جميع أهل الجبلِ رجالاً ونساءً ، يقضُون مصالحهم . فرأيتُ أناسًا شديدين[1] السواد ، حُمرَ الأعينِ والأسنان .

وحين رأونى اجتمعوا علىَّ ، متعجِّبين من احمِرارِ لونى ، وأتَوْا إلىَّ أفواجًا أفواجًا ، لأنهم لم يقعْ لهم رؤيةُ عربىٍّ قبل ذلك ، وأرادوا قتلى على سبيل الاستهزاء ـ وكنت إذ ذاك لا أعرفُ من لغةِ الفور شيئاً ـ فما راعنى إلا أنى رأيت مَن معى من الناس اختطفُوا سلاحَهم ، وجرَّدوه فى وجوهِ القوم ، وحالوا بينى و بينَ القوم ، فسألتُ عن السبب ، فقالوا لى : إنهم يريدون الفتكَ بك . فقلت : لماذا ؟ فقالوا : لقلَّةِ عقولهم ، لأنهم يقولون : إن هـذا لم ينضَج فى بطن أمِّه ، و بعضهم يقول : لو نزلَتْ عليه ذبابةٌ لأخرجتْ دمَه . فقال أحدهم : اصبروا ، وأنا أطعَنُه بحربةٍ ، وأنظر مقدارَ ما[2] ينزِلُ منه من الدم . وحين سمعنا منهم ذلك ، خِفنا عليك ، وأحطنا بك .

ثم إن الجماعةَ أخرجونى من السوق ، فتبِعنى خلق كثيرون ، فطردوهم عنى بكل جَهد ، ثم ذهبوا بى إلى وادٍ هناك ، فرأيت فيه نخيلاً وأشجار موز ، و بعضَ أشجار من اللَّيمون . ورأيت [ما] قد زُرِعَ فى ذلك الوادى من البصلِ والثُّومِ والفُلفُلِ الأحمر

---

(١) كذا فى الأصل ، وهى لهجة عامية ، بدل : شديدى السواد . وقد مضى نظير لهذا فى ص ١٠٣ حاشية ١ .

(٢) فى الأصل : مامقدار .

— وهو قرون صغيرة رفيعة ، أكبرُ من حبِّ الشَّعير بقليل — والكمّونِ والكسْبَرةِ ، (١٤٠) والحلبة والقثّاء والقرع شيء كثير . وكان ذلك فى أيام الخريف ، وقد احمرَّ البلح ، فقطعوا لى عُرجونَيْنِ من البلح أحمرَ وأصفرَ ، وأهدَوْا لى بُخْسَةَ[1] عسلٍ لم أر نظيرَه حسناً وطعماً ولذّةً . و بتنا فى أكرم ضيافة وألذّ عيش .

ولما أصبح الصباحُ طلبتُ التفرُّج ، فأخذونى ودَخلنا الأودية ، فصرنا نقطع وادياً[2] بعد واد . و بين كلّ واديَيْن أقلُّ من ميلٍ مسافةً ، وفى كلِّ واد زرعٌ عجيب ، وماء يتدفّق على رملٍ كالفضة ، وقد أحاط الشجرُ به سياجًا من حافَّتيْهِ ، يتمنى الناظرُ ألّا يفارقَه . فجلسنا على شاطىء الوادى فى ظلِّ شجرة هناك ، وذُبح لنا كبشٌ سمين وحُنِّذ ، فأكلنا منه إرادتَنا ، ثم ذهبنا لبلد تحت الجبل ، فبتنا فيها فى أكرم ضيافة .

ولما أصبحنا صعِدنا الجبل ، فمكثنا صاعدِين نحو ثلاثِ ساعات حتى علَوْناه ، فرأينا فيه أمما كثيرة ، و بلاداً متفرِّقة ، فأدخلونا على شيخ الجبل ، وكان حينئذ يسمى : أبا بكر ، وهو جالس فى خَلوته . فلما دخلنا عليه ، وجدناه رجلاً مسنًّا قد ناهز الستين ، وأثّر فيه الكِبَر ، فسلّمنا عليه ، فرحب بنا وأجْلَسَنا .

لطيفة :

هذا الجبلُ لا يرتفعُ عنه السحابُ فى السَّنة إلّا أيامًا قلائلَ ، ولكثرة المطر يَزرعون القمحَ ، و ينبتُ عندهم قمح لا يوجد نظيرُه إلا فى بلاد المغرب ، أو فى بلاد أورُوبَّا ، لأنه حسن جداً . و بقيةُ دارفور (١٤١) لا ينبتُ عندهم قمح لعدم الأرض

(١) البخسة : كلمة عامية سودانية معناها : اناء من الفخار يحفظ فيه المـــاء أو السمن أو العسل .

(٢) فى الأصل : واد .

الصالحة ، ولعدم الأمطار إلّا ما قلّ ، كأرض كوبسيه وكبْكابيّة ، فإنه يُزرع فيها القمح ويُسقى بماء الآبار ، حتى يتمّ نضجُه .

ولزيارةِ الشيخ المذكورِ يومٌ معلوم من السنة ، تذهب إليه الناس من كل جانب ، ويقولُ لهم ما يحصُلُ فى جميع العام ، من قَحطٍ ومطر ، وحَرب وسِلْم ، ورخاء وشدة ، ومرض وصحة ، والناس يعتقدون حقيقةَ ذلك ، فاختلفَ أهلُ دارفور فى ذلك ، فمن قائلٍ : إنه من طريق الكشف ، وإن كلّ من تولّى شيخاً يكون وليًا ، وما يقولُه للناس من طريق الكشف ، وهذا قولُ أهل العلم . ومن قائلٍ : إن الجانَّ يخبرُه بجميع ما يحصُل ، وهو يقولُ للناس[1] . وكلا القولين لا أعرف صحتَهما ، بل قد تُقُوِّلَتْ عنه أمور كثيرة ، وحصلَ ضدُّها .

فأبرزْنا فرمانَ السلطان ، وقرأه عليه الفقيهُ محمد ، فرحَّب وأكرم ، ودعَا لنا بطعام ، ثم ضرب طبلاً يقال له : التَّنْبَل . فجاء أناس كثيرون ، فانتخب من شبابهم نحوَ مائة نفر ، وأَرْأَس عليهم رجلاً من ذوى قَرابته يعرَف بالشجاعة ، يقال له : الفقيه زيد . وأمره أن يكون معى هو والجماعة ، وأن يكونوا على أُهبةٍ وحذَر من جُهّال أهل الجبل .

ثم ركبنا وتوجّهنا إلى مكان هناك ، فيه جبل صغير وهو المسمّى : مَرّة ، وسمّى الجبلُ كله باسم ذلك المحلّ ، فرأينا فيه مكاناً أشبهَ بمعبدٍ ، جميعُ أهلِ الجبل (١٤٢) يعتقدون تعظيمَه ، ويرون أن حرمتَه كحرمةِ المساجد . فدخلنا فيه وقد أظلّته شجرة كبيرة ، بحيث صار لا تراه الشمس . فجلسنا فيه قليلا ، ورأينا فيه خَدَمًا لتنظيفه ، واستقبال النذور ممن يأتى بها .

---

(١) قارن هذا بما جاء فى ماكمايكل خاصا بوجود بقايا عادات وثنية قديمة فى دارفور . Mac Michael, H.A. : op. cit., p.p.100 - 103.

ثم انتقلنا من ذلك المكان ، ومشى العسكرُ أمامنا ، فلحق بنا عالَم كثير نساء ورجالًا ، وجعلونى أُعجوبَة[1] ، وتكالبوا وازدحموا علىّ ، وأراد العسكر تفريقَهم[2] ، فما أمكن ذلك ، حتى قال بعضهم : إن السلطانَ أرسل لأهل الجبل رجلًا لم ينضَج فى بطنِ أمه ضيافةً لهم . فقال بعضهم : هو آدمى . وقال آخرون : هو ليس بآدمىّ ، بل هو حيوان مأكولُ اللحم ، على هيئة الآدمىّ . لأنهم ينكرون أن يكون للآدمى لون أبيض أو أحمر . وهؤلاء القوم لا يعرفون من اللغة العربية إلا كلمتى الشهادة ، ويقولونهما[3] مقطَّعتين مع العجمة القبيحة .

ولما عَجز مَن معى عن[4] الدفع عنى ، جاءنى الفقيهُ زيد ، وأمرنى أن أستر وجهى بلثام لا يظهرُ منه إلا الحدقتان . فتلثَّمت واحتاط بى العسكر ، وحين رأى السُّودان أنى تلثَّمتُ اختلط عليهم الأمر ، وسألوا : أينَ الأحمر ؟ قالوا : ذهب إلى السلطان . فانكفُّوا قليلا .

وحينئذٍ توجهنا إلى محلّ الحبس ، أى الكهوفِ التى فيها المحبوسون من أولاد الملوك والوزراء ، فمنعَنَا الحرسُ من الوصول إليها ، وكاد أن يقع بينهم وبين (١٤٣) جماعتِنا شرّ . فتلافَى الفقيهُ زيد الأمر ، وأخذ منِّى الفرَمان ، وذهب إلى رئيس الحرس وقرأه عليه . وعند ذلك امتثل وقال : إن كان ولابدَّ فليأتِ المأمورُ له بالتفرُّج وحدَه ، وجميع مَن معه يجلس على بُعْدٍ حتى يقضىَ شأنَه ، ويرجعَ إليهم . فجاءنى وأخبرنى بذلك

---

(١) فى الأصل : عجوبة .

(٢) فى الأصل : تفرقهم .

(٣) فى الأصل : ويقولونها .

(٤) فى الأصل : من .

فأبيتُ ذلك ، وأدركنى خوف عظيم ، فنأيتُ عن الدخول إلى الكهوف ، وطلبتُ الرجوعَ فرجعنا .

ومن غرائب عوائدهم أنَّ الرجل لا يتزوّج المرأة حتى يصاحبَها مدةً وتحملَ منه مرةً أو مرتين . وحينئذ يقالُ إنها ولود ، فيعْقدُ[1] عليها ويعاشِرُها .

ومن عوائدهم أيضاً أن النساء لا يُحْجَبْنَ عن الرجال ، حتى أن الرجل يدخلُ دارَه ، فيجدُ امرأتَه مختليةً مع آخر ، فلا يكترث ولا يغتمّ إلا إذا وجدَه عليها .

ومن طبيعتِهم الجفاء وسوء الخُلُق ، خصوصاً إذا كانوا سُكارَى .

ومن طبيعتِهم أيضاً البخل الزائد ، لا يَقْرُونَ ضيفًا إلا إذا كان من ذوى قرابتهم ، أولَهُمْ به عُلْقَة ، أو كان إنسانا يخافون منه .

ومن عوائدهم أن الصِّبيانَ والبَناتِ الصغار ، لا يستترون إلا بعد البلوغ ، فيلبس الصبيُّ قميصاً ، وتشُدُّ الأنثى وسطها بـِميزَل ، ويبقَى ما زاد عن السُّرَّة إلى وجهها بارزاً .

ومن عادتهم عدمُ الترفُّه والتفنُّن فى المأكل ، بل كلُّ ما وجدوه أكلوه ، لا يأنفون طعاماً، مُرًّا كان أو نَتِنًا ، بل (١٤٤) ربما أحبُّوا أكل الطعامِ المُرِّ ، واللحم النَّتن، واستحسنوه عن غيره .

ومن عادتهم أن الشباب لهم فى كل بلدة رئيس ، وكذلك النساء لهنَّ رئيسة . فرئيسُ الرجال يسمَّى : الوُرْنَانـِح ، ورئيسة[2] النساء تسمَّى : المـيرَم[3] . فإذا كان فى الأفراح والأعياد والمواسم ، يجمع الرئيسُ أصحابَه ، ويجلسُ بهم فى محل ، وتأتى الرئيسة

---

(١) فى الأصل : فيقعد .

(٢) فى الأصل : ورئيس .

(٣) قارن هذا فيما ورد فى ص ١١٦ حاشية ١ .

وصواحِبُها[١] فيجاسنَ أمامهم على حِدة ، فينفردُ الوُرْنَانْـيحْ و يدنو من المــيرمَ ، و يخاطِبُها بكلام يعرفُه هو وهى ، فتأمر المــيرَمُ جماعتَها أن يتفرَّقْنَ على جماعة الوُرْنانيــح ، فيأخذ كلّ فتًى فتاةً ، ويذهبان إلى محلّ ينامانــ فيه إلى الصباح ، ولا عار فى ذلك على إحدَى[٢] منهن .

ولْيُعلَمَ أن الرجال فى دارفور لا يستقلّون بأمرٍ ألبتَّةَ إلا الحرب ، فليس للنساء دخل فيه ، وما سوَى ذلك فهم والنساء سواء . بل أكثر الأشغال وأشقُّها على النساء . وللرجال اختلاطٌ عجيب بهنّ بالليل والنهار ، فى جميع الأعمال .

ومن العجب فى أهل جبل مَرَّة ، أنهم لا يأكلون من القمح الذى يزرعونه ، بل يبيعونه و يستبدلون بثمنه دُخْنًا . وأعجبُ من ذلك غِلَظ قلوبهم وجفاوتُهم ، مع أنهم ممتزجون بالنساء امتزاجاً كلِّياً . وهذا خلافُ المُشاع على ألسِنةِ جميع أهلِ بلاد أورُوبَّا ، من أن الرجال إذا امتزجوا بالنساء تذهب غِلاظَةُ[٣] قلوبهم ، ويكتسبون (١٤٥) الرقةَ وحسنَ الطبع . ومن غِلاظة طبعهم ، أن الرجلَ يسافر الفراسخ العديدة راجلاً ، ويكون معــه حمار ، فيسوقُه أمامه ولا يركبه ، وإن سئل يقول : إنْ ركبتُه أبطأَ بى .

وأما لغتُهم فهى لغةٌ فيها حماس ، ألفاظُها تشبه ألفاظَ اللغة التركية ، لأنهم إذا دعَوْا إنساناً يقولون له : جِلَا . والتُّرك يقولون : كَال (جَال) . وقولى : تشبهُ اللغةَ التركية ، ليس معناه أنهما متقاربتا[٤] المعنى ، بل وجهُ الشبه فى مجرد الألفاظ ، وإن اختلف موضوعُ

---

(١) فى الأصل : وصواحبتها .

(٢) كذا ، وقد تكررت هذه الصيغة مرارا .

(٣) الغلاظة بالكسر : ضد الرقة (القاموس) .

(٤) فى الأصل : متقاربتى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معنى كل منهما ، وذلك أن الفور يقولون للفرس : يَامُورْتَا ، وعند التُّرك هو اسم للبَيْض ، والقبيحُ عند الفور اسمه : جِتّي . وعند الترك : فعلٌ ماض بمعنى : ذهبَ .

ولم أسمع لغةً أنقصَ من لغتهم ، لأن العدَد بلغتهم ينتهى إلى ستّة ، ويُكمَّلُ بالعربى. فيقولون : دِيكْ : واحد ؛ أو : اثنان ؛ إِيسْ : ثلاثة ؛ أُونْجَل : أربعة ؛ أُوسْ : خمسة ؛ أُوصَانْدِيكْ : ستة . ثم يقولون بالعربى : سَبعة ، ثمانية ، تسعة[1] ، ثم يقولون : وُأَيَّه[2] ، وهو لفظٌ يدل على عَشرة[3] .

لطيفة :

من أعجب ما سمعتُه بجبلِ مَرَّة ، أن الجِنَّ ترعَى مواشيَهم التى ترعَى فى الكلأ بدون راعٍ معهم . ولقد أخبرنى عِدَّة رجالٍ ممَّن يُظن صدْقُها[4] ، أن الإنسان إذا مرَّ بمواشيهم ، ورأى أن لا راعىَ[5] لها ، ربما طمع فأخذَ منها شاةً أو بقرة أو غير ذلك . فإنْ ذبَحها تلتصقُ يدُه بالسكّين على مَنْحَرِها ، ويعجِز عن فِكاكِها ، حتى تأتيَ أربابُ الماشية ، فيقبضون عليه ، ويُغرِّمونه ثمنها بأغلى قيمة ، بعد إهانتِهم له ، وضربِهم إيَّاه الضربَ المؤلم . ولقد تكرَّر علىَّ سماعُ ذلك ، حتى بلغ مبلغ التواتُر ، مع أنى لا أصدِّقه .

---

(١) هذا ما جاء فى المتن . وأما نطق الفور لهذه الأعداد الثلاثة (٧ ، ٨ ، ٩) فهو كما جاء فى الترجمة الفرنسية (Voyage, p. 140). سب ، تمانى ، تساه .
وقد سمعنا بعض أهل دارفور أثناء رحلتنا الى جبل مرة فى أواخر عام ١٩٦١ ينطقونها على النحو الآتى : ساب ، تمن ، تسى .

(٢) كذا ، وقد سمعناهم ينطقونها هكذا : ويه بامالة الواو ، أو وييه ، بفتح الواو وامالة الياء المشددة .

(٣) فى الأصل : عشر الاعداد .

(٤) كذا فى الأصل .

(٥) فى الأصل : لاراع .

وحين كنتُ فى جبل مَرّة ، توجهتُ إلى دار رجلٍ منهم فى نُمّـليه ، أسألُ عنه ، فما رأيتُ فى داره أحداً ؛ لـكنْ سمعتُ داخلَ الدارصوتاً غليظا مُرعِبا ، اقشعرَّ منه جلدى ، يقول لى : أَركبَا . يعنى : إنه ليس هنا . وفى ذلك الوقت أردتُ أن أتقـــدَّم وأســألَ : أين ذهب ؟ فمر بى إنسان وجذبنى وقال : ارجِـعْ ، فإن الذى يخاطبُك غيرُ آدمى ! فقلتُ : وما هو ؟ فقـال : هــذا الحارسُ الجِنّى ، لأنّ لـكل إنسان منا حارسًا من الجن ، ويسمَّى بلغة الفُور : دَمْزُوقَه[1] . فخفتُ حينئذ ورجعتُ من حيث أتيت .

ولـمـا رجعتُ من هذه السَّفرة ، وتوجّهت إلى الفاشر ، اجتمعتُ مع الشريف أحمد بدوى ، الذى أخذنى من مصر ، وذهب بى إلى دارفور ، فأخبرتُه القصةَ فقال : صَدَقَ . وأسمعنى أعجب من ذلك ، وقال لى : يا ولدى ، اعلم أنى كنتُ فى أول أمرى أسمع أن الدَّمَازِيقَ تُباع وتُشترى ، ومن أراد منها دَمْزُوقًا ، يذهب إلى مَن يعلم أن عندَه دَمازيق ، فيشترى منه واحـداً بما يُرضيه ، ثم يأتى بقَرعةٍ فيها لبن ، ويدفعُها إلى ربِّ المنزل ، فيأخذُها ويدخل (١٤٧) إلى المحلّ الذى هُنَّ فيه ، فيسلّم عليهنّ ، ويعلّق القرعَة التى فيها اللبن فى عَلّاقة فى البيت ، ثم يقول لهن : إن صاحبى فلاناً عنده مال كثير ، وخائفٌ عليه من السرقة ، وأراد منى حارساً ، فهل إحدى منــكُنّ تذهبُ[2] إلى داره ، لأن عنده لبناً كثيراً ، وخيراً غزيراً ، وقد أتى بهذه القَرعة مملوءةً لبناً ؟ فيتمنّعنَ

---

(١) فىَ الأصل : دامزوقه . راجع ما ذكره ماكمايكل فى شرح الدمزوقه معتمدا فى ذلك على ما جاء فى هذا الكتاب ومما سمعه بنفسه من أهالى دارفور .
MacMichael : op.cit. p. 102.

(٢) عومل لفظ دمزوقه معاملة المذكر فى كثير من المواضع ومعاملة المؤنث فى مواضع قليلة كهذه .

أولًا ويقلن : لا أحدَ يذهب معــه . فيتحنّنُ لهنَّ ويتملّق حتى يرضَيْن ، فيقول : مَن أراد الذّهاب منــكنّ فلْينزلْ فى القَرعة . ويبعُدُ عنهنّ قليلا ، وحينَ يسمع بصوتِ وقوعه فى اللبن ، يغطّى القرعةَ بطبقٍ من سَعف ، ويأخذُها من علّاقتها مغطّاةً ويدفعُها لصاحبِه المشترى ، فيأخذُها ويذهب بها إلى داره ، ويعلّقُها فى بيته ، ويوكّلُ بالقرعةِ جاريةً أو امرأةً ، تأتى كلّ يوم على[1] الصباح ، وتأخذُ القرعةَ وتُريقُ مافيها من اللبن ، وتغسلُها[2] جيداً ، ثم تضع فيها لبناً آخر محلوباً فى ساعته وتعلقها . وحينئذ يأمن الإنسانُ على مالِه من السَّرقة والضياع .

وكنتُ أكذّب ذلك حتى كثُر مالى ، وصارتْ العبيــدُ والخدَمُ يسرقونه ، فاحتلْت على منع السرقة بكل حيلة فلم يمــكنِّى[3] ذلك . وشــكوتُ لبعض أصحابى ، فأمرنى أن أشترى دَمْزُوقاً ، و[أخبرنى] أنى أُكْفَى شرَّ السرقة . فحدانى حبُّ المــال أن توجهتُ إلى رجل سمعتُ أن عندَه دَمَازيقَ ، وقلتُ له : أعطنى (١٤٨) دَمزوقاً يحرسُ[4] لى مالى . وأعطيته ما طلبه ، فقال لى : اذهب واملأ قرعةً من لبن حليب وهاتها . ففعلتُ ، وأتيتُه بالقَرعةِ مملوءةً لبناً ، فأخذها وذهب ، وبعد ساعة جاءنى ، والقَرعة مغطّاة ، وقال لى : علّقها حيث مالُك مخزونــ . وعرَّفنى ما ينبغى أن يُفعل كلَّ يوم ، من غسلِ الآنية ، وتجديد اللبن . ففعلتُ ذلك ، ووكّلتُ جارية بذلك ، وأمِنتُ على مالى ، حتّى أنى كنت أترك بيتَ مالى مفتوحاً ، ولا يقدر أحد على الوصول

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : ويغسلها .

(٣) فى الأصل : يمكننى .

(٤) فى الأصل : دمزوقة تحرس .

إليه ، وفيه من العَيْن والأمتعة شيء كثير ، وكلُّ من رام أخذَ شيء بغير إذنى تُكسر رقبتُه ، فقُتل لى عدَّةُ عبيد .

وعشتُ آمناً على مالى مُدةً ، حتى كَبِر لى ولد كان اسمُه محمداً[1] ، فلما شبَّ واحتلم تعلَّقتْ آمالُه بالبنات ، وأراد يهادِيهِنَّ ببعضِ خَرز وحُلِىّ ، فترقّب غفلتى يوماً ، وأخـذ المفاتيح وفتح خزينة الأمتعة ، وأراد أن يدخل فكسر الدَّمزوقه رقبته ، ومات فى الحال ، وكنت أحبّه حبًّا شديداً . فلما أُخبِرتُ بموته ، جَزِعْتُ عليه جَزعاً عظيما ، وسألتُ عن سبب ذلك ، وأخبِرتُ أنه أراد أن يأخذ شيئاً من الأمتعة ، فقتـله الدَّمْزُوقَه . فحلفتُ يميناً أن الدَّمزوقَه لا يجلسُ فى بيتى ، وأردتُ إخراجَه فأعجزنى ، وشكوتُ لبعض أحبابى ، فأشار علىَّ أن أصنع وليمـةً ، وأجمعَ فيها أناساً كثيرين ، يكون مع كل واحد منهم بندقيةٌ وبارود ، ويأتون كلُّهم دَفعةً واحدة (١٤٩) يُطلقون البنادق ، ويصيحون بصوتٍ واحد بكلام الفور : دَمْزُوقَهْ أَيـيه[2] ؟ ومعناه : أين الشيطان ؟ ويكرِّرون الطّلْق ، ويرفعون أصواتَهم بذلك ، حتى يدخلون[3] إلى المحلِّ الذى فيه المـال ، فربما خاف وهرب منه ، ففعلتُ ذلك ففَرَّ ولله الحمد ، وخلُصتُ من معاشرة الدَّمازيق ، أى : الشياطين .

ولقد أخبرنى عدَّةُ رجال ، أن النَّقاقيرَ التى فى بيت السلطان ، فيها واحدةٌ تسمَّى :

---

(١) فى الأصل : محمد .

(٢) فى الأصل : ايثيه ، والتصحيح عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 153

(٣) كذا .

منصورة[1] ، متملِّكها الشياطين ، وأنها ربما ضَرَبت بغير ضارب . فإذا وقع ذلك يحدث فى دارفور أمر عظيم ، إما حربُ عدو لهم ، أو حربٌ بينهم ، وسيأتى لهذا مزيدُ توضيح ، حين نتكلم على عوائد الملوك .

وأما عوائد القبائل الأُخَر ، كالبَرْتِى والدَّاجُو والبيقُو والزَّغاوة والبَرْقُو والمِيمَه وغيرِهم ، فإن بعضها يقرب من عوائد أهل الجبل ، وبعضَها يخالفُها . أما المخالفة ، فبعض هـذه القبائل فيه كرم ونجدة ورقةُ طبع ، وذلك لمخالطتهم للعرب أهلِ البادية ، وللتُّجار الذين يذهبون من أرض مصر وغيرها ، فتراهم إذا رأَوْا أضيافاً أقسموا عليهم ، وأحسنوا ضيافَتهم ، و إن رأوا غريباً أكرموه ، وذلك بخلاف الفور الأعجام ، كأهل جَبل مَرَّة وتَمُورْكَهْ ، فإنهم لا يُكْرِمون الضيفَ ولا يألَفونه ، ولا ينزلُ الضيف عندَهم إلا قهراً عنهم ، انتهى . (١٥٠)

---

(١) المنصورة : هو الطبل الكبير الذى ظفر به السلطان تيراب من العبد اللاب عند أم درمان أثناء حملته على كردفان . وفى نعوم شقير : (تاريخ السودان ج ١ ، ص ١٢٠) أن السلطان تيراب « لما فاز بنحاسهم سر به سرورا فائقا حتى أنه طلاه بالذهب من الداخل والخارج وعمل له نهودا من الذهب وحفظه الخلف عن السلف الى انقضاء ملكهم . وكانوا فى كل سنة يجددون تجليده بموكب حافل يجتمع فيه أهل دارفور خاصتهم وعامتهم من جميع الأنحاء وداموا على ذلك الى أن سقطت دارفور بيد مصر فحمل الى القاهرة» .

الفصل الثاني

في عوائد ملوك الفور

اعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق بقدرته ، وميَّزهم بحكمته ، وجعل اختلافَ عوائدهم وأحوالِهم عِبْرَةً لأولى الأبصار ، وتذكِرَة لذوى الاستبصار .

لِيعلَمَ العاقلُ ، إذا تأمَّل فى أحوال الممالك ، واختلافِ عوائدها ، وطبائعها المتنوعةِ وفوائدها ، أنّ القادرَ الخالقَ الأكبر — جلَّت قدرتُه ، وعظمتْ إرادته — إنما نوَّع أحوال هذا العالَمَ ، وخَصَّ كلَّ قوم بمزيَّة لا توجَد فى غيرهم ، ليَعلمَ[1] عِظَمَ قدره وحكمتِه .

كما أنه إذا نظر فى اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وزِيِّهم ومعاشِهم ، عَلِم أنها آيةٌ كبرى ، كما قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ »[2] .

ثم إن اللهَ جعلَ لكلِّ إقليمٍ طبيعة : فمن الأقاليم الحارُّ ، ومنها البارد ، ومنها المتوسِّطُ بين الحرارة والبرودة . وذلك بحسبِ قُرب الإقليم من خطِّ الاستواء ، وبُعده

---

(١) أى : العاقل .

(٢) سورة الروم آية ٢٢ .

عنه ، فسبحانه الفعّالُ لِمَا يُرِيد . ولو شـاء لجعلهم أمةً واحدة ، ولـكن بالاختلافِ تظهر المزايا ، وتشتاقُ النفس إلى معرفةِ ما لم تعرفْه . ولولا ذلك لمـا ساحتْ السُّوّاح[1] ، وما بُذِلَتْ فى الأسفار الأموالُ[2] والأرواح وإذا تقرّر ذلك فنقول :

عادةُ ملوكِ الفور مخالِفةٌ لعوائد غيرهم من الملوك ، و لِمَلِـكِهم[3] السَّلْطَانةُ التامَّةُ عليهم ، فإذا قَتَل منهم ألوفًا لا يُسألُ : لمـاذا ؟ وإن عَزَل ذا منْصِب لا (١٥١) يُسألُ : لمـاذا ؟ فهو تامّ التصرُّف فى كل أمرٍ يريدُه ؛ وإذا أمر بأمرٍ لا يراجَعُ فيه ولو كان مُنـكَرًا ، إلاَّ من قَبيلِ الشفاعة . ولا تُرَدُّ له كلمةٌ . لـكنه إذا فعل ما لا يليق من الظلمِ والعسف ، تحصل له بَغضاء فى قلوبِهم ، ولا يقدِرون له على شىء .

فأوّل عوائدِهم : أن الملِكَ لا يكون إلاَّ من بيت المُلك ، أى من سـلالتهم . ولا يمكنُ توليةُ أجنبى منهم[4] ولو شريفًا ، وتحقَّق نسبُه عندهم .

وثانيها : أن الملك إذا تولَّى يجلس فى بيته سبعةَ أيام ، لا يأمر ولا ينهى ، ولا تقوم بين يدَيْه دعوَى[5] ، وكلُّهم على ذلك إلّا السلطانَ عبد الرحمن ، فإنَّه خرق عادتَهم ، كما مرَّ عند الـكلام على توليته[6] .

وثالثُها : أن لهم عجائزَ تسمَّى : الحَبُّـوبَات ، وهن طائفةٌ عظيمة ، ولهنَّ رئيسة تسمّى : مَلِـكة الحبُّـوبات . فعنـدَ خروج السلطان يومَ الثامنِ يجتمعْنَ ويأتين

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : الامول .

(٣) يقصد بالملك هنا السلطان الأعظم سلطان دارفور . قارن ماورد فى ص ٥٤ حاشية ٤ .

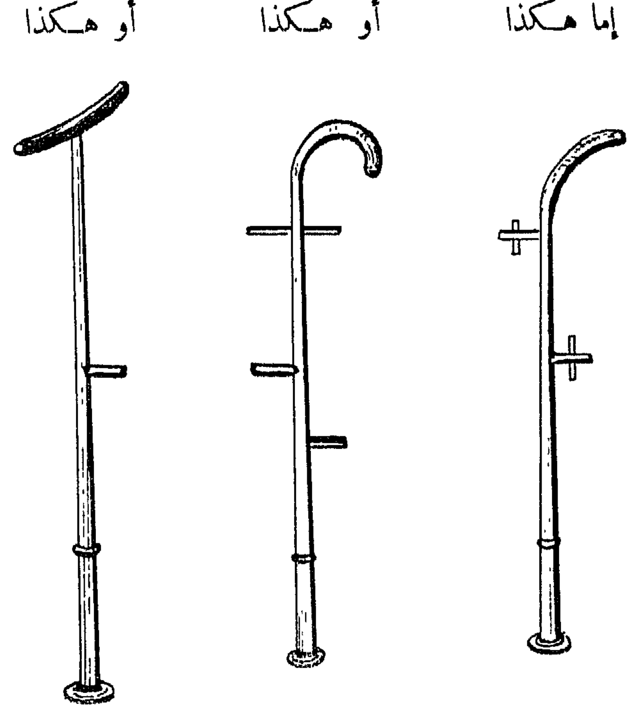
(٤) كذا فى الأصل ، بدل : أجنبى عنهم .

(٥) فى الأصل : دعوة .

(٦) انظر ص ١٠٢ .

إليه ، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ بيديها أربعُ قطعٍ من الحديد ، تسمى القطعةُ منها كُرْبَاجًا ، وصورتها :

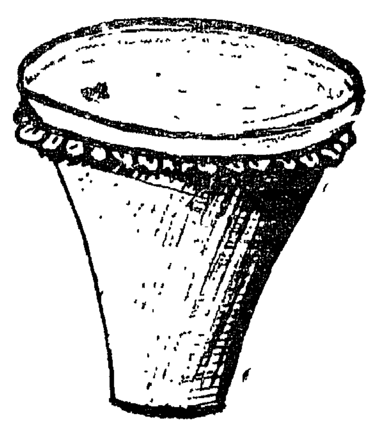
إما هـكذا   أو هـكذا   أو هـكذا



وفى كلّ يدٍ كُرْباجان ، يضربْنَها على بعضِها فيحصلُ منها صوت . و بيد إحداهنَّ قبضةٌ من سعَف أبيض ، ومعها ماء اختلف أهلُ دارفور (١٥٢) فيما تركَّب منه ، فتبُلُّ العجوزُ السعفَ من ذلك الماء ، وتُرشُّ به على السلطان ، مع قولِ كلامٍ لا يعقِلُه إلّا هنَّ ، و يأخذْنَ السلطانَ فى وَسَطِهِنَّ ، و يطُفْنَ به البيتَ ، و يتوجَّهنَ إلى دار النُّحاس ، وهو المحلّ الذى فيه النَّقاقير ، وهى طبولُ السلطان . فيدخانَ البيتَ و يأتين إلى النَّقَّارِيَّة المسمَّاة بالمنصورة ، فيقفْنَ حلْقةً ، و يجعلْنَها فى الوسط ، والسلطان وحدَه معهُن ، و يضربْنَ الـكرابيج على بعضِها ، و يقُلْنَ من كلامِهِن ، ثم يرجعْنَ بالسلطان إلى كرسى مملـكته . و بعد جلوسه ذاك ، تدخل إليه الدَّعاوَى و يتناولُ الأحكام .

ومن عادتهم : أن السلطان لا يسلِّم على غيره إلّا بترجمان ، صغيرًا كان أو كبيرا ، عظيما أو حقيرًا . وكيفيةُ ذلك : أنَّه[1] إذا دخل عليه أناس يجثون على رُكَبهم ، ثم يتقدم التُّرجُمان ، ويسمّيهم واحدًا بعد واحدٍ إلى آخرهم . وهو أنه يقول: « إنـو تـورَا فَلاَنْ ، دُونْجِهْ كَنِّيجِي دَارِي » ، ومعناه[2] : إن هنا برًّا فُلان ، سلام يعطي طاعة . فإذا تمَّ[3] أسماء الجالسين قال : « كِيكِينْ دُقْلَهْ كَرِنْجِهْ »[4] ، ومعناه : معهم أولاد وراءهم ، حتى أتباعهم وخَدَمُهم . فتقول العبيد الواقفون خلفَ السلطان ، المسمّون كُورْكُوَا — وقد تقدم ذكرُهم — : « دُونْجِرَايْ دُونْجَهْ ، دُونْجِرَايْ دُونْجَهْ » ، ومعناه : سلام سلام ، سلام سلام .

فإن كان في ديوانٍ (١٥٣) حَفْلٍ ضُربَ إذ ذاك طبلٌ يقال له : دِنْقَار ، وهو طبل عظيم من خشبٍ ، مُجلَّد من جهةٍ واحدة ، أهراميُّ الشكل مقلوبٌ هكــــذا :



[دنقار : طبل عظيم من خشب]

---

(١) في الأصل : ان .

(٢) المعنى وارد بحسب ترتيب الكلمات .

(٣) كذا في الأصل ، والصيغة عامية بمعنى أتم :

(٤) معاني الألفاظ هي : كي : مع ؛ كين : هم ؛ دقله : أطفال ، أولاد ؛ كر : وراء ؛ نجه : هم . Voyage au Darfour, p. 161. أما قول المؤلف : « حتى أتباعهم وخدمهم » فليس له مقابل في العبارة الفوراوية .

له صوتٌ عالٍ ، وإن لم يكن ديواناً لا يكونُ ذلك .

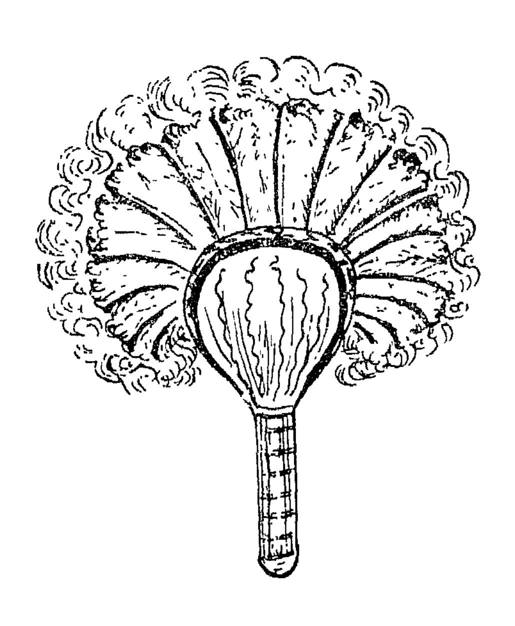
ثم من شدة تعظيمهم للسلطان ، أن السلطانَ إذا بصَق فى الأرض ، يمسحُه بيدِه واحد من الخادمين ، [الـ]قاعدين أمامه ، [الـ]متطلِّعين دائماً للسلطان ولأفعاله ولحركاته .

وإذا تنحْنَح قالوا كلُّهم : تْسْ تْسْ . يعنى : يلفِظون بتاء مدْغمةٍ فى سين ، من غير حركات ، يكونُ اللسان ضارباً للسِّنْخ[1] العلوى للأسنان .

وإذا عطِس لفَظوا بحروف لا يلفِظُ بها إلا الوزَغ[2] ، أو من يَسُوقُ دابّة .

وإذا جلس وأطَال المجلسَ ، روَّحوا عليه بمراوحَ من ريش النّعام .

وإن خرجَ إلى الصيدِ ، يُظلِّلونَه بشَمسيّةٍ وأربع مراوحَ كِبارٍ من ريش النّعام ، مغلّفاتٍ بجوخٍ أحمر . وهذه المراوحُ تسمَّى بالرِّيش ، وصورتُه هكـــذا :



[ريش : مروحة كبيرة من ريش النعام]

---

(١) السنخ بالكسر منبت الأسنان .

(٢) الوزغ جمع وزغة ، وهى : سام أبرص . (القاموس) .

(١٥٤) فيقفونَ بالشَّمسية على رأس السلطان ، ويجعلون المراوحَ اثنينِ عن اليمين ، واثنين عن اليسار ، فيصيرُ على السلطان ظلٌّ واسع . وللشمسيّة المذكورة والرِّيش مَلكٌ مخصوصٌ وأعوان يتداولُونَها نَوْبةً فنَوْبة ، ماشيين[1] على أقدامهم .

ومن عادةِ السلطان إذا ركب أن تُرفع أمامه السَّجّادة ، ولها ملكٌ مخصوص ، وأعوان يتداولونها أيضاً .

ومن تعظيم السلطان ، أنه إذا ركضَ جوادُه وعَثَر الجوادُ فرماه ، أو وقع من شدَّة الرَّكض ، أنهم يرمون أنفسَهم جميعاً من على ظهور الخيل ، ولا يمكن أن يثْبُتَ أحد منهم على ظهر فرسِه بعد وقوعِ السلطان ، بل إن رأى الخدَمةُ أحدًا ثابتاً على ظهر جواده ولم يرم نفسَه ، يرمونه إلى الأرضِ ويضربونه ضرباً مؤلماً ــ وإن كان عظيما ــ لِمَا يرَونَ أن ثباتَه احتقارٌ[2] بأمرِ السلطان .

وإذا جلس السلطانُ للحكمِ في ديوانِه ، لا يكلِّم الناس مباشرةً ، بل بواسطةِ ترجمان ، إن لم يكن ديواناً عامّا . [3]فإن كان ديواناً عاما وقف المترجمون السبعة في الوسط، أوّلهم عند السلطان ، وآخرهم عندَ النّاس أصحابِ الدعوى ، والعساكرُ حولَه[3] ،

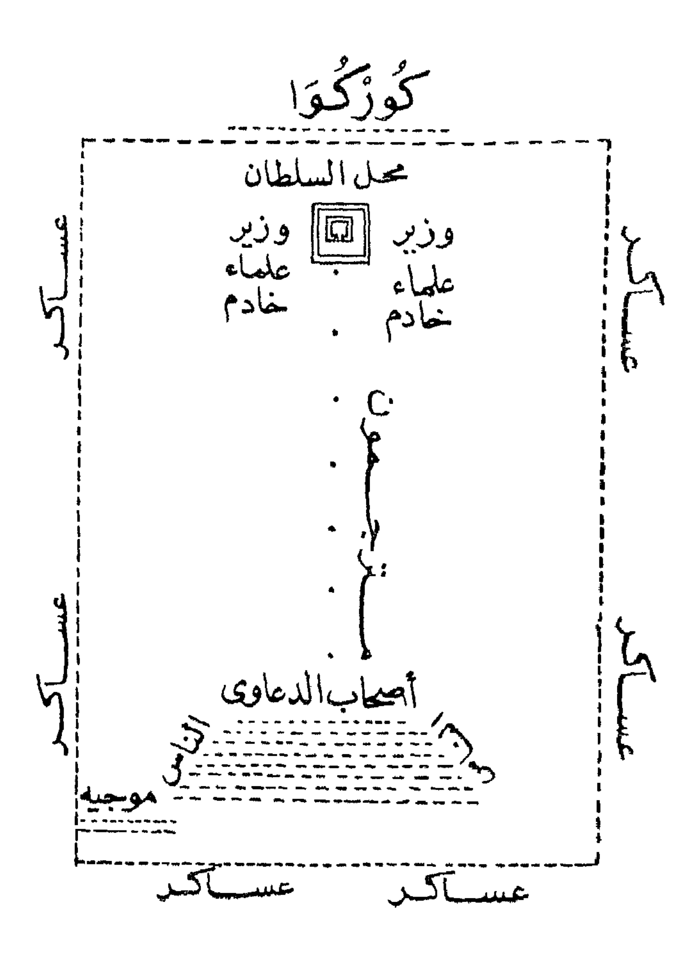
---

(١) كذا بياءين وهي صيغة عامية .

(٢) في الأصل : احتقارا .

(٣-٣) الوارد في المتن كما يلي : «فان كان ديوانا عاما كانت سبعة المترجمون أولهم عند السلطان وآخرهم عند الناس أصحاب الدعوى والمترجمون في الوسط والعساكر حوله » وهو كلام بادي الاضطراب ، وقد قومناه في المتن على ضوء الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 163

والكُورْكُوَا خلفَه ، والعلماء والأشراف جالسون ، وهيئةُ ديوانه (١٥٥) هكذا :



[هيئة ديوان السلطان]

والناس جاثُون على رُكَبِهم أمامَه، واضعينَ أيديَهم على التراب ، والمُوجيهُ واقفون دائما ، وسنذكر تعريفَهم .

فإذا سلَّم السلطانُ عليهم مسحُوا الترابَ بأيديهم .

وإذا تكلم أحدٌ فى مجاسه لا يبدأ الكلامَ إلّا بقوله : سلّمْ على سِيدْنا[1] . إن كان عربيا وإن كان فوراويًّا ، قال : « أبا كُورِى دُونْجا جَنِى » ومعناه ذلك .

وإذا كان السلطانُ هو المتكلِّم يقول : سلِّمْ عليه ، إذا [كان] يتكلم بالعربى ، فالتُّرجمان يقول : «دُنْجايْ دَاينْـخْ سِيدِى[2]» . وإذا كان [السلطان يتكلم] بالفُوراويّة يقول : « دُونْجا جَنِى » إن كان [المخاطب] عَجَميًّا ، وإن (١٥٦) كان عربيًّا يقولُ [السلطان] : سلِّم عليه .

ولا خصوصيةَ لمجلسِ السلطان فى ذلك ، بل كلُّ مجلس تُعملُ فيه دعوَى يقال ذلك حتى فى مجلسِ القاضى ومشايخِ البلاد . ولا يمكنُ أن تُعمل دعوَى بغيرِ : دُونْجا جَنِى. ويلزمُ لذلك أنّ الكلامَ يطُولُ وإن كان قصيرا ، لتكريرِ هذه الكلمة بعد كلّ كلمة أو كلمتين . وإذا افتتح أحدٌ دعوَى بغير ذلك يَعيبُون عليه ، ويرَوْن أنه غيرُ متمدِّن ، بل إذا كان فى مجلس حاكمٍ يؤدَّبُ بالزّجر ، مالم يكُنْ غريباً فيُعذَر .

ومن عادةِ ملوكِ الفُور تجليدُ النُّحاس وهى عادةٌ لا توجَد فى غير دارفور .

وتجليدُ النحاس هو تغييرُ[3] جلودِ الطّبول ، المسماةِ فى إقليم مصر بالنّقاقير . وهذا التجليدُ يعظمونَه ، ويجعلونَ له مَوْسما فى السنة ، ومدتُه سبعةُ أيام[4] .

وكيفيةُ ذلك أن السلطانَ يأمرُ بنزعِ جلودِ الطُّبول كلّها فى يوم واحد ، فتُنْزَع

---

(١) ضبط اللفظ بكسر السين وسكون الدال عن الترجمة الفرنسية ، وهى صيغة عامية Voyage au Darfour, p. 164

(٢) أى : سيدى يسلم عليك .

(٣) فى الأصل : تغير .

(٤) جرت عادة سلاطين دارفور بالاحتفال سنويا بتجليد النحاس (المنصورة) ويستمر هذا الحفل ، الذى يبدأ عادة فى الأسبوع الأول من شهر ربيع الآخر ،=

ثم يؤتَى بأثوارٍ خُضْر[1] اللّون ، فيذبحونَها و يأخذون من جلودِها ، و يجلّدُون بها تِلك الطبول . لـكن أهل دارفور يقولون فى ذلك كلاماً لا يقبلُه عقل عاقلٍ[2] مُمارسٍ للـكُتب ، ولـكنَّهم مطبِقُون على ذلك .

فإنهم يزعُمون أن هذه الأثوارَ من نوع بقرٍ معروف عندهم ، وأنها حينَ الذّبح تنامُ وحدَها بدون مَن يُمسِكُها ، ولا يذكرون اسمَ الله عند ذبحها ، و يقولون . إن الجنَّ هو الذى (١٥٧) يمسكُها ويُنيمُها . ثم يأخذون لحومَها و يُجعَلُ فى خَوابِى ، ويُترَك ستةَ أيام مع المِلح ، وفى اليوم السابع يأتونَ ببقرٍ كثيرة[3] وأغنامٍ ، وتُذبح كلُّها ، و يطبُخون لحومَها.

وفى حال الطَّبْخ يأخذون اللَّحمَ الذى فى الخوابى ، ويقطّعونه قطعاً صغيرة ، ويجعلون فى كلِّ قِدرٍ منه قطعاً تخلَطُ باللحم الجديد ، ثم تفرَّقُ الموائدُ للملوكِ ، وأولاد الملوكِ ، والوُزراء ، على حسب طبقاتهم ، و يقفُ على كل مائدةٍ منها حارسٌ من طَرَف السلطان ، ينظُر مَن يأكُل ومَن لم يأكلْ . فإذا أُخبرَ السلطانَ بأن فلاناً لم يأكلْ أمر بالقبضِ عليه فى الحال ، لأنهم يقولون : إنّ من كان فى قلبه خيانةٌ للسلطان ،

= نحو ثمانية أيام أو عشرة ، ويفدم فى هذه المناسبة ، كبار الحكام الاقطاعيين والملوك ، الهدايا للسلطان . كما يقدم ملك الجلابة (كبير التجار) للسلطان هدايا مختلفة من بينها نحو تسعين رأسا من الرقيق .

Browne : op. cit., p. 222

ويذكر نعوم شقير (تاريخ السودان جـ ٢ ، ص ١٤٤) أنهم كانوا يأتون بثور وخروف أبلقين ينتقونهما من قطيع يربونه فى جبل مرة لهذه الغاية ويذبحونهما ويجلدون بجلديهما نحاس المنصورة .

(١) يعبر فى اللهجة السودانية بالأخضر عن الأسمر ، وبالأزرق عن الأسود ، وبالأحمر عن الأبيض .

(٢) فى الأصل : العاقل .

(٣) كذا .

أو غدرٌ ، لا يمكن أن يأكلَ من هذا اللحم . وإن تعلَّل أحدٌ بأنه مريض ، أو لا يقدر على حضور [الوليمة] ، أُرسلَتْ إليه أوانى منه مع حارس أمينٍ ينظُر ، هل يأكلُ أوْ لا ؛ فإن أبى يقبِضُ عليه ، إلاَّ إذا كان معذوراً بقوَّةِ مرضه .

وبعضُ أهلِ دارفور يقولون : إنه يُؤتَى بغلامٍ وصبيَّةٍ لم يبلغا الحِنْثَ[1] ، ويُذبحانِ سرًّا ، ويقطَّعُ لحمُهما ، ويُجعَلُ فى القدورِ مع لحم الحيواناتِ المذبوحة .

وبعضُ الناسِ يقولُ : لا بدَّ وأن يكونَ اسمُ الغلام محمداً ، واسمُ الصَّبيَّةِ فاطمةَ . وإن صحَّ هذا ، فهو غايةُ الكُفرِ بالله ورسولِه . ولكنى لم أشاهِدْ ذلك ، ولم أقف عليه ، لأنى غريبٌ ، والأغرابُ لا اطِّلاع لهم على مثلِ (١٥٨) هذا الأمر أبداً ، لكنِّى سمعتُه من أناس كثيرين ، يحلِفون لى بأيْمان مغلَّظةٍ ، أنّ هذا الكلام صحيح لا ريب فيه .

وقبلَ إخراج الطعامِ تحضُر العساكرُ كلُّها ، ويقفونَ فى بطحاءَ واسعة ، أمام دارِ السلطان ، ثم يخرُجُ السلطانُ عليهم فى زينتِه وأبَّهتِه ، فتُعرَضُ عليه الجيوشُ ، كلُّ ملِكٍ بأتباعه ، واحد[2] بعد واحد .

وكيفيةُ العَرضِ أنّ الملِكَ يأخذُ أتباعَه ويركُض ، حتى يصلَ إلى محل السلطان ، فإن كان من العظماء برزَ السلطان من جماعته إلى ملاقاته ، مقدارَ خُطوتين أو ثلاثة ، وإن كان غيرَ عظيم ثبَت السلطانُ فى موضعه ، فيرجِعُ الملكُ وجماعتُه ، ويفعَلُ ذلك ثلاثَ مرات ، وفى الثالثةِ يُعرِضون على السلطان ، ثم يرجِعون إلى محلِّ وقوفهم ، فيخرجُ ملكٌ آخَرُ بجيشِه ويفعلُ كذلك ، وهلُمَّ جرًّا .

---

(١) فى الأصل : الحنث ، وهو تصحيف . والحنث : الادراك والبلوغ يقال : بلغ الغلام الحنث ، أى الادراك والبلوغ ، وقيل : اذا بلغ مبلغا جرى عليه القلم بالطاعة والمعصية . (**اللسان**)

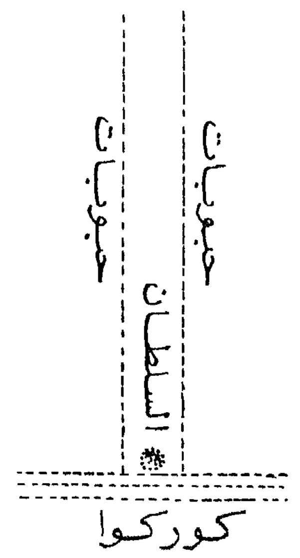
(٢) كذا ، والعبارة عامية فيما يبدو .

فإذا تمَّ العرضُ خرج السلطان راكضاً ، وتتبّع الملوكَ ، وذهب أولاً إلى أعظمهم ، ثم إلى مثلِه وإلى أقلَّ منه فهكذا[1] ، حتى يمرَّ عليهم أجمعينَ ، جبراً لخاطِرهم .

وكلّما أتى قومًا صاحوا فى وجهه بكلامٍ يعظّمونَه به ، وهو أنّهم يقولون له بصوتٍ عال : برنُس [البلاد][2] ، حُرّ السلاطين ، جنزير الملوك ، أدّاب العاصى ، فرتاك الجبالِ بلا ديوان ، وغير ذلك .

فإذا تمَّ العَرضُ ، دخل السلطان دارَه ، ودخلَ وراءه جميعُ أرباب المناصب ، من الوزراء ، والملوك ، وأولاد السلاطين فيدخلُ السلطانُ (١٥٩) إلى دار النُّحاس ، ويأخذُ قضيباً ويضربُ به النَّقّاريّةَ المسماةَ : منصورة ، ثلاثَ ضَربات ، والعجائزُ أى الحبّوباتُ محدِقاتٌ به ، بأيديهنَّ الكرابيج يضربْنَها على بعضِها[3] كما تقدَّم .

ثم يمشين زوجًا زوجًا هكذا :



[صفة دخول السلطان بعد العرض .]

(١) كذا
(٢) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 168.
(٣) كذا

والسلطانُ بينَ الزَّوجِ الأخير حتى يدخُلنَ بالسلطان إلى محلِّ جلوسه ، وأنا شاهدتُ ذلك .

ثم تُفرَّقُ الأطعمةُ ، كما ذكرنا . وإذا كان بعضُ القوَّادِ والوزراء غائباً عن الفاشر ، في وقتِ تجليد النحاس ، ثم جاء بعد ذلك واتُّهِم بغدرٍ أو خيانة ، يُسقَى من ماء كِبلِي ، وهو ماء يُنقَع فيه ثمرُ شجرةٍ مسمَّاةٍ بكِيلِي ، وثمرُه كالجوز . تقولُ أهل دارفور : إن المتهومَ[1] بشيء ، إذا شرب منه ، إن كان بريئاً يتقاياه[2] في الحال ، وإن لم يكن بريئاً يشربُ منه حتى يمتلىء[3] بطنُه ولا يتقايا ، حتى أنه ربَّما شرب مِلْء خابيةٍ . [و] أنا شاهدتُ [ذلك] لكن في تُهْمَةِ سَرقة . ولعلَّ هذا من خواصِّ النباتات ؛ لأنّ النباتَ في دارفور له خواصُّ عجيبة ، سنذكرُها بعدُ إن شاء الله تعالى .

ومن عادةِ الفور : أنّ السلطانَ له مزرعةٌ معلومة (١٦٠) يزرعُها لنفسِه في كلِّ سنة ، وفي يومِ بَذْرِ الحبِّ[4] فيها بعدَ الأمطار ، يخرجُ في مِهرَجانٍ عظيم ، ويخرج معه من البناتِ الجميلاتِ المتجمِّلاتِ بالحُليِّ والحُلَى ، ما ينوفُ عن مائةِ صبيَّةٍ من محاظيه الخاصَّة ، حاملاتٍ على رؤوسهنَّ آنيةً فيها المآكلُ الفاخرة . وهذه الأواني تسمَّى بالعُمَار ، مفردُها : عُمْرَة . فيمشين وراء جوادِ السلطانِ ، صُحبةَ العبيدِ الصِّغار ،

---

(١) كذا وهى صيغة عامية

(٢) يتقايا : صيغة عامية للفظ : يتقيأ .

(٣) فى الأصل : يمتلأ .

(٤) كان الفور يعتقدون أن السلطان مصدر الخصب ولذا جرت العادة فى دارفور ان يشترك السلطان فى الاحتفال سنويا ببدء موسم البذر ، والحصاد كذلك . وهى عادة كانت متبعة فى مصر الفرعونية وأخذها من بعد ملوك الفونج وانتقلت الى دارفور ، ولاحظ براون امتدادها الى برنو .

Arkell : XXXII, Part II, p. 228.

الحاملينَ للحرابِ ، المسميين(١) : كُوركُوَا ، وأصحابِ الصَّـفافير . وهؤلاء(٢) يغنُّون بغناء حالَ تصفيرِهم ، وكُورْكُوا ، الحاملون للحرابِ ، يغنُّون معهم ، فحين تخرجُ البناتُ مع السلطان ، يُغَنِّـينَ(٣) معهم أيضاً . فيبقَى لجموعهم صوتٌ جميل جدًّا .

وحينما يصلُ السلطان إلى المزرعة ، ينزلُ عن جوادِه ، ويأخذُ البَذرَ ، ويأتى أحدُ عبيدِه يَحْفُر الأرضَ بِمِسْحَاةٍ معَه ، ويرمى السلطانُ البـذرَ ، وهو أولُ بَذر يقعُ فى الأرضِ ، فى الجهة التى فيها السلطان . فعند ذلك تتبعُه الملوكُ والوزراء والقوّاد ، فيبذُرون الحبَّ ، ويزرعونَ المزرعَةَ فى أسرع وقت .

وبعد تمامِ زرعِ المزرعةِ ، يحضُر الطعامُ المحمولُ على رُؤُوس البناتِ المذكورةِ ، فيوضَع أمام السلطانِ فيأكل منه هو ووزراؤه ، ثم يركَبُ فى مِهرَجانِه حتى يصلَ إلى دار مُلكِه ، وهذا اليومُ من الأيام المشهورة فى دارفور .

---

(١) كذا فى الأصل بياءين وهى صيغة عامية .

(٢) فى الأصل : وهذه .

(٣) فى الأصل : تغنين .

الفصل الثالث

فى مناصب ملوك الفور[1]

اعلم أنّ واجبَ الوجود تقدّستْ ذاتُه عن المُعين ، لمّا كان منفردا بالقدرةِ المطلقة ، والإرادة التامّةِ المتصرِّفة ، أحوجَ الملوكَ إلى الوزراء والمدبِّرين والمُعينين ، ليُعلَمَ عجزُهم عن الاستقلالِ فى تدبير ممالكهم ومصالحهم ، ولولا ذلك الاحتياجُ لطَغَوْا وبَغَوْا أكثَرَ مما هم فيه من الطُّغيان ، بل ربما ادَّعَوْا الأُلوهيَّة ، التى لا تليقُ إلا بذاته العَليّة . لكنْ خَصَّ كل إقليمٍ ، بترتيبٍ وتنظيم . فلهذا تجدُ أسماءَ مناصبِ وزراء[2] الخلفاء ، كانت مغايرةً لأسماء مناصبِ وزراء الملوكِ الآن ، وأسماء مناصبِ وزراء ملوك هذا الزّمن متخالفةً أيضاً .

فى مملكة آل عثمان ، أسماء المناصبِ : الوزيرُ الأعظمُ ، والكَتْخُدَا[3] ،

---

(١) عنوان الفصل فى المتن كما يلى : « الفصل الثالث فى مناصب ملوك فى الفور وملابسهم وكيفية مجلس السلطان وغير ذلك » .
ولما كان الفصل الثالث خاصا بمناصب ملوك الفور ، والفصل الرابع خاصا بكيفية مجلس السلطان ، والفصل الخامس خاصا بملابس الفور فقد اكتفينا فى عنوان هذا الفصل بما خصص له . ونقلنا الباقى الى موضعيه من الفصلين التاليين ، بدل ادماج الفصول الثلاثة فى فصل واحد .

(٢) فى الأصل : الوزراء .

(٣) الكتخدا : رئيس مجلس الشورى .

والخازندار[١] ، والسّلاح دار[٢] ، والمهُرْدار[٣] ، والدّبوتْ دار[٤] ، وجُـوخة دار[٥] ، وسِرّبوّابين[٦] ، وقَابِجى باشِى[٧] ، وغـيرُ ذلك من ، تُتُونجِى باشِى[٨] ، وشَرْبَتْجِى باشِى[٩] ، وقَهْوَجِى باشِى[١٠] ، وقفطَان أَغَاسِى[١١] ، وبَشْكِيرْ أَغَاسِى[١٢] ، وباشات وأمراء الألوية ، وأمراء الألايات .

وأما أهلُ دارفور فإنهم لتعظيمهم للسلطان لم ينتبهوا إلا إلى جسمِ السلطان ، فسَمَّوْا المناصبَ بأسماء أعضائه .

فأول مناصبِهم أُرُونْدُولُـونـيج[١٣] ، وهو منصبٌ عظيم القدر ، صاحبه يكَنّى برأس السلطان . ولهذا (١٦٢) المنصبِ إقطاعٌ عظيمة وبلاد ، وصاحبُه لا يُسَلَّمُ عليـه إلّا بـ « دُونْـجيرَايْ دُونْـجيَا[١٤] » ، وتُرفع السَّجّادةُ أمامه كالسلطان . وصاحبُ هذا المنصب ،

---

(١) الخازندار : وزير الخزانة والمالية .
(٢) السلاح دار ، أو : السلاحدار : وزير الحربية والبحرية .
(٣) المهر دار : أمين الأختام .
(٤) الديوت دار : حامل الدواة ، وهو سكرتير السلطان .
(٥) جوخه دار : وزير الخارجية .
(٦) سر بوابين : أمين المفاتيح (رئيس البوابين) .
(٧) قابجى باشى : حاجب السلطان ، وهو مسئول عن بعض الشئون الخارجية .
(٨) تتونجى باشى : أمين تبغ السلطان .
(٩) شربتجى باشى : رئيس الشربتلية .
(١٠) قهوجى باشى : رئيس قهوجية السلطان .
(١١) قفطان أغاسى : أمين قفاطين السلطان .
(١٢) بشكير أغاسى : حامل بشكير السلطان ، أثناء الوضوء .
اعتمدنا فى شرح هذه المناصب وضبطها (من الحاشية رقم ٣ الى الحاشية رقم ١٥) على الترجمة الفرنسية . Voyage au Darfour, p. 171 - 172
(١٣) اروندولونج : أنظر ص ١٥٠ حاشية ٦ .
(١٤) انظر معناه فى ص ١٦٧ .

إذا كان السلطانُ مسافراً أو قانصاً ، وظيفتُه أن يمشيَ بعساكره أمامَ الجيشِ كلِّه ، لا يسبقُه أحد .

وثانيها : منصبُ الـكَامْنَه[1] ، وهو فى العِظَم والجلالةِ أعلى من أُ رونْـدولْـونج ، ويكَنَّى عنه برقبةِ السلطان . لـكن من عادةِ الفور أنّ السلطانَ إذا قُتِل فى الحرب ، وسلِمَ الـكامْنَه ، حتى رجَع إلى محلِّ الأمْن يقتلونه ، لَـكِن يخْنُقونَه سرًّا ويولُّون غيرَه للسلطانِ المتولِّى . وإذا مات السلطانُ على فراشِه لا يُقتل الـكامْنَه . وهذ الـكامْنَه يسَمَّى بلغة أعجام الفُورِ : أَبا فُورِى[2] ، ومعناه : أبُو الفور . ولصاحب هذا المنصب إقطاع جليلة ، وعساكرُ كثيرة ، ويفعلُ مثلما يفعل السلطان . ووظيفته أن يمشى خلف جيش أُورونْـدولْـونج .

وثالثها : أبا أُومَانْـج[3] ، وهو قرين الـكامْنَه فى كل شىء ، وهو كناية عن فِقَرَات ظهرِ السلطان ، ووظيفتُه أن يمشىَ خلفَ الجيوش بجيش لا يَعقُبه أحد . وإن أعقب الجيشَ عدوٌّ [كانت] فيه كفايةٌ لدفعِه والذَّبٌّ عن الجيش ، حتى يُدرَكَ ويُمَدَّ بالجيوش .

ورابعها : أَبَادِيمَا[4] ، وهو أعظمُ ممَّن تقدَّم جلالةً وأُبَّهَةً وعساكرا[5] ويحكم على اثنىْ عشرَ ملكا[6] من ملوكِ الفور ، وله إقليم واسع يسمّى (١٦٣) تمُورگه ، وله جميعُ

---

(١) الـكامنه : انظر ص ١٥٠ .

(٢) أبا فورى : انظر ص ١٥٠ .

(٣) أبا أومانج : انظر ص ١٤٢ .

(٤) اباديما : انظر ص ١٤٢ .

(٥) كذا .

(٦) راجع ما ذكر عن لقب «ملك» في صفحة ٥٤ حاشية ٤ .

ما للسلطانِ من الشارات والأُبَّهة ما عدا النحاس ، فإن طبله دِنقار [فقط][1] ، وهو كناية عن ساعد السلطان اليمين ، ووظيفتُه أن يمشيَ هو وعساكرُه عن يمين السلطان .

وخامسها : منصبُ التِّكَنِيَاوِى[2] ، وهو قرينُ أبادِيما فى كل شيء ، وهو كناية عن الساعدِ الأيسرِ للسلطان ، ويحكمُ على اثنَىْ عشر ملكا أيضاً من ملوكِ الجهة الشمالية ، وله إقليم واسع .

وسادسها : منصب الأبِ الشيخ[3] ، وهو أعلى من جميع ما ذُكِر ، ولا فرقَ بينَه و بينَ السلطان ، وأوامرُه تنفُذُ على جميع مَن ذُكر وغيرِهم ، وله إقطاعاتٌ جليلة ، و إقليم واسع ، وصاحبُ هذا المنصِب مطلوقُ السيف ، يقتلُ بغيرِ إذن . وجميعُ أهلِ المملكة تحتَ يده . وهو كنايةٌ عن عَجيزةِ السلطان . وقد تقدَّم بعض ذلك فى حديثِ الأب الشيخ محمد كُرّا .

وسابعها : مناصبُ الأُمَنَاء[4] ، وهى أربعة ، كلٌّ واحدٍ منهم يدعَى أمينًا. وأصحاب هذه المناصب لها إقطاع وعساكر ، وليس لها من شاراتِ المُلك شيء . وهؤلاء الأربعةُ ملازمون لمجلسِ السلطان .

وثامنها : مناصب الكُورَايَاتْ[5] . وهى مناصب جليلةُ القدْر . إلا أنها أقلُّ من مناصبِ الأُمناء رُتبة . ومناصبُ الكُورَايَات أربعة أيضاً .

---

(١) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 173.

(٢) راجع ص ١٠١ ، حاشية ١ .

(٣) راجع ما ذكر عن منصب « الأب الشيخ » فى ص ٦٢ ، حاشية ١ .

(٤) راجع ص ٨٠ ، حاشية ٣ .

(٥) راجع ص ٨٣ .

وتاسعها : منصبُ سُومِـيندُقُلَّه[1] ، وصاحبُه (١٦٤) عظيمُ القدر ، ذو أُبَّهة عظيمة ، وإقطاع وأموال وافرة .

ويليه : منصبُ كُورْكُوا[2] .

وأعلى من هذين منصب [ملك] وَرِّيبَابَه ، وهو منصبٌ جليل عظيم . [و] من عادةِ ملوكِ الفُور أنَّ صاحبَ هذا المنصِب لا يكون إلا خَصِيًّا . لأنه ينالُ منصِب الأبوّةِ بعد موت [الأب] الشيخ . وتقدَّم لنا أن منصب الأَبِ [الشيخ] لا يتولاه إلا خَصِيّ . وصاحبُ هذا المنصب يحكُمُ على جميعِ الخِصيان الموكَّلين بحريم السلطان . وهو أيضاً صاحبُ غضبِ السلطان ، وتحتَ يدِه الحبسُ . فكلما غضِب السلطانُ على إنسان أعطاه له فيسجُنه في سِجْنه . وتحتَ يدِهِ عساكر كثيرة . ومعنى وَرِّيبَابَه بالفُوراوية : باب الحريم . وصاحبُ هذا المنصبِ تحتَ أمرِ الأب الشيخ .

ويليه : منصِبُ ملك ورِّيدَايَا ، ومعناه : ملكُ باب الرِّجال .

ولكلّ بيتٍ من بيوتِ الملوكِ والوُزراء بابان . أحدهما للرجال . والثانى للنساء . فبابُ الرجال يسمى : وَرِّيدَايَا . وباب النساء يسمَّى : وَرِّيبَابَه .

ويليهما : منصِب ملك العَبِيدِية[3] ، وهو منصب جليلُ القدر ، صاحبُه يحكم على جميع عَبيدِ السلطانِ الخارجين عن داره ، الذين فى البلاد بنسائهم وأولادهم . وكذلك تحتَ يدِه مواشى السلطان . وآلاتُ السفر من خِيَمٍ وقِرَب وغيرِ ذلك .

ويليه : منصب ملك القَوَّارِين ، أى المكَّاسين ، وهو (١٦٥) منصب جليل ، صاحبُه

---

(١) راجع : ص ٨١ حاشية ٢ .
(٢) المقصود به هنا : رئيس جماعة الكوركوا ، راجع ص ٧٩ .
(٣) راجع ما ذكر عن العبيدية في ص ٨٤ ، حاشية ١ .

يحكم على جميع المكاسين وجميع الجلاَّبة[1] ، وله إقطاع وعساكر عظيمة .

وأعلى منه : منصب مَلِكِ الجبَّايين ، وصاحبُه فى أُبَّهةٍ عظيمةٍ ومُلْك كبير ، وهو ملكُ الجبَّايين ، أى الذين يَجْبُون الغلالَ من البلاد . ومعنى الجَبَاية[2] : أنهم يأخذونَ عُشر ما يخرُج من الحبوب ، ويجعلونها فى مَطاميرَ لاحتياجِ السلطان .

وبعد ذلك ملوكٌ كثيرة : فحكّام الأقاليم عِندهم يُسَمّوْن الشَّراتِى[3] ، واحدُه شَرْتَاىْ . وحُكّام القبائل يسمَّوْن : دَمَالِج[4] ، واحده دُمُلُج ، ولكل من الشراتى عساكر كثيرة ، ولكل من الدمالج أعوانٌ . وهؤلاء خلاف السَّلاطينِ الصِّغارِ الذين ذكرناهم سابقاً .

ثم اعلم أنَّ جميعَ من ذُكر من أرباب المناصب لا يعطيهم السلطانُ راتباً ، ولا مرتَّبَ لهم عندَه ، بل كلٌّ ذى منصبٍ له إقطاع يأخذُ منها أموالاً ، وما يأخذُه من الأموالِ[5] يشترى به خيلاً وسِلاحاً ودُروعاً ولَبُوسًا ، ويفرِّقها فى العساكر .

وكيفيةُ ما يأخذُ هو أن زكاةَ الحبوب كلَّها للسلطان ، كزكاةِ الماشية ، فلا ينالون منهما شيئاً ، وإنما لكلِّ ملكٍ منهم أفدنة كثيرة ، يزرعها دُخْناً[6] وذُرة وسِمْسِما وفولاً وقطناً ، تزرعُها الرّعايا وتحصُدها وتدرسُها له قهراً عليهم .

وله : الهامِلُ ، وهو الضالُّ من رقيقٍ وبقرٍ وغَنَم (١٦٦) وحَمِير ، يبيعونَها له ويأخذُ ثمنَها .

---

(١) الجلابة : التجار ، مفرده : جلابى .

(٢) كذا فى الأصل ، بدل : الجباية بكسر الجيم .

(٣) راجع : ص ٦٨ ، حاشية ٥ .

(٤) راجع : ص ٦٩ ، حاشية ١ .

(٥) فى الأصل : الاموال .

(٦) فى الأصل : ذخنا بالذال .

وله : التَّقادُم ، وهي الهدايا التي يقدِّمونَها له حين التَّوليةِ والقدومِ على البلاد .

وله : الخَطِيَّة ، وهي في عُرفهم أموالٌ يدفعُها الجاني للحاكم ، ويسمَّى عندهم بالحُكم ، إذا شجَّ إنسانٌ آخرَ يؤخَذُ من الشَّاجِّ مالٌ ويُدفعُ للحاكم ؛ وإذا أحْبلَ رجلٌ امرأةً في الحرام يؤخَذ من كلٍّ منهما مالٌ على قدرِ حاليهما أيضاً .

وله : الدَّم ، وهو في عرفهم إذا قُتل قتيلٌ ووُدِيَ ، يشارِكُ الحاكمُ أقاربَ القتيلِ في الدِّيَة ، سواءٌ كانتْ دِيَةَ العَمْدِ أو دِيَةَ الخطأ . وذلك خلاف المظالمِ التي يأخذونَها بغيرِ حقّ ، وخلاف الأعمالِ الشاقَّةِ التي يكلِّفونهم بها ؛ لأنهم يبْنُون لهم بيوتَهم ، ويسخِّرونهم في جميع أعمالهم .

ومن مناصبِ الفور : مَلِك المُوحِيه ، وإنما أخَّرناه لطولِ الكلامِ عليه ، وغرابتِهِ وغرابةِ المنصب ، وغرابةِ أفعالِ أهلِه . وهو عندَهم أدنى المناصبِ وأقلُّها رتبة ، لكنَّ الكلامَ عليه يحتاج إلى تمهيد .

وهو أن صاحبَ الحكمةِ الأزليَّةِ ، والسلطنة الأبديَّةِ ، واهبَ العقلِ ، ومانحَ الفضل ، وهَبَ لكل إنسان عقلاً يميِّزُ به الخيرَ ليتبعَه ، من المكروهِ ليحذَرَه . وأودَع في كل إنسان حُبَّ رأيِ نفسه وعَقْلِهِ ، بحيث يرى أن عقلَه أتمُّ من عقل غيره ، ورأيَه أحسنُ من رأي غيره ، إلاَّ مَن بَصَّره اللهُ بعيوبه ، (١٦٧) وعلَّمه عجْزَ نفسه عن تدبيرِ جلبِ مصالحها ، ودفعِ مضارِّها ، وإذا تقرَّر ذلك فنقول :

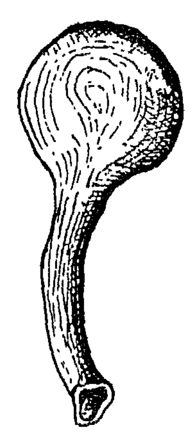
من طبيعةِ بلاد الفورِ الميلُ إلى اللَّهوِ والاستهزاء واللعبِ والطرب ، يستفِزُّهم أدنى مُطرب ، فتراهم لا تخلو أوقاتُهم عن[1] مُطرِب ، ملوكاً كانوا أو سُوقة ، ولذلك

---

(١) كذا .

استحضَروا جميعَ ما يمكنهم من آلات الطَّرب ؛ فتجدُ كلَّ ملك له غلمانٌ صغارٌ حسانُ الأصوات ، وهم المسمَّوْنَ : كُورْكُوَا[1] ، ومعهم صفافيرُ يُصَفِّرون بها صفيراً ، هو فى نفس الأمر غِناء ، مع حُسن أصواتِ الصّفافير ، وحُسنِ أصوات الغِلمان ، فيسمعُ من جميع ذلك صوتٌ حسن .

وكيفيةُ ذلك : أنَّ الملكَ إن كان عندَه من الغلمان عَشْرة مثلا ، يكونُ منهم أربابُ الصّفافير ، اثنَيْنِ أو ثلاثةً ، والرابعُ بيدِه قَرعة جافَّة ، خاويةُ الباطنِ مستطيلة ، أحدُ طرَفَيها غليظٌ ، والطرف الثانى رقيق ، يُقبض عليه باليد ، صورتُها هكذا :



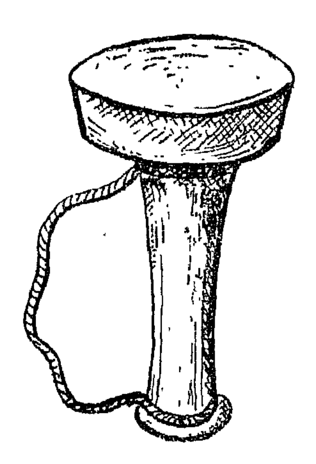
[قرعة جافة ، فيها بعض حصباء ، تستعمل آلة موسيقية]

فيجعلونَ فيها بعضَ حَصباء ، ويقبِضُها الغلام ، بشرط أن يكونَ فمُها منسَدًّا بالقار ، ويُهزُّها فيُسْمَعُ للحَصَى فيها (١٦٨) صوتٌ يوفَّق على أصواتِ الصفافير ، والستّة الباقون يغنُّون ، وربَّما أَخرجَ السلطانُ بعضَ جواريه مزَيَّنَاتٍ حاملاتٍ لأوانِى من الأطعمةِ للسلطان ، ماشياتٍ خلفَه صحبةَ الغلمانِ فيغَنِّينَ مع الغلمانِ والصفافير ، وربما

---

(١) كوركوا : قارن ص ٧٩ ، حاشية ٣ .

زادوا معهما طبلاً من خشب مستطيل ، كالطبلة المساة فى عُرف [أهل] مصرَ بالدَرَبُكّة(۱)، ويسمّى عندهم : تِكْجِلْ ، وصورته هكذا :



[تكجل ، أى : دربكة]

وله علاّقة كما فى الصورة ، فيدخُلُ الضاربُ من العلاّقة ، ويضع العلاّقة على كتفه ، ويصيرُ الطبلُ تحتَ إبطه ، ويضربُ عليه بكلتا يديه نَقَراتٍ مُحكَمَة ، على صوتِ الصّفافير ، وما يغنّونه يكونُ بلسانِ الفور . ولهم معلّمون يعلّمونهم التّصفيرَ والغناء والضربَ على الطّبل المذكور ، والمشاةُ الذين يمشُونَ أمامه ، وبينَ يديه ، يُغنُّونَ غِناءً وحدَهم .

وكيفيةُ ذلك : أنّهم يكوّنون(۲) كراديسَ كراديسَ ، يغَنّي من كُلّ كُردُوسٍ(۳) واحد ، والباقى يردُّ عليه بصوتٍ عالٍ . ولذلك ، إذا ركب السلطانُ ، تضربُ الطبول ، وتغنّي جميعُ الناس مشاةً ورُكباناً ، فيُسْمَعُ لذلك ضجّةٌ عظيمةٌ ، مع أصواتِ الصّفافيرِ وغناءِ الغِلمان ، يخشَى الإنسانُ على سمعِه منه لقوته .

---

(۱) فى الأصل : درابكه .

(۲) فى الأصل : يكونوا .

(۳) الكردوس : الجماعة الصغيرة . — Voyage au Darfour, p. 179.

وهــذه الصفافيرُ تسمَّى : طيرَ الصَّعيد ، وذلك أن ببلادِ صعيدِهم طيوراً[1] لها أصوات حسان ؛ فاخترعوا هذه الصَّفافيرَ على شكلِ أصواتِها .

وينضمُّ لتلك الأصواتِ أصواتُ «المُوجيه» ، وهذا اللفظُ فى لغة الفُور يطلَق على الواحـدِ والجمع ، وهم طائفة عظيمة لها مَلِك مخصوص ، وهو فى عُرفِ الفُور ، كالخَلْبُوص ، أو المَسْخرة ، فى عُرف أهلِ مصر ، أو كالشُوتَرِى فى عُرفِ الترك . لـكن المُوجيه يخالفُ ما ذُكر ، لأنه يتولَّى قتْلَ من يأمرُ السلطانُ بقتلِه .

وصفةُ المُوجيه : أن يلبسَ على رأسه عصابةً ، فيها صفيحةٌ من حديد ، مستديرةُ الشـكل مع التجويف ، وفى العصابة المذكورةِ قطعةٌ من حديدٍ أيضاً كالمسمارِ ، معلقةٌ بخيط ، محررةٌ على التجويفِ الذى فى الصفيحة ، بحيث إذا هزَّ رأسَه تَضربُ التجويفَ المذكورَ ، ويُسمعُ لها رَنَّةٌ عليه . وأعلى منهما فى العِصابة ريشةٌ ، أو ريشتانِ من ريش النعام ، وصورتها هكذا :

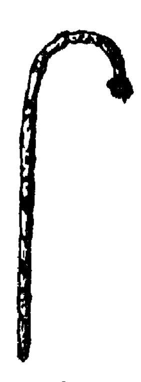


[عصابة يلبسها المُوجيه]

---

(١) فى الأصل : طيور .

وعلى الطَّرطور وَدَعٌ وخَرَز معلّقٌ أيضاً ؛ وفى رجله اليُمنى خُلخالانِ من الحديد ، وفى اليسرى خَلخال واحد ؛ وتحت إبطِه جراب صغير مستطيل ، إذا حلّ عِصابتَه وطَرطورَه يضمُّهما فيه ؛ وبيده عَصًا مُعْوَجٌّ أعلاها هكذا :



[عصا معوج أعلاها تكون بيد المُوجِيه]

مُعلّق فيه جَلاجل ، فيقف بين يدَىْ السلطانِ من المُوجِيه اثنان أو ثلاثة ، إنْ كانَ السلطانُ فى ديوانه ، وإن كان فى سفَر أو قَنصٍ مشى أمامَه أربعةٌ أو خمسة ، وكلٌّ منهم يغنِّى ويرقصُ ، ويقول كلاماً مضحكاً ، يضحك منه سامعُه ، ويحاكِى نُباحَ الكلب وصوتَ الهِرّ . وغناؤه بكلامِ الفور لا بالعربى ، وليس فى رقصِه تَكسُّر بل يهزُّ رأسَه يَمنةً ويَسرةً ، ويضربُ إحدى ساقيه بالأخرى ، فترِنُّ الحديدة التى فى العِصابة على رأسه ، وترِنُّ الخلخالُ التى[1] فى ساقيه .

---

(١) أنث الخلخال والخلخال مذكر .



[المُوحِيه]

وإذا كان السلطانُ مسافراً أو قانصاً لا يغنُّونَ ، بل يصيحونَ جميعاً صيحةً واحدةً بقوةِ أصواتهم ، يقولون : « يَا يَا » ، وهكذا ، ما دام السلطانُ راكباً .

ولا خصوصيةً فى ذلك للسلطانِ ، بل كلُّ ملكٍ من ملوكِ الفور الكبارِ له مُوحِيه ، يقف أمامَه فى ديوانه ، ويمشى قدامَه فى سفره . والمُوحِيه لا يَخشَوْنَ بأسَ السلطانِ ولا غضبَه ، ولهم جراءةٌ عظيمةٌ على السلطان فمَن دونه ، لا يكتمونَ السلطانَ أمراً ، بحيث أنهم إذا سمعوا أمراً فظيعاً يقولونه فى محفِله ، وينسبون الكلامَ

لقائله ، حقيرًا كان أو جليلا ، لا يخافونَ لومةَ لائم . وإذا أراد السلطانُ إشاعةَ أمرٍ ، أو إعلانَ حُكمٍ ، أمر المُوحِيه أن ينادِيَ به ، فينادِي به المُوحِيه بعد المَغرب وقبلَ العِشاء ، نداءً يسمعُه الخاصُّ والعامُّ .

ومما اتفَّقَ أن السلطانَ عبدَ الرحمن كان يحبُّ العلماءَ ، ويُكثِرُ الجلوسَ معهم فى ليلِه ونهارِه ، وقلَّما يجلسُ مجلسًا إلا ومعه عالمٌ أو اثنان . فاغتاظ الوزراء منه وقالوا : كيف يتركُنا ويجلسُ مع هولاء ؟ ! لكن إنْ مات هـذا السلطانُ لا نُوَلِّى علينا بعدَه رجلاً يقرأُ أبدًا . فسمِع ذلك أحد المُوحِيه ، فأمهلهم حتى جلس السلطانُ فى ديوانِه وحضر أولئكَ الوزراء ، فجاء المُوحِيه وقال بلسانِ الفُور كلامًا معناه : (١نحْنَ مابقِينا نُوَلِّى عَلينا١) مَن يعرفُ القراءةَ والكتابة ! فالتفتَ إليه السلطانُ وقال : لِمَ ذلك ؟ قال : لأنك تتركُ الوزراءَ وتجلسُ مع العلماء . فاغتاظ السلطانُ لذلك ، ونظر إليه نظرةَ الغضب ، فخاف المُوحِيه أنْ يسطوَ عليه ، فقال : ما ذنبى ، أنا سمعتُ هؤلاء ــ وأشار إلى الوزراء ــ يقولونَ ذلك فقلتُه . فالتفتَ السلطانُ إليهم (١٧٢) ووبَّخهم على ذلك ، وأراد القبضَ عليهم ، فما خلَصوا منه إلاَّ بجَهدٍ ومشقَّة . قلت :

* والجاهلونَ لأهل العلم أعداء *

ومن ذلك ما حكاه لى بعضُ الثِّقات بدارفور ، أنَّ[٢] السلطانَ تيراب ، السالفَ الذكر ، صنع وليمةً لأمر نسيتُه ، وحين حضر الطعام تتبَّعَه لينظُر أىُّ الطعام أحسن ،

(١-١) وردت العبارة بدون ضبط فى الأصل ، وهى عبارة عامية فى اللهجة السودانية ؛ وضبطهـا على النحو الذى أوردناه فى المتن أولى ، على أن تنطق القاف فى «بقينا» كما تنطق الجيم الشديدة غير المعطشة .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد تكرر هذا التعبير فى مواضع كثيرة .

فجاء إلى طعامٍ صَنَعَتْه إِيَا كُرِى كِنَانَة ، وكَشَفَ عنه فأعجبه ، فأمرَ به للعلماء ، فأَبَتْ عليه وقالت : أأنا عندَكَ بهـذه المنزلة ، تعطِى طعامى للمشايخِ ، وطعامَ غيرى للوزراء والملوك ؟ فقـال : إنما أمرْتُ به للمشايخِ لحسْنِه ، ولتحصُلَ لكَ بركتُهم . فقالتْ : دعْ طعامى تأكلُه الوزراء والملوك ، ولا حاجةَ لى ببركتِهم . فقال : لا يأكلُه غيرُ العلمـاء . فقالت : لا وحياتك لا تأكلُه العلمـاء ، وغلبتْ عليه حتى أرسلَه للملوك ، واختار مِن طعام غيرِها للعلماء .

وطائفةُ المُوحِـيه من أفقر أهل دارفور ، لأنهم ليس لهم حرفةٌ إلا السؤال ، فإنهم دائما يقصدون الأمراء ، ويتـكففّون الناس . وتخاف الأمراء منهم ويكرمونهم ، لأنهم لا يكتُمون حديثاً ، إن أحسن إليهم أحد أثنَوْا عليه ، وأشاعوا الذكر بكرمه ، وإنْ أحْرمهم[1] أحدٌ ذمُّوه وأشاعوا ذمَّه . فهم فى ذلك كالشُّعراء ، مَن أعطاهم مدحوه ، ومَن منعَهم هَجَوْه .

ومن مناصبِ الفور : منصب إيَا كُرِى[2] ، وقد أسلفنا ذكره .

ومنصبُ الحَبُّـوبات ، وقد ذكرناه أيضاً .

وإن كان للسلطانُ المتولِّى أمٌ فلها منصب ، وإن كانَ [له] جدّةٌ فلها منصب أيضاً . لـكنْ المنصِبان ليسا مقرَّرَيْنِ ، بل يطرَآن عند وجودِهما .

ولقد رأيتُ أمَّ السلطان محمد فضل ، وهى جاريةٌ وَخْشا ، لو بيعتْ فى دارفور لما كانتْ تساوى عشرةً من القرَانْسَا ، ورأيتُ جدَّتَه ، وهى عجوز وَخْشا من أقبحِ ما يُرَى فى عجائز السُّودان ، وكانت ناقصةَ العقلِ .

---

(١) كذا ، بدل : حرمهم .

(٢) راجع ص ٩٣ ، حاشيـة ١ .

ومن نقص عقلها [أنها] كانت تجلسُ على كُرسِيّ ، وتحملهـا الرجالُ على أعناقهم[1] للسَّفرِ البعيد ، ومعها من العساكرِ خلقٌ كثير . ووشَى إليها بعضُ الناس بأنَّ أهل دارفور يقولون : إنَّ هذه الخادمَ قد طغَتْ وبغَتْ . فحين سمِعتْ ذلك جلست في ديوانها ، وأحضرتْ جميعَ أتباعِها وقالت : أنا الخادم ، الخادم جابَ الفضّـة ، وجابَ الفضّة الذّهب . وقولُها : أنا الحادم ، بالحاء المهملة ، ومرادُها الخادم بالمعجمة ، إلا أنها لا تقدر على النُّطق بالخاء المعجمة لعُجمتِها .

وهناك مناصبُ أُخَر أعرضنا عن ذكرها لحقارتها .

---

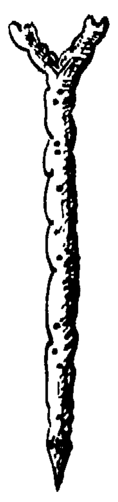
(١) فى الأصل : عناقهم .

الفصل الرابع

فى كيفية مجلس السلطان

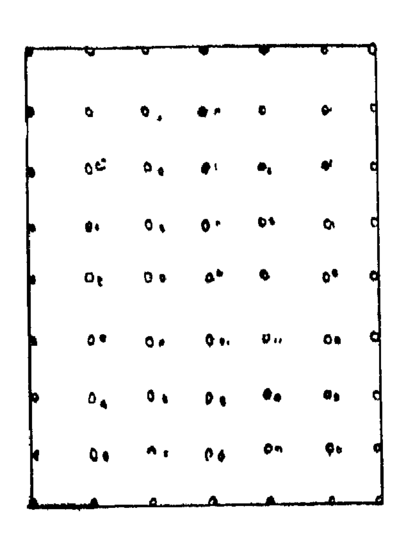
وأما كيفية مجلس السلطان ، فاعلمْ أن بيتَ سُلطانِ الفور فى بلَدِه المسماة بالفاشر ، والناسُ حولَه ، ولهذا جُعِل لبيته بابان ، أحدُها ــ وهو الأعظمُ ــ هو المسمَّى : و رّيدَايَا [و] معناه : باب الرجال ، والثانى هو المسمى : وَرّيبايَا ، ومعناه : بابُ النساء . وفى كلٍّ منهما له (١٧٤) مجلس ، فمجلس وَرّيدَايَا هو الديوان الأكبر ، وهو بعــد أنْ يدخلَ الداخلُ من الباب الأول . وهــذا المجلس واسع ، ولا يجلسُ فيه السلطانُ إلا فى الأيام العظيمة ، أو للأحوالِ المهمة .

وقد نذكر أن بناء الفور كلّه بقصبِ الدُّخن أو المَرْهَــبيب ، ومحلُّ الديوان يسمَّى : لِقْدَابَة ، أو رَاكُوبَة ، وصورتها هى أن يُؤتَى بأخشابٍ ملساء طويلة ، فى آخر كلِّ خشبةٍ شعبتان هــكذا :



[خشبة بآخرها شعبتان تستعمل فى بناء اللقدابة ، أى : الراكوبة]

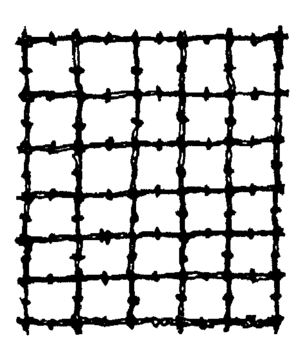
فيحفرون فى الأرض حُفَــرا متساويةَ العمق ، ويجعــلون الأخشابَ متساويةَ الطُّول ، ويجعلون الحُفَر سطوراً متقابلةً لا يختلُّ سطرٌ منها عن الآخر ، بحيث أنهـــا تـكون هكذا :



[حفر على شـكل سطور متقابلة يدخلون فى كل حفرة خشبة]

لـكنْ تكون كلُّها على نَمَطٍ واحد ، وخَطٍّ واحـــد ، فيُدخلون فى كلِّ (١٧٥) حفرةٍ خشبةً من الأخشاب ، ويجعلونَ شِعابَ كلِّ صفٍّ متجهةً لجهـةٍ واحدة ، ويضعون عليها خشبةً طويلةً تسمى : بَلْدَايا ، أى يضعونَها بين شِعَابِ الصَّفِّ ، فإذا كمل على تلك الهيئة ، يأتون بفروعٍ رفيعةٍ تسمَّى مُطارِق ، فيجمعونَ منها كلَّ أربعـةٍ أو خمسةٍ سواء ، ويربطونَها بلحاءِ الشَّجرِ حتى تصـيرَ حُزمةً ، ويوصلونَها بغيرها وهكذا ، حتى تصـيرَ طُولَ اللَّقْدَابة المذكورة ، ويجعلون من الفروع جملةً على هذا النَّمط ، ويرتبونها كلها مربَّعـاً واحـــدا مستطيلا فى وسطه مربعات ،

فتكونُ صورتُها هكذا :



[مربع مستطيل فى وسطــه مربعات يوضع فوق البلدايات]

ويضعونها فوق البَلْدَايات المذكورة ، ثم يضعون البوصَ عليها وهو مجعول حُزَماً ، ويربطونها مع الفروع باللِّحاء ، فيتكوَّن من ذلك سقفٌ جميل بالنسبة لبنائهم .

ففى وَرّيدَايا يكونُ هذا المحلُّ واسعاً ، وعلى هذه الصفة عَلاَ[1] السقف بحيثُ يمرُّ تحتَه الراكبُ على الهجين ، ولا يمسُّ السقفُ رأسه ، وكان قبلَ ذلك دانِيَ السقف ، لا يمرُّ تحتــه إلاَّ الفارس .

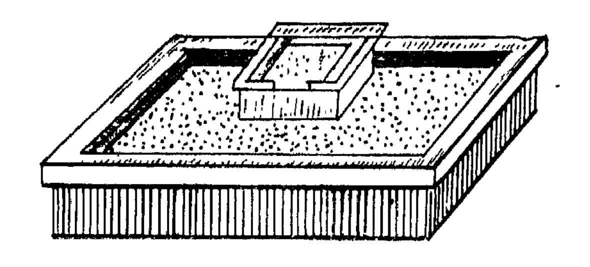
فاتَّفق أن حضر عند السلطان رجلان ممن أتقَن ركوبَ الإبل ، وادّعى كلٌّ واحد منهما أنه أفرسُ من صاحبه فى ركوبِ الإبل ، وتشاجرا ، ثم اتفق رأيُهما على أن يركبا ويمرَّا ببعيريْهما من تحت اللِّقْدَابَة . فتراهَنا على ذلك ، وخرج السلطانُ والناس من اللِّقْدَابَة ، وركبا وجاءا راكضَيْن ، فلما وصلا إلى اللِّقدابة ، أحدُهما نقز[2] فصار على ظهر اللِّقْدَابة ، وترك بعيرَه وجرى مسرعا ، فصادفَ بعيرَه وهو خارجٌ من تحت السقف ،

(١) فى الأصل : عالا .

(٢) نقز : وثب صعدا ، وقد غلب على الطائر المعتاد الوثب كالغراب والعصــفور (اللسان) .

فركبَه ومرَّ سريعاً لم يعُقْه شيء . والثانى حين وصلَ إلى اللِّقْدَابة ، مال إلى جانبِ بعيره ، ومسكَه بيدَيْه حتى خرج من تحتِ اللِّقدابة . فكلٌّ منهما جاء بشيء غريب . فأحسن إليهما السلطان ، واعترف الناسُ لهما بصناعةِ الركوب ، وأنهما كفرقَدَيْ سماء . وشذَّ بعضٌ فادّعى أن الذى ترك بعيرَه وجرى على ظهرِ اللِّقدابة أصنَع ، وشذَّ آخرون فادّعَوْا أن الذى مال فى جنبِ البعير أصنع ، وحكم له السلطان . ومن ذلك الوقت زيد فى علوّ اللِّقدَابة .

ثم إنّ السلطان إنْ جلس فى هذا الديوان يجلس فى وسطه ، ولذلك بَنَوْا له فيه محلاًّ عاليا ، لكن مركزه أعلَى من جانبيه هكذا :



[ديوان السلطان و به محل عال مركزه أعلى من جانبيه لجلوس السلطان]

(١٧٧) فالمحلُّ العالى المتوسّط هو محلُّ جلوسِ السلطان ، والذى أقلُّ منه من جهةِ اليمين هو محل جلوس العلماء ، والذى عن يسارِه هو محلُّ جلوسِ الأشرافِ والفقهاء وعظماء الناس ، وأمامه رَحَبَةٌ واسعةٌ .

فإذا أراد السلطانُ الجلوسَ لديوانٍ عامّ أو ملاقاةٍ[1] بعضِ رسلِ الملوك ، أو يوم

(١) فى الأصل : ملاقات .

فرحٍ وسرور ، زُيِّن محلُّ جلوسِه بالزّردخانات[1] والمقصّبات ، ووضعوا فى المحلّ المذكور كرسيًّا ، وعليه مرتبةٌ من الحرير . فجلس السلطانُ فى أبّهتِه ، وجلس العلماء والفقهاء والأشراف حوله ، ووقف وزيراه بين يديه ، وهما المُسَمَّيَان بالأمينين ، ووقف رئيسُ تراجمته أمامَه قريبا منه ، ووقف التَّراجمةُ الستةُ أمام التَّرجمان الأول ، بين كل تَرجُمانين مسافةٌ قليلة ، بحيثُ كلٌّ ترجمانٍ يسمع ممَّن يليه سمعا جيدا . ووقف الكُورْكُوَا بالصفافير خلفَه ، وصاحبُ الدِنْقَار معهم ، ووقف عَبيدُ السلطانِ وأصحابُ سجنه وغضبه وراء الناس ، وجلس الناس الباقيون[2] كلٌّ واحدٍ فى المحلِّ اللائق به ، ووقف ملكُ المُوحِيه قريبا من التَّرجمان الأول . وقد انتظم المجلس ، وقد رسمنا كيفيتَه فى بابِ عوائد الفور فراجعْه إن شئت .

وأما إن جلس السلطانُ فى وَرِّيبايَا فإن مجلسَه يكون مختصرا ، وهو أشبهُ بمجلسِ سِرٍّ ، لأن اللَّقْدَابَة التى يجلسُ فيها صغيرة ، وحينئذ لا يقفُ أمامَ السلطان إلاّ (١٧٨) تَرجمان واحد ، ومُوحِيه واحد أو اثنان ، وإن كثروا فثلاثة .

والسلطانُ قد يكونُ جالسا ، وأكثر ما يكونُ جالسًا بالليل ؛ وقد يكونُ راكبًا ، وأكثرُ ما يكون ذلك بالنهار . وإن جلس ففى محلٍّ عالٍ لكنَّه غيرُ مزيَّن ، ولاَ فرشَ له حينئذ إلا سجَّادة واحدة ، وبإزائِها مِخَدَّة . وقد ذكرنا سابقا أن من العوائد ، أن السلطان لا يُسَلَّم عليه إلا بِـ « دُونْـيَحَرَاىْ دُونْـيَحَا[3] » وأنه إذا بصَق مُسِحَ الترابُ الذى بصَق

(١) الزردخاناه : كلمة فارسية مركبة معناها : دار السلاح . وقد أطلقها المؤلف هنا على السلاح نفسه .
قارن : المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ج ١ قسم ٢ ، ص ٣٠٦ ، حاشية ١ .

(٢) كذا وهى صيغة عامية ، بدل : الباقون .

(٣) انظر معناه فى ص ١٦٧ .

عليه فى الحال ، وإذا تنحنح قالوا صوتاً كصوتِ الوَزَغ[1] . و [قد] بيّناه هناك أتمّ تبيين ، فلا فائدة فى الإعادة . هذه كيفيةُ مجلس سلطانِ الفور .

* * *

وأما كيفية مجلس سلطان الوادای فتختلف ، فإننا نذكر أنّ الوَادَایَ دائما يحجُبون السّلطانَ عن أعين الناس ، ويشدِّدون فى ذلك ، فلا يتمكن أحـد من رؤيته جيِّدا ، ولا تجتمعُ عليه الملوكُ كما تجتمع على سلطان الفور ، لأنهم يَرَوْن أن عدم اجتماع الناس عليه أهيبُ له ، وأنفذ لـكلمته .

ولمّا كان الأمر كذلك ، وخيف من وقوعِ ظلمٍ وإجحاف ، رُسِم أن يجلسَ السلطانُ للمظالِم فى يوم الاثنين والخميس ، وجعلوا لجلوسِه ذلك كيفيةً مخصوصة ، تقامُ فيها نواميسُ الملك ، وينزجرُ الظالم ، وينتصف المظلوم ، ورتّبوا له مجلسًا بحيثُ يحصُلُ المقصودُ من غيرِ اختلاطٍ بالعالَم .

وسنذكر أنّ بناء الوادای قد يخالفُ بناءَ الفور ، (١٧٩) فى أن الفُورَ لا يبنون باللَّبِن إلا قليلا ، وأن الوادای أكثر بنائهم باللَّبِن ، فجعلوا المجلس المُعدَّ لذلك عاليا ، يجلس فيه السلطانُ مع بعضِ خواصّه فى يوم الاثنين والخميس ، ولا تراه الناس ، وإنما يُعرَف جلوسُه فيه برايةٍ يُبرِزونها من طاقٍ فى المجلس الذى هو فيه ، وبصوتِ البَرَدِيَّة . فمهما برزتْ الرّايةُ ، وضُربت البَرَدِيّة ، وهى طبلٌ كالـكُوبةِ المسماة فى مصر : الدَّرَبُكَّة ، لـكن صوتها عال شديد ، فيسمَعُ الـكَبَرْتو[2] فيبوِّقون بالبُوقات ، ويضربون بالتِّكْجَل ،

---

(١) انظر ص ١٦٨ .

(٢) الكبرتو : رجال الضبط الذين يقومون بتنفيذ الأحكام القضائية .

Voyage au Darfour, p. 192.

فتسمعُ الناسُ ، خصوصا وأن مَن كانت له دعوى[1] يترقّب ذلك اليوم ، فيجلسون كلّهم فى الفاشر . وإنّ الكَماكِلَةَ[2] دائما جالسون فى الفاشر لسماع الدّعاوَى ، وإن أربابَ المناصب والمراتب يترقّبون فى ذلك اليوم جلوسَ السلطان فى الديوان . فتحضرُ التراجمةُ المسمَّونَ بخُشْمِ الكلام ، والعَقَدَةُ[3] والملوكُ على طبقاتهم ، ويحضُر القاضى وأشرافُ الناس والعلماء ، فيجلسون فى ظلّ شجرٍ فى الفاشر يُسمَّى ذلك الشجرُ بالسَّيَال[4] . فمتى أخرِجتْ الرايةُ من الطاق وضربتْ البَرَدِيَّةُ ، دخل خشمُ الكلام ورَقِيَ من سُلَّمٍ فى داخل البيت ، وخرج من طاقٍ لمصطبةٍ معدَّةٍ لجلوسِه ، بحيث يصيرُ قريباً يسمع من السلطان ، ووَقفَ هناك ، واصطفّت العساكر ، وجلس القاضى والعلماء

(١) فى الأصل : دعوة .

(٢) الكماكلة ، جمع : كمكولاك (Kamkolak) ، وهم جماعة المستشارين الذين يحضرون مجلس السلطان حين النظر فى الدعاوى والمنازعات Voyage au Darfour, p. 192. ويمكن تشبيههم بالشهود فى القضاء الاسلامى فى العصور الوسطى ، أو بالمحلفين فى القضاء الانجليزى .

(٣) العقدة ، جمع : عقيد ، وهم ولاة الأقاليم ولهم ممثلون دائمون فى فاشر السلطان . Voyage au Darfour, p. 192.

(٤) السيال : كما جاء فى القاموس ــ جمع سيالة ، وهو نبات له شوك أبيض طويل ، اذا نزع خرج منه اللبن ، أو ما طال من السمر (بفتح السين وضم الميم) .

وفى حاشية الترجمة الفرنسية (Voyage au Darfour, p. 193). نقلا عن مؤلف الكتاب : أن السيال نوع من شجر السنط ، متوسط الارتفاع ذو لحاء أخضر مائل الى السمرة . وكان فى فاشر واداى حين زارها الشيخ التونسى بضعة أشجار زرعت منذ سنوات ليستظل بها القائمون على القضاء هناك وكذلك بضعة أشجار أخرى يأوى اليها الكماكلة . وقد رأى التونسى ثلاثا أو أربعا من شجر السيال قديمة جدا يتفيأ ظلها السلطان ايام الجمع وحين يستعرض الجيش فى واداى ، ومن حوله رجال حاشيته وخدمه وعبيده الذين يحيطون به احاطة تامة حتى لا يراه أحد .

فى مراتبهم ، (١٨٠) وكذلك الأشرافُ والتُّجــار ، وجاء مَن له دعوَى[1] رَفعها إلى السلطان ، وذلك بعـــد أن يقولَ خَشْمُ الـكلام : السلطانُ يسلِّمُ عليكم يأهْلَ الفاشر ، الســلطانُ يسلِّمُ عليكَ يا قاضى ، السلطانُ يسلم عليـكم يا عُلماء ، وهكذا ، كما يفعلُ فى فى يومِ الجمعة .

* * *

ولنَرْجعْ إلى ما نحنُ [فيه من] ذِكر[2] الفُور ، فنذكُرُ نبذةً فى صفــاتِ تَنْدَلْتِي ، فاشرِ السلطان ، وفى بيتِه ، وصفةِ كلٍّ منهما حسَب الإمكان ، فنقول :

[أما] تندَلْتِي[3] فهى الآنَ قاعدةُ مملــكةِ الفور ، وأولُ مَنْ نزَلها وخطَّها من الملوك ، السلطانُ عبدُ الرحمن سنة ١٢٠٦[4] من الهجرة .

وأما صفةُ أرضها فرمليةٌ كأحدِ الأقواز ، يشقُّها وادٍ بالعَرْض ، وهذا الوادِى رِجْلٌ من الوادِى الأكبر ، المسمَّى الـكُوع . ففى أيامِ الخريف يمتلئ[5] ذلك الوادى ماءً ، فلا يعبُره عابرٌ إلاَّ من محَلٍّ بعيدٍ من جهةِ المشرق . وفى وقت نضوبِ المياه — وذلك تارةً فى آخرِ الشتاء وتارةً فى أوَّلِ الصيف — يحفُرون فيه الآبار ، ومنها تشربُ أهلُ الفاشرِ كلها . والسلطانُ ، لخوفهِ من السِّحر ، يشْربُ منه تارةً ، وتارةً يأتون له بماء من جَديدِ السّيل ، لأنه قريبٌ من تندَلْتِي من جهة الشرق بنحو فَرسخ .

وبناء الفورِ كلُّه من قصبِ الدُّخْن ، وحيطانُ بيوتِهم الخارجيةُ كلُّها بالشّوك ،

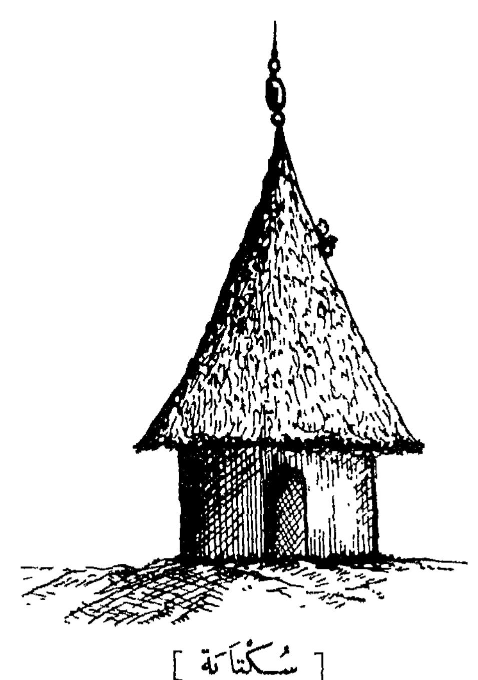
---

(١) فى الأصل : دعوة .
(٢) فى الأصل : مانحن بذكر .
(٣) فى الأصل : وتندلتى :
(٤) ١٢٠٦ هـ = ١٧٩١م .
(٥) في الأصل : يمتلأه

ويسمّون الحائطَ الخارجيَّ زَرِيبة ، والحائطَ الداخليَّ صَرِيفاً . والبيوتُ — أعنى المساكنَ — كلُّها على هيئةِ قُبَّةِ الخَيْمة ، (١٨١) فيكونُ الصَّرِيفُ لها كالطُّزْلُك[1] .

لكنَّ البيوتَ أصنافٌ فى البناء : [فمنها] بيوتُ المساكينِ ، وهى مساكنُ عندهم تسمَّى بالبيوت ، وهى مِن قصَبِ الدُّخن . و[منها] بيوتُ الأمراءِ والملوكِ ، وهى مبنيَّة من المَرْهَبِيب ، كما سنذكر ذلك . ومنها ما يسمَّى : سُكْتَايَة ، ومنها ما يُسمَّى : تُكُلْتِى ، ومنها ما يُسمَّى : كُرْنُك .

فأمّا السُّكْتَاية فصورتُها هكذا :



[سُكْتَايَة]

فهى كقُبَّةِ الخيمة ، إلاّ أنّها طويلة رفيعــة من أعلى ، ويأتون ببيضِ النَّعام ،

---

(١) المقصود بالطزلك هنا : حاجز من القماش يوضع حول الخيمة لحمايتها من الريح والتراب Voyage ,p. 195. .

فيثقبُونَه ، كلَّ بيضةٍ ثقبين مِن مِحورَيْهَا ، ويُدخِلون فى الثُّقْب عُوداً ، فيجعلونَ فى العُود ثلاثَ بَيضاتٍ أو أربعًا . بينَها كرةٌ من فَخَّار أحمر ، إما أسفل دُلَّنْـيح[1] أو أسفل إبريق من صناعة كِيرى[2] وينصبونه على قمّةِ القُبّة .

وأمّا التُّـكُلْتِى فهو بيتٌ شـكله هكذا :



[تُـكُلْتِى]

مِن أعلى نصفُ كرة وقائم على دُرْزُوِيَـتَـيْنِ[3] .

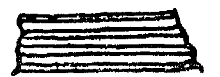
وأما الـكُرْنُك فهو مِثلُه ، إلاَّ أنَّه قائمٌ على أربع دُرْزُوِيات ، والسلطانُ يضعُ بيضَ النعامِ على سَـكَاتِيهِ وتَـكَالِيه وكَرَانِـكِه ، ويكسُو أعلاها ثياباً حمـــراء

(١) دلنج : نوع من الجرار المصنوعة من الفخار . Voyage p. 196.
والمقصود بأسفل الدلنج : قاعه أو نصفه التحتانى .

(٢) كيرى قرية قريبة من قرلى ، أسفل جبل مرة . Voyage au Darfour, p. 196.

(٣) الدرزوية : قائم من الخشب . Voyage p. 196..

وبيضاء هكذا :



[صورة ثياب حمراء وبيضاء يكسو بها السلطان أعلى سكاتيه وتسكاليه]

ليتميز بها عن غيره .

وأسفلُ دائرةِ سُكْتَايات السُّلطان والإيَاكُري والسَّرارِي وكبارِ الدّولة (١٨٢) مبنيٌّ من الطين ، وأما أعلاَها فمِن المَرْهَبِيب ، وهو عَزِيزُ الوجود . وهذه الدائرةُ تسمَّى : دُرْدُر ، قطرُه كقُطر الخَيْمة المعتادة .

واعلم أن أهلَ الفاشِرِ منقسمون إلى قسمين ، أحدُهما أهلُ وَرّيدَايَا ، والثانى أهل وَرّيبَايَا ، وبيتُ السُّلطانِ بينهما .

فأهلُ وَرّيدَايَا يسكنون جهةَ بابِ الرِّجال ، المسمَّى بوَرّيدَايَا ، وأهلُ وَرّايدَايَا ، يسكُنون جهةَ البابِ المسمَّى وَرّيبَايَا .

فزَريبةُ السلطان موضوعةٌ على شفيرِ الوادى ، فى العُلوِّ الكائنِ هناك ، فهى شمال الوادى ، وليس بينَها وبينَه إلاَّ خُطواتٌ قليلة ، وممتـــدَّةٌ إلى جهةِ الشمالِ مسافةً بعيدة .

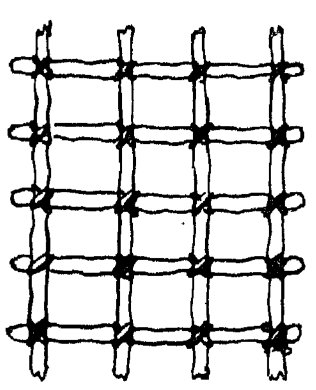
وبابُ الرِّجال يُفتَحُ جهةَ الشَّمال ، أمامَ الفضاء المسمَّى بالفاشر ، وهو متَّسع عظيم يكاد أن يكون ثلثَىْ دائرة .

ونذكرُ الآن صفةَ زَريبة السلطان وبيوته :

أما الزَّريبةُ فهى من شَوْكِ الكِتِرِ والحَشَاب ، ثلاثةُ صفوفٍ ، بينَ كلِّ صَفَّين جُذوع من خشب ، فيها بعض تفاريع ، محفور لها فى الأرض حفرٌ عميقة ، والشَّوك من

أمامها وخلفها كالبنيان المرصوص ، عُلُوُّه أطول من قامة ، والجذوعُ بارزةٌ منه ، وفى كلِّ سنةٍ يجدِّدُ ما حصلَ فيه من خَلَل . وبينَ الشَّوك وبين المساكنِ مسافةٌ نحو أربعين خطوة .

ولوَرّيدَاياَ أربعةُ أبواب ، كُلُّ باب عليه بوَّابون يتناوبون حِفظَه ، والأبوابُ ليستْ كالأبوابِ المعهودةِ ، أعنى (١٨٣) أنها من ألواح الخشَب ، بل هى أعواد مربَّطةٌ بالقِدِّ[1] النِّيء ، أعنى غير المدبوغ ، على هيئةِ شُبَّاكٍ هكذا :



[أعواد مربطة بالقد على هيئة شباك تستعمل أبوابا لوريدايا]

وقد جُعل فيه سلسلةٌ من حديد ، وكلُّ فجوةٍ [لها] بابٌ مجعولٌ فى حافَتِها أعوادٌ كثيرةٌ من خشب ، فتُجعَلُ السلسلةُ فى عودٍ منها ، ويُدخَل فى الحلْقتين قُفلٌ كأقفالِ الصَّناديق ، ومسكَنُ البوَّابين قريبٌ من الباب .

فإذا دخل الدَّاخلُ فى وَرّيدَاياَ من أولِ باب ، يجدُ داخلَ البابِ فضاءً واسعا ، وفى آخرِه اللَّقْدَاَبَةَ الكُبرى ، التى هى ديوانُ السلطان ، وتكونُ[2] على يسار الداخل . وقد ذكرناها سابقاً ، ورسمنا صورتَها ، فلا إعادة .

(١) القد : السير يقد من جلد غير مدبوغ (القاموس) .

(٢) فى الأصل : فتكون .

وعلى يمين الدَّاخل محلُّ الـكُوراياتِ وهم فى عُرفِنا سُوَّاسُ الخيل ، والأُصابِلُ[1] قريبةٌ منهم ، وهى لِقْدَابَة طويلةٌ قليلةُ العَرض ، مربوطٌ فيها خيولُ المَلِك .

وبعدَ الأصابِلِ بيتُ النُّحاس ، وبيوتُ خَدَمَتِه قريبةٌ منه .

والبابُ الثَّانى لسُومِينْدُقْلَه ، والبابُ الثالث لـكُورْكُوَا ، والبابُ الرابع للطَّواشِيَّة .

وبينَ (١٨٤) كلِّ بابينِ فضاء وصَرِيف حاجز ، وعليه مُرَكَّبُ الباب .

وأيْضا داخلَ البابِ الثانى لِقْدَابة أخرى ، يجلسُ فى هـذه اللقدابة السلطان مع خواص خواصِّه ، وداخلَ الباب الثالث لِقدابة ثالثة صغيرة ، يجلسُ فيها السلطان مع خواصِّ خواصِّه .

وداخلَ البابِ الرابع الحَرَمُ والجِوار ، ومحلُّ سكَنى السلطانِ ، كما سنبيِّنه بالرسم إن شاء الله .

وأمَّا وَرِّيبايَا فهو بابٌ يُدخَلُ منه إلى فضاء طولُه أكثرُ من عرضه ، وفى آخره لقْدَابَة كبيرة ، تـكون مثلَ ثُلُثِ اللِّقْدَابة الـكُبرَى التى فى وَرِّيدَايَا ، وهذه اللِّقْدَابةُ عن يسارِ الداخلِ ؛ وعن يمينه مِن بُعْد ، أبنيةٌ للفَلاَقِنَة وللبوَّابين .

وداخلَ البابِ الثانى لِقْدابة أخرى أصغرُ منها ، يكونُ فيها السلطانُ بالليل مع مَن يحبُّ من خواصِّه ، وعن يسار هذه اللِّقْدَابَةِ البابُ الثالث ، وهو كأنه فى رُكن [من الصَّريف . وهذا الباب يقف عليه عبيد بوابون ، كما هو الحال فى الأبواب الأخرى ، وهو باب يُدخَل منه إلى محل الحريم ، الذى يحتوى على عدد كبير من المساكن المخصصة للمحظيات ، ولـكل منهن مسكنٌ خاص بها وبجواريها .

---

(١) الاصابل جمع اصطبل .

أما محلّ سُكنى السلطان ، فهو ، كما ذكرنا سابقاً ، يحتوى على سكتايتين مرتفعتين جداً ، وحولهما صريف منفصل له بابان . وأمام صريف السلطان بنايتان من الطين ، تسمى الواحدة منهما : دِنْجاية ، أى : مخزن ، وفيهما يحفظ أثاث السلطان والدّنْجايتان مبنيتان من الطين ، كَيْلا يمتدّ الحريق — إذا شب مصادفة فى الشّكتاية — إلى أدوات الزينة والحُلىّ والملابس والنقود والأشياء الثمينة الأخرى المحفوظة بالدّنْجاية .

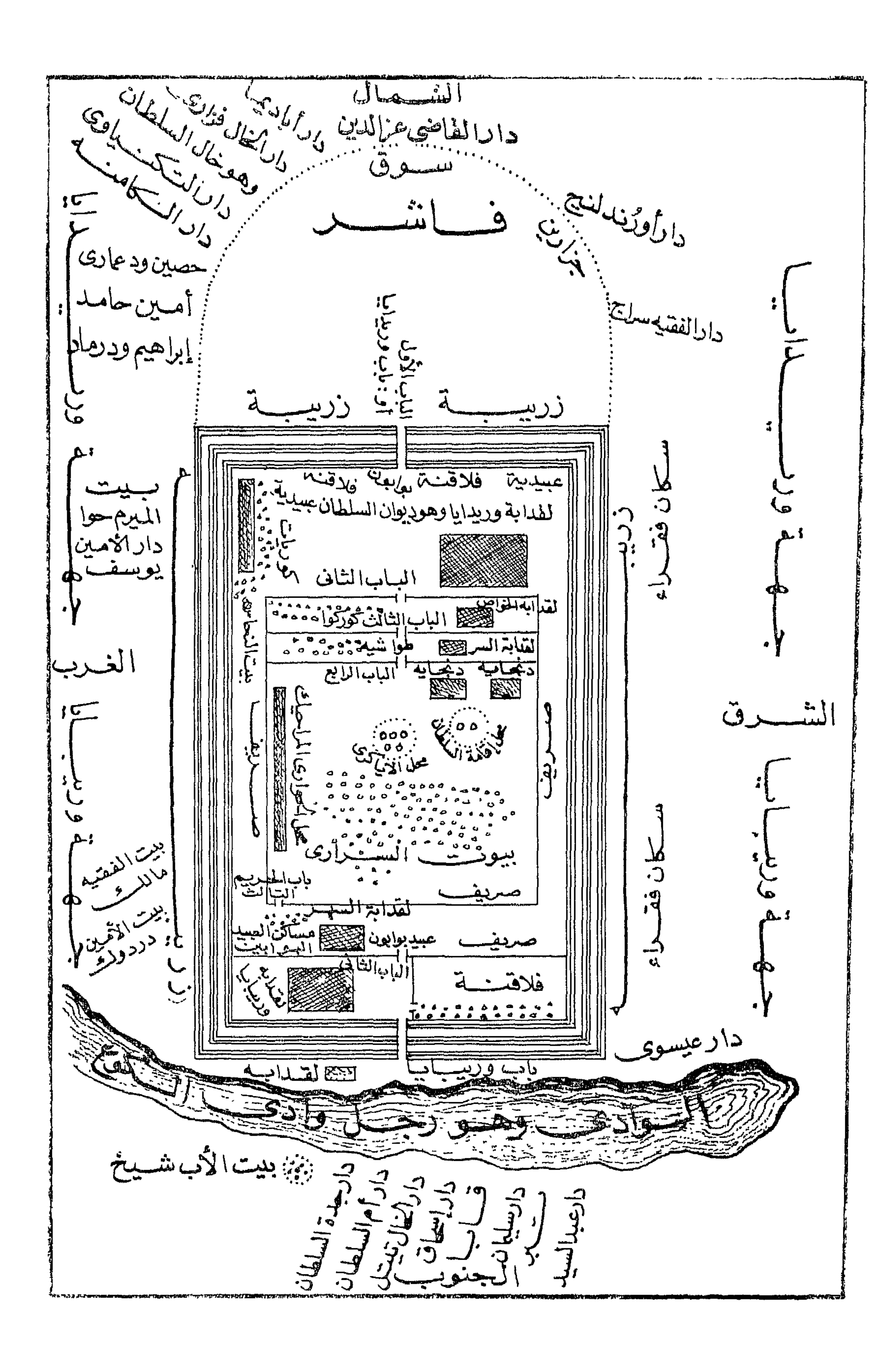
ويُرى عن يسار الداخل لِقْدابة غاية فى الطول ، وتحتها تشتغل الجوارى كل يوم بطحنِ الدُّخن والقمح بالرَّحَى . وتسمى النساء اللاتى تكون بيوتهن أمام اللّقـدابَة بالمَرَاحِيك ، مفردها : مَرْحاكَة ، أى : طَحَّانة[1]] .

وقد رسمنا هنا صورةَ الزَّريبَة السّلطانيةِ والبيوت كما ترى فى الصحيفةِ الآتيةِ بعد هذه ، لأنّك تعرفُ ما ذكرناه فى ذلك مفصّلا ، وتكونُ كأنك قد شاهدتَ ذلك عِيَاناً . وهذه الصورةُ فيها صفةُ دارِ السلطان فى الجملة .

(١٨٥) واعلم أن أهلَ الفاشر، سواء كانوا أهلَ وَرّيدَايَا أو أهلَ وَرّيبَايَا ، كلٌّ منهم يحافظُ على محلِّ سكناهُ خَلَفاً عن سَلَفٍ . فكلُّ مَن يتولَّى منصِباً ، يبنى بيتَه فى محلِّ صاحبِ المنصِب الأوّل أو قريباً[2] منه . فمَنْ كان منْ أهلِ ورّيدَايَا لا يسكُنُ فى وَرّيبَايَا ، وكذلكَ العكس . ولاَ خصوصيَّة للإقامةِ فى ذلك، لأنّهم يحافظون على أماكِنهم ، ولو فى السفر . فلو انتقلَ السلطانُ بعساكره مسافراً ، متى ما نُصِبتْ خَيْمتُه فى بقعةٍ نَصَب

(١) ماأثبتناه فى المتن بين حاصرتين ، مأخوذ من الترجمة الفرنسية بعد صياغته فى أسلوب مقارب لأسلوب المؤلف بقدر الامكان والراجح أنه سقط من الأصل العربى وعلى هذا تقوم الترجمة الفرنسية هنا مقام الأصل .
أنظر : Voyage au Darfour pp. 200 - 201

(٢) فى الأصل : قريب .



الشمال
دار القاضي عزالدين
سوق
فاشر
دار أورندلنج
جزارين
دار الفقيه سراج
زريبة
زريبة
دار أباديما
دار الخال فزاري
وهو خال السلطان
دار التكنياوي
دار الكامنه
حصين ود عماري
أمين حامد
إبراهيم ود رماد
الغرب
الشرق
بيت
الميرم حوا
دار الأمين
يوسف
بيت الفقيه
مالك
عبيدية فلاقنة بوابين فلاقنة
لقداية وريديايا وهو ديوان السلطان عبيدية
الباب الثاني
لقداية الخواص
الباب الثالث كوركوا
لقداية السر
طواشية
دنجاية دنجاية
الباب الرابع
صريف
صريف
بيوت السراري
باب الحريم الثالث
صريف
لقداية السهر
مساكن العبيد
عبيد بوابين
صريف
الباب الثاني
فلاقنة
دار عيسوي
باب وريبايا
لقداية
بيت الأب شيخ
دار جدة السلطان
دار أم السلطان
دار إسحاق
دار سليمان
الجنوب
دار عبد السيد

العساكرُ حَسَب ذلك ، كلٌّ منهم فى محلِّه المعلوم ، بحيثُ لا يكونُ بينَ المدينةِ فى الإقامة و بينَ المنزِلَة فى السَّفر فَرْقٌ إلاّ كِبَرُ المنازِل ، واتساعُ البيوت .

وأما الجهاتُ ، فكلٌّ منهم يعرفُ محلَّ البعض ، فكأنَّهم فى المدينةِ . ومن ذلك أن السلطانَ يأتى باللَّيل إلى المَنْزِلَةِ فيعرفُ محلَّ سكناهُ من غيرِ سؤال ، وكذا أتباعُه ، كلُّ وزيرٍ وأمير يعرفُ منزلَه . وما ذاك إلا من المحافظةِ على المنازل .

وفى ذلك فوائدُ منها : أنَّه لو أرسَلَ السلطانُ لإنسانٍ يطلبُه باللَّيل لا يَسألُ المرسَلُ أحداً ، بل يعرفُ أن منزِل[1] فلانٍ فى الجهة الفُلانيَّة ، فيذهبُ إليه مِن غير سؤالِ أحد . وكذا لو أرسلَ بعضُ الوزراء أو المُلوكِ لبعضِهم ، حيثُ إن المنازلَ محفوظَةٌ لهم ، لا يتْعَبُ رسلُهم ، بل (١٨٨) كلٌّ منهم يعرِفُ منزلَ صاحبِه ، وهذَا من أغْربِ ما يكون .

(١) فى الأصل : منزلة .

الفصل الخامس

فى ملابس ملوك الفور

وأمّا زيّهم في الملابس ، فاعلم أنّ بلادَهم فى الحرارة بمكانٍ عظيم ، ولشدّةِ حرّها لا يمكنهم أن يلبَسُوا إلاّ الثيابَ الخفيفةَ ، لكنْ يتفاوتون فى ذلك .

فالأغنياء يلبسونَ الثيابَ الرفيعةَ جدًّا ، بيضاءَ كانت أو سَوْداء .

وأما الفقراء فإنّهم يلبسون ثياباً[1] خشنة .

وأما السلطانُ والوزراء والملوكُ ، فإن كلّ واحدٍ منهم يلبسُ ثوبيْنِ كالأقمِصَة رفيعَيْنِ جدًّا ، إمَّا ممَّا يُجلَب لهم من مصر ، أو ممَّا يُعمَل فى دارفور . لكنْ إن كانا من البيضِ فإنهما يكونان فى غايةٍ من البياضِ والنّظافة ، وإن كانا من السُّود يكونان نظيفَيْنِ أيضاً . ولا يتميّزُ السلطانُ عن غيرِه فى ذلك إلا بما يلبَسُه زيادةً على القميصَيْن ، وذلك أنّه يضَعُ على رأسه كشميراً، وهم لا يمكِنُهم ذلك . والسّلطانُ يتلثّم بشاش أبيض ، يضعُ على رأسِه منه طيّاتٍ ، وعلى فِه وأنفه لِثامٌ منه ، وعلى جبينه أيضاً ، بحيث لا يظهَر منه إلاّ الأحداق . لكن اللِّثام يشارك فيه أرْونْدولْونْيج والكامْنَه ، فإنهما يتلثّمان كالسلطان ، وكذلكَ السلاطينُ الصِّغار يتلثَّمون أيضاً ، لكنّه يتميّز بالسيف المذهَّب ،

---

(١) فى الاصل : ثياب .

والحِجاب المذهَّب ، وبالمظَلَّة إن كان راكباً ، وبالرِّيشِ وبالسُّروج المذهَّبة (١٨٩) والرِّكاب ، وعُدَّةِ الجوادِ التى لا يمكنُ سواهُ أن يجعلَها على جوادِه .

وإن كان فى محلِّ جلوسِه لايتلثَّم إلا هو وحدَه ، ومَن ذُكِر لا يمكنُهم أن يتلثَّموا بحضرتِه ، إلاّ إن كانوا راكبين معـه ، أو كان كلٌّ منهم فى محلِّ حُـكمِه وديوانِه .

وأنواعُ ما تلبسُه أهلُ دارفورَ الأغنياء من الملابِس من المجلوبِ : الشَّاشُ والبَفتُ الإنجليزِى والثيابُ الحريرُ فى يومِ المهرَجان ، كيومِ العيدِ ويومِ تجليدِ النُّحاس . ولهم مَلاحِفُ يتلفَّعُون بها ، وهى كالمُلاءَة التى يُتلَفَّع بها فى إقليم مصر ، وهى إمّا من الإلاَجَة ، أو مِن الشاش ، لـكن يكونُ لها هُدْبٌ طويل . وهذه الملحَفةُ يُتوشَّحُ بها ، أو توضَع على الصدرِ والأكتاف ، وإذا حضر لابِسُها أمامَ السلطانِ يَشُدُّ بها وسطَه ، وذلك من كمالِ الأدب عندَهم .

وإن كان من غيرِ المجلوبِ فالـكَلْـكفُ[١] ، وهو ثوبٌ من قُطنٍ غزلُه رفيعٌ جداً ، طولُه عشرون ذِراعاً ، وعرضُه ذراعٌ واحد . ومتوسِّطُهم يَلبسُ من المجلوبِ الشُّـوتَر ، وهو كنايةٌ عن العَبَكِ المصبوغ أزرق[٢] ، ويُجلَبُ لهم بعضُ قماشٍ من المغرب ، أى مِن بلاد الوَادَاى[٣] والبَرْنو والبَاقِرْمَه ، يسمَّى : التِّيكَـو والقُدَانِى ، لـكنَّها غير عريضة ، لأن عرضَ الشُّقَّة قيراطان لاغَيْر ، فيتعَبون فى خياطتها . والتِّيكَـو والقُدَانِى المذكوران سُود ؛

---

(١) الـكلكف : قماش وطنى من نسيج خشن نوعا أبيض اللون مع صفرة خفيفة . وقد شاهدناه بأنفسنا أثناء زيارتنا لدارفور فى شتاء سنة ١٩٦١ .

(٢) عبارة عامية .

(٣) فى الأصل : الووداى .

لـكن القُدَانِي مع أنّه أسود ، يُرَى فى لونِه (١٩٠) بعض حُمرةٍ ، فهو كلون رقاب الحمامِ السُّود .

ومِن عجيبِ ما رأيتهُ فى ذلك أن لابسَه إذا تنَخَّمَ[١] خرجتْ النُّخامَةُ من صدره سوداء ، وذلك أنّ النيلةَ تدخلُ فى مسامِّ جسمِه حتى تؤثِّرَ فى صدرِه .

وبالجملةِ فالغنيُّ ، سلطاناً كان أو وزيراً أو ملـكاً ، يلبسُ ثوبيْنِ وسراويلَ ، وعلى رأسِه طَربوش ، وباقى الناس لا يلبسونَ إلاّ ثوباً واحداً وسراويلَ ومِلحَفةً إنْ تـكن ، وعلى رأسه طاقيَّة بيضاء أو سوداء . وأكثرُهم يكون رأسه عُرياناً .

وأما نساؤهم فإنهنَّ يلبسْنَ مِئزَراً فى أوساطِهنَّ يسمَّى فى عُرفهم : الفَرْدَة . ثم الأبكارُ يلبسْن فوطةً صغيرةً على صدورهِنّ ، يقال لها : الدُّرَّاعَة . وهى لِبنَاتِ الأغنياء تـكون من حرير أو إلاجَة أو بَفْت ، ولِبناتِ الفقراء تـكون من التَّـكاكِى ، ويربِطْن فى أوساطهِنَّ أشرِطة[٢] يجعَلْنَ فيها الـكَنافِيس . والـكُنْفُوس للبَنات الصِّغار عندَهن ، عبارة عن منسوجٍ عَرضُه أربع قراريط ، [و] طوله نحو من ثلاثة أذرُع ، تأخذُه الواحدةُ منهنَّ ، وتُدخِلُ طرَفَه من الأمام فى الشريط التى[٣] فى وسَطِها ، وتفوِّتُ الطَّرَفَ الآخرَ بين فخذَيْها وتشبِكُه فى الشريط من الخلف ، وهو كالحِفاظِ عند نساء المدن فى أيامِ الحيض ، إلا أن الـكُنْفُوسَ عند نساء الفور لا يلبسْنَه لأجل الحيض ، (١٩١) بل يلبسنه مطلقاً .

وإذا تزوجَتْ البكرُ لبست إزاراً كبيراً ، يسمى فى عرفهم : الثَّوب ، وهو عبارةٌ عن مُلاءةٍ تَلتفُّ فيها المرأةُ ، ثم هو على قَدرِ مقاماتِ النّاس فى الغِنى والفقر ، فنساء الفقراء

---

(١) تنخم دفع بشيء من صدره أو أنفه • والنخامة النخاعة (القاموس) •

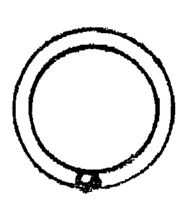
(٢) فى الأصل : الشرطة •

(٣) كذا •

أثوابهنَّ من التَّكاكِي ، والأغنياء من الشُوتَر أو الكَلْكَف أو التِّيكُو أو القُدانِي أو البَفْت ، ولا يكونُ من حريرٍ ولا من إلاجَةٍ .

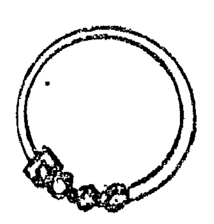
* * *

وأمّا حُلِيُّ النساء عندهم فإنهُنّ يلبسْن الْخزامَ ، وهو للأغنياء من الذَّهب ، وللمتوسِّطين من الفضّة ، وللفقراء من النحاس . وهو على نوعين : حَلَقِي وشَوكِي ؛ فالحَلَقِيُّ : عبارةٌ عن حَلقةٍ فيها ثَلْمٌ ، وهذا الثَّلْمُ تُجعَل فيه مَرجانَةٌ ، وهذه صورته :



[خزام حلقى]

والشَّوكِيّ : عبارة عن حَلْقة ، نصفُها غليظٌ ، ونصفها رفيع كالشوكة ، يَجعَلن فيه أربعَ مَرجاناتٍ ، بينها حَبّة من ذهب ، أو ثلاثَ حبَّاتٍ إحداها ذَهَب ، ورأسُ طَرَفِه الغليظِ كحبةٍ مربَّعةِ الأسطِحَةِ ، وصورتُه هكذا :



[خزام شوكى]

ويلبسْنَ فى آذانِهنَّ أخراصاً[1] كباراً من فضّة ، يزنُ الخُرصُ منهنّ نِصْفَ رطل ، ولئلاَّ يَضُرّ آذانَهنَّ (١٩٣) يربطْنَه بعَلاَّقةٍ فى رؤوسِهنَّ ، تحمـــلُ ثِقْلَه

(١) أخراص جمع خرص وهو حلقة القرط .

عن الأُذن . وهو عبارةٌ عن حَلْقة واسعةٍ أَحدُ طرفيها شَـوْكى ، والآخرُ كالحَبَّة المُرَبَّعَـةِ الأَسْطِحَة كالُخزام . ومن لم تجدْ خُزاماً ولا خُرْصاً تسُدُّ ثقبَ أنفها بمَرجانةٍ ، أو حبةِ خَرَزٍ مستطيلة ، وتسُدُّ ثُقبَ أذنيها بقطعةٍ من لُبٍّ بوصِ الدُّخن أو الذرة أو قطعة من خشب . ويجعَلنَ فى أجيادهِنَّ عُقوداً من أنواعِ الخَرَز كالمَنْصُوص: وهو عندَهم عبارةٌ عن خَرَزٍ أصفرَ من كهرباء ، وهو نوعان : كُرَوِىّ ومُفَرْطَح ، وتختلِف أفرادُ كلٍّ منهما فى الصِّغر والـكِبَر .

والرِّيش : وهو عندَهم عبارةٌ عن خرزٍ مستطيلٍ أبيضَ فيه خطوطٌ حَلقِيَّة أبيضُ منه ، وخطوطٌ سُمْر ؛ وهو على أنواعٍ : أحسنُها المسمَّى عندَهم بالسُّوميت ، وكلُّه جامد صَلْب كأنه من رخام ، يُجلَبُ من الهند : وهو خرز رفيعٌ مستطيلٌ كثيرُ الخطوطِ فيه سُمرة .

والعَقيق : وهو عبارةٌ عن خرَزٍ أحمر كرَوِىٍّ كلُّه ، يتفاوتُ فى الـكِبَر والصِّغَر ، وهو من عَقيقٍ .

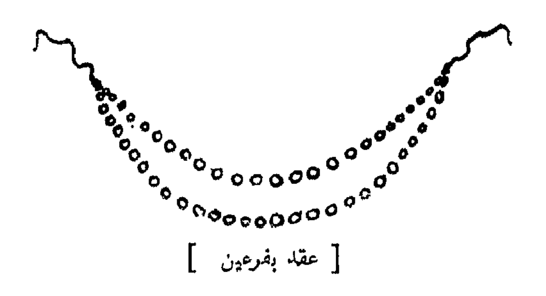
والمَرجان : وهو نوعان ، نوع يسمَّى: القَصّ ، وهو خرَز أُسطوانِىّ مستطيلٌ قليلا ؛ ونوعٌ يسمَّى: المُدَرْدَم ، وهو خَرَز كروِىٌّ .

ودَمْ الرَّعَاف[1] : وهو نوع خرز أحمر دا كن ، منه ما هو أسطوانى ، ومنه ما هو كُرَوِىّ ، وهو من زجاج (١٩٣) يُجلَبُ من بلاد أوربَّا .

---

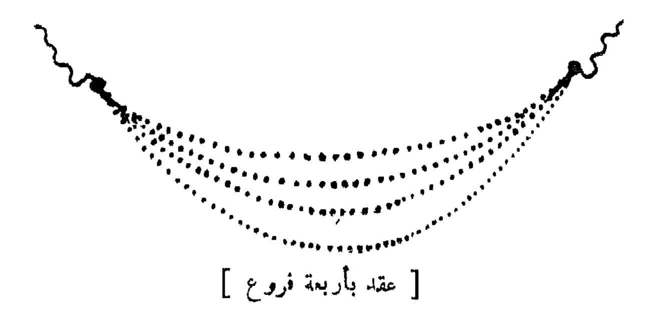
(١) كذا فى الأصل بسكون الميم وفتح الراء ، والرعاف كغراب هو — كما جاء فى القاموس — الدم يخرج من الأنف . وفى حاشية الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour. P. 208. أن الفور الذين لايعرفون العربية يسمونه دنجراف Dengueraf

والفاوُ : وهو مَرجان صِناعيّ كُرَوِيٌّ وطويل كلّه ، فيعمَلون من جميع ذلك عقوداً ويلبسْنَها ، كلّ منهُنَّ على قدر حالها في اليسارِ وعدمه . فترى منهنّ من يكون لها عِقد واحد ، ومَن يكونُ لها اثنان هكذا :



[عقد بفرعين]

ومَن يكونُ لها ثلاثة . وأغناهنّ لا تَزيدُ على أربعةِ عقودٍ هكذا :



[عقد بأربعة فروع]

ويرتّبْنَ الخرزَ المذكورَ فيها ترتيباً حسناً ، بحيث يألفُه النّظَرُ ويميلُ للابسِه القلب .

ويضعْنَ على رُؤوسهنّ تمائمَ من حبِّ نباتٍ يسمّى : الشُّوش ــ وهو حَبٌّ صغيرٌ أحمرُ كالجُلّنَار[1] ، وفي جانب كلِّ حبةٍ منه نُكتَة سوداء ، وهذا الحبُّ رؤيتُه مفرّحة جداً ــ وودَعٍ وفولٍ . وهذا الفول عندهم ذو ألوان ، منه ماهو أحمرُ ناصعُ

(١) الجلنار : زهر الرمان .

الحمرة . ومنه ما هو تِبْنِيُّ اللّون ، ومنه ما هو أسود ، ومنه [ما هو] عَسَلى . فيثقبْنَ الشُّوشَ والودَعَ والفولَ ، وينظِمْنَ الشُّوشَ وحدَه تمائم ، لكن يجعَلْنَ فى أسفل كلّ تَميمَةٍ إمَّا جُلجُلاً أو ودَعَةً ، ويجعلْنَها عناقيدَ هكذا :



[جلجل أو ودعة على هيئة عنقود تجعل أسفل التميمة]

(١٩٤) لكن يفصِلْن بين كلِّ تعريجَةٍ بخرَزٍ أزرَق .

ويلبَسْنَ فى أوساطهِنّ خرزاً على أنواع :

فنساء الأغنياء يلبسْنَ خرزاً كبيراً مثلَ الجوز ، يسمَّى عندهم : رُقادَ الفاقة[1] .

ونساء المتوسطين يلبسْنَ المَنْجُور ، ونساء الفقراء يلبسن إمّا الحرِشَ ، وإمّا الخدُّور ، وجميعُ ما ذكر يُعمَلُ فى الخليلِ من برِّ الشام ، لكن رُقاد الفاقةِ أملسُ جدًّا ، وهو ما بين أخضرَ وأزرقَ وأصفرَ .

والمِشَاهْرَة[2] : وهو خرزٌ أسود منقط بنُقط بيض .

والمَنجُور كذلكَ فى الألوانِ ، إلاّ أنه أصغرُ حجماً منه ، وفيه خُروشَة وعدمُ إتقان فى صناعته . والحَرِشُ فى لونِهما ، لكنَّه صغير كحبِّ السُّبحة ، مع الُخروشَة الكُلِّية ، وله غُضونٌ .

---

(١) لعل المقصود بالفاقة هنا : الافاقة أى الراحة ويكون معنى « رقاد الفاقة » ، رقاد الراحة الذى تستمتع به نؤومات الضحى .

(٢) كذا ضبط اللفظ فى الأصل ، ولكنه ورد غير معرف بالألف واللام .

وأمّا الخدُّور : فإنه حَبٌ أسطوانىّ ، وهو إمّا أحمر أو أبيض .

ويلبسْنَ فى أذرعتهنّ عِقْداً يسمّى المَذْرَعَة ، فى المَفصِل بينَ الزّند والسّاعد ، وهو عِقدٌ مركّب من خَرَز أسطوانِي ، طولُ الخرزَةِ منه[1] نحو قيراطين ، وهو إمّا أبيض أو أسود ، ويسمَّى : الشُّووُر ، فينظِمْن خَرزةً بيضاء ، وخرزةً سوداء ، ويفصِلْنَ بين كلِّ خَرزتينِ بحبّة ، إمّا من المَرجان الحرّ أو من المَرجان الطَّبْخ ، أى : الصِّناعى ، أو من حَبِّ الرّعَاف ، وذلكَ على قَدرِ حالِهنَّ فى الفقرِ والغَناء[2] .

ومن حُلِيِّهنّ الدَّاى : وهو سلكٌ غليظ من الفضة ، (١٩٥) نصفُ دائرةٍ ، فى طرفيهِ اعوجاجٌ كالسِّنّارة ، فيؤخذُ سلك رفيع من النحاس ، ويُنظَم فيه منصوص ومَرجان وعقيق ، ويُربط طرفاهُ فى الاعوجاجِ الذى كالسِّنّارة من الطّرفين ، فيكونُ السلكُ الرفيعُ وما هو منظومٌ فيه كالوترِ للقوس ، وصورتُه هكذا :



[الداى يوضع قريباً من جبهة المرأة ويشبك فى شعرها]

فيجعَلْنَ الوتر قريباً من جباهِهِنّ ، ويشبِكْنَ السلك الغليظ فى شعورهِنّ .

ويلبسْنَ فى أياديهِنّ أساورَ[3] من عاج ، أو من قَرْن ، أو من نحاس . فإذا كانتْ من

---

(١) فى الأصل : من

(٢) الغناء بفتح الغين والمد : الغنى .

(٣) في الأصل : أساورا .

قرن سميت بالكيم[1] ، [لكن أساور][2] بنات الأغنياء من الفضة والعاج معا .

و [يلبسن][3] فى أرجلهنّ الخلاخيلَ ، وهى من النحاس للجميع . لكنْ [خلاخيلُ][4] بنات الفقراء من النحاسِ الأحمر ، و [خلاخيل][5] بنات الأغنياء من النحاسِ المخلوط بالتُّوتيا ، فراراً من حُمرة النُّحاس المعروفةِ إلى الاصفرارِ القريبِ للون الذّهب .

ويجعلْنَ من أنواع الخرزِ الرفيع الملوّن عصابةً على جباههِنّ وفى أياديهن .

* * *

وأمّا طِيبُهُنّ فهو السُّنْبُل والمَحْلَبُ وكَعب الطِّيب ـ وهو المسمَّى بعُرف الفُور : عِرْقَ أمّ أبيض ، لسبب لونه الأبيض بشىء أسمر وأصفر[6] ، وبعرفِ مصر : عِرْقَ بنفسَج ، بسبب رائحتِه ـ وخشبُ الصَّندلِ ، وشىء كالمحار الصَّغير ، يقال له : الظُفْر وهو (١٩٦) أسمرُ إلى سواد والشَّيْبَة والمَرْسِين .

وبعضُ الأكابرِ يتطيَّبون بالجِلاد وهو جلد نَوَافج[7] المِسك ، وعندهم ثمرُ شجرِ

---

(١) فى الأصل : « من عاج أو من قرن فاذا كانت من قرن سـميت بالكيم أو من نحاس » والصيغة المثبتة فى المتن يقتضيها السياق من ناحية ، ثم هى كذلك فى الترجمة الفرنسية Voyage au Darfour, p. 210.

(٢-٥) زيادات للتوضيح عن الترجمة الفرنسية ibid. op. cit., pp. 210 - 211

(٦) يريد اللون الأبيض المشوب بسمرة وصفرة .

(٧) فى الأصل : نوافخ بالخاء ، والنوافج جمع نافجة وهى وعاء المسك معرب ، عن نافه . ولذلك جزم بعضهم بفتح فائها (شرح القاموس) .

زكيٌّ[1] الرائحة يسمّى : الدّايُوق ، وهو حبٌّ أحمرُ يميلُ إلى الصفرة ، يَسْحَقْنَه[2] النساء ويخلِطْنَه بطيبهنّ .

ومن عادتهنّ أنْ يكتحلْنَ بالإثْمِد ، لكنْ لا يضعْنَ الكُحلَ فى أعينهنّ ، بل يجعلنَه على الأجفانِ السُّفلَى والعُليَا من الخارج ، فيلتصِقُ عليها بواسطة الدُّهن ، ويكحّلْنَ عشاقَهنّ كذلك ، فترى الشبابَ والشابّات كلّها متكحِّلة[3] كذلك .

* * *

ومن عادتِهم أن العاشقَ يأخذ من محبوبتِه شيئاً من حَلْيِها المعروفِ ، ويلبسُه افتخاراً له ، وتَذْكاراً لاسمِها . وإذا أصابه مُهِمٌّ ، أو عَثَرَ ، يقول : أنا أخو فلانَة ، وهى تقول كذلك أيضاً .

وأكثرهم لا غَيْرةَ له على عرضِه ، فربّما دخلَ الرجلُ دارَه فوجدَ امرأتَه مع غيرِه فى خلوة ، فلا يغضبُ إنْ لم يجدْه على صدرِها . وأما إذا دخل ووجد ابنتَه أو أختَه مع أجنبيٍّ لا يسوؤُه ذلك ، بلْ ربما سُرَّ به ، وظن أن ذلك يكون سبباً لزواجها .

ومن عادتِهم أن البنتَ إذا طَعَن ثديُها ، يُفرِدونَ لها محلاًّ تبيتُ فيه ، ويأتيها مَن يحبُّها فيه وتبيت معه . ومِن ذلك يقع الحَبَل بأكثر بناتِهم ، ولا عارَ عليهم فى ذلك . وولد الزِّناء[4] عندَهم يُنسبُ لخالِه وكذلك البنات . فالبنتُ التى تكونُ من هذا (١٩٧) القبيلِ يزوِّجُها خالها ويأكلُ من صداقِها مالاً ، لاسيّما إن كانت جميلةً .

---

(١) فى الأصل : ذكى .
(٢) كذا .
(٣) كذا .
(٤) في الأصل زناء بدون «ال» وزناء يمد ويقصر .

وبالجملةِ لا يمكن فى دار الفورِ أن تمتنعَ النساء عن الرجال ، ولا الرجالُ عن النساء . بل لا يمكِنُ الرجُلَ أن يُحرِز ابنتَه تحت كَنَفِه ولو كان عظيما ، أما إن كان فقيراً فإنه يُهان و يؤذَى وربما قتل .

ومن ذلك ما اتّفق أن رجلا كانتْ له ابنةٌ ، وكان يغارُ عليها ، ولا يرضَى أن يكلِّمَها أجنبى . ومن شدّة خوفه عليها كان يقهرُها على البَيَاتِ معه ، فى المحل الذى هو فيه ، وكانتْ من الجمال بمكان . فكان الشبابُ يأتونَ على عادتِهم إلى بيتِ أبيها ، فإذا حَسَّ[1] بهم زجرَهم ولعنَهم وطردَهم . فلمّا أعياهم أمرُه احتالوا عليه ، وأخذوا قَرعةً مستطيلةً قليلاً ، تقربُ من الشكلِ البَيضِىِّ ، تنتهى بعُنُق ، وفتحوها من أعلى ، وأخرجوا لبَّها ، وملأوها غائطاً وبَوْلاً ، وحرّكوه حتى امتزج ببعضِه ، وتوجّهوا إلى منزله ليلاً ونادَوْه : ياوالِدَنا ، مُرْ فلانَةَ تأتِ لنتحدّث معها . فقام على عادته ، ولعنَ وسبّ وزجَر ، فما أفاد ذلك ، بل قالوا له : نحن لا نبرحُ حتى تُخرِجَها لنا . فاغتاظ منهم وخرج قاصداً طردَهم . ومِن عادتهم أنهم كانوا إذا سمِعوا أنه خارج إليهم ، يفرّون منه لهيبتِه ، إلاّ فى تلك الليلةِ ، فإنهم ثَبَتُوا ، ومَسَك[2] أحدُهم القَرعةَ مِن عنقِها ، وكَمَن له حتى أخرج رأسَه (١٩٨) من باب البيت ، فرفع يدَه بقوةٍ ، وضربَ بها[3] رأسَ الرجل بالقَرعَة ، فانكسرتْ على رأسِه ، وسال الخَبَثُ الذى فيها على رأسِه

---

(١) كذا فى الأصل : حس بغير همزة ، وسنرى فيما بعد أن المؤلف يستعمل المضارع «أحس» بفتح الهمزة وكلتا الصيغتين عامية .

(٢) وكذلك نجد المؤلف يستعمل الصيغة العامية هنا فيقول : مسك ، بدل:أمسك.

(٣) كذا بالأصل ، واستعمال «بها» هنا مع لفظ «بالقرعة» أثر من آثار اللهجة السودانية فى أسلوب المؤلف .

وثيابه ووجهه ، فلما شمّ الرائحـة الـكريهة ، صاح يشتم ، فقالوا له : اسكُتْ ، هـذه الليلةَ فعلنا هذا معَك ، والليلةَ القابلةَ إن عارضتَنا قتلنَاك . فأيقظ الرجلُ أهلَه ، وجاءوه بماء ، فاغتسل وتطيَّب ونام وخاف منهم ، فلما أصبح أفرد لابنته حجرةً لنومها قهراً عنه ، وجرَتْ عليها عادتُهم .

وإن كان غنيًّا صاحبَ حِشمةٍ وأبّهة وعَبيد وخَدم ، يتحيّلون فى الدخول إلى الحريم بالليل ، ولو على زىٍّ النساء .

ومن ذلك ما اتّفق أن رجلا من أكابر الناس ، له سبعةُ أولاد ذُكور[1] ، وله بنتٌ واحدة ، وكانت فريدةَ حُسنٍ ، وقد خطبها منه أناس كثيرون فأبَى عليهم ، فحين طال الأمد على البنت ، تحيَّلت وأدخلتْ شابًّا لطيفاً من الشجاعة بمكان ، فمكثَ عندها ما شاء الله أن يمكُث ، وافتقده أهلُه فلم يعرفوا له جهة . فاتفق أنه أُتِىَ بشرابٍ فشرب ، ولما أخذته النشوة طلب الخروجَ فقالت له البنت : أَصبِرْ[2] إلى الليل . فأبى وقال : لا أخرج إلاّ الآن . وغلب عليها وخرج ، وكان أبوها وإخوتها جالسين على باب بيتِهم ، فما شعَرُوا (١٩٩) بالشاب إلاّ وهوخارج ، فصاح أبوهم على بوّاب البيت : اقفِلْ الباب . فلما قفل البابَ أمر العبيـدَ بالقبضِ عليه . فاجتمعتْ العبيدُ ليقبضوا عليه ، فجرح منهم أناساً وامتنع عليهم ، فخرج الأولادُ السبعة مُجرِّدِين السلاحَ عليه ،

---

(١) فى الأصل : ذكورا .

(٢) كذا فى الأصل بهمزة مفتوحه ، وهى لهجة سودانية وهذه قاعدة مطردة فى فعل الأمر ، اذ يفتحون همزته باستمرار ، عدا بعض الأفعال الشاذة .

قاصدين قتله ، فناشدهم الله إلاّ أبعدُوا عنه وتركوه يمضى[1] إلى سبيله فأَبَوْا ، وترامَوْا عليه ففرّ منهم ، ورماهُم بالحرابِ فقتَل واحداً منهم ، فـكَبُرَ عليهم ذلك ، ورمَوْه بالسلاح يرومون قتلَه ، فصار يذُبُّ عن نفسه ويرميهم ، حتى قتلَ من الأولاد ستّة ، وجرح السابعَ جُرحاً خفيفاً ، فحين رأى والدُهم ذلك نادى : ياغلام ، افتَح له الباب . ففتح له وخرج ، ولم يكن به جُرح ، ولم يعرفْ مَن هو ، لأنه كان متنقّبا . وكانت ابنتُه سبباً فى خراب بيتِه وقتلِ أولاده .

ووقائعُ كثيرة من هذا القبيل ، تذهب الدماء فيها هَدَرًا ، لأن البنتَ التى يكونُ هذا الأمرُ من شأنِها ، لا تخبر الناسَ باسْمِ القاتل ولا مَن هو ، بل قُصارَى أمرها ، إذا سُئلتْ عمَّن فعلَ هذا الفعل ، أن تقولَ : لا أعلم . ولا يسلم من هـذا الأمرِ بيتٌ فيه أنثى ، إلاّ إذا كانتْ وَخْشا ، أو بها عاهة تنفِّر الناسَ عنها .

وقد اجتهد السلطانُ عبدُ الرحمن فى منعِ ذلك ، فلم يمكنه[2] ، (٢٠٠) حتى إنه جعل فى السوق خِصياناً كثيرين ، يمنعون النساءَ من مخاطبةِ الرجال والاختلاطِ بهم ، فاحتالوا فى ذلك حِيلاً عجيبة .

منها : أن الرجل كان يمرُّ بالبنتِ التى تُعجبُه فيقولُ لها : يابنيَّة ، مَالَهْ راسِكْ شِينْ مِتْل دِيكْ السُّوكْتَايَه[3] ؟! و « مَالُهْ » ، أعنى : لأى سبب . و « شِين » ، بعُرْفهم : غير جميل . فتقولُ هى : و ينُو السُّوكْتَايَه الشِّين ، المِتْل رَاسِى؟ و « و ينُو » ،

---

(١) فى الأصل : أن يمضى .

(٢) فى الأصل يمكنه ذلك .

(٣) سبق التعريف بالسوكتاية فى ص ٢٠٢ .

بمعنى : أينَ هو ؟ فيقول : ديكَا . أىْ : ذاك . وينعتُها لها بإصبَعه فتعرِفُها . وبعد المساء تذهب إليه فتبيت عنده ، ولم ينفع الحرسُ بشىء .

كما أنه اجتهد فى منع شربِ الخمرِ فما أمكنه ، واحتالتْ الناس حيلاً عظيمةً ، حتى كانوا يأتون لبيوتِ الخمّارين ، ويشترون منهم الخمرَ ، ويورون[1] لمن يراهم أنهم يشترون خبزاً ، فكانوا يقولون بلُغتهم : تقُرُو بَا ينْسَا[2]. أى : خبزُ كُمْ عندَ هل . أى : هَل عندكم خُبز ؟ فإن خافوا أن يكونوا جواسيس طردُوهم بقولِهم : أَكِبَا . يعنى : ما عندنا . وإن عرفوا أنهم أغراب ، يُدخِلوهم[3] داخلَ الدار ويعطوهم ما يريدون .

وكان السلطانُ فى أثناء ذلك ، يأمرُ بشَمِّ أفواهِ من حضر مجاسَه من أكابر الدَّولة ، وهم أكثر الناس إدماناً على الخمر ، فاستعملوا لإزالةِ الرّائحة مضغَ فروعِ شَجرٍ يقال له الشَّغْلُوب ، (٢٠١) فكانوا يشربون كفايتَهم ثم يمضُغون منهُ فلا تُشَمُّ من أفواههم رائحةُ الخمر ألبتَّةَ . وهذه عوائدُ ارتكزَتْ فى طَبائعهم ، وامتزجَتْ بدمهم ولحمِهم ، فصارتْ سُنَّة متَّبعَة ، وإن كانت فى الإسلام محرَّمة .

ومن عوائدهم : أن الرجل إذا تزوّج وكان فقيراً ، ولم يواسُوه أهلُه الأغنياء ، وجاء يومُ الوليمة ، يعمِد إلى مَرعَى المواشى حتى يجدَ ماشيةَ أقربِ النّاس إليه فيعقِرُ[4] منها ما يكفِيه لوليمتِه : ثوراً أو ثورين أو بعيراً ، إن كان صاحبَ إبل . وإن لم يكُنْ شىءٌ

---

(١) كذا ، وهو صيغة عامية .

(٢) تقرو : خبز ؛ با : أنتم ، كم ؛ ين : عند ؛ سا : أداة استفهام Voyage... P 215
وقدسمعنابأنفسنا لفظ:تقرو اى الخبزفىمنطقة جبل مرةفوجدناهم ينطقونه: تقور ، ومعناه : الكسرة أى الخبز .

(٣) فى الأصل : يدخلونهم .

(٤) يعقر : يجرح .

ذلك ، ذبح أكباشاً على قدر كفايته . فإن فطن ربُّ المال له ومنعه قبل العقر ، ربما قاتله إلاّ أن يُغلب . وإن شحّ وطلبه للقاضى يُلزمه القيمة ، فيدفعها له على التدريج ، إن لم يكن متيسِّرَ الحال .

ومن عادتهم : أن الغلامَ إذا اختتن ، يجتمعُ عليه فى ثالثِ يومِ ختْنه إلى سابع يوم جميعُ غلمانِ البلدِ وغيرُهم ، ممّن له بهم قرابة أو معرفة ، ويأخذون السّفاريكَ[1] ، ويخرجون فى بلدِهم والبلاد القريبة منها ، فلا يرَوْن دجاجةً إلاّ قتلوها ، وإن قدروا على ضبطِها بالحياةِ ، أخذوها حتى يجتمعَ عندهم دجاجٌ كثير ، ولا يقدر أحدٌ من الناسِ يعارضُهم[2] فى ذلك . وكلُّ من عارضَهم ضربوه . وهم صغار ، لا تقامُ عليهم شريعةٌ .

ومن عادتهم : ختْنُ البناتِ لكنّهم فى ذلك على (٢٠٢) أقسام : فمنهم من لا يرَى ذلك أبداً ، وهم أعجام الفُور . ومنهم مَن يخفض خفْضاً خفيفاً كعادة أهل مصر ، وهم أكابر الناس . ومنهم مَن يُنهِكُ الخِفاضَ ، حتى يلتحمَ المحلّ ببعضه ، ويجعلونَ لمسلكِ البَوْلِ ماسورةً من صفيح . وهؤلاء إذا زوّجوا ابنتهم ، لا يقدر الرجلُ على افتضاضِها ، حتى يشُقّوا[3] له المحلَّ بالموسَى . وهناك نساء لهذا المعنى ، وفى وقتِ الولادةِ كذلك أيضاً . وهؤلاء أكثرُ بناتِ الفقراءِ المنهمكاتِ مع الرجالِ دائماً . ويفعلونَ ذلك خوفَ الافتضاضِ بالزّنا ، ومع ذلك يقعُ الحَبَل فيهنّ ، وهنّ على تلك الحالة .

وفى خفاضِ البنات يعملون أفراحاً عظيمة ، ويُولِمونَ الولائم العظيمة . ومن عادتهم

---

(١) السفاريك جمع سفروك وقد سبق التعريف به .

(٢) كذا .

(٣) فى الأصل يشقون .

أن أقاربَ البنتِ المخفوضةِ من الرجال ، يقفون خارجَ المحلّ الذى تُخفض فيه البنت ، والنساء يكنّ عندها ، فإن صوّتت وقت الخفاض وصاحتْ لعنوها وتركوها ، وإن صبرَتْ وهبَها كلٌّ من أقاربها على قدر حاله وقرابتِه ؛ فمنهم مَن يهَب لها بقرة ، ومنهم من يهَبُ [لها] بقراتٍ ، ومنهم من يهَب لها رَقيقاً ، ومنهم من يهَبُ لها شاةً أو شِياهاً ، حتى تصـــيرَ من ربّاتِ الثروة . وأبوها وأمّها يهَبانِ لها أكثرَ من جميع الناس إن كانوا أغنياء .

ومِن عادتهم : أن يثقِّلوا مُهورَ البنات ، (٢٠٣) فربّما تزوّجت البنتُ الوسيمةُ من الفقراء بعشرين بقرةً وجاريةٍ وعبدٍ .فيأخذُ الأبُ والأمّ جميعَ ذلك ويعقدون العَقدَعلى جَذَعةٍ[1] من البقَر ، ولذلكَ يفرحون بولادةِ الإناث ، أكثَر من ولادةِ الذّكور ، ويقولون : « إنَّ الأنثى تملأ الزّريبةَ خيراً ، والذّكر يخرِّبها » .

ومن عادتهم : أن البنتَ إذا تزوّجت ، تمكثُ بعد الدُّخولِ بها فى بيتِ أبيها سنةً أو سنتين ، ولا يمكنُ خروجُها لبيتِ زوجها إلاّ بعد جَهد جهيد . والنفقةُ فى تلك المدّةِ على أبيها ، وما يأتى به الرجلُ فى تلك المدة يكون على سبيلِ الهديّة .

ومن عادتهم : أن الرّجل إذا خطب بنتاً ، وكان قبلَ ذلك له اختلاطٌ بأبيها وأمها ، وكانت لها اختلاطٌ بأبيه وأمه أيضاً ، تذهبُ تلك المخالطةُ بمجرّد الخِطْبةِ ، ويستوحشُ كلٌّ منهم . فبعد ذلك إذا رأى الرجلُ أبا البنتِ المخطوبة أو أمّها ، يفرُّ من الطريق التى هو عليها ؛ وهما كذلك . وكذلك البنتُ تفرُّ مهما رأت أباه أو أمه . وفى أثناء ذلك ، إذا دخل الرجلُ البيتَ يرسلُ السلامَ لأُمِّ البنت ، إمّا مع البنتِ أو أختِها أو جاريةٍ

---

(١) الجذعة من البقر : ما كان لها سنتان .

فى البيتِ ونحو ذلك ، وهى ترسلُ له السلام أيضاً ، ولا يتلاقيانِ . ولا يزالون كذلك حتى يَبْنِىَ بها ، فعند سابعِ يومٍ من البناء يخرجُ ويقبِّل رأسَ حَماهُ وحَماتِه ، ويجتمع عليهما ، وكذلك البنتُ .

ومن عادتهم : أن كلاً من(٢٠٤) الزّوجِ والزّوجةِ ، يرَى أقاربَ زوجِه كأقارِبه، فيحترمُ الرجلُ حماه ويخاطبُه : يا أبتِى ، وأمُّ امرأته يخاطبُها بأمِّى ، وأختُها بأُختى ؛ وهى كذلك . ويرَوْن ذلك من آكَدِ الحقوقِ عليهم[1] .

---

(١) لم يلتزم المؤلف هنا ، ولا فى صفحة ٢٦٨ ، ما رسمه لنفسه من تقسيم للمقصد (ص ١٣٢) الى أبواب وفصول ، فاضاف الناشران ما بين الحاصرتين ، رغبة فى السير على نمط واحد فى ترتيب الكتاب .

(الباب الثاني)

[وفيه فصلان]

الفصل الأول [1]

في اصطلاح تزويج الفور

لما كان المتوحِّدُ في ذاته وصفاته وأفعالِه غنيًّا عن الزّوج والولد ، ما انفصَل عن أحد ، ولا ينفصلُ عنه أحد ، إذ لا يحتاج لما ذُكِر إلا الحادثُ المسكين ، الذي لا سنَد له إلا الله ولا مُعين ، وهو سبحانه وتعالى حيٌّ قيوم ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، واحدٌ أَحد ، فردٌ صَمَد ، لم يتَّخذْ صاحبةً ولا ولَد[2] ، ولم يكنْ له شريكٌ في الملك ولم يكن له كُفُواً أحد ، خلق آدمَ أبا البشَر من التراب ، وخلق حوّاء زوجَه من أقصر ضِلَعٍ من الجهة اليُسرى على الصواب .

ولمّا كان سِرُّ خَلْقِه أن يكونَ خليفةً في الأرض ، ويملأَ مِن نسلِه طولَها والعَرْض ، ركّب فيهما الشَّهوةَ البشريَّة ، ليحصُلَ التناسلُ وِفْق[3] الإرادة السنية .

---

(١) في الأصل : فصل .
(٢) كذا بترك نصب « ولد » مراعاة للسجع .
(٣) كذا بكسر الواو بدل فتحها .

وكان آدم حين خلقتْ حوّاء فى سِنَةٍ من النوم ، ولما أفاق رآها أمامَه على ترتيبٍ منظوم ، فوقعتْ منه موقعَ الإعجاب ، وقال لها : مَنْ أنتِ يا أعزَّ الأحباب ؟ قالت : أنا حواء ، وقد خلقنى الله من أجلكَ يا آدم ، وقدّرَ ذلك من أزَلٍ تقادَم . فقال لها : هَلُمَّ (٢٠٥) إلىّ . فقالتْ : بل أنتَ تعالَ[1] إلىّ . فقام آدمُ إليها ، فصارتْ عادةُ الرجالِ الذَّهابَ إلى النساء .

ولما أن جلس معها ، ومسَّ بيدَيْهِ جسمَها ،[و] دبّت فيه الشهوةُ الإنسانية ، وأراد مُواقعتَها كما هو مُقتضَى الحيوانيّة ، قيل له : مَهْ[2] يا آدمُ ، لا تَحِلُّ حوّاء إلاّ بصَداقٍ وعَقدِ نكاح ، ثم إن الله سبحانه وتعالَى خطبَ خُطبةَ نكاحِهما بكلامِه القديم فقال : الحمدُ لعزّتى ، والعَظمةُ هَيْبَتى ، والخلقُ كلُّهم عَبيدِى . وإنى أُشهِدكم يا ملائكتى ، وسُكّانَ سمَواتى ، أنى زوّجْتُ بديعةَ فِطرتى ، حَوّاءَ أَمَتِى ، لآدمَ خليفتى ، على صداقِ أنْ يُسَبِّحنى ويُهلِّلنى . فكان ذلك سُنَّةً لأولادِه .

لكنْ لمّا اختلفتْ الأقاليم واللُّغات ، وتعدَّدتْ القبائلُ والاصطلاحات ، كان اصطلاحُ كُلِّ قومٍ مبايناً لاصطلاح آخرين ، وإنْ كان العَقدُ والمَهرُ واحداً .

فمن اصطلاح الفور ، أنَّ الشبانَ إناثاً وذُكرانا ، يَنشَئُون جميعاً ، ففى صِغَرِهم يرعَوْن الأغنام ، ولا حجاب بينهم على الدوام ، فربّما اصطحبَ الشابُّ والصبية من ذلك الحين ، وانعقدت بينهما المودةُ التى لا تَبْلَى على مَمَرِّ السنين . فمتى أحبَّها وأحبَّته ، ركن

---

(١) فى الأصل : تعالى .

(٢) مه : اكفف .

إليها ، وصار يغارُ عليها ، ولا يرضَاها تحادثُ غيْرَهُ . وحينئذٍ يرسلُ أباه أو أمّه أو أحد أقاربه فيخطبها ، فإذا انعقد بينهما الـكلام ، ونُفِّذ على وَفق المرام ، جُمعتْ (٢٠٦) الناس للإملاك ، وحضر الشهود للمِلاَك[1] ، فيذكرونَ شروطا كثيرةً ، ويطلبون أموالاً غزيرة، وكلُّها يأخذُها الأب والأم ، أو الخال أو العم ، ويعقدون لها على شيء قليل ، من ذلك المالِ الجزيل ، وكنا قد ذكرنا نُبذَةً من ذلك ، فَلْتُـراجَع[2] هنالك[3] .

ثم بعد تمام العَقد يتركون الأمرَ نَسياً منسيًّا مدةً طويلة ، ثم يجتمعون فيما بينهم ويتشاورُون ، فينعقدُ رأيُهم على وقتٍ فيه يُزَفُّون ، فإن كان العروسان من ذوى البيوتِ الفِخام ، والمراتب العِظام ، ابتـدأ أهلُهما فى تهيئةِ الذَّبائح والشراب ، قبل العُرْسِ بأيام كثيرة ، ثم يرسلون الرُّسُلَ إلى أحبابهم من البلاد ، ويقولون : العُرس فى اليوم الفُلانى المعتاد . ويكون[4] قد حضَّروا من المِزْرِ[5] والنَّبيذِ الأحمر المسمَّى عندَهم بأم بُـلْبُل ، ومن البقرِ والغنم ما فيه كفاية . فتأتى الناسُ فى اليوم الموعودِ أفواجاً أفواجا ، وهناكَ نساء معهنَّ طبولٌ صِغار وكِبار ، كلُّ امرأة معها ثلاثةُ طبول ، اثنان صغيران ، وآخر كبير على هيئةِ الدَّرَبُـكَّة ، تضعُها تحت إبطِها الأيسر ، أحدُها وهو الـكبيرُ من أعلى ، والاثنان يحاذِيان أسفلَ الـكبير ، وتضرِبُ بيدها على الثلاثةِ ، ومجموعُها يسمَّى عندهم : الدَّلُّوكَة . وكلَّما جاءتْ طائفـةٌ خرجتْ النساء بالطُّبول و [هن] يضرِبْنَها ، ويقُلْنَ كلاما يمدَحْنها به ، منه قولهُن : (٢٠٧)

---

(١) الاملاك والملاك بكسرهما ويفتح الثانى : التزوج أو العقد (القاموس) .
(٢) فى الأصل : فلترجع .
(٣) راجع ص ٢١٩ – ٢٢٦ .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) فى القاموس : المزر بالكسر نبيذ الذرة والشعير .

هَىْ بَانِى هَىْ بَنَانْ
وَبَنِينَ حِسَّ الْبَنَانْ
يَاهَزَّازِينَ الْقَنَا
أَرِيتْ[1] مَا يَجِيكُمْ فَنَا
عَينَ الحَسُودْ بِالعَمَى
يَا هَزَّازِينَ الحِرَابْ
أَرِيتْ مَا يَجِيكُمْ خَرَابْ
عِينَ الحَسُودْ فى التُّرَابْ

وكلّما قالتْ كلاماً ، قالتْ قبلَ أنْ تقولَ غيرَه :

هَىْ بَانى هَىْ بنانْ
وَبَنِينَ حِسَّ البنانْ

إنما هذا الكلام لايعنى شيئا بالحقيقة .

وكنتُ مرّةً جئتُ إلى عُرْسٍ، فتعرّضَتْ لى امرأةٌ وقالت :

اَلشَّرِيفْ جَاىْ مِنَ المَسِيدْ[2]
اَلْكِتَابْ فى إِيدْ
وَالسَّيفْ فى إِيدْ
وَمِنْ قَبَلْ يَجِيبْ
اَلبرْقِدْ عَبِيدْ[3]

وكنتُ أحفظُ من كلامهنّ كثيراً نَسيتُه .

(١) أريت ، لفظة عامية ، أصلها : يا ليت .
(٢) المسيد : المسجد .
(٣) قيلت هذه الأغنية فى مديح رجل يتصف بالعلم والشجاعة وفى الدليل على شجاعة الممدوح أنه كان من قبل يجلب جماعات من قبيلة البرقد ويسترقهم Voyage, p. 226

فتخرج أصحابُ العُرس ، (٢٠٨) و يتلقّوْن القادمين ، و[فى] كل طائفة تأتى رجال ونساء ، فيجعلون كلّ طائفة فى محلّ ، ويأتونَ لهم بالأطعمة والأشربة على حَسَب مقامهم. فمنهم [مَنْ] يَأتونهم بالعصائد[1] والمِزْر ، المسمى فى مصر بالبُوزَة ، واللحمِ السَّليق والشّوَا[2] . ومنهم مَنْ يأتون له بالفَطير والشّراب الأحمر الذى كالنّبيذ ، المسمّى عندهم بأم بلْبُل . وإنْ حضرهُم جماعةٌ من الفقهاء ، أتَوْهم بالعصائِد واللُّحوم وبالسُّوبْيا ، وتسمّى عندَهم : دِينْزَايَا ، ثم يُقَيِّلُون فى أما كنهم حتى يبرُدَ الحرُّ ، ويعظُمَ الفَىْء .

فتخرجُ الشّابّاتُ من النساء متزيِّنات ، والشّبابُ من الرِّجال فى أكمل زينةٍ يقدِرُون عليها . وتصطَفُّ النّساء صفوفاً صفوفا ، وكل [صَفّ] من النساء يقابله صفٌّ من الشّبّان . وتخرُجُ النساءُ التى[3] معهنّ الطُّبولُ ، فيضرِبْن ويقُلن من كلامِهنّ ، فيبرُزُ صَفٌّ من صفوف النساء يمشينَ هَوْناً ، ويرقُصْن بأكتافِهنّ ، ويتقاصَرْنَ إلى الأرضِ ، حتى يصِلْن إلى صفِّ الرجال . فكلُّ شابّةٍ تعمِدُ شابًّا حتى تضَعَ وجهَها فى وجهه ، وتهزُّ رأسَها نحوَه حتى تضربَه بضفائرِها فى وجهه ــ وضفائرها إذ ذاك مدهونَةٌ بالطِّيبِ وأنواعِ ما يعرِفونَه من العِطر ــ فيهِيجُ الشّابُّ ويهزُّ حربتَه على رأسِها ، ثم تلتفتُ راجعة فيتبعُها حتى إلى[4] مكانِها الأول ، فيقِفُ فيه الرَّجلُ ، وترجِعُ هى القَهْقَرَى حتى تصلَ إلى المحلِّ الذى كان واقفاً فيه الرجل . فحينئذٍ مَن يتأمَّلْ يجد صفَّ النساء

---

(١) العصائد جمع عصيدة .

(٢) فى الأصل : والشوى .

(٣) كذا .

(٤) كذا فى الأصل ، بحرفى الغاية كدأب المؤلف فى عدة مواضع من الكتاب .

ثبت فى مكانٍ صفٌّ الرجالِ وبالعكس ، (٢٠٩) وإذا كان هناك بعضُ شُبّان لم يدخُلوا فى الصفّ ، وإحدى الصّبايا تريدُ أن يقابلها واحدٌ منهم تألفُه ، تخرُج من الصفّ وتذهبُ إليه راقصةً حتى تكُبَّ شعرَها على أنفه ، فيهيجُ ويصيحُ ويهُزُّ حربتَه ويخرجُ وراءها ، وإن لم يخرج كان ملوماً ، وعليه وليمةٌ للخارجةِ له .

وبعدَ أن يثبُتَ كلٌّ صف فى مكان الآخر ، تخرج النساء راقصات ، والرجالُ راقصين ، وكلٌّ منهم مقابل للآخر ، وكلّ شابّة مقابلة لشاب ، حتى يتلاقى [1] الصفّان فى وسط المجال . وكلُّ شابّةٍ تكُبُّ رأسَها فى صدرِ ووجه الشّاب المقابلِ لها ، والشابُّ يهُزّ حربتَه على رأسِها ويصيحُ صياح الفرح ، وهذا الصياحُ عندهم يسمّى : الزَّقْرَقَة . وكلٌّ من النساء والرجالِ تَمِـلُ [2] ممـا شرب ، ولا يزالون هكذا حتى يأتىَ الّليل ، فترجعُ كلُّ طائفةٍ إلى مقرِّها ، ويؤتى لها بالأطعمة والأشربة .

هذا ولا يخْطُرْ ببالكَ أنه ليس عندهم رقص إلاّ هذا النوع ، وهو المسمّى برقص الدَّلُّوكة ، فهناك [3] رقص آخر يسمّى بالجيل ، وآخر يسمى : لَنْقِى ، وآخر يسمّى : شَكَنْدَرِى ، ورقصُ العبيدِ والإماءِ يسمّى : تُوزِى ، ورقص الفور [4] يسمّى : تَنْدِنْيحَه ، وهناك رقص آخر [للعبيد والإماء] [5] يسمّى : بَنْدَله .

---

(١) فى الأصل : يتلاقا .

(٢) فى الأصل : نمل ، بفتح الثاء والميم .

(٣) فى الأصل : وهناك .

(٤) فى الترجمة الفرنسية (Voyage, p. 229) أن هذا النوع من الرقص خاص بالفور الأصليين الذين يسميهم المؤلف أعجام الفور وهم التموركة والكراكريت .

(٥) الزيادة على ضوء الترجمة الفرنسية Voyage, p. 229 .

وفى الأعراس كلُّ أناسٍ يرقصون نوعاً من هذه الأنواع . فالنساء الجميلاتُ بناتُ الأكابر يرقصْن مع أمثالهنّ من الشبان على الدَّلُّوكة ، وأواسطُ (٢١٠) النساء مع أمثالهنّ من الشُّبانِ يرقصنَ الجيل ، ومَن دونَهنّ[١] يرقصْنَ [الـ]ـلَّنقى .

فأما رقصُ الجيلِ: فتتقابلُ فيه النساءُ مع الرجالِ ، يرقصنَ بأكتافهِنّ ويضرِبْن بأرجلهِنّ اليُمنَى على الأرض ، والرجالُ كذلك ، لكنْ فى كلِّ حلْقة هنـاك نساء يغنِّين ، والناسُ ترقصُ على غنائهِن .

وفى رقصِ اللَّنقى : بعضُ النساء يغنِّين ،والشابَّاتُ والشُّبانُ يضربون[٢] بأرجلِهم الأرض ، ويرقصُ كلٌّ منهم برجليه اليمنى واليسرى ، لكنَّ الشبانَ يكرُّون كريراً[٣] معروفاً لهم .

وأما الشَّكَّنْدَرى: فيجتمعُ الشبانُ والشابّات[٤] ، وكلُّ رجل يأخذُ شابةً أمامه ، وتنحنِي هى ، ويمسكُ خَصرَها بيدَيْه ، حتى يكونوا كلُّهم كدائرةٍ مسلسَلة ، أعنى : الأنثى تضعُ يدَيْها على حَقْوَىْ الذكر الذى هو أمامها ، والذكرُ يضع يديه على حَقْوَىْ الأنثى التى هى أمامه ، وكلُّهم مُنحنِيون[٥] حتى يكونوا كدائرة تامة ، ويمشون رويداً رويدا ، مع ضربِ أرجلِهم فى الأرض ، لأجل يُسمَع[٦] رنينُ خَلاخيلهنّ ، والبناتُ التى يغنِّينَ خارجاتٌ عن الحلْقة .

---

(١) فى الأصل : دونهم .
(٢) فى الأصل : يضربن
(٣) الكرير صوت فى الصدر كصوت المنخنق .
(٤) فى الأصل : والشبات .
(٥) كذا ، بدل : منحنون .
(٦) كـذا .

وأما البنْدَله: فهى من أنواع رقص العبيد، وهو أنّ العبدَ يأتى بالنّارجيل ، المسمّى عندهم بالدّلـيب، ويثقبه ، وهو أكَرٌ(1) مثل كُرةِ المدفع ، وينظم منه ثلاثاً أو أربعا فى خيط ، ويربطها فى رِجله اليمنى كالخلخالِ(2) . وكلُّ عبدٍ يفعل ذلك ، وتقفُ جاريةٌ من الجوَارِى(3) خلفَه ، ويكُونون كدائرة ، ولهم (211) كَرِير مخصوص . فيخرُجُ العَبدُ منهم لآخَرَ فى وسط الدائرة ، ويتحاوَلُ معه فى اللعب ، وهذا اللعبُ مبنىٌّ على القوةِ وخفّةِ الجسم ، كما يلعبُ البهلوانُ . فبعد أن يتحاولا مَليًّا يضربُ أحدُهما صاحبَه برجلِه التى فيها النّارجِيل، فلا يخلو إمّا أن يُوقِعَه فى الأرض أوْ لا، فالماهرُ هو الذى إنْ ضرب صاحبَه أوقعه . والباقى يرقصون رقصاً لاتَـكَسُّرَ فيه ، وكلهم يردُّون على المغنِّيات ، وهــذه(4) المغنِّياتُ خارجات(5) عن الحلقة .

وأمّا التّوزِى : فهو أنّ عبداً من العبيدِ يضربُ على طبلٍ كبير ، والنساء والرجالُ حولَه حلْقة ، وكلُّ رجلٍ واضعٌ يدَيْه على حَقْوَىْ امرأة ، وكلُّ امرأةٍ واضعةٌ يديْها على حَقْوَىْ رجُل ، لـكنْ مع الانتصابِ والاعتدال ،لا مع الانحناء . ويمشون رُوَيداً والنساء يضربْن أرجلَهُنّ ببعضِها لترِنَّ الخلاخيلُ التى فى أرجُلِهِنّ ، ومشيُهم كلِّهِم فى الدائرة على نظم نَقَراتِ الطّبل ، ويكونون أيضاً كدائرة ، والمغنِّياتُ خارجَ الحَلْقة .

وأما التّنْدِنيحا : فهى لَعِب البرْقِد والفور(6) ، وهو أشبهُ بالتُّوزى . وإنما الفرقُ بينهما فى كونِ أن التوزى يمشون فيه رُويداً ، والتَنْدِنْيحا بحركاتٍ عنيفة .

---

(1) بهذا الضبط فى الأصل . ولعل المقصود « أكرة » وهى لغية فى الكرة .
(2) فى الأصل : ويربطها فى رجله كالخلخال فى الرجل اليمنى .
(3) فى الأصل : الجوارى ، بفتح الراء .
(4) كـذا .
(5) فى الأصل : خارج .
(6) سبق ان ذكر المؤلف أن هذا الرقص هو رقص الفور ، ولم يذكر البرقد معهم . (قارن صفحة 232 حاشية 4) .

وبالحقيقة العبارةُ لا تفى بذلك ، لأن المشاهدةَ شيء[1] آخر ، فربّما يرى المشاهدُ شيئاً لا يمكنُ التعبيرُ عنه .

ولكلّ رقصٍ من الأرقاصِ غناء مخصوص ، فأما غناء « الجيل » فمنه قولهُن (٢١٢) :

يُوبَانِي هَىْ يُوبانين
اللّيلْ بُوبى[2] يالْمُتْقَال[3]
أَنَا رَاسِى إِنْدَارْ[4]
اللّيلْ بُوبى يا لْمُتْقَالْ
أَنَا رَاسِى إِنْدَارْ

وهذه الكلمات : «يُوبانِي هَىْ يُوبانين» ، لا تعنى شيئاً ، لكنّ واحدةً منهُنَّ تُنشِد وتقول: « اللّيل بُوبى يالمُتْقال » ، فتقولُ النساء الأُخَر : « أَنا رَاسِى إِندار » .

ومنه قولهُنّ :

اللّيلْ بُوبى
دَارْفُورْ جَفَه[5]
أَنَا رَاسِى نَوَى[6]

(١) فى الأصل : بشى .

(٢) بوبى : ولى وانقضى Voyage, p. 232,429 .

(٣) المقصود بلفظ المتقال هنا : المحبوب الغالى Voyage, p. 429 .

(٤) أنا راسى اندار : أى ثقلت وغلب عليها النعاس والمعنى : لقد انقضى الليل يا حبيبى الغالى ، ورأسى ثقلت وغلب عليها النعاس ، فهلم الى ، لتنام معى Voyage, p. 429

(٥) أى أن دارفور ليس فيها من يودنى ويعطف على .

(٦) نوى : ثقلت وغلب عليها النعاس . Voyage, p. 232,429

ومنه قولهُنّ :

فُريعَ الحانيّـــةْ (١)
سَبَّبْتو الجانيّــةْ (٢)
وَيافُريعاَ الصَّنْـــدَلْ
فى بُـويتْنا قَامْ رَنْدَلْ (٣)

وأمّا غناء اللّنْقِي فمنه قولهُنّ (٢١٣) :

ياعيَـــالْ
جيبُـــوا المَـــالْ (٤)
نَهِيضْ دَلْدَنْـيجْ وَدْ بِنَيَّهْ (٥)
صَبُّوا دَرِيزَ الخيلْ فِي كَرْيـُو (٦)

---

(١) فريع : تصغير فرع . والحانية : العطف والحنان .

(٢) الجانية : الجناية ، ويقصد بها هنا : الحقد والغيرة .

(٣) رندل : لفظ فوراوى ، معناه يحنو . والمعنى : يا حبيبى ، يا من تحنـو على وتؤثرنى بعطفك دون بنات الحى ، فأثرت بذلك غيرتهن وحقدهن ، أقم على مودتك وحبك لنا ليبقى عبيرك بقاء عبير الصندل Voyage, p. 429,30

(٤) المعنى المقصود : أيهـا الشبان ، اجلبوا الرقيق وبيعوه لتحصلوا على المال الذى تقدمونه مهرا عند زواجكم . Voyage, p. 430

(٥) نهيض دلدنج : سارعوا وانضموا الى دلدنج .
دلدنج ودبنيه : هو دلدنج ابن الأميرة بنيه بنت السلطان . وقد طلب دلدنج هذا من السلطان محمد فضل أن يأذن له بالقيام باغارة ــ على ظهور الخيل ــ على قبائل الفرتيت جنوبى دارفور لجلب الرقيق ، مما يعود عليـه وعلى رفاقه بالثراء . وقد قيلت هذه الأغنية عقب عودته من حملة موفقة على قبائل الفرتيت . Voyage, p. 430

(٦) دريز الخيل : جلبتهـا . والمعنى : أن حملتهم التى عادوا منها على ظهور الخيل بالرقيق انتهت عند قرية كريو . Voyage, p. 430

نَهيض دَلدَنيخ وَد بِلنيّه

وأمّا غناء التّنْدِنْـحَا عند القُور فمنه قولُهُنّ :

بَاسِي طَاهِرِ دُقْلاَ[1] .

بِى لَبَا وَدُوينْـيح أَبَا[2]

كِتاب مُصْحَفْ لَنْـيح حَلْفِـينْ فِيَا[3]

تْرِيمْدُو كُبى رَيْـــــلاَ[4]

تَارْنْجَا مُـدُو صَقَل جُـوَا جَبِى[5]

ولو تتبّعنا غناءَ أنواعِ الرّقصِ لَطَالَ الحال .

فبعدَ أن يأكلُوا ويشربوا يزُفُّون العروسَ بالدّلُّوكة ، ويَلفُّون بها حولَ البَلد ، ويأتون بها للمحلّ الذى أُعِدَّ للدُّخول عليها فيه . ثم بعدَ العِشاء بكثير تجتمعُ الشّبانُ ، ويأخذُون العريسَ ويزُفُّونَه بالغناء والزّقْرقة ، حتى يأتون[6] به إلى المحلّ المعــــلوم ،

---

(١) باسى : أمير ؛ دقلا : اولاد .

(٢) بى : أنتم ؛ لبــا : أنفسكم ؛ و : هى واو العطف العربيــة ؛ دوينج : كم (ضمير متصل) . ابا : اب .

(٣) لنج : علامة اضافة ؛ حلفين : قسم ، يمين ؛ فيا : الذى أقسمتم .

(٤) تريمدو : انكشفتم ؛ كبى : بلدة كوبيـــه التى سبق التعريف بها ؛ ريلا : رفعتم ، أدخلتم .

(٥) تارنجا : أقدام ؛ مدو : خيانة ؛ صقل : شيخ ، ملك ؛ جوا : تجاوزتم ، تعديتم ؛ جبى : جدران ، حيطان .

ومعنى الأغنيــة : يا أولاد الأمير طاهر ، لقــد كنتم حلفتم أنتم وأبوكم على المصحف الا يخون بعضكم بعضا ، ولكنكم حنثتم فى اليمين وادخلتم الخيانة فى بلدة كوبيه ، لأنكم تجاوزتم حدود جدرانها Voyage, p. 233,234,431 .

(٦) كذا فى الأصل بالنون .

فيجلسونَ خارجَه . وحينئذ جميع الشابّات مجتمعةٌ[1] مع العَروس ، والشُّبان مجموعون عند العريس ، وقد (٢١٤) استوزَر العريسُ أعَزَّ إخوانه ، لأنه حينئذٍ كالسلطان ، [وسمَّوْه : الوزير][2] واستوزرتْ العروسُ امرأةً ، وسمَّوها : مِيرَم .

فبعد أن يجلسَ الرجالُ مع عَريسِهم يطلبونَ المِيرَم ، فلا تخرجُ لهم إلاّ بعد نحو ساعتين ، فيتقدّمُ لها الوزيرُ ويسلِّم عليها بلُطف ، [و] يلتمسُ منها حضورَ العَروس ، فتقولُ لهم : مَن أنتم ، ومن أين جئتُم ، وما هى العروسُ التى تريدون ؟ فيقول الوزيرُ : أمّا نحن فضيوف ، وقد جئنا من بلاد بعيدة ، ونريدُ المَلِكةَ تؤانس ضيوفها . فتقولُ له : أمّا الملكةُ فمشغولةٌ بشغلٍ عظيمٍ ، وها أنا وكيلتُها فى ضيافتكم وقَرَائِكم[3] وما يلزم لكم . فيقولُ الوزير : نحن نعلَم أنَّ فيكِ البركة والكفاية ، لكن لنا معها كلام لا يمكن إفشاؤه لغيرها . فتقولُ له : إذا كانَ كذلك ، فماذَا للملكة ، وماذا لِى ؟ لأنّ عادتَها ألاّ تبرُزَ من حِجابِها ، ولا تأتى لطُلاَّبِها إلاّ بجُعْل . فيقولُ : لها المالُ والأرواحُ وكلُّ ما طلبَتْه .

فلا يزالُ يحاوِلها وتحاوله حتى يتراضَيا ، وهذا كلُّه والعروسةُ قريبةٌ منهم وراء ستارة ، لكنّها لا تتكلم بشىء ، والعريس أيضاً ساكتٌ كذلك ، والمحاورة بين الاثنين .

فإذا وقعَ التراضِى رُفعَتْ السِّتارة فتخرُجُ العروسُ ، فيقولُ الوزير : أمّا الملكةُ فللملك ، وماذا لنا نحن ؟ فتنادِى المِيرَمُ للبناتِ[4] التى مع العروس ، فيحضُرنَ

---

(١) كذا .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .
(٣) القراء بالفتح والمد ، كالقرى بالكسر والقصر .
(٤) كذا .

وتقولُ لهُنّ : أيتُها البنات ، أريدُ منكنَّ فى هـذه الليلةِ أن تؤانسنَ (٢١٥) أضيافَ الملـكةِ . فيقلْنَ لها : حبًّا وكرامةً . [وحينئذ تتقدم المـيرَم](١) ـ وهى تعلمُ كلَّ صبيَّةٍ ومحبوبَها ـ فتقول : يا فُلانة ، كونى معَ فلان ، وأنتِ يافلانة ، كونى مع فلان ، وهكذا حتى لا يبقَى إلاّ التى لا محبوبَ لهـا ، أو الذى لا محبوبةَ له ، فيأخذُ كلُّ شابٍّ محبوبتَه ويبيتُ معها ، إن وسِعَهم المحلّ الذى هم فيه .

وصورةُ ذلك : أن يبيتَ العريسُ وعَروسُه ، والمـيرَمُ والوزير ، وكلُّ زوجين معا ، صفًّا أو صفَّين ، على حَسَبِ سَعة الموضع ؛ وإن لم يسعْ المحلُّ جميعَهم ، بَقِى مَن وَسِعَه(٢) المحلُّ مع العروسَيْن ، وذهَب الباقى . فـكلُّ شابٍّ منهم يأخذ محبوبتَه ويتوجَّه بها إلى بيتها ، أو إلى بيت بعض أحبابها ، ولا يذهَب بها إلى بيته ، لأنها لا ترَضى ذلك ، لأن عادتَهم أن الشّابَّ متى ما أحبَّ صبيَّةً ، وعلمتْ أمُّها بذلك ، لا تقابلُه أبداً ولا يقابلُهـا ، وإذا رأتْه فى طريق ، ولم ترَ لها مَخلَصاً منه برَكَتْ فى الأرضِ وسدَلتْ ثوبَها على رأسِها ووجْهِها حتى يمرَّ ، وهو كذلك يفعلُ . يعنِى : إن رآها وعَرفها ، يرجِـعُ على عقبِه هارباً إن أمـكنَه ذلك ، وإلاّ أدار وجهَه لنحوِ حائطٍ أو شجرةٍ حتى تمرّ . ثم يرسلُ لها السلام إن كان معه أحد ، وكذلك هى تفعلُ بعد مرورِه ؛ [و] إن لم يكُنْ معه أحد ، ترسلُ له السلامَ إن كان معها أحد . وهذا كلُّه عندَهم من نوع الحياء والتعظيم .

وعندَهم أهلُ الزّوجة محترمون ، فأمُّها (٢١٦) كأمِّه بل أشدُّ احتراماً ، وأبوها كأبيه بل أشدّ ، وإخوتها كإخوته ؛ وهى مثلُه فى ذلك ، إذا رأتْ أمَّه أو أباه فرّتْ وسلـكَتْ طريقاً غيرَ طريقهما ، وترسل السلامَ [إليه] أو يُرسلُ إليها ، ولا تواجِهُ أحداً منهما ، وتعتبرُ أباه

(١) زيادة يقتضيها السياق وهى عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 236

(٢) فى الأصل : وسعه ، بفتح السين .

كأبيها ، وهكذا مثل ما ذكرنا فى الرّجل . ولذلك تذهب مع محبوبها إلى محلّ آخر ، ولا ترضَى أن تذهَب معه إلى بيتِه ، بل إن ضاقَتْ الأماكنُ بكثرةِ النّاس ، وليس هناك دارٌ سوى دارِ أبيه ، لا تذهبُ معه إليها ، بل يذهبان إلى الخلاء ويبيتان فيه .

وأما دارُ أبيها ، من حيثُ أنّ لها محلاً مُعَدًّا لذلك ، يبيتُ معها فيه مَن أرادتْ ، ولا يراها أبواها ، فإن الرّجل يذهبُ معها إليه ويخرجُ عند الفجر ، وأبواها نائمان ، فلا يراه أحد منهما .

ولنرجعْ إلى ما نحن بصدَدِه فنقول :

ثم يبيتونَ تلك الليلةَ ، فإذا أصبح الصباحُ قامتْ كلُّ صبيّة وتوجهَتْ إلى بيتِ أبويْها ، فتُصْلِحُ شأنَها ، أعنى : أنها تغسِلُ وجهَها وأطرافَها ، بل ربّما اغتسلَتْ ، ثم تتطيّب وتكتحِلُ وتجدِّد زينتَها ، وكذلكَ العروسُ تدخُل عندَ أمها فتُصلحُ شأنهـا ، وكذا الرجالُ يذهبون إلى ديارهم إن كانت قريبةً ، فإن كانت بعيدةً كأنْ كانوا من بلدٍ أخرى ، يذهبُ كلٌّ منهم إلى دار صاحبٍ له ، فيُصْلِحُ شأنَه هناك . وكذلك النساء ، إن كانتْ (٢١٧) المرأة من بلدٍ أخرى ، تذهبُ إلى دار حبيبةٍ لها ، تصلِحُ شأنَها فيها ، لأن الشابّاتِ اللائى حضرنَ للعُرسِ ، معَ كلّ شابّةٍ منهن كُحلُها وعطرُها وما تحتاجُ إليه ، فتصلِحُ شأنَها ، ويجلسْنَ حتى يقرُبَ الضُّحى ، فتأتى المـيرَمُ إلى محلِّ الزّفافِ ، والعريسُ غائب عنه ـ أعنى : عند قيامِه لإصلاح شأنه هو الآخر ـ فتَقُمُّهُ[1] وتنظِّفُه وتفرُشُه وتُهيِّئ مجالسَه هي وبعضُ صواحِباتِها[2] ، فيأتى العَريسُ فيجدُه نظيفـاً ، فيجلسُ هو ووزيرُه ، وتنهَلُّ عليه الشُّبّان فيجلسُون معه .

---

(١) قم البيت كنسه « القاموس » .

(٢) فى الأصل : صواحبتها . والصيغة التى أثبتناها فى المتن ستَرِد فى الصفحة بعد التالية . وانظر صفحة ١٦٠ ، حاشية ١ .

ثمّ أصحابُ العُرسِ بالخيارِ ، إن شاءوا جعلوا السّبعة أيام[1] كلّها بالرّقصِ والدّلُوكّة ، وإنْ شاءوا اقتصَروا على يومٍ واحـد . فإن ظهرَ اقتصـارُهم جلسَ الضيوفُ إلى وقت الغذاء[2] ، وبعدَ تناوُلِهم الطعامَ رجعَ كلٌّ منهم إلى بلدِه ، ولم يبقَ إلاّ أهلُ البَلد الذى هم فيه . وإن لم يرَوْا الاقتصارَ ، وعلِموا أن أصحابَ العُرسِ يريدون أن يمتدَّ عُرسُهم إلى السَّبعة أيام[1] ، أقاموا . ويظهرُ ذلك بتجدُّد الذّبائحِ وعَصْرِ الخمورِ والتّهْيِيء .

تنبيـــه :

اعلم أنّ أهلَ كلِّ بلد من البلاد الذين دُعُوا إلى مثلِ هذه الوليمة ، يأتون إمّا ببقرَتيْنِ أو ثورَيْنِ أو ثورٍ أو بقرةٍ أو بِشياهٍ ، إعانةً لصاحبِ الوَليمة . وإن كان لهم أقارب خارجين[3] عن بلدتهم ودُعوا ، يأتون بأثوارٍ أو بقرٍ غيرِ ما تأتِى به أهلُ بلدتِهم (٢١٨) إعانةً ، ثم يمكثون نهارَهم كُلَّه فى لَعِب وضَحِك وانشراحٍ وأكلٍ وشربٍ وطيبِ محادثة إلى العصر ، فتضرب الطّبولُ التى هى الدّلُوكّات ، ويفعلُون مثلَ ما فعَلوا فى اليوم السّابق ، حتّى إلى الليل ، فيأتيهم الطعامُ والشراب ، وبعد فراغِهم من ذلك يجتمعون رجالاً ونساءً فى محلِّ الزِّفاف ، فيتحادثون حتى إلى نحو نصفِ الليلِ . ثم يأخذُ كل شابٍّ حبيبتَه ويبيتُ معَها حيثُ باتَا أمسَهُما ، ويبْقَون على ذلك المدةَ المذكورةَ .

وإذا أعْوَزَ الأمرُ إلى الذّبائح ، بأن كان ما أُعِدَّ للذبح لم يكْفِ مَن حضر ، خرج أبو العَروسِ أو أخوها أو أحدُ أقاربها إلى المَرعَى ، فكلٌّ ماوجده من البقر أمامَه ، عقَر منها ثوراً أو ثورَيْن أو بقرةً أو شياهاً . وبعدَ العَقرِ يرسِل الجزارين فيذبحون العقيرَ[4] ويأتونَ

---

(١) كـــذا .

(٢) كذا فى الأصل : بالذال .

(٣) كذا .

(٤) العقير : المعقور ، اى : المجروح .

بلحمِه إلى الضيوفِ وهكذا ، فإذا بلغ الخبرُ صاحبَ البقر فلا يخلو ، إمّا أن يطلبَ الثّمنَ فيُرْضُونَه ، أو يسكُتَ حتى يبقَى له عُرسٌ أو لأحدِ أقاربه ، فيعقِر هو الآخرُ ما يريدُ مِن بقَرِ مَنْ عقر بقَرَه ، ودَقَّةٌ بدَقَّةٍ .

ولذلك إذا عُمِلَ عُرسٌ تخـافُ أربابُ المواشى من العَقْر ، فيأمُرون رعاتَهم أن يُبعِدوا بها فى الخَلاء ، لأنهم لا يَعقِرُون إلاّ من الأموالِ القريبةِ المَرعَى . وهذه سُنَّةٌ جاريةٌ فيهم .

وفى تلك المدةِ [تـكون] العروسُ كالملـكةِ ، وصواحباتُها معها فى لَعبٍ وانشراح ؛ والعَريسُ كذلك .

ومن (٢١٩) عادتهم: أن العريسَ لا يفتضُّ عروسَه إلاّ بعدَ السبعةِ أيام[١]،مع أنهما يبيتانِ متعانقَيْنِ لا حائلَ بينهما ، ويجعلون ذلك كرامةً لها ولأبوَيْها ، لأنهم يقولون : الليلةُ الأولى فى كرامةِ أبيها ، والثانيةُ فى كرامةِ أمّها ، والثالثةُ فى كرامة أخيها — إن كان — أو أختِها ، وهكذا حتى تتمَّ السّبعةُ أيام . ومَن استعجلَ وفضَّ قبلَ تمام ذلك ، عُيِبَ[٢] عليه وقالوا : قد استعجل . ولـكنْ من المُحالِ أن يفْتَضَّها قبلَ ثلاثِ ليالٍ .

عجيبـة :

مِن عوائدِهم : أن المرأةَ لا تأكل أمام زوجِها ولا غـيرِه مِن الرجال . وإذا دخلَ زوجُها وهى تأكل قامتْ وفرّتْ ، وهذا عندَهم من أكملِ الحياء ، ويقبِّحونَ على المرأةِ التى تأكلُ أمام الرجل . وحينَ كنتُ هناكَ ، ورأيتُ ذلك قلتُ لهم : أتستَحِى مِن الأكل مع الرجُل ، ولا تستحِى من النّوم معه ،وأنه يدخُل بينَ شُعَبِها ، ويُولِجُ فيها ،

---

(١) كـــذا .

(٢) بهذا الضبط فى الأصل .

ويرى فرجها وما هى عليه ؟ قالوا : ذلك لا ضرر فيه ؛ وأمّا [أن] تفتحَ فاها ، وتدخلَ فيه الطعامَ أمامَ الرّجُلِ ، فهذا شىء قبيح . انتهى .

ومِن عادتهم : أنّ الرّجُلَ لا يأخذُ عروسَه ويبنى بها فى بيتِه ، بل فى بيتِ أمِّها وأبيها ، ولا تخرجُ معه حتى تَلِدَ ولدَيْن أو ثلاثة ، فإن طلبَها للنُّقْلَةِ معه قبل ذلك أبت عليه ، وربما وقع الطّلاق بينهما بسبب ذلك .

ومن عادتهم : أنها لا تذكُرُ اسمَه على لسانها أبداً ، بل دائمـاً (٢٢٠) تقول : قال لى كذا وكذا . فإذا سُئلَتْ : مَن الذى قال ؟ تقول : هو . حتى يولَدَ لهما فمتى وُلِدَ لهما قالت : أبو فلان ، أو : أبو فلانة . باسمِ مَن يولَد ، إن كان ذكراً أو أنثى .

ومن عادتهم : أن الرّجلَ لا يُنفقُ على المرأةِ بعد الزِّفاف إلاّ بعدَ سنةٍ ، فإن جاء بشىء قبل السَّنةِ ، جاء به على سبيلِ الهديَّة ، مع أنه لا يأكلُ إلا أعزَّ مما يأكلون . فيمكنُ أنهم طبخوا شيئاً قبيحاً لهم ، مِن المآكلِ الرديئة ، ويذبحون له دجاجاً أو حَماماً أو لحماً .

ومن عوائدهم : أن الرّجلَ مدّةَ ما هو فى بيتِ أبى زوجته ، يصنعونَ له طعاماً جميلاً جداً ، غيرَ العَشاء ، يتناولُه بالليل ، إما مرّةً أو مرتَيْن أو ثلاثَ [مرات] . ويسمُّونَ الأولَ بلغةِ الفُور : جُرِى جَرَانْـيح ، والثانى : تَارْنْجاً جِيسُو ، والثالث : صُبُحْ جَلُّو . ومرادُهم بذلكَ تَقْويتُه على الجِماع ؛ وأمّا اسمُه بلغتِهم العربية : وَرَّانِيَّة . وأكثر الأغنياء يأكلون بعد أكلهم العَشاء ، لأنهم ربما جاءهم ضيف ، فلم يتمكن من الشِّبَع لحيائه من الضيف ؛ أو كان العَشاء غيرَ جيد ، فلا بدَّ له من «وَرَّانِيَّة» . ومعنى قولهم : جُرِى جَرَانْـيحْ :

انزَعْ القيمصَ . فإنّ جُرى ، معناه : قميص ؛ وجَرَانـيح ، معناه : انزع . وتارْنجيا جيسُو ، معناه : مَسْكُ الرِّجْل . فإنّ تارْنجيا ، معناه : رِجْل ؛ وجِيسُو ، معناهُ : مَسْك . وصُبْحْ جَلُّو ، معناه : طلوعُ الفَجر .

وأمّا الوَرّانِيّة : فهى عربيّة منسوبةٌ لِوَرَاء ، ضدّ الأمام ، لأنه يأكلها وراءَ العَشاء ، أى : بعدَ ما(٢٢١) يأكلُ العشاء . ولهذا تجدُ بعضَ الناسِ ، إذا كان عندَه مَن يعِزُّ عليهِ من الإخوان ، وحضر العَشاء معه ، وأراد أن يقومَ ، يمنعُه حتى ينْفضّ المجلس ، ثم يدعو خادمَه ويقول : هل من شيء يؤكل ؟ فيأتيه الخادمُ بالورّانيّة ، فيأكلان معـا ، وهذا لا يُفعلُ إلا مع أعزِّ الأصدقاء . وهذه الوارّنيّةُ تنفعُ أحياناً للضيفِ المُفاجِىء ، بالليلِ الدّاجِى ؛ وهذا كلُّه إن كان عُرساً .

فإن كان خِتاناً فعلُوا ما ذكرناه من استحضارِ الأطعمـــة والمِزْرِ وأُم بُلْبُل والدِّينْزَايا[1] ، ودعَوْا الناسَ ، ورقصوا على الدَّلاَليك ، وزفُّوا المطاهر[2] ، وجاء المزيِّن فختنه وأبوه واقف . فإن بكى المطاهر نَفَـر[3] أهلُه منه ، وتركُوه ومضَوْا . وإن صبَر حالَ الخَتْنِ ولم يبْكِ ، قال أبوه : اشهدوا يأهلَ المجلسِ ، أنى أعطيتُ ولدِى بقرةً أو ثوراً أو عبداً أو أَمَةً ، مما يقدر عليه . وقالتْ أمُّه كذلك . وكلُّ مَن حضر من أهلِه يُهدى له شيئاً . فإن كان أهلُه أغنياء نالَهُ منهم شىء كثير ، فيصير غنيا . وذلك كلُّه بحسب غِنَاء أهلِه

---

(١) فى الأصل : الدنزايا بدال مفتوحة بعدها نون ، وقد وردت اللفظة فى ص ٢٣١ كما اثبتناها فى المتن وكما وردت فى الترجمة الفرنسية.

Voyage au Darfour, p. 244.

(٢) أى : المختون .

(٣) فى الأصل : ففر .

وفقرِهم . ثم يجتمعُ أترابُـه فى ثالثِ يومِ الطّهور[1] ، ويأخـذون السّفاريكَ ، ويَجُوسون خلالَ البلدِ يضربون الدَّجاج ، فيقتلون دَجاجاً كثيرا وفى رابع يومٍ إلى اليومِ السابع ، يذهبون إلى البلاد المجاورةِ لهم ، فلا يَرَوْنَ دجاجةً إلاّ قتلوها ، وكلَّ يومٍ يتوجَّهوا[2] لبلدٍ ، يقتلون دجاجها ، (٢٢٢) وأصحابُ الدّجاجِ لايَرَوْن بذلك بأساً .

وإن كان خِفاضاً فعـلُوا فيه كلَّ ما ذكرنا إلا الدَّجاج فلا يقتلُونه . والخِفاضُ لا يتغالَوْن فيه كالختان . ومما ذكرناه يَعلَمُ الواقفُ على رحلتِنا ، أنَّنـا استقصَيْنا جميعَ ذلكَ لتمامِ الفائدة ، وحسنِ العائدة .

واعلَمْ أن أهلَ دارفُور لا يستقلُّون بشىء فى أمورِهم بدونِ النساء ، بل إنهنَّ تُشاركُهُمْ[3] فى جميع أحوالهم ، إلافى الحروبِ العظيمة . ولذلك [فـ]إنّ عُرساً لايتمُّ إلا بهنَّ ، أو حُزناً كذلك . ولولا هُنَّ ما استقـــام لأهلِ دارفور شىء ، فترى النساءَ يحضُرن فى الأمور المهمة .

ومن ذلك : الأذكار ، وهى على ضَربينِ : ضربٌ يفعلُه أهلُ البلاد المستعرِبون ، أعنى : مَن ليسُوا بعجَمٍ ، وضربٌ يفعلُه أعجامُ الفورِ .

فأمّا الأوّل ، فهو ما كان على طريقةِ شيخٍ من الصّوفيَّة ، أو وَلِيٍّ من الأولياء . وعَلَى كلٍّ فتحضرُ حَلْقةَ الذِّكْرِ امرأةٌ تُنشِدُ لهم ، والنِّساء خلفَهاوقوفٌ لايتكلَّمْنَ ، بل ينظُرْنَ أزواجَهُنّ وأقاربَهُنّ ، ليعلَمْنَ أيُّهم أحسنُ ذِكراً . وقد يُنشِد رَجُلٌ ، والنســاء يسمعْنَ ، كبقيَّةِ الرِّجال .

---

(١) الطهور : الختان .

(٢) كذا .

(٣) كـــذا .

ومن ذلك ما وقع أن تلميذَ الشيخِ دَفْعَ الله ، حضر حَلْقَةَ ذِكرٍ تلاميذ الشيخ يعقوب ، وبينَ تلاميذِ الشَّيْخيْنِ معاندَةٌ ، فلمـا حَمِيَ الذِّكْرُ ، أراد أحدُ تلاميذِ الشيخ يعقوب أن ينكِّتَ على تلميذِ الشيخ دفع (٢٢٣) الله ، فقال :

اَلْمَا عِنْدُو شَيخـاً فَرَاجَابَا[١]

لاَ يَدْخُـــلْ دَرَقَة وَنَشَّابَا[٢]

اَلْمَا عِنْـــدُو شَيخْ مَهْيُوبُ

لاَ يَدْخُلْ حَلَقَـــةْ يَعْقُوبْ[٣]

فسمع تلميذُ الشيخِ دفع الله ، وعلِم أنّه عناهُ بذلك ، فقال :

نَدْخُلْ وينْمُرُقْ [٤] مَتَعَـافِى

بِالنِّيَّة وَالْعَمَلْ أَلْصَـــافِى[٥]

دَفْـع أَللّهْ فَـوقِ طَوّافِ[٦]

نادرة :

حضرتْ امرأةٌ فى حَلْقةِ ذِكْرٍ ، وأنشدتْ :

نُصَفِّى لَـكُمْ مَرِيسَـــة دُوَانِى

---

(١) الما عندو : الذى ليس عنده ، فراجابا : مبارك يحمى أتباعه .

(٢) لا يدخل درقه ونشابا : لا يعرض نفسه للمخاطر .

(٣) المعنى : من لم يكن تابعا لشيخ مبارك مهيب يستطيع حماية أتباعه فلا يعرض نفسه للأخطار بالدخول فى حلقة شيخنا يعقوب Voyage, p. 247,434 .

(٤) نمرق : نخرج .

(٥) بهذا الضبط فى الأصل .

(٦) المعنى : نحن ندخل حلقة ذكر الشيخ يعقوب ونخرج منهـا سالمين . وذلك بفضل سلامة نيتنا وأعمالنا الصالحة وبفضل رعاية شيخنا دفع الله .

Cf. Voyage au Darfour, p. 247,435.

وَأَنَا عَـــزَبًا بَـيْتِي طَرْفَانِي

يَا فُقَرَا مَا فِيـــكُمْ زَانِي

فسمعها الذاكرون ، وكان فيهم شابٌّ فهِمَ المعنى ، وكان يقولُ : اللهْ حَيْ . فصـــار يقول : أنا زانى ، أنا زانى[1] .

وأما أعجام الفور فيقفُون فى الذِّكْر صَفَّينِ أو حَلْقة ، وكلُّ رجلٍ منهم خلفَـه صبيَّـة ، والنساء يُنْشِدْنَ ، وهم يَذْكُرونَ ، وذِكْرُهم كَرِير ؛ فمن إنشادِهِنّ قولُهُنّ : (٢٢٤)

كُرُو كِـرّو يـى عَالِمـاَ نِمَا

صِـــخْ لَنْـيح كُويـى جَنَّه

صِخْ لَنْـيخ كُويـى

ومعنى ذلك :

كُرُو ، معناها : شجرة ؛ وكِـــرّو ، معناها : خضراء ؛ وعالِمـاَ نِمَا ، معناه : ظِلُّ العلماء .

و صِخْ لَنْـيح كُويـى [جَنَّة] ، صِخْ لَنـيح كُويـى . معناه : صحيح نمشى إلى الجنـــة . صحيح نمشى إلى الجنة[2] .

ومعناه :

إن الشجرة الخضراء ظلُّ العلمـــاء ،

---

(١) يتضح من هـــذه العبارة أن التونسى كان يهبط أحيانا الى مستوى لا قيمة له فى أخبار رحلته العظيمة . ولا يستطيع المحققان أن يجدا تفسيرا لاهتمامه بهـــذا النوع من النوادر وأمثاله . ومع هذا فان الألفاظ الواردة فى هذه النادرة لم تكن تستغرب من خليع يندس بين الناس أو من خليعة .

(٢) المعنى فى الترجمة الفرنسية هل صحيح نمشى الى الجنة ؟ نعم صحيح نمشى .
Voyage p. 248

ونحن ندخل الجنة حقا ،
ندخل الجنـــة حقا .
ومنه قولهنّ :

جَبرَائيلِـيهْ[1] ميكائيلِـيهْ
كُلُّ سِبَا مُلْـكَا الجَنَّهْ

ومعناه :
جبرائيل وميكائيل ،
كلُّ حسَنةٍ يَملِكُ بها الإنسانُ[2] الجنّة .
ومن قولهنّ :

لِلّهِ قُـويَا[3] لِلّهِ
شَهرْ رَمَضَانْ أللهْ أنـْـــدَوَا[4]
كَالْفَارِنْبِيـــهْ

ومعناه :
لِلّهِ ، يا إماءُ[5] الله ،
شَهْرُ رمضانَ دواءُ الله ،
فافرحوا به .

ومثلُ هذا كثير ، لو تتبَّعْناهُ لخرجْنا إلى الإسهاب ، وجلبْنا المَلَلَ لِأُولي الألباب . وفيما ذَكَرْناهُ كفاية . لكنْ مِنْ حيثُ أننا تكلّمنا في التّزويج ، وما (٢٢٥) يتعلّق بِه ، عَنَّ لنا أنّنا نذكرُ نُبذَةً في حُجَّاب النساء ، وهم المسمّون في مصر بالطَّواشيَّة ، وبأغَواتِ الحريم ؛ وبالتركية : قِزْلَر أغَالَر ، لأنهم أمناء على الحريم ، ونقول :

---

(١) في الأصل : جيراييله .
(٢) في الأصل : للانسان .
(٣) قويا : بنات ، اماء .
(٤) اندوا : أن : علامة اضافة ، دوا : دواء .
(٥) كذا بضم الهمزة .

الفصل الثاني [1]

في الخصيان المعروفين في مصر بالطواشية

لما كان الحقُّ سبحانه وتعالى غيورًا على عبادِه ومحارِمِه ، منتقماً ممّن تعدّى حدودَه بارتكابِ مآثِمِه ، وكانتْ الغَيْرةُ وصفاً من أوصافِه ، ولذا حرّمَ الظُّلمَ على نفسِه وخلافِه ، جعلَ الغَيْرةَ مركوزةً في طباعِ بني آدَم ، من زمنٍ سَلَفَ وتقادَم . وأوّلُ من غار قابيلُ على أختِه إقليما ، لمّا أمرَ آدم أنْ يزوِّجها من هابيل ويزوِّجَهُ من أختِه ذَميا . فكان مِنَ الغَيْرةِ مِن أمرِها ما كان ، وقَتلَ قابيلُ أخاه كما وردَ بنصِّ القرآن . بل قد تُوجَد الغَيْرَةُ في غيرِ بني آدمَ من الحيوانات ، فيَغِير[2] الحيوانُ على أنثاهُ وتحصُلُ المعاركات ، سيّما والنِّساء أكثرُ شَبَقًا وغُلمَة ، ولا مُروءَةَ تمنعُهُنَّ ولاَ هِمَّة . وكان بعضُ الناسِ بلَغَ في الغَيْرةِ أعلاها ، وارتقَى إلى منتهاها ، حتى إنَّ بعضَهم لا يرَوْن النساءَ إلا كالإماء ، ومنهم مَنْ هو كثيرُ الغَيْرةِ ، حتّى مِن الإخوانِ والأبناء . بل منهم مَنْ بالغَ في الغَيْرةِ ، فصارَ يَغارُ عليهِنَّ من اللّيلِ والنّهار ، ومنهم من يَغارُ من عُيونِ

---

(١) في الأصل : فصل .

(٢) المضارع من غار ، في الفصحى : يغار ، وفي العامية : يغير كما استعمله المؤلف هنا ، الى جانب استعماله للصيغة الفصحى بعد عدة اسطر حيث يقول : « فصار يغار عليهن » ، ولعله اراد التفرقة في اللفظ بين غيرة الانسان وغيرة الحيوان فاستعمل للانسان صيغة : يغار ، وللحيوان صيغة : يغير .

النرجسِ أنْ تراه ، كما قال الشاعر ، (٢٢٦) من الكامل :

غُضّى جُفونَكِ يا عُيونَ النَّرجسِ مِنْكِ استحيتُ بِأنْ أُقبِّلَ مُؤْنِسي

نامَ الحبيبُ تذَبَّلَتْ وجَناتُهُ وعيونُكُنَّ شَواخِصٌ لم تَنْعَسِ

وبالغَ بعْضُهم حتى إنَّه غار على المحبوب ، من نفسِه ومن المحبوب ، ومِن الزمانِ والمكان ، كما قال الشاعرُ ، من الوافر[1] :

أغارُ عليكِ من عيني ومنّي ومنكِ ومن مكانكِ والزّمانِ

ولو أنّى وضعتُكِ فى جفونى إلى يومِ القيامةِ ما كفانِى

ومثله قوله ، من الوافر[2] :

فلَوْ أمْسَى على تَلَفِى مُصِرًّا لقُلتُ : مُعذِّبى ، بالله زِدْنى

ولا تَسْمَحْ بوصْلِكَ لِى ، فإنِّى أغارُ عليْكَ منكَ ، فكَيْفَ مِنّى

وارتقى بعضُهم إلى أعلى المبالغةِ ، فغارَ من الضّميرِ حيثُ قال ، من الطويل :

أغارُ عليهِ مِن ضميرى فيالَهُ هَوًى رابَنِى حتَّى اتَّهَمتُ جوارحِى

فتحيَّلَ الناسُ فى حِراسةِ الحريم ، لِمَا عندَهم من داءِ الغَيرةِ المُقْعِدِ المقيم . فما رأَوْا أحسنَ من حراسَةِ إنسانٍ يكون مقطوعَ أعضاءِ التّناسُل ، وهو الذى تطمئنُّ إليه النُّفوسُ فى العَاجِل والآجِل .

وأكثرُ الناسِ احتياجاً لذلك الملوكُ والأمراء ، لأنَّ كلّ واحدٍ منهم يجْمَعُ ما قَدِرَ عليهِ مِن النِّساءِ بلا مِرَاء . ولمّا كانتْ ملوكُ السُّودان أكثرَ الناسِ للنساء جمعاً ،

---

(١) فى هامش الأصل : الهزج .
(٢) فى هامش الأصل : الهزج .

وأبذلَهم فى ذلكَ وُسْعاً ، كانَ يوجد عند الملكِ من الخصيانِ (٢٢٧) عددٌ كثير، وجَمٌّ غفير، فيوجَدُ عندَ سلطانِ دارِ الفورِ نحوُ الألفِ أو أكثر ، وعليهم مَلِكٌ منهم ، وهُم له كالعساكر . وهو الذى يرتِّبُ فى بيتِ السُّلطانِ ما يلزمُ منهم للحراسَة ، ويُبقِى عندَهُ ما زادَ إلى وقتِ الحاجة .

والخصيانُ مُكْرَمون عند الأكابر ، خصوصاً فى دارِ الفور ، فإنَّ لهم فيها سطوةً وأىَّ سَطوَة ، والكلمةَ النافذة والقُوَّة ؛ و [لهم] مَقامٌ ومَقال ، وحالٌ لا يُماثِلُه حال ، حتى إنَّ لَهم هناكَ منصبَيْن جليلَيْن ، لا يتولّاهُما غيرُ خَصِىّ : أحدُهما منصِبُ الأبوَّة[1] ، والثانى منصبُ الباب ، وأقول :

إنَّ منصبَ البابِ غيرُ مختصٍّ بدار الفُور ، بلْ فى تُونُسَ ، وفى قُسطنطينيَّةَ كذلك .

وأصلُ الخصيانِ الذين فى دارفور ، من بلدِ رُونْجَه ، يَخْصُونَهم هناك ، ويأتُون بهم إلى دارفور على سبيلِ الهَدِيَّة ، لكنَّهم كثيرون جدا ؛ ومنهم مَن يُخْصَى فى دارفور .

ولقد رأيتُ ، حينَ كنتُ هناكَ ، غلامًا حسنَ الوجهِ ، جميلَ الصُّورة ، فى نحوِ الثَّمانية عشرَ ، خُصِىَ فى دارفور . وسببُه أنه كان من خَــدَم السُّلطان محمد فَضل ، وأحبّ غلمانه الذين رُبُّوا فى البيت ، وكان له سَعْدٌ قائم ، تحبُّه النِّساء ، لقضاء أوطارِهِنَّ غير الخناء[2] . وكان اسمُه : سُليمان تِير ، فحسدَه أقرانُه ، ونَمُّوا عليه عندَ السلطان ، فغضبَ عليه وأراد قتلَه ، فأشار عليهِ بعضُ وزرائِه بخَصْيه ، وقال له : من حيثُ أنَّ الأمرَ (٢٢٨) كذلك ، اقطع ما يؤذيك به ولا تقتله . فخصاه وعاش واجتمعتُ

---

(١) أى : منصب الأب الشيخ وقد سبق شرحه فى ص ٦٤ .
(٢) كذا بالمد فى الأصل مراعاة للسجع والخنا ، بالقصر : الفحش .

عليه ، وكان ذا منصبٍ جميل وأُبَّهةٍ حَسَنة ، إلا أن السلطانَ كان لا يألَفُه [لعدم] صلاحه[1] ، ولِما قيلَ فيه .

ولقد سمعتُ من ثِقاتٍ أنه أحبَل امرأة [من جوارى السلطان][2] وظهر حملُها ، فسئلتْ فقالت : مِن سليمان تِير ، فغضبَ عليه السلطانُ ، وخَصاه وبعد أن بَرِئَ أعطاه المرأةَ وولَدَها . وقد ذكرنا سابقاً أن [الأب] الشيخ محمد كُرّا كان اتُّهِم بما اتُّهِم به سليمان تِير ، فخَصَى نفسَه بيدِه دفعًا للرِّيَب[3] ، فحُظِى[4] عند السلطانِ وصارَ ما صارَ من أمرِه .

نُكْتة :

مما وقع من عُتُوِّهم وتجبُّرِهم ، أنْ اجتمعَ بعضُ أمراء الفُور فى محلٍّ انشراح ونزهةٍ وانبساط ، وكان فيهم خَصِىٌّ ، فجعلُوا يأكلونَ ويشربون ، والخصِىُّ كواحدٍ منهم . فاتفق أنَّ واحداً من هؤلاء الأمراء [كان] معه مِنديلٌ من حرير ، فأبرزَهُ فى المجلسِ وقال : هل تعلَمونَ لماذا يصلُح هذا المِنديل ؟ فقال أحدهم : هو يصلُحُ لمسحِ العرَق . وقالَ الآخر : هو يصلُح للتَّجمُّلِ والزِّينةِ . وقال آخر : هو يصلُح لأنْ يُجعل على صدرِ أنثى جميلةٍ . وطَفِقَ كلٌّ واحدٍ يقولُ ما بدَا له ، وصاحبُ المنديلِ يقولُ : لا . ولما أعياهُم أمرُه قيل له : قل لنا أنت ، لماذا يصلح ؟ فقال : هذا يصلُحُ للمسحِ بعدَ الجماع . فاستحسنوا قولَه وسكتُوا . فما راعَهُم إلاّ أنْ قام الخصِىُّ مِن بينهم صالتاً[5] (٢٢٩) سيفَه ، يرومُ قتلَ صاحبِ المنديل ، وقال

(١) فى الأصل : اصلاحه .
(٢) الزيادة عن الترجمة الفرنسيه . Voyage au Darfour, p. 254.
(٣) انظر ص ٦٢ حاشية ١ وكذلك ص ٨٠ .
(٤) بهذا الضبط فى الأصل .
(٥) كذا ، بدل : مصلتا .

له : أتعرِّضُ بي أني مقطوع ؟ لابدَّ من قتالك . فقاموا إليه وتلطَّفوا به ، وهو لا يرجع عن قوله ، حتى أرضَوْه بخيولهم كلِّها . وكان الخصيّ للخليفة [إسحق] بن السُّلطان تيراب اللّذَيْن أسلفنا ذِكرَهما .

ومن عُتوِّهم أنَّ [الأب] الشيخَ محمد أورْدِكَّا(1) كان في أيّام السُّلطان تيراب في منصب الأُبُوَّة ، ومن عادةِ الأب [الشيخ] أن يتوجَّه لبلاده ومحلِّ حكمه في كل سنة في فصل الربيع ، ويجمعَ أهلَ البلادِ في يومٍ واحدٍ ، ويعرِضَ الرِّجالَ ، ويَرى العساكر . فاتّفق أنه جمعَهم في يومٍ شديدِ الحرِّ في رَحْبةٍ واسعةٍ أمام داره ، ولم يخرُجْ لهم حتَّى فاتتْ القائلة ، فخرج في أُبَّهَتِه راكباً جوادَه ، والعبيدُ يظلِّلونه من حرِّ الشمس ، ويجلِبُون له الهَواءَ بالمراوح ، وخرجَ العسكرُ ، وصَفُّوا النـاسَ صفوفاً كدائرة ، وهو واقفٌ ينظرُهم ، وقد اشتدَّ الحرُّ وأمَر الناسَ بالجُثِيِّ على رُكَبِهمْ ، وسلاحُهم ودرَقُهم في أيديهم . فكان الإنسان منهم لا يستطيعُ الجُثِيَّ لشدّةِ حرِّ الرَّمضاء ، وسال العرقُ ، وكثُر القلَق ، ومكثَ مَليًّا لا يأمرُ بأمرٍ ، ولا ينهَى عن شيء . وعطِش الناسُ ، وأخذ منهم حرُّ الشمسِ أكبرَ مأخذ ، وهم صابرونَ على ما قَضاهُ الله عليهم ، حتى ماتَ بعضُهم من العطَش . ولما رأى قلَقَ العالَمِ وتحيُّرَهم ، أعجبَه ذلك وضحِكَ ، وقال بلسانِ الفُور : (٢٣٠) نَتُو نَتُو نَتُو «يوماعَبُوساً قَمْطَرِيراً» . وكرَّرهامرَّتينِ أو ثلاثا ، وكان العالَمُ المجتمعُ في تلك الجَلْدِنْـيَحا ، أي : العرَض ، ما ينوفُ عن زُهاء عشرينَ ألفا ، وكان فيهم

---

(1) أوردكا : لقب فوراوى مركب من كلمتين : « أور » بمعنى : شاب ، و «دكا» بمعنى : أسود. Voyage au Darfour, p. 254, Note 1.

رجل صالح يقال له : الشيخ حسن الكَو[1] . فبرز وقال بأعلى صوته : اسكتْ يا كافر . ثلاثاً . فأخذه الرُّعْبُ من الشيخ المذكور وولّى هارباً . ورفع الشيخ يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ ارحم عبادَك . فما تمّ كلامه حتى ارتفع السحابُ مثلَ الجبال ، ونزل المطرُ وتفرّق النّاس ، وكان يومــــاً مشهوراً . وسَبَبُ[2] غضبِ الشيخ أنه[3] مَثَّلَ نفسه بالإلٰه ، ومَثَّلَ عَرْضَ الناسِ عليه بعرضِهم للحساب ، ومَثَّلَ شدّةَ حرِّ الشمس بشدّةِ حرِّ يومِ القيامة . ولذلك استشهد بقوله : نَتُو ، بالآية الكريمةِ . و «نَ» بمعنى : هـذا ، و « تُو » بمعنى : يوم . والباقى هو[4] نصُّ الآيةِ الكريمة[5] .

نادرة :

حُكِى أن [الأب] الشيخ محمد أُورْدِكاً المذكور كان قليلَ العقل ، ومن قلّةِ عقلِه أنه لمــــا تَوَلّى فى منصبِ الأُبُوّةِ ، أَمَره السلطانُ تيراب أن يقرأ ، ليتعلّمَ القراءةَ والكتابة ، فأحضر فقيهاً يعلّمه ، فكتب له حروفَ الهجاء ، وصار يقرأ عليه فى كلِّ يوم ، واستمرّ على ذلك مدةَ أيام . ثم إنه ذاتَ يومٍ طلبَ المصحفَ فجِيءَ به له ، فتصفّحه ونظرَ فى السطور ، فرأى واواً مفردةً فعرَفها وقال للفقيه : إِنْمَا نَـيح وَاوٍ ؟ يعنى : أليس هذه واو[6]؟ فقال الفقيه : نعم . فقال : قد (٢٣١) ختمتُ القرآن . وأَمَر بذبحِ الذّبائحِ ، وضربِ الطُّبول ، وصنعَ وليمةً عظيمة . فعُدّتْ هذه من طيشِه ، وخفّةِ عقله .

ولنرجعْ إلى ما كنا بصدَدِه فنقول :

---

(١) كو : لفظة فوراوية ، معناها : صارم ، شديد .
(٢) فى الأصل : وبسبب .
(٣) أى : الأب الشيخ محمد أوردكا .
(٤) فى الأصل : هى .
(٥) يقصد الآية القرآنية : « انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » سورة الانسان ، آية ١٠ .
(٦) كـذا .

ومع كثرةِ الخِصيانِ فى دار السُّلطان لم يَسْلَمْ من الدَّنَس ، لأنَّ النساء شياطينُ لا يغلِبهُنَّ غالب ، سيَّما وقد قامَ عُذرُهُن بداعِي كثرتِهِنَّ فى بيتِ السلطانِ ، وهنَّ فى سنِّ الشبابِ والراحةِ ، وحُسْنِ المأكلِ والملْبسِ ، فللشَّهوَةِ فيهِنَّ نصيبٌ أوفر . ولَمَّا سُجِنَّ فى هذا السِّجنِ ، تحيَّلنَ على دخولِ الرجالِ بكلِّ حيلة .

فمنهُنَّ مَن تصاحبُ من الرجالِ من الخَدَمة الذين بالباب . ومنهنَّ مَن لهـا عجائزُ يأتينَها بالرجالِ بحيلة : وهى أن العجوز تتأمّل فى الفتيانِ ، حتى ترَى الشابَّ الجميلَ الذى لا نباتَ بعَرَضَيْه[1] فتتحيَّلُ عليه بلطفٍ حتى تأخذَه إلى دارها — ومن المعلومِ أن شبّانَ السودانِ لا يحلِقون رؤوسَهم ، بل يوفِّرونَها فتصيرُ الوَفْرةُ لهم كشعرِ النساء — وتجعلُ وفرتَه ظفائر كظفائرِ[2] النساء ، وتُلبِسُه حُليّا كحليِّهِنَّ من عقودٍ وتمائمَ ومدارعَ ومَنجور ، وتُلبِسُه دُرَّاعةً وفَرْدَةً وثوبًا بحيثُ لا يشكُّ رائيه أنه امرأة ، وتُدخِلُه دار السلطانِ بينَ نساء ، فمتى ولَجَ ذهب خوفُها ، وسلَّمَته لمنْ أدخلَته برسمِها ، (٢٣٢) فيمكثُ ما شاء الله أن يمكثَ ، فإن سترَ الله عليه خرج كما دخل ، وإن عُثِر عليه قُتل . ولا يُعثَر عليهِ إلا بأسباب .

منها : أن تعلم أمرَه إحدى ضرائرِها ، فتطلبه منها فتأبَى هى بُخلاً به ، أو لا يرضَى هو أن يذهبَ . فحينئذٍ يحملُها الغيظُ على أن تفْتِنَ عليه[3] ، فيُعْثَر عليه .

ومنها : أنّ السلطانَ يأمرُ بالتفتيشِ ، فيحضِرُ الطواشيَّـةَ كلَّهم ، ويفتّشُ معهم البيوت ، ومن وجدوه قتلُوه .

---

(١) كذا فى الأصل .
(٢) كذا فى الأصل .
(٣) تعبير دارج ، معناه : تشى به .

ومنها : أنه يَزْهَقُ من طولِ المُكثِ ، فيخرُجُ وحــدَه ، فيَمُرُّ عليه البوّابون وهو خارجٌ فيقتلونه ، وإن ستر الله عليه خرجَ . وأغلبُ من يدخلُ بالصفةِ التى ذكرناها ، لا يخرُج إلاّ بالليلِ ، أو مع نساء كثيرة ، وهو فى وَسطهن .

ومن العجائزِ مَن يتحيَّلن[1] فى خروج النساء من بيتِ السلطان ، بأن يُنكِّرْنَ المرأةَ منهنَّ بثيابِ مِهْنةٍ قَذِرة ، ويُخرجنَها أمامَ الناسِ جِهاراً ، فإذا عَثُرَ بها البوابُ أو أحدُ الخصيانِ قيل له : هذه امرأةٌ مسكينة ، كانت دخلتْ معنا تلتمسُ معروفا .

ومنهنَّ من يُدلِّسُ عليها الخِصيانُ ، وذلك لا يكونُ إلاّ إذا عِلمَ الخصِىُّ أنه إن عَرضَ انفتحَ له مَهْوًى فقُتِل فيـه . فحينئذ يسكتُ قهراً عنه ، وتدخلُ المرأةُ وتخرجُ ، وتُدخِلُ مَن شاءتْ ولم تخشَ بأساً .

ومن ذلك ما وقَع من بعضِ محاظِى السُّلطانِ صَابُون مع تُرْكُنَك محمّد (٢٢٣) ابنِ عمِّها ، وسنذكُر ذلكَ فى سيرةِ السلطانِ صابون ، سلطانِ دار الوَادَى ، إن شاء الله تعالى[2] .

واعلمْ أن نساء السودانِ كثيراتُ الشَّبَقِ والغُلْمةِ أكثرَ من غيرهِنّ لأمورٍ :

الأوّل : لفرطِ حرارةِ الإقليم .

الثانى : لكثرةِ مخالطتهنّ للرِّجال :

الثالث : لعدمِ صَوْنِهِنّ واستقرارِهنّ فى البيوت ، فمنْ ذلك ترَى المرأةَ منهنّ لا تقنَعُ بزوجٍ ولا بخليلٍ واحدٍ ، على حدِّ قولِ الشاعرِ ، من الهزج :

---

(١) فى الأصل : يتحيل .

(٢) وردت هذه السيرة فى كتاب آخر للتونسى هو : « رحلة الى واداى » والمعروف أن الأصل العربى لهذه الرحلة مفقود ، ولم تبق سوى ترجمتها الفرنسية . المعروفة باسم: Voyage au Ouaday

أيامَن ليس يُرضيها خليلٌ ولا ألفا خليلٍ كلَّ عامِ
أراكِ بقيةً من قوم موسى فهُم لا يَصبِرون على طعامِ

الرابعُ : لعدمِ اقتصارِ أزواجهن عليهنّ ، لأنَّ الرجلَ منهم إن كان ذا قُدرةٍ نكَح من الحرائر أربعاً ، وتسرَّى بغيرهِنَّ من السرارى ، وكلُّ ذلك على قدرِ حاله ، والنساء شقائقُ الرجال ، والنفسُ واحدةٌ فى الشهوةِ والطبع ، خصوصاً وعندهُنَّ من الغَيْرةِ مالامزيدَ عليه ، فيتحيَّلن على الاجتماع بغيرِ زوجهنَّ ، وتأخذُ[1] كل منهنَّ فى ضروبٍ من الحِيَل تتوصَّلُ بذلك إلى مرغوبها ؛ وإن كان لا يقدرُ على التَّسرِّى ، طمَح نظرُه إلى غير امرأته ، فمتى علمتْ امرأتُه بذلك ، حداها حادِى الغَيْرةِ على الاجتماع بغيرِه .

الخامس : العادةُ ، لأنهنَّ مِن صِغَرهن قد تعوَّدنَ الاجتماعَ مع أترابِهنَّ من الذكور حتى كبِرنَ على ذلك ، والعادةُ إذا استحكمتْ (٢٣٤) صارتْ طبعاً ، فلذلكَ إذا تزوَّجَتْ ، لايمكنُها الاقتصارُ على زوجٍ واحد ، إلا مَن رحمَ الله . ومِن حيثُ أنّ هذا الطبعَ مركوزٌ فيهنَّ ، يصدرُ منهنَّ مايَصدُر ، فلذلك لا يُرَى منهنَّ مَن اقتصرتْ على بعلها إلاّ القليل . وكلَّما تقادمَ الزَّمن ، كلَّما[2] كثُرَ الفسادُ عندهم .

نادِرة :

ومن المجرَّبِ فى دارفور ، أن النَّار إذا اشتعلَتْ فى دارٍ[3] واشتد وَقْدُها ، وعجزوا عنه ، نادَوْا : هل مِن طاهرة ؟ فتأتى امرأةٌ عجوز لم تزنِ[4] قطُّ ، فتُخرِجُ

(١) فى الأصل : وياخذ .
(٢) كذا فى الأصل بتكرار لفظ « كلما » ، وهو من تأثير العامية فى الفصحى ؛ والصواب حذف « كلما » الثانية .
(٣) فى الأصل : دور .
(٤) فى الأصل : لم تزن ، بفتح النون .

كنفوسَها ، وتُشيرُ به للنّارِ فتُطفأ[1] بإرادةِ اللهِ تعالى . وهذه من مُجرَّباتِهم .

وحينَ كنتُ هناكَ وقعَ حريقٌ فى بيتِ جَدَّةِ السلطانِ واشتدَّ ، وحضر السلطانُ بنفسِه ، وأربابُ دولتِه ، فما أمنكَهم إطفاؤُه . ونادَى منادِى السلطان : هل مِن طاهِرة ؟ وتكرَّر النداء فى البلدِ ، فما قدرتْ امرأةٌ تأتى لذلك الحريقِ . ومن هُنا يُعلَم أنه لايوجَدُ الآنَ فيهنَّ طاهِرة . لكنْ سمعتُ بأن ذلك قد يوجَدُ فى نساء أعرابِ بادِيَتِهم ، وأمّا نساء السودانِ[2] ، فقلَّ أن يوجَد فيهنَّ طاهرةٌ ، لأنَّ المرأةَ منهم — حيثُ لاعقلَ يردَعُها ، ولا خوفَ يزجُرُها ، ولا دِينَ تُراعِيه — تفعلُ ما أرادتْ ، بل قد تفتخِرُ بكثرةِ الأصحابِ ، وتقول : لو كنتُ قبيحةً ما جاءنى أحد ، ولولا أنّى من الحسنِ بمكانٍ ما ألِفَنِي الرجال ، وارتكبوا مِن شانِي[3] الأهوال .

ومن العجَب أنَّ فى بلادِ العربِ[4] ، إذا أسنَّتْ المرأة ، وكان لها ولدٌ جليلٌ ذو (٢٣٥) شهرة ، يمنعُها ذلك عن ارتكابِ الزِّنا ، وعن التطلُّعِ للرِّجال ، إمَّا لعلمِها بعدَمِ الرَّغبةِ فيها ، إن كانتْ مُسنَّة ، أو لخوفِها علَى مقامِ ولدِها وجلالةِ قدرِه ، إلَّا نساء السودان .

فقد حَكَى لى مَن هو أعزُّ أصحابِي — وصونًا لصحبته لا أذكرُ اسمَهُ — أن خالَ السلطانِ محمد فضل ، المسمَّى : محمد تَيْتَل ، زوّجَتْه أختُه ، وهى أمْبُوس أمُّ السلطان ، وعمرُها بنحو[5] خمسٍ وثلاثينَ سنةً ، بامرأةٍ من بيتِها ، وصنعَتْ له

(١) فى الأصل : فتطفى .
(٢) المقصود بالسودان هنا أهل دارفور الأصليون الذين لم يختلطوا بالعرب الوافدين عليهم . ولم يكونوا قد تأثروا بهم بعد .
(٣) تعبير عامى .
(٤) يقصد ببلاد العرب هنا البلاد السودانية التى تسكنها القبائل العربية .
(٥) كذا فى الأصل .

مَهْرَجانًا[1] عظيماً ، هُرِع الناسُ للفرجةِ عليه . فأخبرنى أنه كان من جملةِ المتفرِّجينَ ، قال : بينما أنا واقفٌ ، إذ جاءتْ أمُّ السلطانِ ، ومعها سِرْبٌ من النساء كأنّهن الغِزلان ، وهى تمشى أمامَهُنَّ ، وهنَّ خلفَها . وهى كانتْ جاريةً بشِعَةَ المنظَر ، مُشوَّهَةَ الخَلق ، دنيّةَ الأصلِ ، لأنه لايوجَـدُ فى سكّانِ دارِ الفورِ أدنى أصلاً مِن البيقـو الذين هى منهم . فصار كلٌّ من الواقفين يتعجَّبُ من صُنْعِ اللهِ تعالى ، أنْ قدّم هذه المرأةَ ، مع ماهى عليهِ من قبحِ الذّات والأصل ، على مَن هنَّ أحسنُ وجهاً وأصلاً ، وذاتاً وبهاءً وجمالاً . قال : فدخلتْ على أخيها تيتَل ، وكان وقتَ بنائه بعُرسِـه ، فمكثتْ عنده بُرهةً ثم خرجتْ . قال : فلم نشعرْ إلاّ برنينِ الخَلاخل والحُلِىّ وعبَقِ الطِّيب ، فعلمنا أنها خارجةٌ فوقفنا صفًّا ، حتى إذا خرجتْ لم أشعرْ بها إلاَّ وقد قبضتْ على يدِى ، وجذبتْنى للذّهاب معها . فأردتُ الامتناعَ ، وكأنى تعاصيتُ ، فدفعنى (٢٣٦) النساء اللائى خلفَها ، وكرهتُ أن يشعرَ الناسُ بذلك ، فمشَيْتُ معها محاذياً لها ، وهى بجانبى قابضةٌ علىَّ . فلما كنا فى أثناء الطريقِ قالتْ : أنا تعِبتُ — مع أنه لم يكن بينَ بيتِ أخيهـا وبيتِها أكثرُ من مائةِ خُطوة ، وقـد بلغنى أنها قبلَ اتصالها بالسلطان ، كانتْ من أقلِّ الجوارى المبتذَلات للمَهْنة ، فكانتْ تأتى بالماء والحطبِ على رأسِها من الخَلاء ، والآنَ تتعبُ من مَشْيِ[2] مائة خُطوة — قال ، فقلتُ لها : من كثرةِ ما عانيتِ فى هذا اليوم . قال : ثم دخلْنا الدارَ ـ والخصيانُ واقفونَ على الباب ، لايجترئُ أحدٌ منهم أن يتكلم ، وقد عرفونى معَها ـ فلمَّا وصلتْ إلى حجرتِها دخلتْ ، فدخلْتُ معها ،

---

(١) بهذا الضبط فى الأصل .
(٢) فى الأصل : شى .

فأطلقَتْ يدى فجلستُ على فراشٍ هناك،وانطرحَتْ هى على سريرها ، تتقلّبُ يَمْنةً وَيَسرةً ، وتهزُّ مَنجورَها بيدَيها ، ثم قالتْ لى : إنّ بى صُداعاً . فقلتُ لها : لا بأس عليكِ . قالت : فاقرأْ لى عليه ، لعلّه يذهب . فجئتُ إليها وقد علمتُ أن ذلك حيلةٌ منها لمقصودها،وأن الـكِبْرَ يمنعها أن تقولَ لى: هَيْتَ لك ، مع أن جميعَ من كان معها من النساء ذهب،ولم يبق إلا أنا وهى،وهناك جاريةٌ جالسة خارج الباب،إن احتاجتْ إلى شىءٍ دعتْها له.

قال : فلمّا أكثرَتْ من التقلّب، ولم ترَ منّى ميلاً إليها ، دعتْنى لأقرأ على صُدغها . فحينَ وضعتُ يدى على صُدغها وابتدأتُ القـــراءةَ ، ارتعشَتْ تحتَ (٢٣٧) يدى ، وصارتْ تضطربُ اضطرابَ المذبوح وتتأوّهُ ، فشممتُ منها رائحة الطِّيبِ فأنعشتنى ، وأخذنى ما يأخذُ الرجلَ من النّشاطِ ، فهمَمتُ أن أعلوَها ، فأدركنى خوفٌ من ابنها السلطان ، لأنه متى وجدَ مع أمّه أحـداً قتلَه . وقـــد تـكرّر منه ذلك مراراً ، [إذ كان] يهجم [1] عليها بغير استئذان . لـكنّها قد رصدَتْ له أناساً يخبرونَها بمجيئه ، فإن كان عندها أحدٌ تحيلت فى إخراجه .

قال : وخفتُ أيضاً لى [2] ، لأنّى كنتُ سمعتُ أنها مصابةٌ بداء الحصَرِ ، وهو المعبَّرُ به عند الحـكماء بالسَّيَلانِ الأبيضِ ، أعنى : أنّ كلّ مَن واقعها ابتُلِى به، سيّما وقد شاهدتُ مَن مرِضَ به منها .

قال : فحينَ أدركنى الخوفُ مِن هاتين الجهتَين بَرَدَ ما بِى قليلاً ، وكانتْ قد اطّلعتْ على حالى أولاً ، فلمّا رأتْ منى الفُتورَ ظنّتْ أنى جائع ، فدعتْ بجاريةٍ لها اسمُها : ذرَاعُ

(١) فى الأصل : مرارا ويهجم ، وما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق ، بعد حذف الواو .

(٢) كذا . ولعله يريد ان يقول : خفت على نفسى .

القادر ، وقالتْ لها : ائْتِ بطعامٍ جميلٍ . فأتتْ الجاريةُ بإناءيْنِ فى أحدهما حمامٌ مقلوٌّ فى السَّمْنِ ، وفى الآخرِ فَطيرٌ بالعسلِ ، وقالت لى : كُلْ . قال : فأَبَيْتُ واعتذرتُ بأنِّى غيرُ جائع . فحلفتْ علىَّ ، فتناولتُ مِن الطعامِ وأعجبَنى ، [وكان الوقت متأخراً] (١) وكنت فى تلكَ الليلةِ محتاجاً [للطعام برغم ما قلت] (٢) .

وبينما أنا آكلُ إذ سمعتُ حركاتٍ عنيفةً وكَرْكَبَةً (٣) ، وجاء الخدمُ يُهرَعونَ ويقولون : إنّ السلطانَ قد أتى . فقالتْ : خذُوا هذا وأخرجوه من البابِ الثـــانى . فأخذنى الجوَار وأسرعوا فى المشْيِ ، حتى أخرجونى من الزّرِيبة .

ومِن لُطفِ (٢٣٨) الله تعالى أن السلطانَ لم يدخُلْ عليها من الباب الذى عادَتُه الدُّخولُ منه ، بل من (٤) البابِ المذكور ، وأوقفَ عليه حَرساً . ودارِ حتى أَتى للبابِ الذى خرجتُ منه ، لأنى بمجرّدِ خروجِي وانفصالى عن الباب ، رأيتُ نواصىَ الخيلِ قد أقبلَتْ ، فوقفتُ على بُعدٍ أرى مايـكون . فسمعتُه يقول للبوّابين : مَنْ خرج الآنَ من هنا ؟ فقالوا : لا أحَدَ . فقال أحد الفرسان : أنا رأيت إنسانا انفصل من هنا ، وأظنُّه كان هنـا . فقال جميعُهم : ما رأينا أحداً . كلُّ ذلكَ وأنا واقفٌ أسمعُ ، وحمِـدْتُ اللهَ الذى أخرجنِى قبلَ وصولِهم ، وإلاّ لو وصـلوا إلى البـابِ قبلَ خروجى كنتُ أول قتيـل .

فحينَ سمعتُ منه هذه القصّةَ تعجَّبتُ غايةَ العَجَب ، وعلمتُ أنّ الخصيانَ لا ينفَعُون إلا مع عدَمِ غرضِ النساء ، ومتى كان للمرأةِ غرضٌ لا يقـدِر الخصىُّ أن يصنَـع شيئاً . فانظر يا أخى كيف وقعتْ هذه القصَّةُ مِن هذه المرأةِ ، مع أنها أمّ ملك ،

(١و٢) مابين الحاصرتين منقول من الترجمة الفرنسية Voyage, P, 266.
(٣) ضبط هذا اللفظ العامى على النطق الشائع فى اللهجة المصرية .
(٤) فى الأصل : الى .

ولو وقعتْ من غيرِها لكان للكلامِ فيها مَجال ، فكيفَ بهذه[1] ؟ وبالجملة فالنساء لا خيرَ فيهنَّ إلاَّ مَن حفظَها اللهُ ، ورحمَ اللهُ مَن قال ، من الطويل :

فمِنهنَّ مَن تسْوَى ثمانين بكْرةً ... وفيهنَّ مَن تغْلو بجِلدِ حُوارِهِ

وفيهنَّ مَنْ تأتى الفتَى وهْو معسِرٌ ... فيُضْحِي وكلُّ الخيرِ فى صَحنِ دارِهِ

وفيهنَّ مَن تأتِي الفتَى وهْو مُوسِرٌ[2] ... فيصبِحُ لم يملِكْ عَليقَ حمارِهِ

(٢٣٩) وفيهنَّ مَنْ لم يستُرِ اللهُ عِرضَها ... إذا غابَ عنها الزَّوجُ راحتْ لجارِهِ

فلا رحِمَ الرحمنُ خائنةَ النِّسا[3] ... وأحرَقَ كلَّ الخائناتِ بنارِهِ

ولْيُعلَمْ أن كلَّ مصيبةٍ تقعُ ، أصلُها النِّساء . فكم بسببِهنّ قُتِلَتْ ملوك ، وخُرِّبتْ ممالك ، وسُفِكتْ دماء . فهُنَّ لنا شياطينُ ، على حدِّ قولِ الشاعر ، [من البسيط] :

إنَّ النساءَ شياطينٌ خُلِقْنَ لنـا ... نعوذُ باللهِ مِن شرِّ الشياطينِ

غريبة :

مُقتضَى أنهم جعَلُوا الخِصيان لصِيانةِ الحريمِ عن الرجال ، أن الخِصيانَ أُمَناءُ عليهِنَّ من طَرَفِ السَّيد ، والأمرُ يُخالفُ ذلك . فقد رأينا منهم مَن عندَه عدَّةُ نساء يتمتَّع بهِنَّ ، وأولُ مَن رأيتُ عندَه ذلك محمد كُرَّا ، الذى أسلفنا ذكره .

وحَكَى لى مَن أثِقُ به : أنّه لما رأى الغَلَبَ عليه فى قتال السلطانِ محمد فضل ، كان عندَهُ امرأةٌ مِن أجملِ النساءِ ، فذبحَها باللَّيلِ قبلَ موتِه لئلاَّ يُحظَى[4] بها غيرُه . وهذه نهايةُ الغَيْرَة .

---

(١) الراجح من سياق هذه القصة المطولة أنها خالية من الحقيقة ، وأنها من تلفيقات الراوى وتشهيراته ، وتفاخره بجاذبيته الجنسية ، لأنه لم يعرف عن هذه السيدة شيء من هذا القبيل فى حياتها الطويلة .

(٢) فى الأصل : مؤسر .

(٣) فى الأصل : النساء .

(٤) كذا فى الأصل ببناء الفعل للمجهول .

ورأيتُ في دار فورَ وفي الوَادَاي كثيراً من الخِصيانِ ، كلٌّ منهم حائزٌ نساءً عديدةً ، وسألتُ من[1] أهلِ الخِبرة : ما يصنَعونَ بِهِنَّ ؛ وهُم كهُنَّ من حيثُ إنَّ أعضاءَ التناسلِ مفقودة ؟ فقيلَ لي : إنهم يساحقونَ النساءَ ، ويشتدُّ بهم الحالُ وقتَ المساحقةِ ، حتى إنه يعَضُّ الأنثى وقتَ الإنزالِ عضًّا مؤلماً . وكنتُ إذ ذاك لجهلي بعلمِ الطِّبِّ أُصَدِّق ذلك ، لكنْ الآنَ لا (٢٤٠) أُصدِّقُه ، لأنَّ وظيفةَ العُضوِ قد فُقِدَتْ بفَقْدِه ، والعلّةُ تدورُ مع المعلول وجوداً وعدماً .

وكنتُ سألتُ أهلَ الخبرةِ عن كيفيَّةِ الخَصْيِ ، فأخبَرني بعضُهم أنه يؤتَى بمَنْ يُرادُ الفعْلُ به ، فيضبَطُ ضبطاً جيداً ، وتُمسَكُ المذاكيرُ وتُستأصَلُ بمُوسَى حادٍّ ، ويوضَعُ في ثُقْبِ مجرَى البَوْلِ أنبوبةٌ صغيرةٌ من صَفيحٍ لئلَّا ينسَدَّ ، ويكونُ قد سُخِّنَ السَّمْنُ على النارِ تسخيناً جيداً حتى غَلَى ، ثم يُكْوَى به محلُّ القطع . وبعد أن يكون محل القطع جُرحاً حديديًّا ، ينقلِبُ جرحاً ناريًّا ، ثم يداوَى بالتَّغييرِ عليه بالتفتيك والأربطة ، حتى يُشْفَى أو يموت ، ولا يُشفَى منه إلاَّ القليل .

فإن قيلَ : إنَّ في هذا تعذيباً للحيوانِ الناطقِ ، وقطعاً للتناسلِ المأمورِ بكثرتِه شرعاً فهو حرامٌ . قلتُ : نعم ، قد صَرَّح غيرُ واحدٍ من العلماءِ بحُرمتِه ، خصوصاً جلالُ الدين السُّيوطي رحمه الله ، فإنه صرَّحَ بالتحريمِ في كتابِه الذي ألَّفه في : « حرمةِ خِدْمةِ الخِصيان ، لِصَريحِ سيِّدِ ولدِ عدنان » . لكنَّ الحرمةَ على الفاعلِ ، وإنما يَخْصِي الخِصيانَ قومٌ مِنَ المَجُوسِ ، ويأتونَ بهم إلى بلادِ الإسلام ، فيبيعونَهم ويهادُون بهم ، ولا يُخْصى على يدِ المسلمين منهم إلاَّ القليلُ النادر .

وأما استخدامُهم بعد الخَصْيِ فلا ضرر فيه ، بل فيه ثواب عظيم ، لأنَّهم لو لم

(١) كذا .

يُستخدَمُوا الحصَلَ (٢٤١) لهم الضررُ من وجهين : الأول : ممّا وقع عليهم من الخصْى الموجِبِ لفقدِ اللّذةِ العظيمة ، وقطعِ التناسل . والثانى : من ضيق المعيشةِ .

فإنْ قيلَ : إذا كان الأمراء كالملوكِ ومَن يجرى مجراهُم ، يجمعون كثيراً من النساء فى دورِهم ، وكلُّهُنَّ شابّاتٌ — ومن المعلوم أنَّ الغَيْرةَ موجودةٌ فيهنَّ ، كما هى موجودةٌ فى الرجالِ ، لأنهنَّ شقائقُهم — فكيفَ يعاشرْنَ بعضَهُنّ ، خصوصاً إذا أحبَّ الرجلُ واحدةً منهنَّ ، وأعرضَ عن غيرِها ؟

قلتُ : إن العداوةَ واقعةٌ بينهُنَّ على قدرِ أحوالِهنَّ ، فكلٌّ منهنَّ تتمنَّى أن يخلُوَ[1] لها وجهُ زوجِها ، ولا يألَف سواها . لكنْ لما كُنَّ تحتَ قهرِ الزوجِ ، خصوصاً إنْ كان ملِكاً ، يُخفِينَ البغضاء ، ويظهِرنَ المودَّةَ . وهذه عادتُهنَّ فى إخفاء ما يُبطِنَّ وإظهارِ ضِدِّه ، ولا يظهرُ ما أخفتْ المرأةُ منهنَّ إلاَّ إذا زالَ[2] خوفُها ، وملَكت رُشْدَها . وحينئذ تُظهر ما كان كامناً فى صدرها .

فإن قيلَ : ما رتبةُ نساءِ السودانِ فى الجمالِ ؟ قلتُ : اعلمْ أنَّ نساء السودانِ على أقسامٍ فى ذلك ، ومن المعلومِ أنَّ كل قبيلةٍ يوجدُ فيها الجميلُ والقبيحُ ، لكنْ هناكَ قبائلُ يوجدُ فيها الجمالُ أكثَر ، وأخرى يوجدُ فيها الشَّوَهُ أكثَر . وأقلُّ قبيلةٍ فى دار الفور [معروفة] بالجمال هم التّمورْكَهْ ، لأنّهم وحْشِيُّونَ أهلُ جِبالٍ وسُوء مَعاش ، وكذا السكَرَا كْرِيت . وقد ذكرنا سابقاً أنّ قبيلةَ البرْتِى (٢٤٢) والميدُوب أجملُ نساءٍ من غيرِهما . ويليهما قبيلةُ البيقُو والبَرْقُو والميمه والتُّنْجُور . وأشوَهُ قبائلِ الفورِ نساءُ أعجامُ الفُورِ ،

---

(١) فى الأصل : يخل ، بضم اللام .
(٢) في الأصل : زاد .

ويليهمْ الدَّاجُـو والبرْقِد والمَساليط ، كما أن فى دار الوَادَاى قبيلَتَىْ أبْ سَنُون[1] ومَلَنْقا[2] أوْ مَنَنْقَا أجملِ الوَادَاى نساء ، ويليهم الـكُوكَه[3] والمِيمَه وكَشمرَة[4] . وأقبحُها نساء التَّامَا ، ويليها البرْقِد والمساليط والدَّاجُـو . ولا يقدرُ الإنسانُ أن يساوِىَ بين جمـالِ أهلِ السودانِ وغيرِهم من أهل بلادِنا لاختلافِ اللون .

تنبيـــه :

أجملُ أهلِ بلادِ السودانِ عموماً من مشرِقِها لمغربِها نســاء عَفْنُو[5] ، ويليهم بَاقِرْمَه وبَرْنُو وسَــنّار . وأوسطُهم الوَادَاى ، ويليهم الفُور ، وأقبحُهم التُّبُو[6] والـكَتَـكُو . وبالجملةِ فالجمـــالُ يوجَد فى كلِّ قبيلةٍ ، لـكنْ قد يقلُّ فى واحدةٍ ويكثر فى أخرَى ، وسبحانَ مَن خَصَّ مَن شـاء بمـا شاء ، لا ربَّ غيرُه ، ولا معبودَ سواه . فمـا كلُّ أسمرَ مِسكاً ، ولا كلُّ أحمرَ ياقوتاً ، ولا كلُّ أسودَ زَباداً[7] ، ولا كلُّ لمـّاعٍ

(١-٢) اب سنون ــ ملنقا : اسم يطلق على جبل فى وادای ، واليه تنسب قبيلة السنوئيين او اب سنون . كانت هذه القبيلة على الوثنية ، ثم اعتنق افرادها الاسلام على يد السلطان صليح ، واستطاع بواسطتهم أن ينشر الاسلام فى وادای ، فاعتنقته قبائل منها : ملنقا ، مدبا ، مدلا وارتبط السلطان صليح وهذه القبائل الأربع برباط المصاهرة ومنها جميعا نشأت الأسرة المالكة فى وادای .
Voyage au Ouaday, pp. 69-73.

(٣) كوكه : قبيلة تسكن جنوب شرق وادای . ترجع اهمية هذه القبيلة فى وادای الى أنها كانت مصدرا هاما للحصول على الرقيق . Voyage au Ouaday, p. 247.

(٤) كشمره : قبيلة من قبائل واداى تقطن وادى البطيحة على بعد اربعة أيام من مدينة وارة عاصمة وادای . Voyage au Ouaday, p. 246.

(٥) عفنو : احدى بلاد اقليم نفه غربى أغاديس . Voyage au Ouaday p. 15

(٦) التبو : يطلق لفظ تبو بصفة خاصة على سكان اقليم تيبستى ويعرفون كذلك باسم تدا Teda . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « تبو » .

(٧) الزباد طيب معروف ، وهو رشح يجتمع تحت ذنب السنور (أى قط الزباد) على المخرج ، فتمسك الدابة وتمنع الاضطراب ويسلت ذلك الوسخ المتجمع هنالك بليطة أو خرقة (عن القاموس) .

ماساً . وإنْ شئتَ قلتَ : ما كلُّ أسودَ فحماً ، ولا كلُّ أحمرَ لحماً ، ولا كلُّ أبيضَ جيراً ، فقد يوجَد فى الأسودِ والأسمرِ من الجمالِ ما لا يوجدُ فى الأبيضِ الشاهقِ . وكأنى بقائلٍ يقول : وهل تستوى الظلماتُ والنور ، أو الظلُّ والحرور[1] ؟ لكنْ مِن الناسِ مَن تعشّقَ فى السُّمرِ حيثُ قال ، (٢٤٣) من الطويل :

وفى السُّمر معنًى لو تأمّلتَ حُسنَه ... لما عَشِقَتْ عيناكَ بيضاً ولا حُمْرَا

وأحبَّ بعضُهم السوادَ وبالغَ حتّى قال ، من الوافر:

أحِبُّ لأجلِها السودانَ حتى ... أحِبُّ لأجلِها سُودَ الكلابِ

وكنتُ قديماً مُغرماً بهذا المذهبِ فقلتُ ، من الوافر[2]:

يَلومونِي على حُبِّي بسَوْدَا ... وما علِمُوا السِّيادَةَ فى السوادِ

فقلتُ لهم : دَعُونِي لا تلُوموا ... فإنَّ السُّودَ سادُوا بالسَّوادِ

وجُلُّ البيضِ لَولاَ الحاجبانِ ... وخالُ الخدِّ حَالِكُ فى السَّوادِ

لما عُشِقُوا ولا نُظِرُوا بعينٍ ... ولكنَّ الفَضيلةَ فى السوادِ

وفى الأول ، السَّواد ، بمعنى : السُّودَد ؛ وفى الثانى ، بمعنى : المال ؛ وفى الثالث ، بمعنى : السَّواد الحقيقى ؛ وفى الرابع ، [بمعنى] : العالَم الكثير .

وقال بعضُهم ، من البسيط :

قالوا : تعشَّقْتَها سَوْدَا ، فقلتُ لهم : ... لونُ الغَوالِي ولونُ المِسْكِ والعُودِ

إنى امرُؤٌ[3] ليسَ حُبُّ البيضِ مَكْرُمةً ... عِندِي ولو خَلَتْ الدُّنيا مِن السُّودِ

---

(١) هذا اقتباس من الآية القرآنية : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور » سورة فاطر ، آية ٣٥ .
(٢) فى هامش الأصل : الهزج .
(٣) فى الأصل : امرء .

وقال الفاضلُ الشّيخُ عبدُ الرحمن الصَّفتى ، من الكامل:

بالرُّوحِ أسْمَرَ ، نُقْطَةٌ من لَونِه تكْسُو البَيَاضَ من الجمالِ شِعَارَا

ولو استَقلَّ مِن البياضِ بمثلِها لا اُعْتَاضَ من ثوبِ الملاَحةِ عَارَا

ما مِنْ سُلاَفَتِهِ سَكِرْتُ وإنَّما تَرَكَتْ سَوالِفُهُ العقولَ[1] حَيَارَى

حسَدَ المحَاسِنُ بعضَها حتى اشتَهَتْ كلُّ المحَاسِنِ أن تكونَ عِذَارَا

(٢٤٤) وكنتُ عارضتُه بقصيدةٍ منها قولى ، من الرجز والكامل أحق :

الحقُّ أبيضُ ، دَعْ مقالةَ معشرٍ قدْ عاندُوا واستكبرُوا استكبارَا

وقال الصَّفتى أيضاً ، من البسيط :

قالوا : تعشَّقْتَها سمرا ، فقلتُ لهم لونُ الغَوَالِي ولونُ المِسْكِ والحدَقِ

وما تركتُ بياضَ البيضِ عَن غَلَطٍ إنِّي مِن الشَّيْبِ والأكْفانِ فى فَرَقِ

وتَغالَى بعضُهم فى مدح البياضِ ، وذمِّ السواد ، بكلامٍ يطول ، وقال : مَن عانَدَ فى ذلك ، عَمِيَتْ بصيرتُه عن قوله تعالى : « فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً[2] » ، « ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا[3] »

* ولِلنَّاسِ فيما يعشَقُون مذاهِبُ *

---

(١) فى الأصل : القول .

(٢) سورة الاسراء ، آية ١٢ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٤٨ .

(الباب الثالث)

[وفيه فصلان]

الفصل الأول (1)

فى أمراض السودان ، والمأكولات ، وصحة الأقاليم ، والصيد وبعض الحيوانات

يجبُ على العبْدِ أن يعلَمَ أنّ الله خَصّ كلّ إقليم بمـا لا يُوجَد فى غيرِه ، وجعلَ فى كلٍّ قبيلةٍ خاصّيّةً لا توجَد فى غيرِها ، ولذا إذا تغرّبَ إنسانٌ مِن بلدِه لأخرى ، يكونُ هواؤُها مخالفاً(2) لهواء بلدِه ، تحصلُ له مَشَقّاتٌ ، فيمرَضُ حينَ يتغيّرُ عليهِ الهواء ، فربّما مات ، وإن لم يمُتْ يطولُ مرضُه ، ولا يصِـحُّ جسمُه ، حتى يعتادَ بهواءِ البلدِ التى سكن فيها بعدَ طولِ المدة .

ولمـا كان الأمرُ كذلكَ ، كان الأولادُ الذينَ يتناسَلونَ من أمٍّ وأب فوراويّيْنِ مثلاً ، أطولَ أعماراً وأقوى (٢٤٥) بِنيةً. ولذلك ترى الرجلَ له عَشْرةٌ من الولدِ وأكثرُ ،

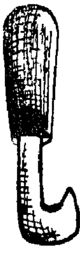
---

(١) فى الأصل : « فصل » وانظر صفحة ٢٢٦ حاشية ١ .
(٢) فى الأصل : مخالف .

أقوياء أصحاء . وكذا أعرابُ الباديةِ هناكَ لا يموتُ الرجلُ منهم حتى يرى من ولدِه عددا كثيراً ، فلو انعكسَ الأمرُ : بأنْ تزوّجَ فوراويٌّ عربيةً، أو عربيٌّ فوراويةً ، ترى سُلالتَه ضعيفةً نحيفةً ، لا يعيشُ منها إلاّ ما قلَّ وندَر . وهذا مما يدلُّ على أنّ في البلدِ والجنسِ خاصِّيَّةً لا توجدُ في غيرهما ، لأن كلَّ ولدٍ يوجَدُ من أبوين من نوعٍ واحد ، وبلدٍ واحد ، يكون[1] أقوَى بِنيَةً ، وأعدلَ صحـــةً . وترَى مَن انعكسَ فيه الأمرُ ضعيفــاً ، فاسدَ اللونِ نحيفاً .

ورأيتهُم في دارفور ، ودار واداى ، يستعينون على صحّةِ الطفلِ بأخذِ الدم ، فيأخذونَ الطفلَ حينَ يستكملُ أربعينَ يوماً من ولادتِه ، ويُشرِّطون بطنَه من الجهتين — أعنى : اليمنى واليسرى — تشاريطَ كثيرةً ، وينزلُ منه دمٌ غزير . وحين يستكملُ ثلاثةَ أشهرٍ يفعلون به ذلك ، وإنْ لم يُفعَلْ به ، ربما هاجَ عليه الدّم فقتله .

وأكثرُ أمراضِ الأطفالِ عندهم المرضُ المسمّى : « أبو لِسان » وهو داء يعترى الطفلَ في غَلصَمَتِه ، أي عند اللَّهاة[2] ، فتحدُثُ له فيها زائدَةٌ كلسانِ العُصفور ، عند أصلِ اللسان ، فيعالجونَها بالقَطْع . وصورةُ الآلة التي يقطعونها بها هكذا :



[آلة لقطع زائدة كلسان العصفور عند اصل لسان الطفل]

---

(١) في الأصل : كان .
(٢) في الأصل : اللهات .

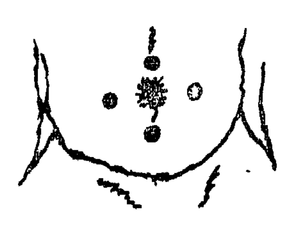
(٢٤٦) وهى حديدة مركّبة فى يدٍ من خشبٍ ، ومعها قطعة خشبة ناعمة ، فيُدخلُ الطبيبُ الخشبةَ أولاً ، حتى يوصِّلَها إلى المحلِّ الذى فيه الزائدة ، ويكونُ العليلُ قد ضُبِط ضبطاً جيداً ، ثم يُدخِلُ الحديدةَ حتى يصِلَ رأسُها المعْوَجُّ إلى أصلِ الزائدةِ مِن الجهةِ الأخرى ، وتبقَى الزائدَةُ بين الحديدةِ والخشبةِ ، وَيتّكئُ عليهما معا ، فتنقطعُ الزائدةُ بينهُما ، فيُخرِجُ الحديدةَ والخشبةَ معاً ، فيُرَى على الخشبةِ قطعةُ لحمٍ صغيرة ، ويكونُ قد استحْضر على قليلٍ[1] من النَّطرُون ، وسُحِقَ جيداً بين حجرَيْنِ ، ثم يبُلُّ الرجلُ إصبَعَه ، ويجعلُه على المسحوق فيلتصقُ به ، ويدخِلُه فى فمِ العليل ، بعد أنْ يكونَ قد أدخلَ الخشبةَ ، إن كان الطفلُ قد أثْغَرَ ، لكنْ لا يوَصِّلُها إلى محلِّ الألَم ، بل حتى [لا] تتجاوز أسنانَ العليل . ثم يَدْعَكُ محلَّ القطعِ بالمسحوقِ الذى على إصبَعِه دَعكاً جيداً ، فيبرَأُ العليل بذلك . وإذا ترُك أبو اللسانِ المذكورُ أنْحَلَ جسمَ الطفلِ ، ونشأ عنه إسهالٌ عجيب ، فيكونُ سبباً فى قتله .

ويليه مرضٌ آخر يسمَّى عندَهم : « أم صُقُع » ، ولا يعترِى إلاّ الأطفالَ أيضاً . وهى استرخاءٌ يقعُ فى اللَّهاةِ وبَثْرةٌ تحدثُ فيها ، فلا يشربُ العليلُ اللبنَ ، ولا يأكلُ ، ويصفَرُّ لونُه ، فيدعُون له بالطبيب ، فيأتى ويسحقُ النَّطرونَ كما تقدَّم ، ويضعُ الخشبةَ وحدَها فى فمِ العليل ، ويُدخِلُ إصبَعَه ، فيرفَعُ لَهاتَه ، ويفقأُ (٢٤٧) البثْرةَ التى توجد ، فينزلُ منها دمٌ وقَيْح ، ثم يغمِسُ إصبَعَه مَبلولا بريقِه فى النَّطرون ، ويُحكُّ به البَثْرةَ واللَّهاةَ ، لكنْ يفعلُ ذلك ثلاثةَ أيام ، فيبرَأُ العليل .

---

(١) عبـارة عامية .

وقد يقعُ الإسهالُ المفرطُ ، لـكنْ ينظَرُ فى الطِّفلِ ، فإنْ كان ابنَ سنين، ووجدوا المَقْعَدةَ تبرُز من مَحلِّها حكُّوها بشَقْفةٍ حتى فقئُوا ما فيها من البثور ، وينزلُ منها دمٌ كثير ، وقَلَّلُوا مأكَلَه فيبْرَأ ؛ وإن كان صغيراً كابنِ سبعة أشهر أو ثمانية أو نحوِها ، كوَوْه حولَ السُّرَّةِ أربعَ كيّاتٍ هكذا :



[كيات السرة]

أعنى : تكونُ السرَّةُ فى الوسَط ، ويكونُ الـكَيُّ أعلاها وأسفلَها وأيمَنَها وأيسَرها .

وقد يعترِى الأطفالَ المرضُ المسمَّى بـ «الغُزَيِّـل» ، وهو مرضٌ ناشىءٌ عن إصابةٍ فى المخِّ ، يترِكُ الطّفلَ يعبثُ بيدَيْه ورجلَيْه ، على غير الحالةِ المألوفة . وأهلُ مصرَ كأهلِ تونُس يقولون : إنه من الجانِّ ، حينَ يُترَكُ الصَّبيُّ وحدَه فى محلٍّ ، يعتريه هذا الحادث ، فيقتُلُ فى مصرَ وتونُسَ وبلادِ العرب أطفالاً كثيرةً .

فأما أهل مصر فيستعينون[1] فى علاجِه بالـكِتاباتِ ، لاعتقادِهم أنه من الجانِّ . فيأتون بمَنْ له شهرةٌ فى الرُّقَى والعَزائمِ والأقسام ، فيكتُبُ للعليلِ[2] ويَرْقِى . وهذا قد يصادفُ أنّ العليلَ يخِفُّ ألمُه ، وقد لا ينجَع .

---

(١) فى الأصل : يستعينون .

(٢) فى الأصل : العليل .

وأمّا أهلُ الســودانِ فيعالجونَه بالـكَيِّ في الجبهةِ ، بأن يأتوا بلُبٍّ قَصبةٍ (٢٤٨) من قصبِ الدُّخْن ، ويلامِسون بها النَّـار حتى تأخذَ فيها ، وتبقى لهـا زهرةٌ كزهرةِ الشمعةِ التى تُقَطُّ ، فيكْوُون العليلَ بها فيبرأ[1] لوقته .

ومِن أمراضِ الأطفالِ هُناكَ « أبو صَــفّير » وهو مرضٌ يعترِى الطفلَ فيُفسِدُ لونَه ، وبصفرةٌ صُفرَةً ظاهرةً ، وهو المسمَّى فى كتبِ الطبِّ بـ « اليَرقان الأصفر » .

وهناكَ أمراضٌ عامّةٌ ، الصغيرُ والـكبيرُ فيها على حَدٍّ سواء ، فمنها :

« الوِرْدَةُ » ، وهى : الُحمَّى ، ولا يكادُ ينجو منها أحدٌ فى كلِّ سنةٍ ، وتتسَلْطَنُ عندهم فى أيامِ الخريفِ ، وأولِ الربيعِ المسمَّى عندهم بالدَّرَت[2] ـ وهو : وقْتُ خرِيفنا ـ وتتنوَّعُ ، فمنها : « حُمَّى الورْدِ » التى تأتى فى كلِّ يومٍ ، فى ساعةٍ معيّنةٍ . ومنها : « حمّى الغِبّ » ، وهى التى تأتى يوماً وتغيب[3] يوماً . ومنهــا : « حمَّى التَّثليث » ، وهى التى تأتى بعدَ كلِّ يومينِ . ومنها : « حُمَّى الرِّبْـعِ » ، وهى التى تأتى بعدَ كلِّ ثلاثةِ أيامٍ ، وهى أقوَى أنواعِ الُحمّى ؛ وأقلُّ منها بدرجةٍ حُمَّى التَّثليثِ .

ومنها « الُحمّى الُمطْبِقَة » ، وهي التى لا ترتفِعُ عن صاحبِها إلاَّ بالشِّفاء أو بالموت . وتسمَّى فى مصر بالنَّـوشَة ، وهى فى عُرفِ الأطباءِ الآن ، التهابٌ مَعِدِيٌّ مَعَوِيٌّ ، وكلُّها عند أهل السودان تسمَّى بالوِرْدَة ، لا يميزون فيها[4] .

ومن الأمراضِ العامّةِ الوبائيةِ عندَهم : « الُجدَرِى » ، وهو عندَهم كالطَّاعونِ

---

(١) فى الأصل : فيبرء .
(٢) الدرت ، فى اللهجة السودانية ، معنــاه : الفترة التى تشتد فيها الحــرارة وتنضج فيها الذرة ، وتستغرق حوالى أربعين يوما من انتهاء فصل الأمطار المعروف فى السودان بالخريف ، أى من منتصف شهر سبتمبر الى أواخر شـــهر اكتوبر .
(٣) فى الأصل : ويغيب .
(٤) كذا .

فى مصر ، ويشتدُّ خوفُهم منه لأنَّه قتّال جـــداً ، وكلُّ مَن مرِضَ به منهم (٢٤٩) أخرجوه من البلَد إلى محلٍّ آخر فى الخلاء ، و بنَوْا له عِشَّة[1] تسمّى عندهم بـ «الـكَرْبابة» وتركوا عندَه مَن يخدُمه مِمَّن يكونُ قد مرض بالجُدَرى . وكلّما مرض آخرُ نقلُوه إليــه وهكذا ، وهذا هو : الـكُرَنْتِينَةُ ، بعينِها .

تنبيــه :

أخوَفُ أهلِ الســودانِ من الجُدَرِى أعرابُ باديتِهم ، لأنّ الجُدرى إن دخل فى حَىٍّ من أحيائِهم أفْناه ، فلذلك تراهم أخوفَ الناسِ منه .

ولقد أخبرنى رجلٌ من أكابرِ البِرْقِد يقالُ له : عثمان وَدْ عَلَـنْـو، أنه كان مَرِض بالجُدَرى وقاسى ما قاسى ثم شفاه الله ، فلما قَشَر جُدَرِيُّه ، وقبلَ أن يندَمِل ، صار يؤذيه الذباب ، فـكان يتلثّم لأجــلِ ذلك ، قال : بينما أنا ذاتَ يومٍ متلثّمٌ واقف على بابِ دارى ، إذ رأيتُ أعرابيًّا قد جاء يمشى مِشْيَةَ الخائف ، فلما رآنى أقبل علىَّ حتى دنا منى وسلَّم علىَّ ، ثم قال : أَمَانَة عَلَـيك[2] ، هل فى حِلَّتِكم هذه جُدَرى ؟ فقلت : كفانا اللهُ شرَّ الأمانة . ورفعتُ اللِّثامَ عن وجهى ، فحين رآنى صاح صيحــةً عظيمة ، وسقط إلى الأرض ، فجاء لصيحَتِه إخوانُه من الأعراب فرفعوه وذهبوا به ، وكنتُ أنا حين جاء إخوانُه فَرَرْتُ لئلاّ يقتُلونى . فبلغنى بعد ذلك أنه مات بعدَ ثلاثة أيام .

ومن خرافاتِ أهل السودانِ أنهم يقولون : إن الجُدَرى حيوان لا يشاهَد إلا أثرُه يعلَقُ بالإنسان فيقتلُه . وسمعتُ من كثيرٍ منهم أنه رأى أثره ، (٢٥٠) ويتواطئون على ذلك ، ويصدِّق بعضُهم بعضا . وسألتُهم عنْ أثره كيف هو ؟ فقالوا[3] : أثرُه نُـكَتٌ

---

(١) لفظة عامية وردت بغير ضبط فى الأصل .
(٢) عبارة عامية .
(٣) فى الأصل : فقال .

مستديرةٌ متواليَةٌ هكـــذا :

oooooo

[أثر جدرى]

على سطرٍ واحد . فكلُّ بيتٍ، أصبحنا ورأينا ذلك الأثَرَ دخلَ فيه، نجدُ أهلَه قد أصيبُوا.

عجيبة :

أخبرنى القاضى الدليل ، قاضى القضاة بمملكة الواداى ، حين جاء إلى القاهرة سنة ١٢٥٧[1] ، أن المرض المسمَّى بالهَيْضَةِ — وأهلُ مصرَ سمَّوهُ : الهَواء الأصفر، الذى كان أتى إلى مصر من الحجاز سنة ١٢٤٧[2] — ذهب إلى بلادهم وأخربها ، وقتل منها عالَماً كثيراً ، وكنَّا نظُنُّ أنه لا يصلُ إلى هناك . فسبحانَ الفعَّالِ لما يُريد ، لامعقِّبَ لحُكمه .

ومن الأمراض العامَّةِ الكثيرةِ الحصولِ عندهم المرضُ الإفرنجى ، ويُسَمَّى عندهم بالجِقِّيل ، وكثرتُه بينهم لكثرةِ الفسادِ ، وليس له عندَهم دواء إلا الكَىّ .

وصفةُ هذا الكَىِّ أنهم يأتون بحديدَةٍ ، وهى المسماة عندهم بالحَشَّاشَة ، وهذه الحديدةُ مستطيلةٌ مفرطحَة ، عرضُها بنحْوِ قيراطين ، وطولُها بنحو خمسَةِ قراريط أو ستة ، فيُحْمُوها بالنَّار حتى تحمَرّ ، ولها صورةُ أنبوبةٍ مركَّبةٍ فى وَسَطها عَرْضاً ، فإذا احمَرَّت الحديدةُ أخرجوها من النَّار ، وصبُّوا على الأنبوبةِ ماء قليلاً ، ثم يُدخلون فى تلك الأنبوبةِ عوداً يرفعونها به ، ويكْوون به المحلَّ الذى ظهر فيه الداء من غير استثناء . ومتى ما شُهِدَ هذا الداء على أحدٍ — وله أهل — (٢٥١) كَوَوْهُ ولو قهراً عنه ، وبهذه المعالجةِ شفاهُ الله بأقربِ زَمن .

(١) سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م .
(٢) سنة ١٢٤٧ هـ = ١٨٣١ م .

وهذا المرضُ فى كُرْدُفَال أكثر من دارفور، ودارفور أكثر من الواداى، حتى إنه فى الواداى لا يُسمعُ بإنسانٍ مرِض بهذا الدّاء إلا نادراً. وسببُ كثرتِه فى كُردفال، أنّ مَن أصيبَ منهم به، يَعتقد أنه كلَّما أعدَى[1] غيرَه به يخفُّ عنه ما هو فيه، ولم يدْرِ أنه لو أعدى[2] مائةَ ألفٍ لم ينقُصْ مما هو فيه شىء. فترى المريضَ منهم سواء كان امرأةً أو رجلاً يُعْدِى خلقاً كثيراً، فلذلك كثُرَ عندهم.

وفى دارفور، وإن كان كثيراً، لكنَّه لمّا كان منهم مَن لا يستحِى أن يراه النّاسُ مريضاً فيُعدِى غيرَه، وهو قليل، ومنهم مَن يستحِى من ذلك فيجلسُ فى بيته حتى يبرَأ، وهو كثير، فقلّ عندَهم.

وأما فى الواداى كلٌّ[3] مَن مرض به لَزِم محلَّه حتى يبرأ، فكان وجودُه نادراً.

ومنه: «الحصَر» وهو السَّيَلانُ الأبيض، ومثلُه «الهَبُوب»، وهو رِيحٌ ينعقِدُ فى البطنِ السُّفلَى من المرأةِ أو الرجل، وأكثرُ مايوجدُ فى النساء، ويقولون: إنهما مُعْديَان.

ومن الأمراضِ الفاشيَةِ عندَهُم: «الجُذَام» وهو تأكُّلُ مارنِ الأنفِ وأطرافِ الأصابع. وكذلك: «البَرَصُ» إلاّ أنه أقلُّ.

ومنها: «أبُو الصُّفوف»، وهو «ذاتُ الجَنْبِ»، وعلاجه عندهم بالتّشريط على الأضلاع فيُشرِّطونَ أربعةَ صفوف أو خمسةً، كلُّ صفٍّ أربعُ شَرطاتٍ أو خمسٌ هكذا:

[تشريط الأضلاع]

(١، ٢) فى الأصل: اعدا، فى الموضعين.
(٣) كـذا.

(٢٥٢) ويَدْعَكونَ المحلَّ بعدَ التشريطِ بمسحوقِ النَّطرون، فينزلُ من الفتحاتِ دَمٌ كثيرٌ فيبرأُ المُصاب .

ومنها: «الفَرَنْديت» وهو كثيرٌ عندَهم ويسمّى في مصر بالفَرَنْتيت. وهو ورَم يحدُثُ في السّاقِ أوالبد، أو في محلٍّ آخرَ، فيتكوَّن فيه قَيحٌ، فَيُبْعَج[1]، ويخرُج من محلِّ البَعْج خيطٌ أبيضُ طويلٌ أشبهُ بالعَصب، إلاّ أنه غيرُ متينٍ كالعَصَب. والظّاهر أنه حيوانٌ، لأنه يخرجُ ويدخلُ. وعلاجُه البَعْجُ والتَّدفئة بورقِ العُشَرِ، المدهونِ بالسَّمْنِ، المسخَّنِ على النّار .

ومن الأمراضِ العضويةِ عندهم: «السُّورِتيَّة»، وهي مرَضٌ يخصُّ الركبة، وهو ورَم كالفَرَنْديت إلا أنه لا يظهَر له خيط، ويتكوَّن داخلَه قيحٌ كثير. ولا يبرَأُ حتى يُبعَجَ المحلُّ بَعْجاً غائراً ثلاثةَ صفوفٍ، في كلِّ صفٍّ ثلاثُ بَعجاتٍ أو أربع، فينزلُ منها قَيْحٌ كثير. وبالتَّدهينِ بالسَّمنِ والتَّدفئة يبرَأُ العليل .

ومنها: «الدُّقْرى»، وهو مرضٌ يخصُّ السّاقَ على طُولِها، وهو ورَم كورَمِ السُّورِتيَّة، إلاّ أنَّ هذا يمتدُّ على قصبةِ السّاق، وذاكَ مقصورٌ على الرُّكبة. وعلاجُه كعلاجِ السُّورِتيَّة، إلاّ أن البَعْجَ يكونُ صَفَّيْنِ من وحْشيّةِ السّاق[2]، وصَفَّينِ مِنْ إنسيِّتِها .

ومن الأمراضِ عندَهم، التي تصيبُ الأطفالَ: «الحصْبا[3]» و«البُرْجُك» وهي: «القِرْمِزية»[4] .

---

(١) يبعج، أي: يشق .
(٢) الوحشي من الساق: ظهرها، وانسيها: ما اقبل عليك منها . (عن القاموس).
(٣) كذا رسمت في الأصل .
(٤) في الأصل: القرمزية، بسكون الراء، وفتح الميم .

ومن الأمراضِ العامّة : « وجعُ الطِّحال» أعني: كَبَرَهُ ، و «الاستسقاء » بأنواعه .

وأغلبُ الأمراض(٢٥٣)عندَهم، إلاّ الطاعون والسُّلّ، فلا يوجدان، وإن وُجدَ السُّلُّ فنادِر.

وأما الجراحةُ فمتقدِّمة بينَهم لـكثرةِ الفِتَنِ والُحروب ، فتراهم يَخِيطُون الجروحَ ، حتّى إنّ من خرجَتْ أمعاؤه يرُدُّونها ويخيطون عليهـا ويَبرَأ . وكذا يُداوُون الشِّجَاجَ بأنواعها[1]، وهناك ناسٌ يسمّونَ : الشَّلاَّنـْجِين[2] ، يعمَلون عمليةَ الـكَتَرَاتَا من العَين مع المهارةِ التامَّةِ . ولـكنْ لا أعلمُ كيفيةَ العملية ، ولا الآلاتِ المستعملةَ عنـــدهم لذلك . وأَعْرِفُ منهم رجلاً شهيراً يسمَّى : الحـاج نور ، غير أنهم لا يستعملون البتْرَ ولا القطعَ ولا الاستئصالَ . وأمراضُ الأُدْرَةِ[3] قليلةٌ عندَهم . هذا ما انتهى إليه عِلمى فى ذلك .

وأطباؤهم مُسِنُّوهم ، فلا تجدُ فيهم طبيباً شاباً إلا نادِراً . ومن بَرُع فى صناعة الطب تَهْرَع[4] إليه الناسُ ولو مِن مسافةِ أيام ، ويكرِمُونَه إكراماً تاما . وأكثرُ علاجهم التّشريط والـكَىّ ، ولا يستعملون من الباطِن إلا التَّمر هندى ، والعسلَ النحلى[5] ، والسمنَ البَقَرى .

عجيبة :

أخبرنى شيخى الفقيهُ مَدَنِى الفُوتاوِى ــ عليه سحائب الرحمة ــ أنّه كان أصيبَ بالنِّقْرِسِ الذى هو وجعُ المفاصـــلِ ، وهو المسمَّى فى كُتُبِ الطبِّ بداء الملوك .

---

(١) فى الأصل : بأنواع .
(٢) الشلانجين جمع ، مفرده : شلانج ، وهو لفظ فوراوى معناه : طبيب العيون Voyage, p. 288 .
(٣) الادرة : الفتق ، والمادور من يصيبه فتق فى احدى خصييه (عن القاموس) .
(٤) كذا فى الأصل بدل : تهرع بالبناء للمجهول .
(٥) فى الأصل : النحل .

وأنَّ أعرابيًا من الباديةِ وَصفَ له الوقوفَ فى السَّمنِ البقَرى ، فقال : أمرتُ بإحضارِ كثيرٍ من السمنِ البقرىّ ، وسُخِّنَ[1] على النارِ حتى ذاب (٢٥٤)ذوَبانًا تامًّا ، فنُزِّلَ[1] عن النارِ وتُرِكَ إلى أن هَدَأَ ، وصار يتحمَّله الإنسان ، ورُبِطَ لى حبلٌ فى سقفِ البيت ، وصار[2] طرفاه بيدىَّ ، وأُفرِغَ السمنُ فى قصعةٍ كبيرة ، وغَسلتُ رِجلَىَّ ، ووقفْتُ فى السَّمْنِ ،ومَسَكتُ[3] الحبلَ المذكورَ، فكان مُعيناً لى على طولِ الوقوفِ ، قال : فلم أشعرْ إلاَّ والسمنُ يسرِى فى جسمى كسريانِ السُّمِّ ، غير أنه أولا صَعَدَ[4] إلى ساقَىَّ ، ثم إلى ركبتَىَّ ، ثم إلى فخذَىَّ ،ثم سَرَى فى النِّصفِ الأعلى ، فصرتُ أَحِسُّ[5] به يصعَدُ فى جسمى شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى عُنقى ، فأخـذنى دُوارٌ وغُشِىَ علىَّ وكِدْتُ أسقط ، فتلقَّانى الخدَمُ ودَثَّرونى فى ثيابى ، وأضجعُونى على فراشِى ، وأنا لا أشْعُرُ بشىءٍ من ذلك ، فقلْتُ نهارِى كلَّه وليلِى كذلك ، ثم أفقتُ عند الصباحِ وأنا ناشطٌ كأنما حُلِلْتُ من عُقَال[6] ، ورأيتُ أنه خرج منى عَرَقٌ كثير كريهُ الرائحةِ . وبذلك شَفانى الله .

وأخبرنى غيرُ واحدٍ أن أهلَ الباديةِ كذا يفعلون ، حتى بلغَ هذا الخبرُ مبلغَ التواتر . ولـكونِهم يتعاطَوْنَ السحرَ كثيراً يتداوَوْن بالـكتابة . وعندَهم أناسٌ مشهورون بذلك ، وأكثرُهم شهرةً [ال]فَلاَّتَا .

---

(١) فى الأصل : « وسخن » و « فنزل » بالبناء المجهول ، ولكن بغير تشديد فيهما .
(٢) فى الأصل : وصارت .
(٣) كذا بدون همزة .
(٤) كذا بفتح العين فى الأصل .
(٥) كذا بفتح الهمزة وهى صيغة عامية سبق استعمال الماضى منها .
(٦) كذا بضم العين .

وكيفيةُ الولادةِ عندَهم أنه إذا أخذ المرأةَ الطَّلْقُ أتاها بعضُ العجائز من النســاء ، وربطوا[1] لها حبلاً فى سقفِ البيت فتُمسِكه وهى واقفة ، وتعتمدُ عليه كلما اشتدَّ بها الوجَع ، وتُفرِّجُ بين رجليها حتى يسقُطَ المولود ، فتتلقّاه (٢٥٥) إحدى النساء الحاضراتِ ، وتقطَعُ سُرَّهُ[2] وتَضجُعن[3] الباقياتُ النُّفَساءَ على فراشِها . فإذا تمَّ المولود أسبوع[4] عملوا له عَقيقةً ، كلُّ إنسانٍ على قدرِ حالِه ، فتجتمع النساء عند النُّفَســاء ، والرِّجالُ مع الرِّجالِ ، ويكونُ قد ذبحَ شاةً ، فتأكُل النساء والرِّجالُ لحمَ الشَّاةِ ، ويسمُّون المولودَ ، ثم يتفرَّقون . ويُطعِمون النفساء فى ذلك الأسبوع عند الصباح « المديدةَ » ، وهى : الحريرةُ ، بلُغةِ أهل مصر ، والحسُوُّ ، بلغةِ أهلِ المغربِ ، والكَريم ، بلغة الإفرنج ، وعند الظهر لحمَ دُجَاجَة[5] ، إن كانوا أغنياء ، فإن كانوا فقراء فالمديدة أيضاً[6] ، وهى مركَّبــة من دقيقِ الدُّخْن ، ودقيقِ التَّبَلْدِى أو الهَجْليج ، فإن كانتْ من الهَجليج كان بها مَرار[7] ، وإن كانت من التَّبلدى كانت حامضة . فإن تمَّ للمولودِ شهران أو ثلاثةٌ حمَلَتْه أمُّه على ظهرِها ، وربطَتْه بثَوبِها ، ويسمَّى ذلك الحمل : قُوقُو[8] . فتحمله كذلك وتذهبُ إلى شئونها من زرعٍ وماء وحطب ، حتى يشِبَّ .

ومن عادتِهنَّ أنهن يُرضِعنَ أولادَهنَّ حولَيْنِ فأقلَّ كالإسلاميِّين . ولا يُزَوِّجْنَ

---

(١) كذا فى الأصل .
(٢) السر ما تقطعه القابلة من سرة الصبى (القاموس) .
(٣) كذا فى الأصل .
(٤) فى الأصل : للولد اا سبوع .
(٥) فى القاموس : الدجاجة للذكر والأنثى ويثلث . وقد جاءت اللفظة هنا بالضم كما سترد لفظة دجاج بالضم أيضا فى صفحة ٢٨٩ .
(٦) فى الأصل : المديدة أيضه .
(٧) داب المؤلف على استعمال هذه الصيغة ، بدل : مرارة .
(٨) بهذا الضبط فى الأصل ، وفى الترجمة الفرنسية « gôgo » . Voyage, p. 291

بناتهن[1] إلا إذا بلغت البنتُ الحُلُم ، وعَرفتْ منفعـةَ الرَّجُل .

ولقد مكثتُ عندَهم سبعَ سنين ، ما رأيتُ عروساً تزوجَتْ قبلَ بلوغِها ؛ وإنْ عُقِد عَقدُها قبلَ البلوغ ، لا يَبْنى بها الرَّجلُ إلاّ بعدَ بلوغِها ، لأنّ عادتَهم أن الرجلَ يُمْـلِك ، ويَترك (٢٥٦) [عِرسه] مُدّةً ، فنهم مَن لا يبنى بعِرسِه إلاّ بعد سنتين ، ومنهم بعدَ ثلاث . والمستعجلُ منهم يبنى بعد سنةٍ لأنهم لا يُمْـلِكُون عليهـا إلا إذا نَهَزَتْ البلوغَ . هـذا فى البكر ، وأمّا الثيِّبُ فيبنى بها الرجلُ يومَ مِلاَكِه[2] أو غَـده .

* * *

وأمّا قراءةُ القُرآنِ فمتأخرةٌ جـداً ، لأنهم لا يقرءون القرآنَ إلا بالليلِ فى المكاتبِ ، فيكونُ الصبيُّ فى النهارِ سارحاً بماشيتِه من غَنم أو بقر ، وبعد أن يَرجِعَ فى المساءِ يأخذُ لوحَهُ ويذهبُ إلى المكتبِ . وعلى كلِّ صبىّ الإتيانُ بالحطبِ يوماً ، فيَقيدون[3] النّار ويُحيطون بهـا ، فيستضيئون بضوئها ، وعلى ذلك الضوء يحفظون ويكتبون . وحفظُهُم غيرُ جيدٍ ، فلذلك قَلَّ مَن يحفظُ القُرآنَ منهم حِفْظاً جيداً .

وأما قِراءةُ العُلومِ فمتأخِّرة أيضـاً[4] لعـدم العلمـاء . وأكثرُ قراءتِهم للفقهِ والتوحيدِ .

---

(١) فى الأصل : بناتهم .

(٢) أى تزوجه .

(٣) كذا وهى صيغة دارجة . تقول العامة : قاد النار يقيدها ، والصواب أوقد النار يوقدها . وقد استعمل المؤلف هذه الصيغة الدارجة فى أكثر من موضع من الكتاب ، كما سيرد مثلا فى ص ٢٨٥ .

(٤) فى الأصل : ايضه بالهاء وقد وردت هكذا مرارا .

وأمّا المعقولُ فقليلٌ جداً ، ومع قلّته لا يقرءون إلا قليلاً من النحو .

وأمّا المعَـانِى والبيانُ والبديعُ والمنطقُ والعروضُ فلا يعرفون منه إلا الاسم ، ومَن يعرِفُه منهم يكون قد تغرَّب لبلدٍ آخرَ كمِصر وتلقّاهُ فيه ، فإذا رجع إلى بلدِه كان هو العالم .

وأكثر مايُمانونه الرُّوحانىُّ والسِّحرُ ، ويسمُّون علمَ السحر : علمَ الطبِّ ، ومَنْ مهَر فيه سُمِّى : «طَبَّابِى» . وهذا العلمُ يوجَدُ عندَ الفُلاَّن أكثرَ من غيرِهم . وقد نذكُر ما وقَع من الفقيهِ مالِكٍ فى (٢٥٦) أولادِ السلاطينِ ، وسحرِه إياهم ، حتى رجعوا إلى الفاشِر بعـد ما هربوا منه ، وما وقع من الفقيهِ تمَرُّو .

* * *

تنبيه : اعلم أن دارفور — وإن كانتْ كلُّها إقليماً واحداً ، ومملـكةً واحدة — هواؤُها مختلف ، وأصحُّها القَوْز . فلذلكَ تجدُ مَن فيه من أعرابِ الباديةِ أقوياءَ أجْرِياءَ[1] ، لسلامَةِ أرضِهِ من العُفوناتِ والوَخِم[2] ، لـكنْ ماؤُه قليل ، فقد ذكرنا سابقاً أنَّ منهم مَن بينَه وبين الماءِ مسافةُ يومَيْنِ وأكثر .

ويليه فى الصِّحَّة بلادُ الزَّغاوةِ المُسَمَّاةُ بدارِ الرِّيح ، فلذلكَ تجدُ الزَّغاوةَ والبِدَيَّات[3] القاطِنين بها فى غايةِ القوةِ وسلامة الأعضاء .

---

(١) أصل هذه الصيغة : « أجرئاء » بهمزتين .

(٢) كذا بكسر الخاء .

(٣) احدى القبائل البدوية التى تسكن شمال دارفور ، وتقع مواطنهم شمالى الزغاوة وجنوبى القرعان . وينتسب البديات الى الزغاوة . محمد عوض محمد : (السودان الشمالى « ص ٢٦٧ ، ٢٦٨) .

Mac Michael, H.A.: op.cit. pp. 52-53.

وأرداها هواءً الصَّعيدُ لـكثرةِ مياهِها ، خصوصاً جبالُ مرّة ، ووَخمها وعفونَتِها، لـكنْ لا تـكونُ أرضُـه وخيمَـة إلاَّ على مَن لم يعتَدْها . وأمَّا المولُودون فيهـا تراهم أصحاءَ أقوياء ، لـكن عندَهم الحُمَّى كثيرة ، وأرْدَا مِن الصَّعيد المدنُ ، وأقوَاها الفاشرُ ، ويايه كُوبـيه وكَبْكَابيَّة . وأمَّا سِلا ، وفَنْقرُو ، وبِينْجا ، وشالاَ ، فأوخمُ الأماكنِ كُلِّها ، لـكثرةِ الرُّطوبَةِ عندَهم ، واستمرارِ الأمطارِ ، لأَنهـا لا تنقطِـعُ فى السَّنةِ إلاَّ مدةَ شهرين أو ثلاثة .

ومع ما فى دار الفورِ ممَّا ذكرناه من الأمراض ، كلٌّ منهمُ يحبُّ وطنَه ، ويألفُ سكَنَه . وإذا تحوَّل إلى غيره يبـكى عليه ، ويتمنَّى الرجوعَ إليه ، وهذه غريزةٌ جُبِل عليها الإنسان ، وانطبع عليها الجَنان ، (٢٥٨) من قديمِ الزمان . فلذلك كان المصطفى — صلى الله عليه وسلم[1] — يحنُّ إلى مكةَ حنينَ المشتاق ، ولولا أنَّ اللهَ أمرَه بسُكْنَى المدينةِ لأقام بمكَّةَ بعد الفتح باتفاق .

لـكنْ من حيثُ أنَّ أمراضَ بلادِ السودانِ لم تكن وبائية قتَّالة ، كانتْ أعمارُهم أطولَ من أعمارِ غيرهم ، فلذلكَ تجدُ فيهم المُسِنِّين ، حتى تجد من تجاوزَ المائةَ وعشرين[2] . وأما أبناء السَّبعينَ والثمانين والتِّسعين ، فلا يكادُ أن يحصُرَهم العَدّ ، ولا يوقَفُ لكثرتهم على حَـدّ . هذا مع ما ابتُلِيُوا[3] به من الفِتَنِ ، والحروبِ والمِحَن ، لأنَّ كلَّ قبيلتينِ منهم بينهما دَمٌ مَسفوك ، وثأر مطالَبٌ به غيرُ متروك . كما بيْنَ البَرْتى

(١) فى الأصل : ص م .
(٢) كـذا .
(٣) كذا فى الأصـل .

والزِّيادِيَّة[1] ، وبنى عَمرانَ والميمه و[ال]فلاَّتا والمساليط والمَسيريَّة الحُمر والرِّزيقات والمَجانين وبنى جَرَّار والزَّغاوَة والمحاميد مما لا يَـكادُ يُحصَى . هذا خلافُ فِتَن الملوكِ ، وخلافُ مايصيرُ من القتلِ فى مجاسِ الشّراب ، أو فى المعانَدة على الكواعِبِ الأتراب . ولولا ذلك لـكانوا فى الكثرةِ كيأجُوجَ ومأجُوج ، وضاق بهم الفضـاء والمرُوج .

فإنْ قلت : إذا كان الأمرُ كما ذُكِر ، فما بالُ النساءِ العجائزِ قليلة ، مع أنهنّ لايقاتِلْنَ ولا يحضُرْنَ حروباً . فلو كان ما ذُكِر صحيحاً فى عَدَمِ كثرةِ الرِّجال ، كان وجودُ النساءِ المسنّات كثيراً مع أنهنَّ مثلُهم أو أقلُّ ؟ قلتُ : لما كُنَّ يحزَنَّ على مَن قُتِل لهن من الرجال ، ويتحمَّلن بعدَهم الضُّرَّ والنَّـكال ، (٢٥٩) كُنَّ عُرضـةً للأمراضِ المرْدِيَة ، الجالبة للمنيَّة ، بسببِ ما يحصُل لهنَّ من الانفِعالات النفسانية ، ومع ذلك هُنَّ أكثرُ من الرجالِ المسنِّين .

ولقد كنتُ فى بلدةٍ أقلَّ عماراً وسُـكّانا ، وهو أبو الجدُول ، ورأيتُ فيها من المسنِّين والمسِنّاتِ كثيراً ، وكلّما دخلْتُ حِـلَّةً أرى فيهـا أكثرَ من ذلك ، مع أنّ معيشَتَهم فى غاية الانحطاط ، لو تناولَ[2] منها أحدٌ من أهل بلادِنا مرةً واحدةً لذهب منه النشاط ، لأن أكثرَ مَآكِلِهم إما مُرَّةٌ أو متعفِّنـة ، ويرَوْن أن هـذهِ هى النِّعمةُ المستحسَنة .

---

(١) تنتمى قبيلة الزيادية الى مجموعة بنى فزارة . كان القسم الأكبر من هذه القبيلة ، فيما مضى ، يعيش فى دارفور ، وقليل منها فى كردفان ، غير ان الزيادية فى دارفور تعرضوا لاضطهاد شديد زمن المهدية ثم زمن السلطان على دينـار ، ومن ثم اضطر معظمهم للمهاجرة الى قرب مواطن دار حامـد فى كردفان ، حيث أصبحوا من رعاة الابل . ولم يبق من الزيادية فى دارفور فى الوقت الحاضر سوى عـدد قليل . محمـد عوض محمد : (السودان الشمالى ، ص ٢٢١) . Mac Michael, H.A. : op.cit.pp. 262-3

(٢) كـذا .

(١وكنتُ حين حلَلْتُ ببلادِهم ، ولم أعتَدْ باعتيادِهم ، صنعوا فى الدار ويكة١) ، ودعَوْنى أن آكُلَ منها فأبيْت ، ولمـا سمع والدى بذلك قال لى : حيثُ لم ترضَ أن تأكل من هـذا الأُدْم ، لِمَ جئتَ هنا ؟ وصار متحيِّراً ، فـكان يتكلَّف ويصنَعُ لى أرزاً بلبَنٍ . ولمّا توجَّهتُ إلى الفاشِر ، ونزَلتُ فى بيتِ الفقيـه مالك الفُوتاوى ، حضر العَشاء فرأيتُ الأُدْمَ مُرًّا ، فسألت : ماهـذا ؟ فقيل لى : هذه ويـكّة الهَجْليج . فأبيْتُ أن آكلَ منها . فجاءونى بأُدْمٍ آخرَ ، فشممتُ منه رائحةً مُنتِنةً . فقلتُ : ما لهذا منتن[٢] ؟فقيل لى : هذه ويكّة الدُّودَرِى ، وهى جيِّدَةٌ عندهم . فأبيتُ أن آكل منها . فأخبرَ الفقيهُ مالك بذلك ، فأرسل لى لبناً حَليباً عليه عسل ، فأكلتُ منـه . ولمَّا حضر فى ديوانِه للسَّمَر قال لى : لِمَ لَمْ تأكل مِن ويكّة (٢٦٠) الهَجليج أو الدُّودَرِى ؟ فقلتُ له : إحداهما مُرّة ، وثانيتهما متعفّنة . فقال : هذا هو الطعامُ الذى يصلُح فى بلادنا ، ومَن لم يأكل هكذا يخشى على نفسِه من الأمراضِ .

والدُّودَرِى:ويـكّة تُتَّخـذ من عظـامِ الغَنم والبَقَر وسائرِ الحيوانات ، وهُو أنَّهم يأخذون عظمَ الرُّكبةِ وعظمَ الصّـدرِ ، ويجرِّدون ماعليها مِن اللحم ، ثم يضَعون العِظامَ فى خابيةٍ ، ويتركونها أياماً حتى تَعفَن ، فيُخرجونها ويهرسونهـا فى هاوُنٍ حتى ينهرِسَ العظمُ فى اللحم ، ويصنعونه كُراتٍ فى جِرْمِ البُرتُقان الـكبير ، فإذا أرادوا الطبخَ أخذوا قطعةً من كُرَة وذوَّبوها فى الماء ، فإنْ كان فيهـا قِطعٌ من عظمٍ صفَّوْها من مِصـفاة ، ثم صَبُّوا ذلك الماءَ فى القِدر ، ووضعوه على النار،حتى يصيرَ له قِوام ، فيأتُون بقِـدرٍ صغـيرٍ

(١-١) كذا بالأصل والعبارة ركيكة وكان أولى بالمؤلف أن يقول مثلا : وحدث حين حللت ببلادهم ، ولم أعتد باعتيادهم ، أن صنعوا فى الدار ويكة .

(٢) كـــذا .

يقطّعون فيه قليلاً من البصل، ويَقلُونه فى قليلٍ من السمن، ويُضيفونَه لذلك، ويَضعونَ فيه شيئاً من المِلح والفُلفُل والكُمْبا، إن وجِدَتْ، وهذا طعام لايوجَدُ إلا فى بيوتِ أمراءِ الفُور.

وأما ويكَةُ الهَجليج، فلا يخلو إمّا أن تكونَ من الوَرَقِ أو مِن الثَّمَر. فالتى من الورَقِ هى أنهم يجْنُون الوُرَيْقاتِ الطريَّةَ الحديثَة، ويدقُّونَها، وتوضَعُ فى القِدر على النّار، وتحرَّكُ بالمِسْواط حتى تمتزجَ مع ما فيه من الماء والدُّهن. وإن كانتْ من الثَّمر فكَيْفيَّتُها أنَّهم (٢٦١) يأخذون الثَّمرَ وينقعُونه فى الماء، ثم يهرِسُونه باليد، حتى يذهبَ لحمُه كلُّه فى الماء، ويأخذون ذلك الماء ويُصَفّونه فى قِدرٍ. فإن كانوا فقُراءَ وضَعوا عليه قليلاً من الشَّحمِ وأكلوا؛ وإن كانوا أغنياءَ قادُوا[1] النَّارَ حتى يصيرَ له قِوام، ثم عملُوا تقَليَّة كالتى ذكرناها فى الدَّودَرِى، وأضافوا لها لحماً مدقوقاً من القَديد، وصبّوا فيها الماءَ وتركوا الجميعَ على النار، حتى يحصل الامتزاجُ التامّ، فتُنزَل عن النار. وهذه من أعظم وِياكِهم[2]. هذا طعامُ أغنيائهم.

وأما فقراؤهم فقد ذكرنا سابقاً أنهم يأكلون الدُّخنَ بغيرِ تقشير، وأن أُدْمَهم قبيحٌ جداً، لأنه إمّا «كَوَلْ» أو ورقُ الهَجْليج الصغير الطرِىّ، المسمى عندهم بـ«النِّيَلْمُو»، أو ثُفْل السمسم، أو ثمر الهَجليج الأخضر، المسمَّى: عَنْقَلُو، أو ثمرُه الناضج، وملحُ كلِّ مما ذُكر الرَّمادُ المسمَّى بـ«الكَنْبُو»، لقِلّةِ الملح وغُلُوِّه.

وأترَفُ الفقراء مَن تكونُ له شياهٌ أو بقرةٌ يحلِبُ لبنَها، ويأخذُ زُبدَه، ويأتدم بمَخِيضِه. ولا يعرفون اللحمَ إلاّ بعدَ أشهُرٍ، إن ذُبحتْ فى البلدِ بقرةٌ أو ثور

(١) راجع ص ٢٨٠ حاشية ٣.
(٢) وياك جمع ويكة.

واقتسموها ، فيأخذُ الفقيرُ منهم قسماً على قدرِ حاله بأمدادٍ[1] من الدُّخنِ لا بشيء آخر .
ولذلكَ تجدُ أكثرَ شُبَّانِهم يُمانُون القَنيصَ .

* * *

وقد ذكرنا سابقاً أيضاً أنه فى كل سبتٍ يَضرِبُ الوَرْنَانْـيح طبلَه ، ويخرجُ الشبانُ كلُّهم معه للصيد ، فكلٌّ منهم يأتى فى المساء (٢٦٢) بما تيسَّر معه ، لأن غاباتِهم فيها كثير من الحيواناتِ الوحشيّة . فأكثرُ ما يَصيدونَه الأرنبُ ثم الغزالُ ثم أبو الحُصَينِ ثم بقَر الوحشِ . وإن وَجَدوا تَيْتَلاً مريضاً ، أو أخـذوه على غِرَّة ، قتلوه واقتسموا لحمه .

والتَّيْتَلُ حيوان وَحشِيّ ، على صورةِ البقر الأهلى ، إلا أنه أصغر جِرْما ، فأعظَمُه كالعِجل . وله قرنانِ صاعدان مائلانِ قليلا ، إما للخَلفِ أو للأمام ، طولُهما بنحو شِبرين وأقلّ ، ومع وحشيَّتِه فيه نوعُ بَلادةٍ[2] ، فلا يفِرُّ إلا من ناسٍ كثيرين . وأمّا من رَجُلين أو ثلاثةِ رجال فلا يفِرُّ ، بل يثبُت مكانَه ، وينظرُ إليهم نظرَ المتأمل .

ومن عادة الفور : أنهم إذا رأَوْه ينادونه بصوتٍ عالٍ : ياتيتَلُ يا كافر ! فيصـيرُ شاخصاً إليهم كأنه غيرُ مكترثٍ بهم ، فلا يبرحُ من مكانِه إلا إذا يَدنونَ[3] إليه دنوًّا كلّيّاً ، فحينئذٍ يمشِى رُوَيداً رويداً ، فإن رآهم جدُّوا فى طلبِه هرْوَلَ .

---

(١) أمداد جمع مد ، من المكاييل ، وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملء كفى الانسان المعتدل اذا ملأهما ومد يده بهما ، وبه سمى مدا . (القاموس)

(٢) فى الأصل : بلادة بضم الباء .

(٣) كذا .

والفرقُ بين التيتَل وبقرِ الوحشِ المعتادِ ، أنّ التيتَلَ وإنْ كان نوعاً من بقرِ الوحشِ ، إلا أنه أصغرُ حَجْماً ، وقرونُه تنبتُ معتدلةً كقرنِ الغزال . وبينَ القرنينِ من أعلى انفراجٌ كثير ، ولونُ التيتلِ أصفَرُ كلُّه .

وأمّا البقرُ الوحشىّ فنهم[1] الأسودُ والأصفرُ والأبلقُ الذى لونه مختلطٌ ببياضٍ كثير ، وقرونُه كقرونِ البقرِ الأهلىّ فى الغِلَظِ والاعوجاج ، وحجمُه كحجمِ البقرِ أيضاً (٢٦٣) ، وبهذا تعلمُ أنّ التيتلَ نوعٌ من البقر وبينَه وبين البقرِ الفروقُ المذكورة .

وهناك أناسٌ مشغولون بصيدِ الحيواناتِ لا حِرْفةَ لهم سِواها ، وكل منهم قد أعدَّ لذلك عُدَّةً ، فأما الشُّبانُ فيستعينونَ على الصيدِ بالكلاب والسَّفاريك لاغير .

وأما الحدّادون [2]فيحتالُون [على الصيد] وهم على قسمَيْن[2] :

منهم من يتمحَّضُ لصيدِ ذواتِ الأربع كالغزالِ وبقرِ الوحش والفيلِ والجاموسِ والضباعِ والسباعِ والخرتيت ونحوِها . وهؤلاء يجتمعون فِرَقاً فِرَقا ، كلُّ فِرقةٍ منهم خمسةُ أنفارٍ أو ستّة ، فيأتونَ للطّريق التى يمرُّ عليها الفيلُ وغيرُه حين ورودِه على الماء ، ويحفُرون فيها حفرةً عميقة أطولَ من قامة ، ويدقُّون فى مركزِها وَتِداً مدبَّبَ الرأس ، حادَّ السِّنّ كالرّمح ، ويصلِّبون على الحفرة أعواداً ضعيفةً ، ويغطُّونها بالحشيش ، ثم يغطُّون الحشيشَ بالتّرابِ . فيأتى الفِيَلةُ أو السباعُ أو بقَرُ الوحشِ أو الجاموسُ أو الخرتيتُ

---

(١) كـذا .

(٢-٢) فى الأصل : « فيحتالون ومنهم طائفة الصيادين المذكورين لا حرفة لهم سواها وهم على قسمين » ويظهر أن عبارة : « ومنهم طائفة الصيادين المذكورين لا حرفة لهم سواها » مقحمة على المتن ، علاوة على أنها لا توجد فى الترجمة .

واردةً للماء ، فتدورُ على تلك الحفرةِ ، فمتى ما ثَقُل على الأعوادِ الوطء تكسّرتْ تحتَ أرجلهم ، وسقط في الحفرةِ منهـا حيوانٌ أو اثنانِ ، فمتى نزَلَ الحيوانُ بثقْلِهِ على الوتدِ الذى فى المركز ، دخل ذلك الوتدُ فى لحمِـهِ فلا يقـدِر أن يتحرّك ، حتى (٢٦٤) يأتىَ صاحبُ الحفرة فيتمّم قتله ، و يأخذ لحمَه بعـد سَلْخِ جلدِه ، فيعمَلُون اللحمَ قديداً ، وهو المسمى عنـــدهم بالشراميط ، لأنهم يُشرْمِطونَه أى يقطّعونه سُيوراً ويأكلونَ منه طَرِياًّ .

فإن كانَ فيلاً أخذوا سِنَّهُ وجِلدَه ، وقَدَّدوا لحمَه . و إن كان خَرتيتاً أخذوا قَرْنَه وجلدَه ، وقدّدوا لحمَه ، وهذا القَديدُ يأكلونَ منه ، و يبيعون منه .

وكلُّ فرقةٍ لهـا جماعةٌ فى البلدِ يفتقِدُونهم فى كل أسبوعٍ ، ويأتونَهم بمـا يحتاجونَه من الزّاد وغيرِه ، ويكونُ معهم جَمَلٌ يحملون ما يجدونه عندهُم من القَـديد والجلودِ والقرونِ وسِنِّ الفيل . فيأتون بالجلود فيعملون منها الدَّرَق والسِّياطِ ، و يبيعون العاجَ وقرنَ الخرتيت والسِّياطَ للتُّجارِ ، و يبيعون الدَّرقَ للعسكر .

وهم قومٌ لا عهـدَ لهم و يسمَّوْن : الدَّرامِدَة ، فلا يُناكحونهم أبداً ، ولا يتزوَّجُ الدَّرْمُودِيّ إلاّ من جنسِه .

ومنهم من يتحيَّلُ على الصيدِ ، بأنْ يأتىَ لمحلِّ الوُحوشِ ، ويأتىَ بحبلٍ من قِدٍّ متين يجعلَه خُرْتةً واسـعةً ، فإذا مرَّ عليه شىءٌ من الوَحشِ ودخلَتْ رجلُه فى الخُرْتة — وهى دائرةٌ أشبهُ بالعُروةِ — فرفعَ الوحشُ رجلَه انخرطَتْ عليه ، وهى ماكِنةُ الأوتادِ ،

فلا يقدِر الوحشُ على قطعِها ولا قلعِها ، فيمكثُ حتى يأتوا[1] إليه (٢٦٥) فيقتلوه[2] .

ومنهم من يعلُو على شجرةٍ يقَيِّل تحتَها الوحش ، ويكونُ معه حربةٌ أو حربتانِ من الحرابِ الواسعةِ الحادَّةِ التي هي هكذا :



[حربة]

فيمكثُ في أعلى الشجرةِ حتى يأتيَ الوحشُ ويُقيِّلَ ويهدأ ، فينظُرُ لمَنْ هو قريب منه ويطعنُه وهو نائم في بطْنِه ، فتنفرُ باقي الوحوشِ التي معه ، ويمكُثُ المطعون فينزلُ إليه الصيادُ ويتمِّمُ قتلَه .

ومنهم من يتمحَّضُ لصيدِ الطيرِ . وأحسنُ طيرٍ يُصادُ عندَهم الُحبارَى ، وهو طائر عظيمٌ أكبرُ من الدُّجَاج[3] الرُّومي ، لونُه أبيضُ يميلُ إلى الاصفرارِ والخضرة ، يَسمَنُ في أيامِ الدَّرَتِ[4] سِمَناً مُفرِطاً ، ويكونُ لحمُه طريًّا لطيفاً . وهذا يألفُ دوداً

---

(١) في الأصل : يأتون .
(٢) في الأصل : فيقتلونه .
(٣) راجع ص ٢٧٩ حاشية ٥ .
(٤) راجع ص ٢٧١ حاشية ٢ .

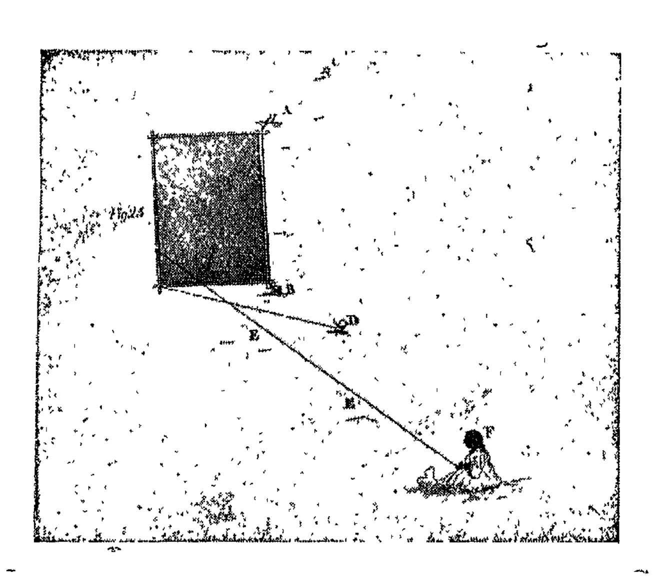
معروفاً عندهم ، وحشرات صغيرة . فيأتى الصياد بذلك الدود والحشرات ، ويكون معه خيطٌ قد فتله من العصب فتلاً جيداً ، وهو رفيعٌ لايكاد أن يُرى للطائر ، ويقصدُ المحالَّ التى يَصيدُ فيها . فمتى رأى الصيادُ الحُبارَى فى محلٍّ ربطَ حشرةً أو دُودةً فى خيطٍ ، وربطَ الخيطَ فى أسفلِ شجرةٍ ، ويذهبُ إلى الحُبارَى فيسوقُها — وفى الحُبارى بَلادَة لا تكادُ تطيرُ حتى يقرُبَ الإنسانُ أن يمسكَها — فيسوقُها لجهةِ الحشرةِ أوالدُّودةِ حتى تَراها ، فمتى (٢٦٦) ما رأتها هُرِعتْ إليها وابتلعتْها ، ولما صارتْ الحشَرة فى حوصلتِها وأرادتْ تذهَبُ ، يمنعُها الخيطُ من الذَّهاب ، فيأتى الصيّاد فيذبحُها و يضمُّها معه ، ويربطُ فى الخيطِ حَشرةً أخرَى ، إن كان هناك حُبارَى .

ويوجَدُ أيضا طيرٌ آخر يسمَّى : أبا طَنْطَرة ، وهو أبيض ؛ وهو طائرٌ أكبر من الحُبارَى بقليلٍ ، وله فى عنقه كيسٌ طويلٌ مخروطِىُّ الشَّكلِ ، أسفلُه واسع وأعلاه ضيِّق ، يبتلِعُ الحشراتِ أيضاً كالحُبارى .

ومنهم من يصيدُ الطيورَ الصغيرةَ بالشِّباك ، وهذا أقلُّ الدَّرَامِدَة كسباً ، لكونه يغرَم حَبًّا[1] ، إذ العصافيرُ وأبو موسى وأمثالُها، لا تقعُ إلاَّ على الحبوب ، فيأتى فى المحلِّ الذى يريدُ الصيدَ فيه ، بحيثُ يكونُ قربَ نهرٍ أو بِركة ، وينصِبُ شبكتَه ، وهى

(١) فى الأصل : حبا بكسر الحاء ، وتشديد الباء .

شبكةٌ مربَّعةٌ وصورتُها هكذا :



[شبكة لصيد العصافير]

ولها أربعةُ أوتادٍ : وتِدَانِ منها (٢٦٧) مربوطانِ لِصْقَ ركنَيْها ، ووَتِدانِ مربوطان في حَبْلينِ طويلينِ في ركنيها الأخريَيْن[1] ، فيدقّ الأوتادَ في الأرض ، وفي قُرب أحدِ أركانها الوحشِيّ[2] حبلٌ متين طويل جداً ، فينصِبُ الشبكةَ ويبْذُرُ الحبَّ أمامَها ، ويأخذُ طرفَ الحبلِ الطَّويلِ ، ويمكثُ بعيداً عنه . فمتى نزلتْ الطيورُ وكثرت على الحبّ ، كَفَأَ الشبكةَ عليها بالحبلِ الذى فى يدِه . وعيونُ الشبكةِ ضيقة جداً ، فلا يخرجُ منها عُصفور ، ولا يُفلِتُ منها شيء ، فيأتى صاحبُ الشبكةِ ويأخذُ الطيورَ منها . فإن كان فيها ما هُو غالى الثَّمنِ كالدُّرّة أو البَبَّغاء ونحوِه ، أخذ ريشَ جناحيه وتركه

---

(١) كذا ، بالتأنيث .

(٢) الوحشى : الخارجى .

فى مِكْتَلِهِ[1] . وإن لم يكُنْ فيهـا ذلكَ ذبَحها كلَّها ، وبذَر حبًّا آخر . وحينَ كنتُ هناكَ كانتْ لى شبكَة ، وكنتُ أصطادُ بها فى بيتى ، فطالما شبعتُ من العصافير بصيدى بها .

وهناكَ مَن هو مُغرَمٌ بصيدِ القُرود والنَّسانِس فى الجبـــالِ ، ولا أعرِفُ كيفيَّةَ اصطيادِهم بها .

وأحسنُ مِن ذلك كلِّه الصَّيدُ بالبارودِ ، لأنّ الإنسانَ هناكَ متى ما كان معه بندُقةٌ جيِّدَة ، يشبعُ من لحومِ الحيوانات بغــيرِ مَشَقَّة . ومِن الأغنياء مَن يشترى من الدَّرامِدة عَبـداً ولا يكلِّفُهُ إلاّ بالصيد ، فلمَّا نصَح ذلك العبدُ أشبعَ سيِّدَه من اللحمِ .

ولقد رأيتُ عند شيخِنا الفقيهِ مَدَنى عبداً يسمَّى : سعيداً ، مُسِنًّا . فأخبرَنى (٢٦٨) أنه صيادٌ ، وأطعَمنى لحمَ غزالٍ . وذكر أنه مِن صيدِه ، وأنه لابدَّ له فى كل جُمعة أن يأتىَ له باللَّحمِ مرَّتيْن أو ثلاثا . فصِرتُ أتمنَّى أن يكونَ لى عبدٌ مثلُه فما عَثرتُ عليه .

وقسمٌ مُتمحِّضٌ لصيدِ الزَّرافِ والنعامِ ، وهم أعرابُ البادِية : كالمحاميد والزَّبدَة والعَريقات بدار الوَادَاى ، والمجانين والزَّيادِيَّة و بنى جَرّار والعَريقات بدار الفور ، وكلٌّ مِن هؤلاءِ يصطادُ على الخيل ، فأكثرُهم صيداً أسبقُهم جواداً .

ثم إنّ الإنسانَ منهم إذا رأى صيداً وتبعَه لا يقْفُو أثرَه ، بل يُبَارِيه حتى يحاذِيَه ،

---

(١) المكتل : الزنبيل .

ومتى تمكّن من فريسته عقرَها . فأما النّعامُ — وإنْ كان شديد العَدْو — فيوجَدُ مَن يلحَقُه ، وأما الزّرافُ فلا يكادُ يلحقُه فى العَدْوِ فَرَس ، ولذلكَ لا يلحقُه إلا الفرسُ الذى يمرُّ كالريح .

وأعرابُ الباديةِ ، فى دارفور ودار وادَاى ، مُنعَّمون فيما يشتهُون ، لايحتاجون إلاّ إلى الدُّخنِ والذُّرةِ والملبوساتِ ؛ لكنْ يشترونَ ما يحتاجونه من ذلك ، بما زاد عن كفايتِهم من السّمنِ والعسلِ والمواشى وجلودِ الصّيد والبقرِ والإبل ، حتى إنهم يجلبُون لدار الوادى ولدار الفور الأجرِبَةَ [1] والقِربَ و[ال]بُطَط [2] و[ال]حِبال [ال]مصنوعة مِن سيورِ الجلد ، و يسمُّون هذه الحبالَ الجلديّةَ بالوَجَج والسّياط وغيرِ ذلك .

وأما السَّمنُ فمِن أنعامِهم ، و[أما] العسلُ فمِن الأشجارِ لأنّ النَّحلَ يعشّشُ فيها ، وهم يجتنونَه . والصّيدُ كثيرٌ ، فلذا ترَى (٢٦٩) ريشَ النّعام عندَهم لا قيمةَ له ، وكذا قرنُ الخرتيت .

وحينَ كنتُ فى دار الوادى ، جاء بعضُ التّجارِ من فَزّان يطلُبُ ريشَ النعام ، وطلب من الشريف أحمد الفاسى الذى توزَّر بعدَ أبى ، أن يكتبَ له كتاباً إلى الشيخ شَوْ شَوْ ، شيخ المحاميدِ ، بالوصيّةِ عليه ، وأن يأمرَ الأعرابَ بالصّيدِ له برفْقٍ فى الثمن ، وكان معه خمسونَ ريالاً من الفرَانْسَا . فكتَب له الشريفُ بذلك ، فأخذ الكتابَ وتوجَّهَ

---

(١) الأجربة جمع جراب .

(٢) صورة الكلمة فى الأصل بطط بدون ضبط ؛ وقد كتبها پيرون فى الترجمة الفرنسية (أول صفحة ٣١٠) بحروف لاتينية هكذا battah . وترجمها بقوله : « أوعية من الجلد تستعمل فى حفظ السمن أو العسل » . وعلى هذا يرجح أن الكلمة الموجودة بالمتن هى صيغة الجمع للفظ : بطة ، وتقرأ : بطط بباء مضمومة وطاء مفتوحة .

إلى المحاميدِ بدليلٍ من العربِ ، ومكثَ هناكَ ماشاءَ اللهُ أن يمكُثَ . ولما جاء أخبرَنا بأنه حين وصلَ إلى حيِّهم وسأل عن بيتِ الشيخِ دُلَّ عليه ، فنزَلَ في أكرم ضيافةٍ ، وأرحبِ نُزُلٍ . ولما أراهُم كتابَ الشريفِ زادَ الشيخُ في إكرامه ، وبالغ في التلطُّفِ والبرِّ به[1] ، وأفردَ له بيتاً من الشَّعر ، بفرشِهِ وجميعِ ما يحتاجُه ، ووكَّل وصيفاً ووصيفَةً لقضاء مهمَّاته ، وكان ذلك التاجرُ أخذ معه هدية للشيخ المذكورِ ، فقدَّمها له فقبِلَها منه وأثابه عليها .

ثم إنّ التاجرَ سلَّم للشيخ الحسينَ ريالاً ، فطلبَ الشيخُ العربَ وقال لهم : هذا رجلٌ غريبٌ أضافني والتجأ إليَّ ، ويريدُ ريشَ النعام ، فمن كان له أرَبٌ في الرِّيالاتِ فليغدُ للصَّيد من الصباح ، وكلُّ من أتى بجلدِ ظَليم[2] فله نصفُ ريال ، ومَن أتى بِرَبْداءَ[3] فله رُبع رِيال . فاهتزَّ العربُ لمطلبِه وأصبحوا قانصين ، ففي يومٍ واحد (٢٧٠) جاءوا بنحو عشرين ظليماً ، فمكثَ عندَهم نحو من[4] عشرين يوماً ، فجمعَ فيها نحوَ مائةِ جلدِ ظَليم[5] ، وحملها له الشيخ على إبله ، وزوَّده بزادٍ كثير .

---

(١) في الأصل : وأكبربه .

(٢ ، ٣) في القاموس ، الظليم : الذكر من النعام ، وفيه : الربداء من المعز السوداء المنقطة بحمرة ، ولكن المترجم پيرون يورد في ترجمته شرحا سمعه من الشيخ مؤلف الكتاب مضمونه : ان النعامة البيضاء التي لها في كل جناح ثمان ريشات بيض ، اربع كبار واربع وسط ، تسمى بالظليم ؛ وأما النعامة التي لها مثل هذا العدد من الريش الرمادي فتسمى : أربدا (arbada) (كذا ولعل المترجم يقصد : ربداء) ، وقد حرف عرب السودان الاسم الى ربده (rabdah)
Voyage au Darfour, p. 459.

(٤) كذا وقد ورد هذا التعبير مرارا .

(٥) أي : جلد نعام أبيض الريش . Voyage au Darfour, p. 311.

وكان من جملةٍ ما جاء به دُهْنُ النّعام ، فإنه جاءَ منه بكثيرٍ . وأتى ومعه من العسلِ ، والكَنْيا كِنيا ، والسَّرْنَة ، والكَرْنَو[1] ، شيء كثير . وباع فى وارَة[2] الظليمَ[3] بثلاثة ريالات . ولم يبقَ معه إلاّ نحوُ عَشْرةٍ من الجلود ، وربح ربحاً كثيراً .

وأما الزَّرافُ لا[4] نفع فى المَتْجَر إلا بجلودِه يبيعونها ، وأما لحمُه فيأكلونه طَرِيًّا وقَديداً . ويوجد عند العربِ من الأُرز ، والدِّفْرَة ، والكُوريب ، والهَجليج ، والتَّمر هندى ، والعسلِ ، والكَرْنَو ، والسَّرْنَة ، مالا يوجدُ عند غيرهم . وأما اللبنُ فلا قيمةَ له عندهم لكثرتِه ، يأخذون منه السمنَ ويرمون رائبَه ، حتى إنّ مَن أتى إلى أحيائهم ، وخصوصاً أحيـاء الرِّزيقات ، و [ال] مَسيريّة الحُمر ، والحَبّانية ، يجدُ الغُدرانَ والبِركَ القريبةَ منهم كلها لبناً .

---

(١) انظر شروح هذه الألفاظ فى الفصل الخاص بالنبات الذى سيرد بعد .
(٢) وارة عاصمة واداى :
(٣) يريد جلد الظليم
(٤) كـــذا .

الفصل الثاني [1]

في معاملة أهل دارفور

قد تقرّر في علم التوحيد أن الحقّ — تعالت أسماؤه — غنيٌّ عن المحلّ والمخصّص، فهو صاحبُ الغَنَاء المطلَق، لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلْقِه، وجميعُ الخلائق لفضلِه مُحتاجون، ولنواله سائلون، وعلى أبواب رحمتِه مُزدحمون.

فنظرَ إليهم بعينِ رحمتِه، ووهبَ لكلٍّ منهم ما يقومُ به وبعائلَتِه، وفضّل (٢٧١) بعضَهم على بعضٍ في الرِّزق، فجعل منهم الملوك، ومنهم الغَنيّ ومنهم الصُّعلُوك. وجعل لهم أسباباً يتْبَعونها في طَلَبِ الأرزاق، وأمرَ بالسعيِ والاجتهادِ خوفَ الإملاق.

ومِن عظيمِ مِنّتِه أن جعلَ البيعَ والشراء حلالاً بينَ الناس، لينالوا مافي نفوسِهم ويذهبَ عنهم الباس. فجعل في البلادِ المتمدِّنَةِ النّقدَيْن، قرةً للعَيْن، ينالون [2] بهما ما يَحتاجونَه من أمور معاشِهم، ويُضطَرُّون إليه في ارتياشِهم. وخَصَّ — سبحانَه وتعالى — كلَّ مملكةٍ بسِكّةٍ معروفة، ودراهمَ ودنانيرَ بينَهم مألوفَة.

لكنْ لمَّا كانتْ أهلُ السودانِ في بوْنٍ عن التمدُّنِ العظيم، وفي ظُلمةٍ وحشيَّةٍ

---

(١) في الأصل: فصل.

(٢) في الأصل: يتنالون.

كالليلِ البهيم ، كان أغلبُهم لا يميزُ الذهبَ من النحاس، ولا القَصديرَ من الرّصاص ، حتى مَن كان فى بِلادِهم معدِنُ الذّهب يبيعونه تِبْراً ، ويرَوْن أنَّ بيعَه كذلك أحْرَى؛ سِيّما[1] مملكةُ دارفور، [التى] ليس بها شىءٌ من المعادن إلاّ ما جُلِب إليها من الأقطار ، حتى إن أعظمَ حُلِىِّ نسائِهم كما تقدَّم من أنواعِ الأحجار . فهم جَديرون أن يكونوا بمَعْزِل عن المعاملةِ بالفضَّةِ والنُّضار . لكنْ لمَّا وَطِئَتْ بلادَهم التُّجار ، وتَمَصَّرتْ بالمتاجر فيها الأمصار ، احتالوا إلى سِكَّةٍ بها يتعامَلون ، ويشترونَ بها ما يشتهون ، فانقسموا فى ذلك أقساماً ، وأذهبَ كلٌّ قسمٍ منهم بما اصطَلح (٢٧٢) عليه مِن المعاملةِ أواما .

فأولُها الفاشرُ ، وهو مَقَرُّ السَّلطنةِ ، وتَخْتُ المملكة ، جعلوا من القَصدير خواتِمَ يشترون بها ما يحتاجونه مِن لحمٍ ودجاجٍ وطيبٍ وحَطَبٍ وخَضراواتٍ وغيرِ ذلك، وتسمَّى: بالفوراوية : تارْنِية . وهى على قسمين :غليظةٍ ،وتسمَّى: تارنيةْ تُونْقَانِيه ؛ ورفيعة،وتسمَّى تارْنيه بيّا[2] ، يتعامَلون بها فى سفاسِف أمورِهم كما ذكَرْنا. والأمورُ المُهمّة يتعامَلون فيها بالتَّكاكِى ، جمع تُكَّيَة ، وهى : شِقَّةٌ من غَزْلٍ قُطنٍ ، طولُها عَشْرةُ أذرُعٍ ، وعرضُها ذِراعٌ ، وهى على نوعَيْن : شِيكَهْ ، وهو مَنسوجٌ خفيف غيرُ مُندمِج ؛ وكُنْكَات ، ومنسوجُها ثقيلٌ مُندَمِج . فمن الأوّلِ : كلٌّ أربع تَكاكِى بريالِ فرانْسا ، ومن الثانى: كلٌّ اثنين ونصف[3] بريال فرانسا . وما عَدا ذلك فبيْعُهم كلُّه استبدالُ شىءٍ بشىءٍ .

---

(١) فى الأصل : وسيما .
(٢) فى الأصل : بَيّيَا والضبط عن الترجمة الفرنسية
Voyage au Darfour, p. 315 .
(٣) كذا فى الأصل ، وفى الترجمة الفرنسية : كل أربع تكاكى ونصف
Voyage au Darfour, p. 315.

والأمور العظامُ عندَهم تُباع بالرّقيق ، فيقالُ : هذا الفرسُ بسُداسيَّيْن ، أو بثلاثة سُداسيًّا . والسُّداسِيُّ عندَهم العبدُ الذى إذا قيسَ بالشِّبرِ ، من كَعْبه إلى شحمةِ أُذنِه ، كان طولُه ستّةَ أشبار ، والسُّداسيَّةُ كذلكَ . وقيمةُ السُّداسِيِّ ، من التّكاركى ، ثلاثونَ تُكّيّة ، ومن الشّواتِرِ الزُّرْقِ ستّة ، و[من] البيضِ ثمانية ، ومن البقرِ ستّة ، ومن الرِّيالات فرانسا عَشرة ريالات ، وكلُّ إنسانٍ يشترى بما عندَه .

ولا يعرفونَ المحبوبَ ، ولا القِرشَ ، ولا القَرانك ، ولا الخيريّة ، ولاَ شيء[1] من مُعاملاتِ (٢٧٣) أهلِ المدُنِ ، سِوَى الرِّيال الفرانسا ، المسمّى عندَهم : أبا مِدفَع .

وأما أهلُ كوُبيه وكَبكابيّة وسَرَف[2] الدّجاج ، فإنهم يتعاملون بالحرش[3] ، وهو : خرزٌ ليس بالغليظِ ولا بالرّفيع ، منه أخضرُ ومنه أزرقُ ، يُعمَل سُبَحًا ، كلّ سُبحةٍ مائةُ حبّة ، وقد قدّمنا الشرحَ عليه فى حُلِيِّ النساء وزينتهنّ ، فيتعاملون به فى سفاسفِ الأمورِ عِوَضًا عن التّارْنيه فى الفاشر .

ومن العجائب أن التّارْنيه فى هذه الأسواقِ الثلاثةِ لا تَسقِى شَرْبةَ ماء ، بل المعامَلةُ بالحرشِ من خمسةِ[4] حبّاتٍ إلى مائةٍ ، ومن سُبْحةٍ ، إلى عَشْرةٍ ، إلى مالا نهايةَ له. وقيمة التُّكّيّة عندَهم ثمانِ سُبَح . و بقيّةُ الأحوالِ كالفاشرِ .

وأمّا قِرْلِى وما ولاها[5] ، فيتعاملون بالقَلْقُو ، وهو مِلْحٌ صناعِىٌّ مستخرَجٌ تُرابًا من الأرض ، و يصُبُّونَ عليهِ الماءَ على غالبِ ظَنِّى لرسوبِ الأوساخِ والأتربةِ ، و يُصَفَّى ، ويُقطِّرون ماءَه لنقصِ هذا الماء ، و يتلقّوْنَ المقطَّرَ منه فى قوالبَ كالأصابع ، فيجْمُدُ بعد بُرودَتِه ، و يصيرُ كالأصابعِ .

---

(١) كــذا .
(٢) فى الأصل : صرف .
(٣) راجع ص ٢١٦ .
(٤) كذا .
(٥) كــذا .

وقد شاهدتُ محالّ استخراج هذا الملح ، ورأيتُ أوانِيَ التّقطير وُيشابهون[1] البرامَ الأفرنجية ، ولا نعلمُ مَن أوصَلَ هذه الصناعة إليهم . وأهلُ البلدِ لايعلمونَ أيضاً ، بل قُصَارَى أمرِهم إذا سُئِلوا وقال لهم قائل : مَن علّمَكم هذهِ الصناعةَ ؟ أن يقولوا : شيء وجدْنا آباءنا يفعلونه (٢٧٤) ففعلناه ، ولا نعرفُ أولَ من صنَعه .

ولقد عاملتُ بهذا الملح واشتريتُه ، وله لذّةٌ عجيبةٌ فى طعمه، تخالفُ لذّةَ الملح الطبيعى ، إلاّ أنه غيرُ شفّافٍ وفيه سُمْرة .

وأنواعُ المِلحِ فى دارفور ثلاثة ، زغاوِى : وهو ملح طبيعى يخرج من بئر الزغاوى ، [وفَلْقو] وقد قدّمنا ذِكْرَه ، ومِيدُوبِى : وهو ملحٌ طبيعىٌّ أيضا ، إلاّ أنه لونُه أحمرُ كالدّم ، وقد يُستخرجُ قِطعاً كبارا كأحْجَار[2] الطاحونِ فى العِظَمِ والاستدارة . وثِقْلُه لايحملُ الجملُ منهُ إلاّ حجرَيْنِ ، وله طعمٌ لذيذٌ أكثر من النّوعينِ الآخَرينِ ، وأغلَى[3] ثمناً منهما ، ولانعلمُ ماسببُ احمرارِه . وبالجملة فأغلى الأملاح المِيدُوبِى ، وأوسطُها الفَلْقو ، وأدناها الزّغاوى . فأهـلُ سوقِ قِرلِى وما والاها يتعاملون بالملح الفَلْقو فى سفاسف أمورِهم ، كالحَرشِ فى كُوبيه ، والتّارْنـيه فى الفاشر. ولا يُباعُ عندهم الملحُ بكَيلٍ ولاوَزنٍ ، بل بالأصابع ، فيباعُ هذا الشىء بفَلْقويَه ، بفَلْقويَتين[4] ، بثلاثة[5] فَلْقويات، وهكذا وباقى الأمورِ هُمْ كغيرِهم .

---

(١) كذا فى الأصل :

(٢) فى الأصل : كبار كالحجار .

(٣) فى الأصل : وأغـلا .

(٤) فى الأصل : بفلقويه بفلقوتين .

(٥) كذا .

وأما سوقُ كُساً فيتعاملون فيه بالدُّخانِ ، ويُسمَّى بلغتِهم : تابَا ، كما يسمُّونه الإفرنج . وهذا الاتفاقُ من العجائبِ . ولا خُصُوصِيَّةَ لأهلِ دارفور ، بل جميعُ السودانِ يسمُّون الدُّخانَ : تابَا . وأمّا أهلُ فزّان وأهلُ طرابلس المَغرِب فيسمُّونَه : تبْغاً .

وفي سنةِ ١٢٣٢[1] رأيتُ قصيدةً (٢٧٥) لبعضِ البَكريِّين ، في حِلِّ شُربِ الدُّخانِ ، وأظُنُّ تاريخَ كتابتِها في وسَط القرنِ التاسعِ من الهجرةِ ، يقولُ فيها ، من الطويل :

وقد أظهر اللهُ القديرُ بمصرِنا نباتاً يسمَّى: التَّبْغَ ، مِن غيرِ مِرْيَةِ
بتاءٍ مُثنَّاةٍ وباءٍ مُوَحَّدٍ وغَينٍ ، وضَبْطُ الغينِ فيها بفَتحةِ

ومنها :

ومَن يدَّعِي التَّحريمَ جَهْلاً فقل له : بأيِّ دليلٍ أم بأيَّةِ آيَةِ ؟
وليسَ بها سُكْرٌ ولا اللهُ ذَمَّها[2] ؛ فقولكَ بالتَّحريمِ مِن أيِّ وِجهةِ ؟

ومنها :

فإن تنتَشِقْ دُخَّانَها فترَى الشِّفَا فلا تَنسَ باسمِ اللهِ أوَّلَ مَصَّةِ
وقُلْ بعْدَ ذاكَ : الحمدُ للهِ وحْدَهُ . فحمدُكَ للمَوْلَى زيادةُ نِعمَةِ

انتهى .

وهذا التَّابَا هو أقماعٌ أهراميَّةُ الشَّكلِ ، مصنوعةٌ من ورقِ الدُّخانِ بعدَ دَقِّهِ — وهو أخضرُ — في مِهراسٍ من خشبٍ حتى يصيرَ كالعجينِ ، ويجعلونَهُ أقماعاً

---

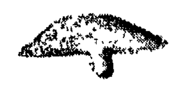
(١) ١٢٣٢ هـ = ١٨١٦ م .
(٢) في الأصل : زمها ، بالزاي .

ويجففونها فى الشمس ، وبعد جفافها يبرزونها إلى سوقهم ، ويتعاملون بها فى سفاسف أمورهم . وهذا الدخانُ قوىُّ الرائحة ، يكادُ إذا شمَّه إنسانٌ أن يأخذه الدُّوار . وهذه[1] الأقماع ،منها ماهو كبيرٌ ، ومنها ماهو صغير؛ فكبيرُها كأكبر الكُمَّثرى ، وصغيرُها كصغيرها .

وأما كَرْيُو والرِّيل والشَّعيرِيَّة ، (٢٧٦) فإنَّهم يتعاملون فيها بـ « الرُّبَط » ، وهى رُبَطُ غَزْلٍ من قُطن ، طولُها عَشَرة أذرُع ، وفيها عشرونَ فتلةً لا غَيْر ، فيتعاملون بالرُّبَطِ فى سفاسِفِ أمورِهم ، ويتعامَلون فى الأُمورِ التافِهةِ جدًّا بالقطنِ ، كما يُجتنَى من شَجرتِه ، أى بِغلافتِه[2] التى خرج منها . فيتعامَلُون بقطَع منه كأوقيَّةٍ وأوقيَّتَيْن وثلاثِ أَواقٍ ، على سبيل الحَدْسِ والتَّخمين لا بالوَزن ؛ و[فى] الأمور المهمة كباقى الأسواقِ .

وأمّا سوقُ نُمْلِـيةْ وما والاها ، فعاملتُهم بالبصَل ، يشترونَ به جميعَ أمورِهم التَّافهَة ، والقطنِ أيضاً ، والرُّبَط ؛ وباقى أمورِهم بالتَّكاكى ، ولا يعرفونَ الشَّواتِرَ ولاَ الرِّيالاَت .

وأما سوقُ راسِ الفيلِ فبالحشَّاشاتِ . وهى قطعٌ من حديدٍ مصنوعٍ صفائحَ ، ولها أنبوبةٌ ، وصورتُها هكذا :



[حشاشة بدون قضيب]

---

(١) فى الأصل : ومن هذه .
(٢) كذا بتاء التأنيث فى غلافة .

فيُدخلون فى طَرفها الأنبوبيّ قَضيباً ، ويحرُثون بها الزرعَ ، فتقطعُ الحشيش الذى فى الزّرع ، ولذلك سمِّيت : الحشّاشة . فيتعاملونَ بها فى سفاسفِ أمورهم وتافِهِها ، مِن حشّاشةٍ إلى اثنين[1] إلى عشرينَ . ومازادَ على ذلكَ فبالتّـكاكى والشّواترِ كباقى الأسواقِ .

وأما تمُوزكه ، فمعاملتهم بدَمالِج النّحاسِ ، وهى فى مُهمّاتِ أمورهم ، وبالخدُّور فى (٢٧٧) سفاسفِ أمورهم . وقد تقدَّم تعريفُ الدّمالِج والخدُّورِ فى حُليِّ النساء ، فلا إعادة[2] .

وأما أهلُ القَوْزِ ، فيتعامَلون بالدُّخْنِ فى سفاسفِ أمورهم كُلِّها ، كقبضَةٍ ، وحَفْنَةٍ ، وحَفْنَتينِ ، إلى نِصْفِ مُدٍّ ، إلى مُدّ . وباقى أمورهم المهَمّةِ بالتّـكاكى والرِّيالاَتِ كباقى الأسواقِ . وأكثرُ مايتعاملونَ به البَقَرُ ، فيقولون : هذا الفرسُ بعَشْرِ بقراتٍ ، أو بعشرينَ .

فانظرْ أيُّها المتأمّل إلى أهلِ مملكةٍ واحدةٍ ، كيفَ تنوّعتْ مُعامَلاتها ، واختلفتْ أحوالهُا ، فترى هؤلاء يرَوْن شيئاً حسناً ، وهؤلاء يرَوْنَه قبيحاً ، والملِكُ لايحكمُ عليهم بإجراء مُعاملَةٍ واحدةٍ فى جميعِ الأسواق ، بل أبقى كلَّ قومٍ على ما اعتادُوا . فسبحانَ الفعّالِ لما يُريد ، ولْنُمسِكْ عِنانَ القَلمِ عن الرّكضِ فى مَيْدانِ المُعاملات ، لأنَّ ماذكرناهُ فيه كفايةٌ فى الاعتبارات .

---

(١) كــذا .
(٢) راجع صفحة ٢١٣ ــ ٢١٨ .

الخـــاتمة [1]

بـــاب

فيما ينبت فى دارفور من النبات ، وفى السِّحْر والتعزيم ، وضرب الرمل ، وغير ذلك .

اعلَمْ أنَ الغَنِيَّ عن المَـتَى والأَيْنِ والـكَيْف ، والمُنزَّهَ عن الجَوْرِ والظُّلمِ والحَيْف ، قسَّم الأشياء وعدَّلها ، وأنزلَ كُلاًّ منها منزِلَها ، فجعلَ فى البلادِ الشَّماليَّةِ البرد الشديد ، وفى الجنوبيَّةِ الحرَّ الذى ماعليه من مَزيد . لـكنْ لرحمتِهِ بعبادِه ، مَنَّ علَى أهلِ الشَّمالِ بالدِّفء (٢٧٨) بالملابسِ ، وبالأَكْنانِ [2] التى لايبرد فيها الُمجالس . ونظر لأهلِ الجنوبِ بعين الإسعاف والتَّلطيف ، فجعل المطرَ ينزلُ عليهم وقتَ اشتدادِ المصيف .

---

(١) ليس لهذا العنوان المستقل وجود فى الأصل ، رغم ما ذكر المؤلف فى تقسيمه (ص ٥) من أنه رتب الـكتاب على مقدمة ومقصد وخاتمة وفى كل منها أبواب .

(٢) الأكنان ، جمع كن ، بالكسر ، وهو البيت ، أو وقاء كل شىء وستره .

ولما كانت أرضُ الفُورِ من هذا القَبيل ، وفى وقتِ الصَّيفِ يشتدُّ فيها الغَليل ، كان مِدرارُ الوبْلِ مُطفئاً لوَهجِ ذلك الحَرُور ، لُطفـاً من العزيزِ الغفور . فيزرعونَ على مطرِ الصَّيف ، ويسمُّون ذلك الفصلَ بالخريف . فلذلك — على ظنِّى — لايزرعون بُرّاً ، ولا شعيراً ، ولا فولاً ، ولا عَدَساً ، ولا حِمَّصاً ، ولا ينبتُ عندَهم المِشمِشُ ، ولا الخوْخ ، ولا التفّاحُ ، ولا الرُّمان ، ولا الزَّيتون ، ولا البَرقُوق ، ولا الـكُمَّثرَى ، ولا التُّرُنْج ، ولا اللَّيمُون الحُلْو ، ولا البُرتُقـان ، ولا اللَّوز ، ولا البندق ، ولا الفُستُق ، ولا الجوْز ، ولا الزُّعرور[1] ، ونحو ذلك .

بل يزرَعون الدُّخْنَ ، وهو حَبٌّ صغيرٌ أصفَر ، منه يقْتاتون هم ودَوابُّهم ومواشيهم ، فهو الغذاء الرَّئيسُ عندَهم .

ويَزرعون الذُّرَةَ على اختلافِ أنواعِه ، ويسمَّى عندَهم : المـاريق ، وهو أنواع : فنوعٌ منه يسمَّى : العَزيز ، وهو الذرةُ الحمراء ، ونوعٌ يسمَّى : أبا شَلْـوانْـو ، وهو الذرة البيضاء ، ونوعٌ يسمَّى : أبا أباط ، وهو الذُّرةُ المعروفَةُ فى مصرَ بالذُّرة الشّامى .

ولا يُزرعُ القمحُ عندَهم إلاّ فى جَبلِ مَرّة ، لِـكثرةِ الأمطارِ فيه ، أو فى كُوبِـيه وكَبْـكَابيّة ، ويَسقُونه من (٢٧٩) الآبارِ حتى يتمَّ نُضجُه كما تقدَّم ذلك .

والدُّخنُ عندَهم نوعان : [نوع معتاد ، و][2] نوعٌ يسمَّى : دِنْـبِى ، وهو مايزرَعُه أعجامُ الفُورِ فى الجبالِ وغيرِها ؛ وهو حَبٌّ كالدُّخنِ المُعتادِ ، إلاّ أنه يميلُ إلى البياضِ ، وسُنبلُه أغلظُ منه ، وينضَجُ زرعُه قبلَه بنحوِ عشرين يوماً ، وهو قليلٌ فى سهلِ دارفور ، ولا يألفونَه كالدُّخنِ الأصفر .

---

(١) الزعرور : ثمر شجرة . الواحدة زعرورة ، تكون حمراء وربما كانت صفراء ، له نوى صلب مستدير (اللسان) .

(٢) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 324

وأمّا أنواع الذُّرَةِ فلا يألفونَ منها إلا الأبيض ، ومع أُلفتهم له لا يكثرُونَ من تناوُلِه . وأما أبو أباط فيزرَعُون منه قليلاً للشَّهْوةِ ، فيأكلونه مشويًّا ، ولا يخزنون منه حَبًّا . وأما العَزِيرُ فهو مَبغوضٌ عندَهم لايأكُلُه إلا الفُقَراء ، وعندَ الاضطِرار .

وينبتُ عندَهم فى البِرَكِ والغُدرانِ أرزٌ ينبُتُ بدونِ زارع ، فيجمَعون منه ماقدِروا عليه فى أيامِ الرَّبيع ، فيطْبُخونَه باللّبنِ من قبيلِ التَّرَفُّهِ .

وعندَهم نوع آخرُ يقرُبُ من الأرزِ وليس بأرزٍ ، ويسمَّى بالدِّفْرَة ، وهو حَبٌّ صغير، أصغَرُ من حبِّ الأرزِ ، وفيه بعضُ قَرْطَحَة ، شديدُ البياضِ ، يألفونَه أكثرَ من الأرزِ .

ويزرعونَ من السِّمسِمِ شيئاً كثيراً . ومن العجَبِ أنهم لا ينتفعون منه بزيتٍ ، بل يأكلونه حَبًّا ، ويَطبُخونَ منه فى أطعمتِهم . كما أن العَسَلَ النَّحلِيَّ كثيرٌ عندَهم ، ولا ينتفِعونَ بشمعِه ، بل يأخذون العسلَ ويَرمُون الشمعَ ، وهم أحوجُ الأنامِ إليه وإلى زيتِ السِّمسِمِ ، لأنهم (٢٨٠) يَستصْبِحُون فى بيوتِهم بالحطب ، ومع كَثْرةِ الحطبِ عندَهم ، لا يُفَحِّمون منه فَحماً ينفعُهم ، ولا يعرفونه .

ويزرَعون اللُّوبيا والبِطِّيخَ مع الدُّخنِ سَواء ، فأمّا اللُّوبيا فهى كاللوبيا بأرضِ مصر إلاّ أنها أكبرُ ، لأنهـا عندَهم تقرُبُ من حبِّ الفول المصرى . وأمّا البِطِّيخُ فأكثرُه صغيرُ الحجمِ ، كالبِطِّيخِ الذى يكون فى آخرِ فصلِ البِطِّيخِ فى المَقْثَأة ، وإذا كُسِرَ يكونُ غير نَضيجٍ ، لـكنَّ الذى فى دارالفور — معَ صغره — نَضيجٌ .

ولهم فى البِطِّيخِ ثلاثُ منافع ، الأولى : أنّهم يأكُلونَ منه حالَ نُضجِه كما نأكلُ بِطِّيخَنا [فى مصر](١) ، ويشربون ماءه كذلك . الثَّانيةُ : أنهم يأخُذونَ البِطِّيخةَ وينزِعونَ

(١) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 325

قِشْرَها بالسّكِّين ، ثم يَقْطعونها أربعَ قِطَعٍ ويترُكونها حتى تجفّ فيخزنون منه مِن هذا القبيلِ شيئاً كثيراً ، وفى وقتِ الاحتياجِ يدُقُّونه فى مِهراسٍ من خَشَبٍ حتى يَصيرَ دقيقاً ، فيعمَلونَ منه حَسْوًا[1] يُشرَبُ ، وتسمَّى عندَهم : مَديدةً ، وهى المسمَّاةُ بعُرفِ الأورُوبّا بالكريمَة . وربما أكلوا منه بغيرِ دَقٍّ ولا طَبخٍ . الثالثة : أنَّهم يجمعُون من البزرِ شيئاً كثيراً ويخزنونه ، ويدُقُّونه وقتَ الاحتياجِ ، وينسِفُون قِشرَهُ ، ويأخُذون اللُّبَّ فيطبُخونه فى أُدْمِهِم ، أو يعملُون منه السكريمَة أيضاً .

ويزرَعُون البصَلَ والثُّومَ والفُلْفُل ، وهو حب (٢٨١) صغير ، والكُسْبَرَة ، وحَبَّ الرَّشاد ، فى كوبيه وكَبكابيّة ، وفى أودية جبال الفور كما تقدم .

[٢]ويزرعون القرع بأنواعه ، ويزرعون نوعاً من القِثّاء[٢] .

وفى كوبيه وكَبكابية يزرعون الخيار ، والفقُّوس الطويل ، والباذنجان ، والملوخية ، والبامية ، وفى غيرها لا [توجد هذه الخضراوات إلا نادراً ، وذلك فيما عدا البامية][٣] .

وهناك وادٍ بين البلد المَسْمِيَّة[٤] بمَرْبوطَة والفاشر ، يسمى : وادى السكوع ، يفيض وقتَ الخريف من كثرة الأمطار ، فلا يعبرُه إلا من يعرف السباحة . وفيه تيار شديد ، فإذا فاض هذا الوادى وطفَا الماء على شاطئيه ، ثم نضَب ، ينبت فيه من البامية شىء كثير ، فيهُرَعون[٥] إليه من الجهات القريبة له ، ويجمعون تلك البامية ويجفِّفونها ، ويدّخرونها لأُدْمِهِم العامَ كُلَّه[٦] . وهذا الوادى يشقّ دارفور بالعرض من أولها

---

(١) الحسو كعدو اسم ما يحتسى . (القاموس) .

(٢-٢) الراجح أن هذه العبارة متأخرة عن موضعها الصحيح بالمتن ، والأصح أن تورد قبل لفظ « والكسبرة » المذكور قبل ، وذلك استنادا إلى ترتيب الترجمة الفرنسية

(٣) الزيادة منقولة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 326.

(٤) فى الأصل : المسمة ، والراجح أن المؤلف يريد الصيغة العامية التى أثبتناها فى المتن والتى استعملها المؤلف نفسه أكثر من مرة فيما مضى .

(٥) فى الأصل : فيهزعون .

(٦) فى الأصل : كلها .

إلى آخرها . و نشأؤه[1] من جبال مرة ، وعلى شاطئيه سياج من شجر السَّنْط . و إذا فاض يعمّ من كل جهة من جهتيه ماينُوف عن فرسخين ، إلا فى بعض المحـــالّ ضائقة[2] الرمال . وسَــعَتُه فى بعض المحالّ كخليج مصر[3] ، وفى بعضها أوسع بمرتين . يسافر المسافر على شاطئه نحو خمسة عشر يوماً . وإنما ذكرتُ أنه بين مَربوطه والفاشر ، لأنى مررتُ به كثيراً من هناك ، وإلا فهو ممتدّ كما ذكرت .

ويزرعون فولاً قرونُه تــكون تحت التراب ، وليس (٢٨٢) كالفول المسمّى فى مصر : «السنّارى» الآن ، لأن ذاك فيه ألوان عجيبة ، من أحمر ناصع ، وأصفر ، وأبيض ، وبُنىّ ، كما تقدم ذلك .

* * *

وأما الأشجار فليس عندهم من الأشجار المعروفة[فى مصر] إلا النَّخل ، وهو فى كُوبيه ، وكَبــكابِيّة ، وسَرَف الدجاج ، وتُمْليه ، كما تقدم ذلك فى التــكلم على جبل مَرة .

وفى تُمْليه بعض شجر من الموز ، وفى قِرْلى شجرات من اللَّيمون الحامض ، وبقية الأشجار الموجودة هناك كلّها نابتةٌ طبيعةً فى الخــلاء . فأعظمها منفعةً الهَجليج ، وله نوعان : الهَجليج الأصفر ، والهَجليج الأحمر ، وذلك بحسب لون ثمرها . وهـــذا الثمر كالبُسْر[4] الغليظ .

والهَجْليج : شجر يعظم كما يعظم الجُمّيز فى أرض مصر . أوراقه بيضيَّة قليلا ، وله ثمر

---

(١) النشاء والنشأة بمعنى .

(٢) فى الأصل : ضايقته .

(٣) كان عرض هذا الخليج لايزيد على عشرين قدما . Voyage au Darfour, p. 327.

(٤) البسر : التمر قبل أن يرطب لغضاضته ، أو : ما لون ولم ينضج (اللسان)

حُلو الطعم ببعضِ مرارة . وله رائحة خاصةٌ به . ولهذا الثمر غلاف [أبيض] [1] يكون عليه ، وهو قشرة ليست بالغليظة ولا بالرفيعة ، فينزعونها ويمصّون الثمرَ مصًّا ، لأنه خشبٌ مكسوٌّ بشيء كالطِّلاء يُمتصّ أو يُبَلّ بالماء . فإذا ذهب صار الخشب ، أى : نواه ، أبيض . وهو غلاف لِشَيء كالصَّنوْبر هيئةً و بياضاً . وهو بزر إلا أنه أكبر منه حجماً ، لكنه مرٌّ الطعم . فيعطِّنُونه فى الماء نحو ثلاثة أيام ، ويغيّرون ماءه فى كل يوم ، فتذهبُ مرارته . وحينئذ بعضهم يملّحه بالملح ، و بعضُهم يقلُوه ، وبعضهم يطبُخه بالعسل . و إذا كان مملوحاً ، كان طعمه كطعم اللَّوز المملوح .

وهناك نوع ثانى[2] من الهَجليج (٢٨٣) وهو الهَجْليج الأحمر ، فيأخذون لُبَّه بعد نُضجه ، و يضيفون عليه الصمغ ويعجنونه به ، فيصير حلواً مرًّا لذيذاً . وعلى الإطلاق يأكلون ثمر الهجليج على كيفيات مختلفة .

ولشجر الهَجليج هذا منافع لاتوجد عندهم فى غيره من الأشجار . لايرمون منه شيئاً ، بل ينتفعون بجميع أجزائه . فأما ورقه [3] فإنهم يطبخون الطريّ الغضّ منه فى أُدْمهم . و إذا كان بإنسان جُرح [4] فيه دُود ، يمضُغون من هذا [5] الورق حتى يصير كالعجين ، و ينفخونه فى الجرح ، فيَنْقَى من الدود ، وينظُف من اللحم النَّتِن [6] ، و يأخذ فى البُرْء .

---

(١) الزيادة من الترجمة الفرنسية . Voyage au Darfour, p. 328.

(٢) كذا ، بدل : ثان .

(٣) فى الأصل : ورق .

(٤) فى الأصل : جراح .

(٥) فى الأصل : هذه .

(٦) فى الأصل : النتن بفتح التاء .

و إذا أخذ ثمرُ الهجاليج وهو أخضر، وهُرس فى مِهراس حتى صار كالعجين، نفع كالصابون فى غسلِ الثياب، فإن له رُغوة كالصابون يُنقِّى الأوساخ، و ينظّف الثيابَ المغسولةَ به، إلا أنه يصفّرها قليلاً. و إذا لم يكن وقت الثمر، تؤخذ جذور الشجرة وتدقُّ و يغسَلُ بها، فتفعلُ ذلك.

وخشبُه يستصبَحُ به فى البيوت بالليل عِوضاً عن السراج، لأنه لا دُخَان له. ومن خشبِه تعمَل ألواح القراءة. ومن رماده يعمَل الكَنْبُـو، وهو ملح سائل يؤخذ من الرماد المذكور ويطبخ به، إلا أن به مَرَاراً[1]، وذلك عند إعوازهم للملح لقلّته وغلوّه.

والنَّبْق، وهو نوعان: عربى، وكَوْنُـو. والثانى أكبر حجماً من الأول، وأكثر لحماً، ويخالفه فى اللون. فإن النبقَ المعتادَ العربى إذا نضَج احمّر لونه، والكَرْنُـو إذا نضج اصفّر (٢٨٤). وهذا أنفع من الأول.

ومن منافعه أن الثّمر عجينهُ يُمسِك إطلاقَ البطن. وقبلَ ما يُدقّ و يعجَن يُنحَتُ[2] جلدتُه الظاهرة، ثم يعملون منه أقراصاً، و يجففونها و يأكلونها. و إذا كسر نواه يوجَد فيه بِزرَتان فى مسكنَيْن. والعرب يأخذون هذا البزر الصغير و يجفّفونه فى الشمس، ثم يطبخونه بالعسل فيصيرُ لذيذاً، و يبيعونه فى دار الفور، ويسمى: كَـنْيَا كْـنيا، فيؤكل كالحلْوَى. و إذا مضَغ مَن به دودُ القَرْح، مِن ورق النبق الكَرْنُـو، وازدرَد ريقَه، قتَل دودَ القرح وأخرجَه ميّتاً.

والتَّبَلْدِى: وهو شجر عظيم ضخم، أجوف الجذع، ينبتُ فى الفيافى. وأهل البادية إذا اشتدّ بهم العطش فى غير وقت الأمطار، يأتون إلى التّبلدى فيجدون فى تجويفه ماء

---

(١) كذا فى الأصل.
(٢) كذا فى الأصل.

مجتمعاً من المطر فيشربون منه ويذهَبُ أُوامُهم . ولهذا الشجر ثمرٌ مستطيل كبير كالأَلْواز ، فى باطنه بِزر أحمَر ، كحبِّ التُّرمُس فى الحجم ، وكبِزر الخرُّوب فى اللون ، إلاّ أنه فيه دقيق أبيضُ حامضُ الطعم ، يُستَفّ منه فيوجد مُرًّا . والاستفافُ منــه على الريق يقبِضُ إطلاقَ البطن . وتُعمل منه الـكرِيمَة مع الدّقيق فتصيرُ لذيذة .

وشجر الدُّلَب : وهو المسمى فى عُرف مصر بالجَـوز الهِندى ، إلا أن هذا الشجر لايوجَد فى جميع دار فور ، بل لايوجَد إلاَّ فى الجهة الجنوبية منهـا ، ويسمى فى عرف الفور بالدّلـيب : وهو شجر (٢٨٥) طُوال كالنخلِ أو أطول ، وينتج جوزاً كبيراً ، إذا كُسر غلافُه وجد مافى باطنه فى غاية اللَّذة ، لاسيَّما قبل تمامِ نُضجه ، فإنه يكون كاللبن مع الحلاوة واللَّذة .

ومن أشجارهم ، الُحمَّـيض : وهو شجر شائك كأضخم ما يكون ، وله ثمر كالتفاح الـكبير ، إلا أنّ له عَجَماً[١] ، وفيه حموضة لذيذة ، ولونه أبيض يميل إلى الصفرة .

ومن أشجارهم ، الدّوم : وهو شجر معروف فى صعيد مصر ، ويسمّى بالمُقْل أيضاً .

ومن أشجارهم ، العَنْدُرَاب : وهو شجر متوسط فى الطول والغِلظ ، يحمل ثمراً أشبهَ بعنب الذئب ، إلاّ أنه أحمر قانِى الحمرة ، ولا عَجَم فيه . وهذا الثَّمر حُلْو[٢] الطعم جداً ، ينضَج فى أول فصل الدّرَت ، أى : الربيع ، بلغتهم ، وهو أول فصل الخريف عندنا[٣] .

ومن أشجارهم ، القِـدّيم : وهو شجر أشبه بشجر[٤] الرمَّان ، يحمل ثمراً صغيراً ذا

---

(١) العجم بالتحريك نوى كل شيء . (القاموس) .
(٢) فى الأصل : حلوا .
(٣) أى فى مصر .
(٤) فى الأصل : شجر .

فلقتين،عليه جلدة حمراء ناصعة الحمرة ، فى غاية الحلاوة ، وعَجَمُه كبير ، ولا أجد له شبيهاً فى فواكهنا أمثِّله به .

ومن أشجارهم ، شجر المُخَيْط : وهو شجر صغير يحمل ثمراً كالنبق، فيه مَرَار ، فيؤخذ و ينقع فى الماء أياما فتذهبُ مرارتُه ، فيرش عليه الملح و يطبخ ويؤكل . ومن الناس من يجفِّفه بعد النقع و يسحقُه ، حتى يصير دقيقاً ، وتعملُ منه عصيدَة ، وهذا الفعل خاص بأيام الغلاء ، واشتداد الكرْب .

ومن أشجارهم ، اللُّولُو : وهو (٢٨٦) شجر يقرُب من شجر الجوْز ، المسمَّى بعَيْن الجمل ، يحمل ثمراً كثمر أبى فَروة ، إلا أن ثمر أبى فروة فيه تفرطُح . وهذا كحبِّ البُندق ، لكنه أكبر من البندق فى الحجم ، [و]يساوى حجم أبى فروة . وأبوفروة : هو المسمَّى فى بلاد الترك بالكَاسْتَنا ، وفى تونس بالقَصْطَل . وهذا الثمر لُبُّهُ دَسِم ، ولا يوجدُ إلا فى الجهة الجنو بية فى آخر دارفور ، أى فى جهة بلاد الفَرْتيت. وأهل تلك الناحية يعصِرون منه زيتاً . ولقد رأيتُه ووجدتُه أكثر شبها بالشِّيرِج[1] فى الهيئة ، و بزيت الزيتون فى الطعم ، فيدهنون منه ، و يجعلونه أُدْماً فى أطعمتهم .

ويوجد الخَرُّوب والجُمَّيز[2] ، لكنهما رديئان[3] لا ينفعان بشىء .

ويزرعون القطن بنوعيه : البَلَدى ، ويسمَّى عندهم بالعربى ؛ والهندى ، ويسمَّى عندَهم بـ « لَوِى » . و ينتفعون عنه[4] أتم المنافع ، لأن منه كساويَهم ، وبه معاملتهم ، كما قدَّمنا ذلك فى باب المعاملات .

* * *

---

(١) كذا بالشين فى الأصل ، واللفظ فى اللهجة المصرية : السيرج ، بالسين ومعناه : زيت السمسم . وفى الترجمة الفرنسية : «Syrig» Voyage P. 332

(٢) فى الأصل : الجميز ، بفتح الجيم .

(٣) فى الأصل : رديئين .

(٤) كـذا .

وأما الأشجار التى لا يؤكل لها ثمر فكثيرة جداً ، تكاد ألاّ تدخلَ تحت حصر ، ولكن نذكر أشهرها وأنفعها فنقول :

من أنفعها ، العُشَر : وهو شجر قصير ، متعدد الفروع ، جذعه مكسُوّ بشىء أبيض كالشّحم . إذا ضُغط بين الأصابع يتفتّت . ورقُه كبير ، و إذا كُسر يخرج منه عُصارة بيضاء كاللبن ، وله ثمر كالكُرة ، باطنه ممتلىء بشىء كالزّغَب أو الوَبَر ، يتطاير فى الهواء لخفته .

ولهذا الشجر منافع ، منها (٢٨٧) : أن عصارتَه إذا وضعت على جلد حيوانٍ أزالت شعرَه ، و يُلَحّون[1] لحاءه ، فتوجد فيه خيوط رفيعة كالحرير ، فتُجمع ويُفتل منها خيوط تنفَع لخرْز القِرَب ، و يفتَل من اللّحاء حبال فتنفع للرّبط والحمل . والوبَر الذى فى الثّمر تسَدُّ به خروقُ القِرب . ومن عادتهم إذا سرقوا حماراً أو فرساً ، وأرادوا تغيُّرَ شعر موضع منه ، يدهنون المحل الذى يريدون تغيرَه بهذه العصارة ، فيذهبُ الشعر ويخلُفُه شعرٌ أبيض ، فيَشْتَبهُ على أربابه ، لكن منهم مَن يعرف ذلك للاعتياد به . وخشبُه خفيف كخشب القفَل[2] ، ورأيتُهم يسوِّدون البارودَ بفحمِه . وفى اشبتالية أبى زَغْبل شجرة منه ، وفى الصعيد كثير منه أيضا[3] .

ومنها شجر يسمى : الحَشَاب ، وهو شجر ذو شوك ، ومنه يؤخذ الصمغ العربى . ولقد رأيته واجتنيتُ منه الصّمغَ ليِّنا يمتدّ كالعِلْك . و ينبت فى الأماكن المُعْطَشَة الرملية .

---

(١) يلحون : يقشرون .

(٢) بهذا الضبط فى الأصل ، وانظر شرحه فى الصفحة التالية .

(٣) فى الأصل : ايضه .

ومنها ، السَّنْط : وهو شجر القَرَظ ، وهو شائك ضخم .

ومنها ، الطَّلْح : وهو من فصيلة السَّنط . والطَّلح : شجر يعلو أكثر من قامة ، ولحاؤه أحمر ، وله شوك طويل[1] كالإبر ، وورقه مركَّب من وُرَيقات صغيرة .

والسَّيَال[2]: شجر طويل يعلو أكثرَ من قامة، لكن أصغر من الطلح .ولون قشره أخضر، يضربُ إلى البياضِ ، وله شوك أبيض ، وأوراقه مركّبة ، كلُّ ورقةٍ من (٢٨٨) وُرَيقات صغيرة .

ومنها ، الكِتر: وهو شجر ذو شوك وفروعٍ كثيرة ، وشوكه كالسِّنَّارة ، وله صمغٌ يجتَنى منه ، لكن صمغ الخشاب أغلى وأحسن منه .

ومنها ، اللَّوُوت : وهو شجر صغير ، ذو شوك صغير ، وفروع كثيرة ، فيه اخضرار لا يفارقه وإن جفّ . إذا قُشِر لحاؤُه تُشَمُّ[3] منه رائحةٌ كريهة خاصة .

ومنها ، القَفَل[4] : وهو شجر ليس بالكبير ولا بالصغير ، لكن أكثره ينبت في الجبال .

ومنها ، الحرَاز : وهو شجر هائل الضَّخْم والكبر ، ذو شوك ، يعظُم جِذعُه ، حتى لا يعتنقَه الرجلان إذا مدّا باعيْهما ، ظلُّه ظليل ، حتى إن منه ما يجاس في ظلِّه مائةُ رجل وأكثر .

وبالجملة فالأشجار التى لا يؤكل لها ثمر ، تنفع فى أمور أخرَ . فإنهم يقطعون منها الأخشاب لبيوتهم .

---

(١) فى الأصل : طويلة .

(٢) فى الأصل : والسيال بفتح السين وتشديد الياء .

(٣) فى الأصل : وتشم .

(٤) ورد « القفل » فى اللسان بسكون الفاء ، والقفل جمع قفلة ، وهى شجرة بعينها تهيج فى وغرة الصيف فاذا هبت البوارح بها قلبتها وطيرتها فى الجو .

أما السَّنط ، فَقَرَظُه للدِّباغ ، وشُعَبُه الطويلةُ عُمَد لبيوتهم .

وأما اللَّوُوت ، فلحاؤه يربطون به سقفَ البيوت ، وفروعُه يجعلونها فى السقوف وفى الصَّريف . والصَّريف عندهم ، عِوَضٌ عن الحائط عندنا .

وأما الـكِتِر والـكَشَاب ، فيأخذون منهما الصمغ ، وأحيانًا يقطعون شوكهما، يجعلون منه الزرايب لمواشيهم ولبيوتهم . لأن لـكل بيت زريبة غالبًا ، وهى كناية عن السور ، وصريفًا ، وهو كناية عن الحائط . والبيوت فى الوسط أشبه شىء بالخِيَم والطُّوزْلُكِ المضروب حولها (٢٨٩) .

والبيوت إما من قصب الدُّخن ، أو من قصب رفيع يسمى : المَرْهَبيب، والثانى لا يُعمل إلا للأغنياء وأكابر الدولة . وهو قصب ناعم قليلُ الـكعوب ، رفيع كالسِّمار ، أبيض ، يميل إلى الصفرة ، زكى[1] الرائحة ، خصوصًا بعد نزول المطر .

* * *

واعلم أن النبات فى بلاد السودان كثيرٌ لا يَحصِى[2] أفرادَه العَدّ ، ولا يوقَف له على نهاية ولا حدّ . ولا أعرف منه إلا ما اشتهر وذاع ، وملأتْ شهرتُه البقاع ، لأنى كنتُ إذ ذاك[3] فى سنِّ الشباب ، والجهلُ سابلٌ علىَّ جلباب[4] . لـكن لـكثرة مخالطتى بهم ، وأسفارى معهم ، عرفتُ ما عرفتُه بالاسم ، ولا أقدِر أن أميِّزَهُ تمييزًا[5] كليًّا .

فمنه ، شجر «الشَّاوُ» : وهو شجر كبير وصغير ، وصغيره أكثر من كبيره . وهذا الصَّغير أطول من القامة ، وقشوره خضراء بالنسبة للـكبير . لأن قشرةَ كبيره مغبَرَّة ، أعنى أن لونَها أغبر ، وهو اللون الذى يقرب للبياض ، وليس أبيض ناصعًا . ويحمل فى إبَّان

---

(١) فى الأصل : ذكى .

(٢) كـذا .

(٣) فسر المترجم ذلك الوقت بأنه مدة اقامة التونسى فى دارفور وواداى
Voyage P. 336

(٤) كذا ، وقد عدل المؤلف عن نصب جلباب مراعاة للسجع .

(٥) فى الأصل : تميزا .

حمله عناقيدَ تأكل منها أهل الشـــودان . وهذه العناقيد فيها حبٌّ كأصغر العنب ، ما نضِج منه يكون أسود ، وما قرُب للنُّضج يكون أحمر ، وما لم يقرُب منه يكون أخضر. وطعمُه حُلو ، فيه بعض حرافة . وورقه يغلُب على ظنى أنه بيضِىّ ، أو يقرُب من أن يكون بيضيًّا ، أخضرُ الظاهر والباطن .

والبَطُّومُ : شجرٌ كبير هائلُ المنظر ، أغبر اللون ، غليظُ (٢٩٠) الساق ، صَلْب الخشب ، أوراقه صغيرة بيضية ، فى حوافِيها تَسنُّن . وترى قِشرةَ الساقِ من أسفلَ مشققةً شقوقاً غيرمنتظمة ، وثمرُه كثمر «الشَّاوُ» ، وعناقيدُه أيضاً . إلا أن هـذا لِحَبِّه أذناب طويلة ، ولا يؤكل ثمره ، وهو أصغر من ثمر «الشَّاوُ» ، وتعلو ساقُه أكثرَ من قامتين ، ويتفرَّع فروعاً كثيرة .

وأما الأَبنُوس : فهو شجر متوسط ، وقشرتُه خضراء داكنة ، والأَبنُوس قَلبُه . فإذا لُحِّيَتْ القِشرة انكشفَتْ عن عُودٍ أسـودَ ، إلا أنه يكونُ سوادُه خفيفاً وهو أخضر ، فـكلَّما يبِس ازداد سوادًا . وأحسنُ الأَبنُوس ما أخِذ من الجذور ، وهذا النبات لا يوجد فى دار الفور ، وإنما يجلَب من دار الفرتيت إليها .

والجُوخَان أو الجُوغَان كذلك ، إلا أن الجُوخان له ثمر كالبندق فى الحجم ، حلوُ الطعم ، فيه بعضُ يُبوسة كالغُضروف .

وأما الجَغْجَغ : فهو شجر متوسط أيضاً ، ولون ساقه يميل إلى الحمرة ، وفروعه ليست كثيرة التفرع ، وفيه شوك طويل ، وأذنابُ أوراقه قصيرة ، فربما ظُن أنها ملتصقة بالفروع لقصَر أذنابها . وهـذه الأوراق مستديرة مُسنَّنة تَسنُّناً غائراً . وثمره كثمر

الزُّعرور ، وفيه مسَاكن ، إلا أنه غُضروفى ، أو فيه خشبيَّة . وأغلب ظنى أن فى كل ثمرة أربعةَ مساكن ، بينها حواجز .

وأما دار فَرتيت ـ وهم (٢٩١) مَجوس السُّودان ، المحاذُون لجنوب دارفور ـ فينبُت فيها القَنا ، ومنها يصنعون أعواد حرابهم . وأكثر أعوادِ حرابِ أهل الدولة فى دارفور من القنا ، وهو جميل جدًّا ، ويُجلَب من دار فرتيت .

* * *

وأما النباتات التى فيها الخواصّ ، فمنها شجرة كِيلِى : وهى شجرة متوسطة لا شوك فيها ، تثمر ثمراً كالزُّعرور ، إلا أنه خشبى ، يؤخذ الثمر ويُنقَع فى الماء ، ويُسقى المتْهوم[1] . ولون هذا الثمر كلون الرمان الحامض إذا جف .

والشَّغْلُوب : وهو شجر نصف خشبى كثير الفروع ، ليِّنُها ورفيعها . تمتدّ فروعُه وتشتبك ببعضِها متراكمةً ، حتى تصيرَ الشجرةُ وحدها كالأكَمَة . وله ثمر كالبَلَح الكبير الأخضر ، ولا عَجَم ولا نوَى فيه ، وفيه عصارةٌ لبنيةٌ ببعض لُزوجَةٍ[2] ، لطعمه بعضُ حلاوةٍ ابتداء ، وحرافةٍ انتهاء ، أخضر ، لا يفارقُه لونُ الخضرة ولو جفّ . إذا مضغَه شاربُ الخمر أزال ريحتَها[3] ، وقد تقدم ذلك[4] .

ومنها دَقَرَة : وهو نبات حشيشى ، ينبُت فى الأراضى الصَّابة ، أوراقه رقيقَة ، فيها نوع استدارة . إذا دُقّ الورقُ فى هاوُن وعُصر ماؤه فى العين الرمداء ، المتورمةِ بالتهاب حادٍ ، ثلاثةَ أيام صباحاً ومساء ، أبرأه .

---

(١) صيغة عامية .
(٢) فى الأصل : لزوجة .
(٣) كذا بالاصل ، وهى صيغة عامية .
(٤) راجع ص ٢٢٣

ولقد كنتُ فى سوق نمليه فى غير رؤية الجبل[1]، ومَسكتُ[2] بيدى الفلفل وصرت أعبث به ، ثم هبّت ريح فقذيت عيناى ، فدعكتهما (٢٩٢) بيدى ، ونسيتُ أمر الفلفل ، فتألمتُ ألماً عظيماً ، وألتهبتا[3] فى الحال وورمتا[4] ، فركبتُ وسافرت فلم أقدر على الركوب من شِدّة الألم . فدخلت فى بلدة و بتُّ عند امرأةٍ عجوز فيها ، فلم أكتحلْ بنوم ، و بتُّ بأقبح ليلة ، وانقلب الجفنان وغَلُظا ، حتى خشيتُ على عينىّ من العمى ، وصرتُ لا أعرف ما ينقذنى من ذلك .

فلما أصبح الصباح جاءتنى عجوز ونظرت عينىّ ، وتوجعت لى ، ثم قالت : هذا أمر سهل . ثم دعت بابنة لها صغيرة ، تكاد أن تكون ابنة سبع سنين أو ثمانية ، وقالت لها بلغة الفور : اذهبى إلى أسفل الجبل ، واتينى بأوراق من النبات المسمّى : دَقَرَة . فذهبتْ الصبية وغابتْ قليلا ، ثم جاءت ومعها أوراق كثيرة ، فأخذتها العجوزُ ودقّت بعضها بين حجرين ، حتى صار كالعجين . وأمرت بفتح عينى ومَسْك يدى ، ثم عصرتْ فى عينىّ من عُصارة النّبات المذكور ، فنزل فى عينىّ بارداً ، ثم ابتدأ يأكل بغير ألم ، حتى كأنما فى عينىّ دود ، وأريد أدعكهما بيدىّ فلا أستطيع ، للضّبط علىّ ، فعانيتُ من ذلك مشقّةً حتى اضمحلّ الأكلان ، وجاءنى النوم فنمتُ ، واستغرقتُ فى نومى مدةً عظيمة ، فلم أفِق إلاّ قربَ العصر ، فأحسستُ فى عينىّ خفةً وذهب الألم . ولما كان من الليلِ جاءت وعصرتْ لى من تلك العُصارة ، و بتُّ بأنعم ليلة . وفى (٢٩٣) الصباح عصرتْ لى منها أيضاً ، فانفتحت عيناى

---

(١) يقصد بذلك أنه لم يكن وقتذاك فى زيارة لجبل مرة بل كان فى زيارة خاصة لسوق نمليه . Voyage au Darfour, p. 229.

(٢) كذا

(٣و٤) فى الأصل : والتهبا ... وورما .

وكأنى لم أرمَدْ بهما ، فذبحتُ إذ ذاك كبشاً سميناً ولمية لشفائى ، وأعطيتُ العجوزَ جَدْياً سميناً .

* * *

وغالبُ النبات والشجر يُثمرُ فى آخر زمنِ الخريف ، وهو الصيف عندنا ، لأنهم يسمُّون صيفنا : خريفاً ، وخريفَنا : دَرَتاً . وفى عُرفِهم يعنُون به : الربيع ، وربيعَنا : صيفاً . ولم يوافقونا إلاَّ فى الشتاء .فإن الشتاء عندهم هو الشتاء عندنا . وفى الصيف الحقيقى تُمطِر السماء عندهم ويزرَعون ، لأن أول سقوطِ المطر عندهم فى الجوزاء ، ويسمُّونَه : الرُّشَاش . وفى السَّرَطان تنفتِح عَزَالِي[1] السحاب ، ويكثرُ المطر ، وتمتلئ الأودية ، وبذلك تعلمُ سببَ زيادةِ النيل المبارك .

ومما يؤكد أن كثرةَ الأمطار عند أهل السودان ، هى السبب فى كثرة نيل مصر ، ما وقع من الاتفاق أن[2] سنةَ ١٢٥٣[3] هجرية ، وقع فى مصر غلاءٌ عظيم حتى أبيع الأردب من القمح بمائة وخمسين غِرشاً بل أكثر؛ وسببه عدم فيضـان النيل كعادته . وحينئذ كنت متشككاً هل وقع ذلك بأرض السودان أم لا ؟ وبقيتُ على الشكِّ إلى سنة ١٢٥٧[4] ، فجاء القاضى الدَّليل ، قاضى القضاة بمملكة الواداى ، فأخبرنى أنه فى تلك السنة قل القَطْر ، حتى أجدبت الأرض ، وغَلتْ الأقوات ، وأكلت الناسُ

(١) العزالى بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية وغيرها .
(٢) كـذا
(٣) ١٢٥٣ هـ = ١٨٣٧ م .
(٤) ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م .

الجِيَفَ والـكِلاب . وهو (٢٩٤) اتفاق عجيب ، [و] أدلُّ دليل على أن زيادةَ بحر النيل من أمطار تلك البلاد ، ولله فى ذلك حكمةٌ لا يعلمها إلاَّ هو .

وفى وقت الرُّشاش يكثر هبوبُ الرياح والمؤتفـكات[1] ، وأكثر مجيئها فى أوقات العصر . وإذا هبَّت تُرى من بُعدٍ كالسحاب ، فتارة تـكون حمراء ، وقد سدَّت الأفقَ من الجهة التى تأتى منها ، وغالبُ المؤتفكات تأتى من قِبَل المَشرق ، ونادراً أن تأتى من الجنوب . وفى مجيئها من الشرق ، تحملُ رملا كثيراً من القَوْز الذى تمر عليه ، وكلُّ مؤتفِـكةٍ تأتى بمعيَّةِ مطر ، لأنَّ[2] قبلَ ذهابها يَرْعَد الرّعد . وبعد الرُّشاش ينزلُ المطر برعدٍ قوى ، حتى إنه ربما نزلتْ منه صواعقُ فضرّت . ولقد رأيتُ صاعقـة نزلت على شجرةِ هَجْليج ، فـكسرتْ منها فرعا عظيما ، وساختْ فى الأرض . وأخرى نزلتْ على بيتٍ ، فدخلتْ نارٌ من خلال البيتِ وأصابتْ رجلاً ، فأحرقتْ ذراعَه ، وساختْ فى الأرض . وسمعتُ منهم أن من كان معه حديد لا تقرَبُه الصاعقَة وهذا خلافُ رأى الإفرنج .

وفى فصل صيفِهم الذى نسمِّيه : ربيعاً ، تـكثر الزوابع ويُرى السَّراب فى الأرض ، ولا أعلم أرضاً يكثر فيها الزوابعُ والسَّراب كأرض السودان . وأحسنُ المطر عندهم وأهناه مايقع باللّيل والناس نيام . وهو وإن كان يحصل فيه رعدٌ ، إلا أنه لا يضرّ كما يضرُّ الرعد الذى يأتى بالنهار . ويكثر قوسُ قُزَح (٢٩٥) عنـدهم فى وقت نزولِ المطر ، حتى إنه يكون فى الساعةِ الواحدةِ فى أربعة مَحالّ أو خمسة ، منها مايكونُ كالقوس ، ومنها ما يكون على خط مستقيم ، وهو قليل . وأكثره يكون على خط مُنحنى[3] .

---

(١) المؤتفكات : الرياح التى تقلب الأرض أو تختلف مهابها . (القاموس) .

(٢) كذا .

(٣) كذا .

والرُّشاش عندهم نحو خمسةَ عشرَ يوما ، وفيه يزرعون الدُّخنَ والذّرة بأنواعه[1].

وأطول خريف عندهم ستّونَ يوماً غير أيام الرُّشاش ، وأوسطُه ستون يومًا بأيام الرُّشاش ، وأقلُّه لا حدَّ له ، وأغلبه أن يكون خمسة وأربعين أو خمسين يوما . وأقل من ذلك قحطٌ وجَدْب فهو كالعدَم ، إلا إن جاءتْ فى تلك المدة أمطارٌ غزيرة ، رَوَتْ الأرض رِيًّا عظيما ، خصوصا عندَ آخرِ الفصل ، وختامِ الزرع . وإذا طالت مدةُ الخريف ، وكثرتْ أمطارُه ، سمَّوه : خريفَ التِّيمان .

وأسماء الشهور فى بلاد الفور والواداى بالعربية ، فلا يَعرفون الأشهرَ الرّوميَّة ولا القِبطيةَ ولا الأعجَميَّة ، فأهل العلم منهم يسمُّونها كما سمتْها العرب قديمًا بالأسماء المشهورة الآن : كمحرَّم وصفر وربيع الخ .

وأما عوامّ الناس فيسمُّون الشهور بأسماء أُخَر . وهـذه الأسماء وإن كان معناها عربيًّا لـكنَّها مستهجَنة . ويبدأون فى حسابِ السنة بشوَّال ، لـكنْ باسم آخر . فيسمُّون شوالاً بالفَطُر ، وذى[2] القعدَة فَطْرين ، وذى[3] الحِجَة بالضَحيَّة ، ومُحرَّماً بالضحيَّتين ، (٢٩٦) وصَـفَرَ بالوحيد ، وربيعاً الأوّلَ بالـكرامة ، وربيعاً الثـانى بالتَّـوم ، وجمادَى الأولبالتَّـومين ، وجمادى الثانى بسابِق التّـيمَان ولم يسلمْ من التَّغيير إلا رَجَب ورمضان ، فيقولون رجباً ، ويسمُّون شعبان : القُصَيِّر ، ورمضان: رمضان ، انتهى .

وبالجملة فخواصُّ النبات فى دار فور عجيبة حتى أنى أخشى إن ذكرتها يكذبونى ولا أجدُ لى شاهداً على ذلك ، وأكثر الخواص فى الجذور .

* * *

---

(١) كذا .
(٢و٣) كذا فى الموضعين .

وهناك معلمون نباتيُّون ، لهم تلامذةٌ عديدة أكثرَ أوقاتهم مسافرون ، يصعدون أعالى الجبال ، ويتخلَّلون بطون الأودية ، يحفُرون على النبات ، ويعلّمون تلامذتهم ، وهؤلاء القوم يسمَّون بـ«المُعْراقِيِّين» ، ولهم فى دارفور شَنآن ، ولهم معاندة مع بعضهم ، كلٌّ منهم يريد أن يرتفع صيتُه . وجميع الجـــذور التى يأخذونها يضعونها فى قرون الغنم ، بل وفى قرون البقر .

وهى على أنواع ، منها: ماهو للمحبّة والقَبول ، والجذورُ التى لذلك تسمى : نَارَة . وكان فى أيامنا أشهر الناس بها رجلٌ يسمى : بَـكُرْلوُكُو ، وكان مقرُّه بجديد السّيل . وكان مَن عشِقَ صبيةً ، وامتنعتْ عليه بغضاً فيه ، ذهب إلى بَـكُرلوُكُو ، فأخذ منه نارَة ، ودلَك بها وجهَه ويديه ، وذهب إلى محبوبته ، ومسح بيدِه على كتفها أو شىء من جسمها ، فوقع حبُّه فى قلبها ، بحيث لا تقدِر تفارقُه ، فيفعلُ بها مايريد . وإن خطبها(٢٩٧)وأبَى[1] أبواها ، فرّت معـــه حيث يريد ، وتزوجته قهراً عنهما .

ومَن كان له حاجة بباب الملِك ، وخشى ألا تُقضَى ، وذهب إلى بَـكُرلُوكُو ، وأخذ منه قطعةً من النَّارَة ، ودلك بشىء منها بين كفَّيه ، ومسح على وجهه ، أَحبَّه الملك ، وقضى حاجتَه ، وإن كان ضامراً[2] له سوءاً . واشتهر بَـكُرلُوكُو بهذا الأمر ، حتى إنّ النّساء ليغنِّينَ به ويقلْنَ :

بَـكُرلُوكُو أَبَى[3]

بِلْمَيْنْ بسَـدَا

---

(١) فى الأصل : وأبا .

(٢) كذا .

(٣) فى الأصل : أبا.

ومعناه : أن بَكُرُلُوكُو [بمقدرته السحرية][1] إن أراد أن يُرَخِّصَ مُهورَ البنات ، يجعلُ الرجلَ يتزوَّجُ [بنتين][2] بسداً[3] واحـدٍ . والسَّدَا : هو عشرةُ أذرع غَزْلاً قياماً.

ومما اتفق لى فى ذلك أنه فى يوم من الأيام جاءنى رجل معه نَارَة يدَّعى أنها عظيمة جدًّا ، وأنه أخذها من بَكُرُلُوكُو وعرضَها[4] علىّ للشِّراء ، فقلت له : يا هذا إنما يَحتاج إلى النّارَة من تُبغضه النساء ، وأنا فى شبابى هذا وتيسيرِ حالى ، لو أردتُ ابنةَ الملكِ لمـا تعذّرت علىّ ، فـكيف بغيرِها ؟ ويَحتاج إليها من يخشى سطوةَ الملك ،وأنا فى أمْنٍ من ذلك، لأنى غريبٌ وشريف ، ولى عند الملك حُرمة ، فاعرِضْها على غيرِى ، فهو أولى بها منى ، لأنى أنا فى نفسى نارة ، فما أصنع بالنَّارة ؟ انتهى

ومنها ما يُستعمل للمضَرّة وهو على أنواع :

نوع يستعمل لقتل العدُو ، وكيفيةُ ذلك أن يؤخذ الجِذر الذى فيه خاصيَّة القَتل ، ويُغرز فى ظل رأس المرادِ قتـلُه ، ففى الحال يتأثّر ويلتهِبُ المخّ ، ويبقَى الشخص لا يعِى شـيئاً ، فإن لم يُتدارَك سريعاً بضد ما فُعِل له مات . وإذا أُريد إبطالُ عضو منه ، يُغرَز الجِذر فى ظلّ العضوِ المراد إبطالُه كاليد أو الرجل ،ففى الحال يتألم العُضو ويلتهب وينتفخ ، وربما حدثت فيه غُدة كغُدّةِ الطاعون . وإن لم يتدارك سريعاً ينْفتح وينتهى بفقـد إحساس العصب ، وبطلانِ الوظائف كلِّها .

(١ و ٢) الزيادة من الترجمة الفرنسية : Voyage, p. 346.

(٣) فى الأصل : بسداء .

(٤) فى الأصل : وعرفها .

وإذا أريد أن يصابَ بالدُّوار وبالقَيْء ، هناك جـــذور توضَعُ على الجمر ، ويُتَلَقَّى دخانُها ولو فى كُمِّ الثوب ، ويُطبَقُ عليه طبقاً جيداً ، ويُتوجَّه للشخصِ المقصودِ ، فيُفتَح كُمُّ الثوب ونحوه بقربِ أنفِه ، فتسطَعُ رائحة دخان الجذر فى أنفه ، فيقع فى الحـال حتى تبقى رجلاه أعلى من رأسه ، فإن لم يُتدارَكْ فى الحال بقى كذلك أياماً .

ومنها جذورٌ خاصيَّتها جلْبُ النوم ، وهـذه الجذور تستعملها السارقون ، وتجعلُها فى قرون ، فيدخلُ السارق بالليل على المحلّ وأهله مستيقظون ، فيشير إليهم بالقرن الذى فيه الجِذر ثلاثَ مرات ، فيضربُ الله على آذانهم فلا يعون شيئاً ، فيدخل السارق ويأخذ ما يريد أخذَه . وربما ذبح الشاة وسلخها وشَوى[1] من (٢٩٩) لحمها وأكل ، ووضع فى يدِ كل من أربابِ المحل قطعةً من الكبد ، ثم أخذ ما أراد وخرج . وبعد خروجه من الدار يُفيقون ، ويسأل بعضُهم بعضاً عن الرجل الذى كانوا رأَوه ، فكلٌّ منهم يقولُ : رأيته ولا أدرى مافعل . فإذا بحثوا فى محلهم يرون أنه ما ترك لهم شيئاً ، وقـد فاز بما أخذ ، فيعَضُّون أناملَهم تلهُّفاً ، وقد امتنع عليهم .

وبالجملة فهـذا الأمر فى دارفور مشهور لا يُنكَر . وكنتُ سـألت عن تلك الخواصِّ أستاذى الفقيه مَدَنِى الفُوتاوِى ، أخا الفقيه مالك ، الذى تقدّم ذكره ، فأخبرنى أن الكتبَ المنزَّلة على آدم وشِيث ، وإبراهيم وغيره من الأنبياء ، دُفِنتْ فى الأرض ، وأنْبتَ اللهُ هذه النباتات فى المحلِّ الذى دُفِنتْ فيـه ، وانتشر بِزْرُها بهبوب الرياح فى الأرض ، فعمَّ نباتُها وانتشر ، واستُفيدتْ منها هذه الخواصُّ بالتجربة .

---

(١) فى الأصل : شوا .

أقول : وهذا نوع من أنواعِ السِّحر ، وضربٌ من ضروبه .

ومنها نوعٌ يُعمَل بالـكتابة والتَّعزيم على الأملاك العُلوية والسُّفلية . ومن هذا النوع تظهرُ أمورٌ كثيرة خارقة للعادة .

لقد أخبرني الثقاتُ[1] ، بدارفور ، أن في محاربةِ الخليفةِ [اسحاق] للسلطانِ عبد الرحمن ، كان للخليفةِ عِدّةُ رجال يُقَوِّسُون بالبُندُق ، فسحَرهم جماعةُ السلطان ، حتى إن البارُودَ كان يخرجُ من البندق كالمبلولِ لا يُسمع له صوت ، ورصاصُه كان لا (٣٠٠) يضُرُّ ، و بندُقُ جماعةِ السلطان بعكسِه فى الصوتِ والضَّرر .

ومما وقع من هذا القبيل ، أنه[2] لما توفِّى السلطانُ عبد الرَّحمن ، و وُلِّى ابنُه السلطانُ محمد فضل مكانه ، أبَى عليه أولادُ السلاطين ، كأولاد السلطان تيراب ، وأولاد السلطانِ أبى القاسم ، وأولاد الخليفـة ، وأولاد السلطان عُمَر ، وخرجوا عن الطاعة ، وركبوا خيولَهم ، وخرجوا إلى القُرى ، وجيَّشوا جيشاً عظيماً ، فَخشِىَ [الأب] الشيخ محمد كُرّا من خَلَلٍ يقع فى البلاد ، فدعا[3] بالفقيه مالك الفوتاوى ، وأعلمه بما يخشاه من غائلة هذا الأمر ، فضمِن له أن يأتى بهم إلى بين[4] يديه أذلاَّء . فأخرج [الأب] الشيخ محمد كُرّا جيشاً لنظر الملك محمـد دَلْدَن ، ابن عمة السلطان محمد فضل ، وذهب الفقيه مالك فعمل من سحره ما عمِل ، وكانت أولاد السلاطين فى محلٍّ بينه و بين الفاشر مسيرةُ يومين ، فلما عمِل فيهم السِّحر ، ركبوا خيولَهم عند المساء ، خوفاً من الملك محمد دَلْدَن أن يهجُم

---

(١) فى الأصل : الثقاة .
(٢) فى الأصل : ان .
(٣) فى الأصل : فدعى .
(٤) كذا .

عليهم بجيشه ، وأرادوا البُعد فعَمَوْا[1] عن الطريق ، وباتوا ليلتَهم تلك سارِينَ إلى جهة الفاشِر ، والملكُ دَلْدَن فى إثْرِهم ، فما أصبحوا إلا وهم تحت الفاشِر . ولمـا أصبح الصباح ، ورأوا أنفسهم بقرب الفاشر ، ندموا على سَرَيانهم[2] ، وسمع بهم [الأب] الشيخ محمد كُرّا ، فارسل لهم . وحينما وصل الجيش (٣٠١) إليهم ، أطبق عليهم جيش الملك محمد دَلْدَن ، لأنه [كان] فى أثرهم . ولمـا صاروا بين العسكرين ، انهزمت الناس الذين كانوا التفّوا عليهم ، و بقيتْ أولاد السلاطين فى نَفَر قليل ، فقبض عليهم الملك محمـد دَلْدَن ، وتوجّه بهم إلى[الأب] الشيخ محمد كُرّا ، فأمر بهم إلى السجن ، وا كتفى[3] شرَّهم ، وكان ذلك من السحر ، ولولاه لجاسُوا خلال دار فور ، وعاثُوا فيها ، واتسع الخَرْقُ على الرّاقع .

والمخصوص بالأعمال السحرية فى دارفور هم قبيلة الفُلَّان ، ولقد رأيتُ منهم رجلا يسمّى : الفقيه تَمُـرُّو ـ بفتح المُثنّاة الفوقية ، وضمِّ الميم ، وآخرُه راء مشدَّدة مضمومة ـ يذكرون عنه أموراً[4] عجيبة ، ويُفيضون [فى] ذكرها ، مع التصديق لها ، حتى بلغتْ هناك مبلغَ التواتر الذى يمتنع تـكذيبُه .

فمنها : ما أخبرنى به الثقة من فقهاء دارفور ، أنه سافر مع الفقيه تَمُـرُّو المذكور من جديد كَرْيُو إلى الفاشر ، ورجع معه إلى جديد كريو ، فقال : لمـا كنا فى أثناء

---

(١) كذا بفتح الميم .

(٢) كذا .

(٣) كذا .

(٤) فى الأصل : أمور .

الطريق ، اشتد علينا حرُّ الشمس ، وكان الفقيه تَمُرُّو راكباً على جمل ، فأخذ مِلحفته وفرَدَها ، ثم رجع وضمّها بين يديه ، وقرأ عليها بعض أسماء ، ثم قذفها إلى أعلى ؛ فانفرد[ت] على رأسه كأنها ظُلّة ، وظلّلَتْه هو وصاحبَه من حَرّ الشمس ، كأنها ممسوكةٌ من أطرافها بين رجُلَين ، تتبعُهما أينما توجّها كالمِظَلّة ، وهذا الأمر من أغرب ما يُسمع وأعجبِه (٣٠٢) .

ومنها : بينما هما سائران فى سفرهما ذاك ، إذ نزل عليهما المطر ، فقال الفقيه تَمُرُّو لخادم كان معهما : اِئْتِنِى بقبضَـةٍ من التراب . فناوله إيّاها فأخذها بيده ، وقرأ عليها بعض كلماتٍ ، ثم نثر الترابَ حول رأسِه ، فانقشع السحاب ، وصار المطر ينزل عن يمينهما ويسارهما ، وهما يمشيان فى اليَبْسِ ، لا تنزلُ عليهما قطرة .

ومما بلغنى ، أن المساليط اقتتلوا مع الفُلاّن ، فى بعض الأحيان ، وهزموهم ، واقتفَوْا أثرهم ليستأصلوهم ، فعمل الفُلاّن شيئاً من سحرهم ، فسحروا أعينَ المساليط ، حتى إنهم كانوا يَرَوْن أثَرَ الذّهاب معكوساً ، كأنه أثر المجىء .

ولقد بلغنى من شيخنا الفقيه مَدَنِى الفُوتَاوِى ـ عليه سحائبُ الرحمة ـ أن ملك البَرْنُو كان له كاتب جليل القدر ، على غاية من التقوى والصلاح ، فجاء إليه الوزير الأعظم وقال له : إن الملك يأمرك أن تكتب كتاباً لفلان ، مضمونه كذا وكذا . فأبى الكاتب عليه وقال : لا أكتب إلا أن يقول لى السلطانُ بنفسه ، أو يرسلَ لى علامة تدل على صدق رسوله . فذهب الوزيرُ إلى السلطان وأخبرَه بما قاله الكاتب ، فدعاه السلطان وقال له : قد أذنتُك أنْ كلّما قال لك وزيرى هذا ، اكتبْ لكذا أو كذا على لسانى ، أن تكتب له . وكان الخاتم الذى تُختَم به الأوامر السلطانية مع الكاتب

المذكور.(٣٠٣) فامتثل أمره، وصار يكتب له كلّما أراد، حتى إنه جاء إليه يوم[1] من الأيام وقال له: إن الملك يأمرك أن تكتب إلى فلان الملك، أن يتوجه إلى العامل فُلَان، ويقتله، ويستصفيَ أمواله، ويرسلَها صحبة رأسه. فكتب له ذلك، والسلطانُ لا يعلم بشىء من ذلك. فما راعه إلاّ وقد امتلأتْ البطحاء بالأموالِ والرقيق والبقرِ والإبل والغنم، ورأسِ شخص موضوعةٍ على سِنّ رُمح. فسأل السلطانُ عن الخبر، فأخبِر أنّ هذا رأسُ فلان، وهذا مالُه، وقد قُتِل حسبما أمرتَ. فأنكر السلطان ودعا بالكاتب وقال: مَن أمر بقتل فلان، واستصفاء أمواله؟ فقال له: أنت. فقال له: فى أى وقتٍ أمرتُك بذلك؟ قال: فى الوقت الفلانى، جاءنى وزيرُك فلان، وقال لى: اكتب إلى فلان العامل بالجهة الفلانية، أن يتوجّه إلى فلان العامل بالجهة الفلانيّة، ويقطعَ رأسه، ويرسلَها على رمح، ويرسلَ أمواله كلّها. فقال: لم أأْمُرهُ[2] بذلك. وكيفَ مع عقلك، وحسنِ تدبيرك، أنك كتبتَ له بغير استئذان منى؟! فقال: أيدك الله مولانا، إنك قد دعَوْتَنى فى اليوم الفلانى، وقلتَ لى: كلّما قال لك وزيرى هذا: اكتب لكذا أو كذا على لسانى، فاكتب له. فامتثلتُ أمرك من ذلك الوقتِ، وصرتُ أكتب له كلّ ما أمرنى به. فغضب السلطان وقال: إنى (٣٠٤) لم أأْمرك أن تكتب له فى مثل هذا الأمر المهِمّ، بل أمرتُك أن تكتب له فى الأمور التى لا ضَرر فيها على الدولة. أوَ مثلُ هذا الأمر يكون بغير استئذان؟ فقال الكاتب: إن مولانا لم يستثنِ أمراً من الأمور حين أمرنى بطاعته. فزاد غضبُ السلطان، وأمر بالقبض على الكاتب، فلم يقدِر أحد على القبضِ

---

(١) كذا.

(٢) كذا بهمزتين وقد سبق له نظائر.

عليه، وما ذاك إلا أنه كلُّ من مدَّ إليه يداً ليقبض عليه تَيْبَس، فلا يقدرُ أن يَثْنِيَها ، وتصيرُ كأنها قطعةُ خشب .

فلما رأى السلطان ذلك قال له : أُعْفُ عن هؤلاء . فقال : لاأعفو[1] عنهم ، إلا إن أعفانى السلطان من الخدمة . فأعفاه من الخدمة ، وعفا عنهم هو أيضا ، فلانت أَيْديهم ، ورجعت كما كانت . وهذا مصداق قوله صلَّى الله عليه وسلم : «مَن خاف من اللهِ ، خاف منه كلُّ شيء ، ومن لَمْ يَخَفْ الله ، خوَّفَه الله من كلِّ شيء » .

وممَّا ينخرط فى سلك هذه العجائب[2] ماشاع على ألسنةِ أهل دارفور ، من أن هناك قبيلتين من رعايا الفور إحداهما تسمَّى : مساليط[3] ، والثانية : تَمُورْكَهْ[4] ، يتشكَّلان بأشكال الحيوانات . لكن المشهور أن مساليط[3] تتشكَّل بشكل الضبع والهِرّ والكلب ، وأما تَمُوركه فتتشكَّل بشكل السبُع لا غير . وأعجب من ذا أن هذه القبيلة يقولون عنها : إن الميت منها يقومُ بعد ثلاثةِ أيام من قبره ويتوجَّه إلى بلدٍ آخر ، ويتزوَّج بها (٣٠٥) ويعيشُ زمناً . ولقد أُشيع على ألسنة أهل دارفور ، أنَّ للسلطان طائفةً من هذه القبيلة ، يرسلُها فى مهمَّات أمورِه ، وأن لَها ملكاً حاكما عليها ، ويبالِغُون فى [مقدِرة][5] هذه الطائفة [على التشكّل][6] ، حتى إنهم يقولون : إنها تتشكّل بجميع أنواع التشكُّلات ، حتى الرجل منهم إذا ضاق عليه المجال ، وخاف من الضبط[7] عليه ، يبقى ريحاً .

---

(١) فى الأصل : لا أعف .
(٢) فى الأصل : الاعجائب .
(٣) فى الأصل : مسلاط ، فى الموضعين والتصحيح عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 355
(٤) فى الأصل تيموركه .
(٥، ٦) الزيادة عن الترجمة الفرنسية Voyage, p. 355
(٧) كـــذا .

ولقد أدركتُ حاكم هذه الطائفة وكان يسمّى : عَلِي كَرْتَب ، وكان رجلا مسنا ضعيفَ الحركة ، من فقراء الجند ، لا يظهر عليه أثرُ الثروة . ثم إنه مات ووُلّى ابنُه مكانَه. وكان شاباً جسيما وَخْش الخلقة ، لـكن يظهرُ عليه أثر الثروة . وكان يركب العِتاق من الخيل ، وله خدم وأبّهة ، فانعقدت بينى وبينه صحبة ، وذهبت إلى داره عدة مرار ، وكان يسمّى: عبد الله كَرْتَب . فاتفق أنى خاوت به فى بعض المرار ، وسألتُه عما تقول فيه الناس من التشـكّـل ، وأنه يسافر مسيرةَ عشرة أيام فى برهة. فشاغلنى بكلام آخر ، ولم يفدنى بشىء ، فتركته فى ذلك الوقت ، وسألتُه ثانيا فى وقت آخر ، فتبسّم وقال : سبحان الله ، ما كنتُ أظنُّ أنك تصدّقُ هــــذا القَول . ثم شاغلنى بغير ذلك ، حتى خرجت من عندِه ، ثم أنكر معرفتى بعد ذلك ، وصار يمرُّ علىّ ولا يلتفت لجهتى . وتركتُه أنا أيضاً لِمَا رأيتُ من تنكّره ، ولا أعلم لذلك سببا سوى تـكْرارِ سؤاله فى (٣٠٦) هذا الشأن .

ولقد سافرت للغزو[١] مع ملك من الملوك اسمُهُ :عبدُ الـكريم بن خَميس عَرْمان . وكان أبوه من أعظم وزراء السلطان ، ونقِم عليه ، وأبَّد سَجنَه حتى مات . وصار ولدُه خادماً للدولة، حتى أُرسِل للغزو فى الفَرتيت . وكان لى عليه دَين ، فذهبتُ معه لأستوفاه[٢] منه . فتوغلنا فى بلاد الفرتيت مدة ثلاثةِ أشهر ، وكنّا فى محلّ لا يوجد فيه شىء من البُقول ولا الخضراوات[٣] . فدعانى ذاتَ يوم من الأيام ، فلما دخلتُ عنده وجدت بصلاً أخضر وفقُّوسا ، وكل منهما كأنّما أُخذ من مَقْثَأتِه الآن . فسألته عنهما ، ومن أين وصـلا له ؟ فقال : من دارفور . فسألته عمن أتى له بهما ، وكيف بقيا طريَّين مع بعـد المسافةِ ، سيَّما الفقوس ، فإنه كان غضًّا بالـكلية . فقال : قد جىءَ بهما فى أقل زمن . وانظر إلى تاريخ

---

(١) المقصود بالغزو هنا : الاغارة على احدى الجهات للحصول على الرقيق .
Voyage, p. 357.
(٢) كذا وهى صيغة عامية .
(٣) فى الأصل : الخضروات .

هذا المكتوب . فأخذت المكتوب منه ، ونظرت إليه ، فإذا هو من بعض أحبابه بدارفور ، وتاريخه صبيحة ذلك اليوم . فبُهِتُّ وصرتُ متعجباً من ذلك . فلما رأى عجابى[1] قال لى : لا تعجب ، فإن معنا جماعةً من التَّموركه ، فيهم[2] قوةُ التشكل ، يذهبون إلى أبعد محلّ فى أقرب زمن . فقلت : أريد أن تريَنى أناساً منهم . فقال : لك ذلك .

ثم لما قفلنا نريد دارفور ، ووصلنا إليها ، بِتْنا بظاهرِ بلدٍ من بلاد التَّموركه ، نسيت اسمَها . ولما كان عندَ (٣٠٧) الصباح ، جاءنا أناس كثيرون يسلّمون على الملك وأنا جالس معه ، فرحَّب بهم وأكرمَهم ، وكسا رُؤَساءهم ثياباً حسنة ، ففرحوا بذلك .

ولما أردنا الرحيلَ قال رئيسُهم : إنّا نوصيكم إن رأيتم فى طريقكُم سباعاً فلا تمسُّوها بسوء ، لأن جميعَ ما ترونَه من السباع فى هذه الجهة منا . فقال الملك إذ ذاك : نحن نريد أن نسمع من بعض أصحابك الآن . فقال : سمعاً وطاعة . ثم ندب ثلاثة أنفار منهم سمّاهم ، فقاموا وتوجّهوا إلى الخلاء ، فغابوا قليلا ، ثم سمعنا زئيرَ أسدٍ عظيم أزعج القلوبَ ، وأفزع الدوابَّ ، فقالوا : هذا صوت فلان سمَّوه ، ثم سكت . وزأر أسد آخرُ يقرب منه ثلاثَ زَأرات . فقالوا : هذا [صوت] فلان . ثم سكت . وسُمع بعد ذاك زئيرٌ أعظمُ من الزئيرَين السابقَيْن ، حتى كادتْ أن تنخلعَ القلوبُ لسماعه ، فقالوا : هذا صوتُ فلان . سمَّوْه وأعظموا أمره . ثم بعد قليل جاءوا على هيئتهم الآدمية ، وقبَّلوا يدَ الملك . ففرح بهم وأكرمهم ، وكساهم ثياباً فاخرة ، وودَّعناهم وارتحلنا ، وحينئذ قال لى الملك : هؤلاء الطائفة هم الذين أتَوْنا بالبَصل والفَقُّوس ، ونحن فى آخر دار فَرتيت . انتهى .

* * *

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : وفيهم .

ومما يلحق بهـذه العجائب ، ما يقوله الرمالون حين يضربون تخت الرمل ، لأنهم يقولون كلاماً وقع للإنسان لا يعلمُ به أحد إلا الله تعالى . ويقولون على[1] أمور (٣٠٨) تقعُ كأنّه يراها بعينه .

فما دعانى إلى صدقِ أقوالهم ، أنى حين أردتُ الانتقال من دارفور ، والسفرَ إلى دار واداى ، كان فى البلدة التى كنتُ فيهـا رجلٌ يقال له : سالم ، له صِهْرٌ فى بلد آخر يقال له : إسحاق ، ماهرٌ فى علم الرّمل . وكنتُ ضيقَ الصدر لتعسّر أمورِ السفر علىّ ، فقال لى سالم المذكور : هل لك فى أن تتوجه معى إلى صهرى إسحاق ، يضرب لك الرمل ، ويقول لكَ ما يظهرُ له ؟ فأجبته لذلك، وتوجهت معه لبلدة صهره المذكور، فدخلناها ضُحى، فرأيناه غائباً فى زرعه. فصبَرنا حتى قدم، فرحب بنا وأكرمَنا، وأتى لنا بغَدَاء[2] حسَن . ثم قال له صهره سالم : إن الشريف قد جاء يلتمس منك أن تضربَ له رملا . فقـال : السمع والطاعة . وضرب الرمل ، وقال لى كلاماً كنت أكذّبه فيه، فوالله لقد وقع جميعُ ما قاله ، وكأنه تـكلم من اللوح المحفوظ ، لم يخطىء فى كلمةٍ .

فمن ذلك ، أنه قال لى : إنك ستذهب إلى دار واداى عن قريب ، بجميع أهل بيتك ما عدا امرأةَ أبيك ، فإنها لاتذهب معك . وكنتُ أكذبه ، وأقول : كيف لاتذهب ، مع أنها أحوجُ الناس للذّهاب ؟ فصدّق الله قوله ، فلم تذهب معنا ، وعملتْ علينا

---

(١) كذا .

(٢) فى الأصل : بغذآء .

حيلة . وهى :أنها بقيَتْ معنا حتى كانت ليلةُ الرحيل، ففرّت وتركت ابنتَها بنتَ سبع سنين. فلما أصبحنا طلبناها فلم (٣٠٩) نجد لها أثراً ، وسافرنا ولم نستقرّ لها على خبر .

ومن ذلك، أنه قال لى : ليلةَ قدومك على بيتِ أبيك، يأتونك بجاريةٍ صفتُها كذا وكذا . فوقع كما قال .

ومنها ، أنه قال لى: لا تجتمِعُ بأبيك فى دار واداى . فكان كذلك، ولم أجتمع معه إلا فى تونس .

ومنها ، أنه قال لِى: إن بيتَ أبيكَ حيطانُه حُمر ، كأنها طُلِيتْ بِمُغْرَة ، فرأيتها كذلك . والمُغْرَةُ نوع حجر لونُه أحمرُ هَشّ ، يسحقونه ناعماً ، فيطلَى به البيوت ، ويصنعون به أيضا الِحبرَ الأحمر ، يُخلطُ مع الصَّمغ فى الماء .

ومنها ، أنه قال لى : إنك تركب هناكَ جواداً أخضرَ[1] . فكان كذلك .

وقال لى : إن السلطان يُنعِم عليك بجَوارٍ وغيرِها . فكان كما ذكر .

ومن أعجب ما وقع حين كنا عنده ، [أن] جاءته نسوة يتخاصَمْنَ مع بعضهن ، ويُرِدْنَ[2] أن يضربَ لهن رملاً يُظهر به مالاً ضائعا ، لتعلم كل منهن مَن أخذه . فضرب الرملَ وقال : قدضاع لكُنّ خرزٌ أحمر ، منظومٌ فى خيط ، وهو مخبّأٌ فى رِتاج[باب]البيت الفلانى . فقامتْ امرأة ، وأتت به من الرِّتاج المذكور ، كما قال . لكن لم يقُل مَنْ الآخذةُ له منهنَّ .

---

(١) انظر ص ١٧٤ ، حاشية ١ .
(٢) فى الأصل : ويريدن ، بتشديد النون .

وله فى خط الرملِ باع طويل ، ومن هذا القبيل ما حدَّثنى به عمّى السيد أحمد زَرُّوق ، أن والدى ـ عليه سحائبُ الرحمة والرضوان ـ لما كان صحبةَ المرحوم السلطان محمد صابون فى محاربةِ جبلِ تَامَه ، ضاع له جَمَل بازِل[1]، وأرسل العبيدَ والخدم ليفتّشوا (٣١٠) عليه[2] ، فذهبوا وغابوا طويلا ، ثم رجعوا بالخيبة ، فَيَئِسَ المرحوم والدى منه .

وكان ممن صحِبه رجلٌ يعرف خطَّ الرمل ، فقال له بعض الحاضرين : إنك رجل رَمَّال ، فإن كنت عارفا ، بيِّنْ لنا الجمل يأتى أم لا ؟ فضرب الخطّ وقال : إن الجمل هاهنا غيرُ بعيد ، فقُوموا وانظروه فى إبلِ جيراننا . فذهبتْ العبيد إلى إبلِ الجيران ، فوجدوا الجملَ باركا فى وسطها ، وعرفوه ، وجاءوا به إلى محلّه . وهذه غاية الإتقان فى علم الرمل .

ومن هذا القبيل أيضا ، ماحَكى لى بعضُ الأشراف فى دار واداى ، أن جماعةً من العلماء كانوا مجتمعين فى محلّ ، وفيهم من يعرف علمَ الرمل معرفةَ خبيرٍ ، وفيهم من يدَّعيه . فتذاكروا فى علم الرمل ، والذى يدَّعيه يقول : أنا ضربت الرملَ لفلان الملك ، ولفلان القائد ، وأخبرتُهما بكذا وكذا . فطلب منه أحدُ الحاضرين أن يضربَ له ، فضربَ ، وقال كلاماً لا يغنى شيئا . فالتفت العارفُ إلى الخطّ المضروب وتأمّله ثم قال : إنى مبشرُكَ أنكَ فى غد تقبِض من السلطان ستينَ رأسَ رقيق . وكان الأمر كما قال .

وإذ انجَرّ الكلام إلى علم الرمل ، فلنذكرْ منه نبذة يقفُ بها المتأمل على ماهيَّته وأشكاله وأسمائه ، والأشكال السعيدة والنَّحِسَة والمتوسطة فنقول :

---

(١) الجمل البازل هو الجمل فى تاسع سنيه ، وليس بعده سن تسمى . (القاموس) .
(٢) كذا .

أما أشكالُه فهى ستةَ عشرَ شكلا .

أولها : الطريق (٣١١) ، وصورتُه هـكذا :



[الطريق]

وهى جيِّدة لمن أراد السفر ، وأجود منها لمن يسألُ عن قدومِ الغائب ، ورَديَّةٌ لمن كان مريضاً ، فإنها تدل على طريقه للقبر .

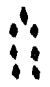
وثانيها : الجماعة ، وصورتها هكذا :



[الجماعة]

وهو شكلٌ سعيد إلا فى المريض ، فإنه يدلّ على اجتماع الناس لجنازته .

وثالثها : اللَّحْيَان ، وصورته هـكذا :



[اللحيان]

وهو شكلٌ سعيد فى جميع الأحوال .

ورابعها : النَّـكِيسُ ، وصورته هـكذا :



[النكيس]

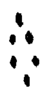
وهو شكلٌ نَحِسٌ فى جميع الأحوال ، إلا فى الحامل ، فإنها تلد ذكراً .

وخامسُها : الاجتماع ، وصورته هــكذا :

[الاجتماع]

وهو شكلٌ سعيد فى جميع الأعمال ، إلا فى قبض الدراهم .

وسادسها : العُقْلَة ، وصورته هكذا[1] :



[العقــلة]

وهو شــكلٌ نَحِس ، إلاَّ فى السؤال عن الحامل .

وسابعها : العَتَبَة الداخِلة ، وصورته هكذا :



[العتبة الداخلة]

وهو شــكلٌ سعيد فى جميع الأحوال . فمَن (٣١٢) كان أول خطِّه هذا الشــكل أو ثانيه ، إن كان مغمومًا زال غَمُّــه ؛ وإن كان مترقِّباً لمجىء غائب ، قدِمَ عليه سريعاً ؛ وإن كان معسراً زال عُسرُه .

---

(١) رسم صاحب القاموس صورة العقلة فى معجمه (مادة عقــل) هكذا : وسبقها بقوله : « العقلة بالضم فى اصطلاح حساب الرمل » .

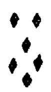
وثامنها : العَتَبَة الخارجة ، وصورته هكذا :



[العتبة الخارجة]

وهو شكلٌ نحِس ، يدل على موت المريض ، وتعطيل الحاجة ، واضطرابِ الأمور ، وطلاق الزوجة .

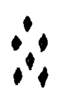
وتاسعها : القبضُ الداخل ، وصورتُه هكذا :



[القبض الداخل]

وهو شكلٌ ممتزج ، يدلُّ على قبضِ الدراهم ، والظفرِ بالعدو ، ولكنه يدل على موت المريض ، وحبْسِ المطلوب للحاكم .

وعاشرُها : القبض الخارج ، وصورتُه هكذا :



[القبض الخارج]

وهو شكلٌ يدل على عدم رجوع ما خرج من اليدِ ، وذَهاب الآبق ، وإباقِ الرقيق ، لكنّه يدل على الخلاصِ من الحبس ، وعلى السفر ، والانتقال من مكانٍ لآخر .

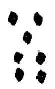
وحادى عشْرها : البَيَاض ، وصورتُه هكذا :



[البياض]

وهو شــكلٌ جيد فى كل الأحوال إلا فى (٣١٣) المريض ، فإنه يدل على الــكفن .

وثانى عشرها : الحُمْرَة ، وصورتُه هكذا :



[الحمرة]

وهو شــكلٌ يدلّ على إهراقِ الدماء ، وعلى القبر للمريض . لــكنه سعيدٌ للحامل ، فإنها تلد ذكراً . ويدل على الثيابِ الحُمر ، كما أن البياضَ يدلُّ على الثياب البيض .

وثالث عشرها : الجَـوْدَلَة وصورتُه هكذا :



[الجودلة]

وهو شــكلٌ سعيد ، يدلّ على الفرح والسرور ، وأن الحامل تلد أنثى ، وأن الأمر يأتى على أحسن حال .

ورابع عشرها : نَقِيّ الخدِّ ، وصورتُه هكذا :



[نقى الخد]

وهو شــكلٌ نحِس ، ويدلُّ على الشباب ، والعدوّ المجهول ، وطول المُــكث فى الحبس ، وقبض روح المريض .

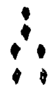
وخامس عشرها : النُّصْرَةَ الداخلة ، وصورتُه هكذا :



[النصرة الداخلة]

وهو شكلٌ سعيد ، يدل على النصر والظفر ، وقضاء الحاجة ، ونجاة المريض والمسجون والحامل .

وسادس عشرها : النُّصْرَةُ الخارجة ، وصورتُه هكذا :



[النصرة الخارجة]

وهو شكلٌ يدلُّ على أمور حميدة، إلا فى محاربةِ العدوّ ، فإنه يدلُّ على انهزامِ الجيش ، وعدم الظَّفرِ به .

فإذا أَراد (٣١٤) الإنسان أن يضربَ الرمل المذكور ، يأتى برمل نظيف نقِيّ ، ويبسُطه على الأرض ، ثم ينقِّط فيه بالإصبع الوُسْطَى أربعة أسطر، من غير عددٍ بالأسطر، من اليسار إلى اليمين هكذا :

[ضرب الرمل]

ثم يتتبّعه زوجاً فزوجاً ، حتى ينتهى إلى الآخِر .

فإن كان الآخِر زوجاً أثبتَه ، وإن بقى فرداً أثبتَه ، فيُثبِتُ ما تحصَّل من السطر

الأول أولاً ، وما تحصّل من الثانى تحته ، وهكذا ، حتى تتم الأربعةُ أسطر[1] فيتحصل منها شكل من الأشكالِ الستةَ عشرَ المتقدِّمة .

ومن لم يَجدْ رملا ، ضربَ الخطّ بفُولٍ أو حِمّص : وهو أنه يأخذ قبضة من غير عدد ويُسقطها زوجاً زوجاً ، ويُثبت الأخيرَ ، إن كان زوجاً أو فرداً .

وأما تولُّداتُ أشكاله، واتصالاتُها، ومايتعلّق بهامن الأسماء، والحروف والكواكب، والعاقبة ، وعاقبة العاقبة ، فذلك كلُّه منوطٌ بمؤلّفات علمِ الرّمل ، فلا نطيل الكلام عليها . وإنما ذكرنا هذه النبذةَ اليسيرةَ ، ليكون للناظر فى رحلتنا هذه إلمام بماهيَّةِ الرّمل فى الجملة ، ولئلاّ تخلوَ هذه الرّحلة عن مثل هذه الفائدةِ والله عالم .

وقد طُبِع بالحجر هذه النسخةَ الجليلة ، المنمّقةَ الجميلة ، بدار طباعة السيد كيبشلين الفاخرة ، الكائنة بمدينة باريز الباهرة ، وذلك برسم وخطِّ السيد پيرون ، بنعمةِ الله وعون . وكَمُل طبعُه على ذِمَّتِه ، ونظرِه وهمَّته ، فى سَلخ شهر نونبر[2] سنةَ خمسينَ وثمانمائة بعد الألف المسيحيّة ، والحمد لله فى البدء والنهاية ، ونسأله من الخير بلوغ الغاية ، آمين .

---

(١) كذا :
(٢) اى : نوفمبر



الملاحق

ملحق رقم (١) الأمير أبو مدين ابن سلطان دارفور .

» » (٢) تاريخ سلطنة دار فور .

» » (٣) معجم عربي ـ فوراوى .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الأمير أبومدين



ملحق رقم (١)

الأمير أبو مدين ابن سلطان دارفور
ومشروع الحملة المصرية على دارفور سنة ١٨٤٣ م

كتبه الدكتور پيرون **Perron** باللغة الفرنسية ،وهو ملحق بكتاب :
Voyage au Darfour, pp. 370-396

الترجمة العربية :

ان المعلومات التى أوردها هنــا ، تكملة لرحلة الشيخ التونسى . وتتناول هذه المعلومات وصف اعداد الحملة التى تجهّز الآن ، كما تتناول أخبار الأمير أبى مدين الذى تقوم الحملة لاجلاسه على عرش دارفور ، بدلا من سلطانها الحالى . وفيما يتعلق بهذا الأمير فان جميع ما سوف أورده هنا ، دونته أثناء محادثاتى المتعددة مع هذا الأمير الفوراوى فى القاهرة ، اذ استقبلته عدة مرات ، ولحظت من علاقاته بالناس وتصرفاته معهم ، أنه كان غاية فى الطيبة . وهــذا أمر طبيعى بين المخلوعين من الملوك ، فكثيرا ما استقبلنى الأمير أبو مدين فى داره ، وأتيحت لى وللشيخ التونسى — أكثر من مرة — فرصة الجلوس اليه على مائدة واحدة بدون تكليف وتناول طعام العشاء .

وامتد حديثنا الذى جــرى باللغة العربية الى الكلام عن دارفور وعادات أهلها وحاصلات كل اقليم من أقاليمها ، كما امتد الى الحديث عن الأحوال التى جعلت هذا الأمير يقرر الهرب ، وعن المخاطر التى تعرض لها ، والى أى حد استطاع الاستفادة من هذه الكارثة التى جاءت من حسن حظه .

وهنا أخذت أنا والشيخ التونسى ، نكرّر له القول بأن العناية الالهية هى التى قادته الى مصر ليتعلم منها وليوسع مداركه فيها ، وليرى مظاهر الحضارة الجديدة التى ينبغى له أن ينشرها بين أهل دارفور . وفى آخر مرة قابلته فيها — قبل رحيله من القاهرة الى السودان — ذكرت له هذا القول مرة أخرى وقلت : من المؤكد أنك سوف ترى مدينة تندلتى من جديد بفضل مساعدة محمد على ، وسوف يستقبلك الناس سلطانا عليهم . ولكن اذكر أنت أن هذه الحوادث الخطيرة لا تقع لمصلحة شخص وحده ، وأن الله لا يقبل هلاك الناس من أجلك ومن أجل مصلحتك لكى تحكم أنت البلاد بنفسك ولخدمة أغراضك . ان أخاك السلطان لم يمت أثناء هروبك لكى تتربع أنت فى دست السلطنة ، دون أن تهتم بشئون أهل بلدك . ويبدو أن العناية الالهية قيضت لك كل شىء لتفتح أبواب الحضارة لأهل السودان . انك رجل ذو حظ عظيم ، ولا تنس ذلك أبدا .

كان الأمير أبو مدين على جانب كبير من الذكاء ، وأدرك مغزى حديثى معه ، وأقسم خلال هذا الحديث أنه سوف يهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا . وابتسمت ابتسامة تقتضيها أفكاره عن النظام الطبقى فى دارفور ، وقلت : عندما تجلس فى دست السلطنة ، الذى تركه لك أبوك التقى السلطان عبد الرحمن ، ارجع الى محمد على مرة أخرى . وتخيّر عشرين أو ثلاثين من أذكى أبناء حاشيتك وأكثرهم مقدرة على الكلام باللغة العربية وأرسلهم الى مصر . ومن المؤكد أن والى مصر سوف يعاملهم معاملة كريمة ، والواقع أنه اذا عرف محمد على أنك تقتفى أثره ، فانه سوف يهتم بتعليمهم ، وسوف يردهم اليك رجالا متعلمين ، فيكونوا أعظم هدية يقدمها ملك الى آخر .

وعندما ذهبت لوداع أبى مدين ، قبل سفره بأيام ، ذكّرنى بحديثى معه والأفكار التى أبديتها له أنا والشيخ التونسى .

والآن قبل أن أذكر شيئا عن حملة دارفور ، سوف أحكى أخبار أبى مدين منذ هروبه حتى اليوم . ونقلت هذه السيرة — كما ذكرت من قبل — على لسان أبى مدين نفسه ، وأكدها لى وللشيخ التونسى أكثر من مرة ، تجار كردفان ودارفور ، الذين يأتى منهم الى مصر عدد كبير .

أبو مدين : هو الأمير محمد أبو مدين بن السلطان عبد الرحمن الرشيد المعروف باليتيم ، وأخو السلطان محمد فضل . ونشأ أبو مدين يتيما ، اذ توفى أبوه وهو طفل لم يبلغ من العمر سوى ستة أشهر . وتربى مجهولا فى مساكن الحريم بالقصر السلطانى ، ولذا لم يشعر أحد بوجوده ، ولم يسمع الشيخ التونسى عن هذا الأمير شيئا أثناء زيارته لسلطنة دارفور ، كما أنه لم يسمع أحدا يتحدث عنه ، ولا عن أخيه الصغير . وكان لأبى مدين أخوان غير أخيه الثالث السلطان محمد فضل . وأصغر هذين الأخوين — ولا أذكر اسمه — كان يكبر أبا مدين بسنتين ونصف سنة فقط . أما الأخ الأكبر فهو محمد بخارى .

ظل هؤلاء الأخوة الثلاثة موضع رعاية أخيهم السلطان محمد فضل سنوات طويلة بوصفه وصيا عليهم . ولكن معاملته لاخوته لم تلبث أن تغيّرت ، وذلك حين شب أولاده عن الطوق . فقد عزم السلطان محمد فضل أن يضمن لأولاده اعتلاء عرش دارفور ، وذلك بأن يقضى على كل منافسة متوقعة من ناحية أعمامهم . وفى سبيل تنفيذ هذه الخطة المحوطة بالحذر ، بدأ السلطان محمد فضل بقتل محمد بخارى أكبر اخوته الثلاثة . وفى نفس الوقت نصح أخويه الآخرين ، بأن يحذرا تعريض نفسهما لمثل مصير أخيهما .

كا نالأميران الصغيران يعيشان فى تونج باسى ، وهى البيوت المخصصة

لسكنى الأمراء ، وهى مؤلفة من سكتايات جميلة تقع شرقى مدينة تندلتى ، ولا تبعد عن هذه المدينة سوى عدة مئات من الخطوات . وتعرض أبو مدين وأخوه الصغير لمراقبة مستمرة ، فلم يستطيعا مبارحة مسكنيهما دون اذن خشية أن يشى بهما أحد عند السلطان . ولو قدر لهما أن يضبطا متلبسين بجريمة الهروب ، فان اجراءات محاكمتهما وتنفيذ الحكم فيهما لا تطول كثيرا . ومن ثم كانا معرضين لنفس مصير أخيهما محمد بخارى . ولذا دبّر الأميران خطة ينجوان بها من الخطر الذى كان يهددهما كل يوم .

وانتهز الأميران أول فرصة للنجاة ، وحانت هذه الفرصة حين خطبت احدى أخواتهما الى أحد أبناء خؤولتهم . ولما تحدد الزواج ، طلب الأمير أبو مدين وأخوه من السلطان محمد فضل أن يسمح لهما بالذهاب الى المناطق المجاورة لمدينة تندلتى ، لجمع البقر والضأن لتقديمها فى ولائم العشاء الخاصة بالعرس ، ولاعداد كل ما يتطلبه العرس من حاجات .

وتعهد الأمير أبو مدين وأخوه بالقيام بهذه المهمة ، وفى الساعة الثالثة من مساء اليوم الذى حصلا فيه على اذن من السلطان بالخروج ، ركبا جواديهما وخرجا من مدينة تندلتى ، وفى صحبتهما بعض الأتباع والعبيد ، وسارا صوب القرى الواقعة جنوبى مدينة تندلتى ، وظلا فى هذا الاتجاه حتى غروب الشمس . ولما أسدل الليل أستاره ، اتجها ناحية الشرق وأغذّا السير فى الطريق المؤدى الى القوز .

وواصل الأميران سيرهما طوال الليل ، حتى اذا أشرقت شمس اليوم التالى ، كانا قد بلغا السهول التى يسكنها عرب بنى جَرّار ، وهم بدو مستقرون قرب بلدة الطويشة . وفى الحال اجتمع شيوخ هؤلاء البدو حول الأميرين الهاربين ، ثم سألوهما عن الغرض من رحلتهما ، وعاملوهما معاملة

كريمة ، ثم عرضوا عليهما خدماتهم . فأخبر الأميران بنى جرّار بأنهما هاربان بسبب غيرة السلطان منهما وقسوته عليهما ، وكثيرا ما لقيا منه الأمرّين ، وأنهما فى طريقهما الى كردفان . فقال لهما شيوخ بنى جرّار : ارجعوا الى دارفور ، فسننضم اليكما ، ونكون منا فرقة كبيرة ننقض بها فجأة على السلطان فى مدينة تندلتى ، مهما كانت الأحوال ، ونرد اليكما ميراث أبيكما . اعتمدا علينا ، فنحن أوفياء لكما .

ولما كان الأميران الهاربان يشكان فى صدق نوايا بنى جرار ، فانهما اكتفيا بشكر شيوخها على عروضهم السخية ، وقالا لهم : جزاكم الله خيرا على حسن نواياكم . دعونا نمضى فى طريقنا ، وغاية ما نرجو منكم أن تمدونا ببعض فرسانكم لمرافقتنا ، ولحمايتنا من أى حادث يقع لنا ولارشادنا الى الطريق حتى نبلغ مأمننا . وبعد هنيهة اجتمع مائة فارس واصطحبوا أبا مدين وأخاه بمثابة حرس خاص .

ظلت هذه الجماعة مسافرة مدة يومين ونصف يوم لم تقابل خلالها أحدا . غير أنه حدث فى اليوم الثالث أثناء عبورها بعض الربى عند أطراف دارفور ، أن تعرّف أحد سكانها على الأميرين الفوراويين . وما ان رأى الأمير الصغير حتى صاح قائلا : ها هو ذا ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد . وما ان سمع الأمير الصغير قوله حتى هجم على الرجل وفصل رأسه عن جسده بالسيف . فثار أهل القتيل ثورة شديدة ، وحدثت ضجة . ثم أخذ هؤلاء يسبون حرس الأميرين ، وهجموا عليهم .

وكان الأمير أبو مدين وبعض الفرسان على مسافة قصيرة من مكان الحادث ، فعاد أدراجه واندفع نحو أهل القتيل محاولا وقف المعركة الدائرة بين الفريقين ، وانتحى بأخيه جانبا وأخذ يلومه على قصر نظره ، واتهمه بالوحشية والظلم ، وبدا منه ما يوحى بتأييد حق أولئك القوم فى الانتقام لمن أصابه الضرر ، وعمل على ابعاد رجاله عن مساكنهم .

ولم يكد الأمير أبو مدين يصل الى السهل حتى أسرع الخطى نحو البحر (النيل) . غير أن أهل القتيل احتفظوا بحقهم فى الانتقام ، ومن ثم أرسلوا من بينهم رجلا الى مدينة تندلتى ، فلم يلبث أن وصل اليها ، وأخبر السلطان محمد فضل بأن الأميرين هاربان من دارفور ، وأنهما فى طريقهما الى كردفان .

وما ان سمع السلطان بهذا النبأ حتى أرسل من فوره فرقة من الفرسان بقيادة أحد المخلصين من أتباعه واسمه تورفيجّه ، لمطاردة الأميرين .

وغادرت هذه الفرقة مدينة تندلتى ، وواصلت السير ليلا ونهارا ، حتى عثرت على أثر الأميرين وحرسهما فى الصحراء ، وذلك على مسافة من أطراف دارفور . ثم قصد تورفيجّه الى مكان الأميرين الهاربين ولحق بهما ، وهاجمهما وهو مغضب عليهما . ونشبت بينه وبينهما معركة ، وألقى الأمير أبو مدين بنفسه على تورفيجّه وضربه بالسيف ضربة فقأت عينه ، ثم ضربه أخرى فأراده قتيلا .

ورأى رجال تورفيجّه رئيسهم يسقط قتيلا ، ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على الدفاع عنه ، لأن العرف جرى فى دارفور أنه لا يحق لأحد أن يشهر سلاحا فى وجه أى فرد من أفراد أسرة السلطان . فلو حدث أن أحدا من أهل دارفور قتل أى فرد تجرى فى عروقه الدماء السلطانية ، فان جزاء القاتل الاعدام ، سواء كان القتل سهوا أو خطأ أو للدفاع عن النفس ، ولو كان القتل بناء على أوامر صادرة من السلطان .

من الدليل على ذلك أن الفلاح المصرى زبادى الذى قتل اسحاق الخليفة بن السلطان محمد تيراب ببندقيته بأمر السلطان عبد الرحمن الرشيد نفسه — فانه بعد أن نال المكافأة التى وعده بها السلطان عقب معركة جركو — أمر السلطان عبد الرحمن بقتله ، وذلك تمشيا مع العرف

الذى جرى فى دارفور ، بعدم الاعتداء على السلطان أو على أى فرد من أفراد الأسرة السلطانية . وهكذا فان سفك الدماء السلطانية — مهما كانت الظروف المحيطة به — جريمة كبرى لا يخفف من وقعها شىء ، ولا تفتدى بشىء .

وأكثر من هذا فانه لو قتل أحد أبناء السلطان أو أحد أقاربه عمدا أو سهوا فى قرية من ريف دارفور ، وظل المجرم مجهولا ، أو لم تفلح جهود سكان المنطقة التى وقعت فيها جريمة القتل فى القبض عليه ، فان الانتقام من هؤلاء السكان يكون أشد عنفا وقسوة . فالمذنب لابد من الانتقام منه ، أو من أحد أقاربه ، مهما كانت أسباب الجريمة . ولذا كانت تحرق الربى التى يقطنها أهل المذنب وتدمر تدميرا ، وتقع فيهم مذبحة كبيرة تعويضا لما وقع من جريمة فى حق الأسرة السلطانية ، مع الاستمرار فى تعقب الجانى الهارب حتى ينال جزاءه .

وخضوعا لهذه المبادىء الشائعة فى دارفور ، تخلت الفرقة عن رئيسها تورفيجه ، وتركته وحيدا يتلقى طعنات الأميرين الفوراويين دون أن يتحرك أفرادها ساكنا ، أو يتقدم أحد منهم خطوة واحدة للدفاع عنه . ولما رأى أفراد الفرقة رئيسهم قتيلا ، وأنهم أصبحوا من غير رئيس يقودهم ، تفرقوا ولاذوا بالفرار .

غير أن السلطان محمد فضل لم يلبث أن أرسل فرقا أخرى من الفرسان أكثر عددا من الفرقة الأولى . اذ توقع مقاومة عنيفة من جانب الأميرين اللذين احتفظا بقوة حرسهما ، فضلا عن استعداد هذا الحرس للدفاع عنهما بقوة . ورأى السلطان محمد فضل أن الالحاح فى مطاردة الأميرين الهاربين سوف يجعل لفرسانه فرصة فى احراز النصر على الأميرين . ولذا رأى السلطان أن يبقى مهمة أولئك الفرسان سرية الا لرؤسائهم ، لأنه خشى أن يسرع أحد أصدقاء الأمير أبى مدين أو أخيه

بانذارهما بالخطر المحدق بهما أو باحباط مطاردتهما .

والتقى الجنود الفوراويون الهاربون من الأميرين بالفرسان الذين ذهبوا للحاق بهم ، ولم تمض بضع ساعات حتى تجمع هؤلاء وأولئك جميعا . وفوجىء الأميران وحرسهما باقتراب غبار الجنود الفوراويين الزاحفين نحوهم .

أما بنو جرار ومن كان فى حمايتهم ، فانهم تفرقوا بعيدا بحثا عن الماء ، ثم ضلوا الطريق دون أن يعثروا على شىء . ومع هـذا اقترب بنو جرار من أطراف كردفان ، لأنهم حين التقوا بجنود دارفور ، تفرقت جماعات منهم هنا وهناك بحثا عن الماء حتى صاروا على مسافة تبعد يومين ونصف يوم من أطراف كردفان .

وأخذ بنو جرّار يفكرون فى موقفهم من الجنود الفوراويين ، ورأوا أنه ليس من المفيد لهم أن ينتظروا فرصة الدخول معهم فى معركة كبيرة . غير أنه عزّ عليهم أن تضيع جهودهم سدى ، فاستولوا على الجمال التى كانت تحمل المتاع أو المؤونة للأميرين وأتباعهما ، وهرعوا الى ناحية البحر (نهر النيل) .

لم يبق مع الأميرين الفوراويين بعد خيانة بنى جرّار سوى بضعة رجال ممن صاحبوهما عند خروجهما من مدينة تندلتى ، ومعهم عدد من الجمال السريعة التى ركبها اثنان أو ثلاثة من أولئك الرجال .

وأخذ الأميران يفكران فى طريقة يتخلصان بها من مطاردة فرسـان دارفور ، فأسرعا فى السير صحبة أتباعهما ، واستطاع الجميع أن يختفوا عن أنظار العدو . غير أن المجهود المضنى الذى بذلوه فى تلك الرحـلة الشاقة ، مع قلة الماء وشدة تعب الخيل أدى الى توقفهم عن السير بضع ساعات . ولم يلبث أن ظهر فرسان دارفور فجأة وانقضوا عليهم ، وخطفوا الأمير الفوراوى الصغير وأخذوه أسيرا .

ومن حسن الطالع — للمرة الثانية — أن الأمير أبا مدين كان بعيدا عن أتباعه . فلما شهد ما حدث ، لم يتوقف لحظة واحدة عن الجـرى بعيدا ، ولم يفقد وعيه رغم ما كان يعانيه من شدة العطش .

ثم عاد الأمير أبو مدين الى رفاقه حين رأى فرسان دارفور يحملون أخاه الأمير الصغير أسيرا ، ويستولون على متاعه القليل . وعندئذ اختبأ الأمير أبو مدين ، أول الأمر ، ثم ولى ظهره لفرسان دارفور ؛ ولاذ بالفرار بأقصى ما يستطيع من سرعة .

أما فرسان دارفور ، فانهم شغلوا بالأمير الصغير ، ولم يفطن أحد منهم الى مطاردة أتباعه القليلين ، بل تركوهم يلوذون بالفرار . وممن هرب من أولئك الأتباع : الفقيه محمد المحسى الذى كانت تربطه بالأمير أبى مدين صداقة وطيدة منذ الطفولة ، ولم يفارقه ألبتة . وللفقيه المحسى هذا وجه صغير . أما لون بشرته فأقل سـوادا من لون بشرة الأمير أبى مدين ، ويشع من عينيه ذكاء سريع ، ويتصف بالحماسة والصرامة والاعتداد بالنفس والشجاعة والجرأة والنشاط الذى لا يعرف الكلال .

بقى الأمير أبو مدين هائما وحيدا فى جوف الصحراء ، واضطر الى التوقف بعد مدة قليلة بسبب ما نال حصانه من الاعياء والعطش ، فنزل عن الحصان وأطلقه ، وواصل هو اتمام الرحلة مشيا على قدميه . وهكذا ظل الأمير أبو مدين تحرسه عناية الله حتى قارب النهار نهايته .

وعندما أرخى الليل أستاره على الصحراء ، قابل أبو مدين الفقيه المحسى راكبا جملا من النوع السريع الجرى . وهنا عرف الفقيه المحسى الأمير أبا مدين ، فاقترب منه وتخلى له عن مكانه على ظهر الجمل ، وسار هو على قدميه . وبعد قليل لمح الاثنان بدويا على مسافة منهما ، فاقتربا منه وكلّماه ووعداه بمكافأة سخية اذا هو دلّهما على الطريق ، أو قادهما الى مورد ماء يشربان منه . فقبل البدوى ذلك ، وسار ثلاثتهم

وقتا طويلا من الليل . وفى متنفس الصبح التالى وصلوا الى مورد ماء فشربوا ، واستراحوا بعض الوقت . ثم استأنف الأمير أبو مدين والفقيه المحسى سيرهما من جديد حتى وصلوا فى اليـوم الثالث الى أراضى كردفان .

وعندما صار الأمير أبو مدين فى أرض كردفان ، أرسل رسولا الى الحاكم المصرى بمدينة الأبيض عاصمة كردفان ، ليخبره أنه ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور ، وأنه جاء الى كردفان لاجئا يطلب الحماية والمأوى . فأرسل الحاكم المصرى على التو عددا من الجنـود لحراسة الأمير الفوراوى واصطحابه الى مدينة الأبيض . واستقبل الأمير أبو مدين استقبالا رسميا ، عند دخوله عاصمة كردفان ،وذلك باطلاق المدافع تحية له .

ثم علم الأمير أبو مدين عقب وصوله الى مدينة الأبيض أن فرسان دارفور اقتادوا أخاه الصغير الى السلطان محمـد فضل بالفاشر ، وأن السلطان أمر بسمل عينيه . ثم وصلت الأمير أبا مدين رسـالة من أخيه السلطان محمد فضل يطلب منه الرجوع الى دارفور ، ووعده بأن يعامله معاملة كريمة . غير أن الأمير أبا مدين لم يصدق هذا الوعد ، ورفض الرجوع الى تندلتى ، لأنه يعلم مقدما ما ينتظره من غدر وقسوة .

هكذا تمت هجرة الأمير أبى مدين الى كردفان سنة ١٢٤٩ هـ أى فى سنة ١٨٣٣ م . وفى هذه السنة — وعقب وصوله مباشرة الى الأبيض — أرسل الحاكم المصرى فيها الى محمد على والى مصر وقتذاك رسالة يسأله فيها عما يجب عمله نحو هذا الأمير اللاجىء . فأصدر محمد على أمرا بارساله الى مصر .

سافر الأمير أبو مدين الى القـاهرة فى شهر رجب عام ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٤ م ، وبعد وصوله اليها بنحو ستة أشهر ، أفهمه محمد على

بضرورة العودة الى كردفان ، ووعده بحملة عسكرية للانتقام له من أخيه السلطان محمد فضل ، وتنصيبه سلطانا مكانه فى حكم دارفور .

آمن الأمير أبو مدين بهذه الوعود وسافر الى كردفان . ولما كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر والدول الأوربية الكبرى وقتذاك تحتل كل تفكير محمد على ، فانه أرجأ تنفيذ وعده للأمير أبى مدين مدة .

وفى عام ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٨ م ، قام محمد على برحلة الى اقليم فازوغلى فى السودان ، ولما علم الأمير أبو مدين بأمر هـذه الرحلة ، ذهب لمقابلة محمد على للتحدث معه فى أمر حملة دارفور الموعودة .. فقال له محمد على : سوف أكون عند وعدى الذى قطعته على نفسى ، واعمل ترتيبك على أن تكون فى القاهرة عند عودتى من فازوغلى . ومن مصلحتك أن تعرف أنت أكثر مما عرفته سابقا عن أحوال مصر .

ثم سافر محمد على الى فازوغلى بالسودان وزار مناجم الذهب به ، ثم عاد الى القاهرة . وبعـد عودته اليها بنحو شهرين حضر أبو مدين فاستقبله محمد على استقبالا حسنا وأكرم وفادته ومنحه منزلا للاقامة به ، وأمر باعطائه جميع ما يطلب ، كما عيّن له راتبا شهريا .

ثم سافر محمد على الى الاسكندرية ، ودعا الأمير أبا مدين اليها ، فسرّ لهذه الدعوة سرورا عظيما . وأتيح للأمير أبى مدين خلال الشهر الذى قضاه فى الاسكندرية أن يرى كثيرا من معالمها الحضارية . فقام بزيارة الحى الافرنجى ، وقصررأس التين ، والميناء والترسانة البحرية .

كانت هذه المعالم وغيرها ، فضلا عن ضوضاء المصانع هى التى أثارت الدهشة فى رأس الأمير .

وكان الأمير أبو مدين يقص علينا ما شهده فى مصر من أشياء مدهشة فى سذاجة تشبه سذاجة الطفل الذى يرى الحياة لأول مرة . واقترنت هذه السذاجة فى نفس الوقت بحماسة من ينتظر تحقيق أمر ، ويشـعر بالقلق من أن المستقبل قد لا يحقق آماله .

وللمرة الأولى سمعت الأمير أبا مدين يتحدث عن أفق البحر ، وعن السفن الحربية ، وعن المدافع فى الدور الثانى أو الثالث من السفينة الحربية . ولم يكن الأمير يحسن التعبير أو الوصف لكل ما يجول بخاطره ، بل كان كلامه بادى الضعف ناقصا . من ذلك ما قاله لى يوما فى وصف محمد على : الباشا رجل عظيم . ولقد قال لى : عندما تعود يا أبا مدين الى دارفور وتصبح ملكا ، تذكر ما رأيته فى مصر ، وحاول أن تصنع هناك ما صنعته أنا هنا . ابن مدينة مثل مدينة الاسكندرية التى بنيتها . وعلى العموم كن رجلا .

ولما حان موعد الحج الى مكة ، أبدى الأمير أبو مدين رغبته فى الذهاب الى الحرمين الشريفين لتأدية فريضة الحج . فنصح محمد على الأمير أبا مدين بالذهاب صحبة المحمل المصرى ، وأعطاه جميع ما يحتاج اليه فى هذه الرحلة .

سافر الأمير أبو مدين الى مكة ، ولما عاد الى مصر ، أقام فى المنزل الذى منحه اياه محمد على من قبل فى القاهرة .

ومنذ ذلك الوقت أخذ محمد على يزور الأمير أبا مدين فى كل مرة يحضر فيها الى القاهرة . وكان دائما يوصيه بالصبر وانتظار الوقت المناسب لانفاذ حملة دارفور التى شرع فعلا فى اعدادها .

وفى شهر المحرم سنة ١٢٥٩ هـ (الموافق فبراير سنة ١٨٤٣) حضر محمد على الى القاهرة ، فقام الأمير أبو مدين بزيارته . وكانت أول عبارة قالها محمد على للأمير : استعد للرحيل خلال بضعة أيام ، فان حملة دارفور على أهبة الرحيل . وقدم الأمير أبو مدين عبارات الشكر الى محمد على ، وخرج من عنده مسرورا غاية السرور . ثم بدأ يستعد للرحيل ، اذ كان يخيل اليه كأنه جالس على عرش دارفور ، وكأن جميع عارفيه وأصدقائه يهنئونه بالحملة ويلقبونه بلقب « السلطان » .

ثم علم الأمير أبو مدين من الجلابة (تجار الرقيق) ومن التجار الوافدين حديثا من دارفور . أن السلطان محمد فضل توفى ، وأن ابنه الأمير حسين خلفه على عرش دارفور . كان الأمير حسين هذا يبلغ من العمر وقتذاك ثمانى عشرة سنة أو عشرين سنة . فتفاءل الأمير أبو مدين خيرا بهذه الأخبار ، لأن السلطان حسين — فى رأيه — رجل ضعيف صاحب نزوات ، لا ينتظر خير على يديه ، اذ تنقصه الشجاعة الكافية ، فلا يستطيع التأثير بلسانه فى أهل دارفور ساعة الخطر .

كان الأمير أبو مدين متأثرا غاية التأثر بهذه الأخبار ، ممتلئا بالآمال العريضة ، فرحا مسرورا . ثم انه ظل مشغولا بمشاريعه وأحلامه وأمانيه ، حتى وقع فريسة المرض . ذلك أنه أصيب بمرض فى عقله ، فأخذ يهذى ، ولا يتحدث الا عن الحرب ، وكانت تصدر عنه صيحات تنم عن الغضب الشديد . ويقال ان بعض أصدقائه ورجال بلاطه أصدروا منشورا يقولون فيه : ان بعض حساد الأمير وجواسيس السلطان حسين فى القاهرة عملوا سحرا لابن السلطان عبد الرحمن الرشيد . بيد أن مفعول هذا السحر لم يستمر أكثر من خمسة عشر يوما ، اذ شفى الأمير أبو مدين من مرضه وبدأ يهتم اهتماما جديا بأمر حملة دارفور .

كان محمد على غائبا عن القاهرة وقتذاك ، فأرسل الأمير الفوراوى الي مجلس المشورة بالقلعة طالبا تسليم جميع ما يلزم لرخلته الى السودان ، كما طلب بصفة خاصة أن يجهز له عشرون رجلا وخمسة خيول تجهيزا كاملا . ثم صرف له مجلس المشورة عشرين كيسا ، أى ما يقرب من ستة آلاف فرنك ، كما صرف له خمس خيام : اثنتان منها خضراوان له ، وثلاث لأتباعه ، فضلا عن مؤونة الرحلة ، ووضعت تحت تصرفه ذهبيتان .

أما فيما يتعلق بالأسلحة فقد صرف الأمير أبو مدين خمسة أزواج من

المسدسات ، وخمس بنادق ، وخمسة سيوف . وأخيرا تسلم الأمير رسائل لتسليمها الى أحمد باشا (جركس) الحاكم المصرى فى سنار . وتضمنت هذه الرسائل توصيات لأحمد باشا بأن يسلم الأمير أبا مدين جميع ما يحتاج اليه من المؤونة ، ووسائل النقل والرجال الذين يصحبونه فى رحلته الى دارفور .

وفى يوم ٥ صفر سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ٦ مارس سنة ١٨٤٣ غادر الأمير أبو مدين القاهرة الى سنار بطريق النيل . وسبقه اليها ببضعة أيام ثمانمائة جندى من الجند المرتزقة ، وهم الجنود الذين كان من المقرر أن ينضموا الى الفرق المصرية التى عهد اليها فتح دارفور .

ذلك أن المشروع الأول لمحمد على قضى بأن يتحرك من مصر جيش من اثنى عشر ألف جندى من المصريين مزودين بعشرة مدافع بقيادة حسن باشا ، وهو الذى صدرت اليه الأوامر بالاستعداد للرحيل . ثم أرسل محمد على الى أحمد باشا الحاكم المصرى فى سنار رسالة يطلب منه فيها اعداد ما يلزم لحملة دارفور عند مرورها بسنار ، ويسأله عما اذا كانت أحوال ولايته تسمح له بمغادرتها ، واسناد القيادة العامة للحملة اليه . فأرسل أحمد باشا الى محمد على رسالة يقول فيها : ان نقل اثنى عشر ألف رجل من القاهرة الى سنار يتطلب تكاليف باهظة ووقتا طويلا . ويرى أن حالة ولاية سنار والنظام الذى وضعه لادارتها ، يسمحان له بالقيام بحرب دارفور . واعتمادا على ما لديه من معلومات عن حالة البلاد وسكانها ، فان جيشا مكونا من ستة الى سبعة آلاف رجل ، أى : فرقتين من الفرق الأربع فى سنار يكفى للقيام بهذه الحرب . ولما كان أحمد باشا قريبا من كردفان ، فانه طلب اسناد القيادة اليه حتى يستطيع أن ينهيها نهاية طيبة فى وقت قصير .

وبناء على رسالة أحمد باشا هذه تقرر ارسال ثمانمائة جندى من القاهرة : أربعمائة من المشاة الأرناؤوط وأربعمائة من الفرسان غير

النظاميين ، ومعظمهم من بلاد الروملل . أما الجنود الموجودون حاليا فى سنار فتتكون منهم أربع فرق تضم كل منها ثلاثة آلاف رجل . وهؤلاء هم الذين أتت بهم حملات جمع الرقيق قرب فازوغلى وجبال نوبا ومواطن الشلك .

كان فى سنار فرقة واحدة من الجنود المصريين ، وهى الفرقة الثامنة التى كانت فى سنار منذ زمن طويل . وأدى سوء الأحوال الجوية وازدياد الرطوبة فى الهواء وارتفاع درجة الحرارة الى انتشار الأمراض فى هذه الفرقة المصرية والفتك بها . ولذا حل محل رجال هذه الفرقة المصرية رجال من أسرى الزنوج . وبذا غدت الفرق الأربع تضم أعدادا من الزنوج المختارين القادرين على احتمال جو البلاد . أما البقية الباقية من الجنود المصريين الذين كانت تضمهم الفرقة الثامنة ، فانهم كانوا ضباط صف فى فرق جديدة ، وعهد الى هؤلاء بتدريب الجنود الذين تقرر امداد حملة دارفور بفرقتين منهم ، فضلا عن الثمانمائة جندى الذين أرسلهم محمد على من القاهرة .

وكان السلطان الفوراوى الحالى (وهو حسين بن السلطان محمد فضل) جالسا فى دست السلطنة بحق شرعى ، لأنه ابن السلطان المتوفى . لكن الأمير أبا مدين بنى حقوقه فى السلطنة على هذه البلاد على أساس أن للسماء الحق فى اختيار من تهيئه من بين أفراد الأسرة الواحدة للاضطلاع بالحكم ، وذلك من أجل صالح البلد وخيرها . وبنى أبو مدين حقوقه كذلك على أساس التفوق الحضارى والخلقى ، وهذه صفة تنقص ابن أخيه الذى لم يرتفع عن مستوى الهمجية . ولعل زيارته لبلاد أخرى متفوقة على بلاده ، هى التى جعلته يفكر فى القيام باصلاحات فى بلاده .

واذا أتيح لبلاد دارفور أن تغير مجرى تاريخها ، فلن يكون بعيدا

أن يحين خلق السودان من جديد فيتصل بالأمم التى قطعت شوطا فى طريق الحضارة . وبذا يكون محمد على قد أسهم فى هذا العمل المجيد .

واذا نحن نظرنا الى حملة دارفور فى ضوء هذه النظرة ، وضح لنا أنها حملة لمشروع يحقق للسودان نتائج عظيمة . اذ كان فى الحسبان جميع ما يتعلق بهذا المشروع من علوم وصناعة وتجارة ورفع مستوى أهله .

وكان على القوات المسلحة أن تبدأ فى الزحف عقب انتهاء فصل الأمطار ، وأن تسير فى خط مستقيم مارة بكردفان والصحراء التى تفصلها عن دارفور . ولو أخذنا برأى أبى مدين ، فان هذه القوات سوف لا تزحف مباشرة على تندلتى العاصمة الحالية لسلطان دارفور . اذ حدثنى أبو مدين أنه يعتزم أن يعرج على الجنوب ، وأن يمر ببلاد عرب الرزيقات الغيورين على استقلالهم ، فطالما شن هؤلاء اغارات جريئة جشعة على أراضى الفور لأقل سبب أو دافع . ويأمل أبو مدين أن يحصل من القبائل العربية المجاورة لأطراف دارفور ، على مساعدتها له فى أعماله الحربية .

ويرى الأمير أبو مدين أن السلطان حسين لا يجهل نوايا والى مصر نحوه ، وأن القوراويين الخاضعين له يستطيعون أن يقاوموا مقاومة خمسين ألف رجل . وفى تقديره أن جيشا مدربا على الطريقة المصرية الحديثة ، ومزودا بأسلحة نارية ، يستطيع فى بضع ساعات ، أن يقضى على القوات الفوراوية التى لم تملك سوى الرماح والسهام . ولا سيما أنه لم يكن لدى فرقة الفرسان وخيولها سوى ملابس مهلهلة تحميها من الطلقات النارية والقذائف ، كما لو كانت هذه وتلك سيوفا أو رماحا . واذا حلت الهزيمة بالجيش الفوراوى ، فسوف تؤدى هذه الهزيمة الى خلع السلطان الحالى الى غير رجعة ، واحلال نظام آخر محل النظام الحكومى القائم . وبصفة عامة ، فان الظفر فى الحرب فى البلاد السودانية ، يجعل من حق المنتصر

— لو كان من الأسرة المالكة — ولاية السلطنة . وجرت العادة أن ينسى الناس اليوم حكومة الأمس . اذ رأينا كيف استطاع السلطان عبد الرحمن الرشيد ،أبو الأمير أبى مدين، أن يستعين بالسلاح فى الحصول على لقب سلطان ، واخضاع الخليفة اسحق لسلطانه . والآن يحدث نفس الشىء ، اذ قد يصادف أبو مدين ما صادفه أبوه من قبل ، ومن المحتمل أن يجد أبو مدين فى دارفور حزبا قويا يعول عليه .

واذا اعتلى أبو مدين عرش دارفور ، فسوف يتحقق لأهلها على يديه خير كبير . فهو فى سن النضج ، اذ يبلغ من العمر حوالى أربعين عاما . ثم ان سنوات نفيه واقامته فى مصر زودته بنوع خاص من التربية ، فضلا عن بعض الأفكار التى يعتزم تحقيقها ، فهو من أشد المعجبين بالوالى محمد على ، ولو وجد من يساعده ويتعاون معه تعاونا صادقا ، فانه سوف يعمل — فيما أعتقد — على ادخال اصلاحات مفيدة فى بلاده .

كان أبو مدين يحاول دائما — أثناء أحاديثه — أن يتزود بالمعلومات وكثيرا ما كان يسألنى عن أنواع الحكومات فى أوربا ، وعن قوانين فرض الضرائب وجبايتها فى فرنسا ، وعن تكوين الجيوش ، وحقوق المواطنين ، فضلا عن أشياء أخرى خاصة بالتجارة والصناعة والتربية والتعليم . وكثيرا ما أبدى رغبته فى رجاء محمد على أن يبعث به الى باريس لقضاء عـــام أو عامين ، حتى يستطيع أن يشهد بعينيه مظاهر الحضارة التى سمع عنها .

وبدأ أبو مدين فعلا فى تعلم اللغة الفرنسية ، فكتبت له الحروف الأبجدية وجعلته ينسخها عدة مرات ، واستطاع بعد ذلك أن يوقع باسمه بالأحرف الفرنسية . ولست أدرى اذا كانت الرغبة فى تعلم اللغة الفرنسية راودت سلاطين آخرين ســـواء كانوا بيضا ، أو سمرا ، أو أقرب الى اللون الأصفر .

ولأبى مدين وجه صريح ، وحديث شيق مستفيض ، وعينان تنمان

عما يجول بخاطره وتبدو على شفتيه ابتسامة ، وله وجه كبير ذو جبهة واسعة وعارضين نحيفين حتى الذقن . وله حاجبان كثيفان يتلوهما جفنان عريضان فوق عينين نجلاوين ،مما يجعل للوجه استدارة لطيفة . ولأبى مدين شارب خفيف قصير ، شأنه فى ذلك شأن كافة الزنوج ، وكان ذا لحية خفيفة كأنها باقة فى طرف الذقن .

ولأبى مدين وقار فى تصرفاته وحركاته . ففى الأعياد ، كانت تبدو لوجهه هيبة حين يلبس بدلته الحمراء ، وهى بدلة ذات زراير عريضة فى حجم الفنجان من النحاس الأصفر ، وأكمام واسعة فضفاضة مبطنة بحرير أصفر برتقالى ، ولها تموجات ضوئية مثل المرآة . غير أن ذلك لا يعنى أنه كان رجلا متكبرا ، وذلك على الرغم من أن أى شخص يمثل بين يديه كان يناديه باسم « سلطان » .

وكثيرا ما سألنى عن رغبتى فى الذهاب يوما من الأيام لزيارة دارفور ومما قاله لى : لو شاء الله أن أعود الى مدينة تندلتى ، أو أن أصبح سلطانا مثل أبى ، فانه يجب عليك أن تحضر الينا فى دارفور ، لترى الأعمال التى سوف أقوم بها ، ولتزودنى بنصائحك . سوف تزور دارفور من أولها الى آخرها . ففى هذه الأيام يسافر الى دارفور رجال ينتمون إلى جميع الأديان ، بينهم مسلمون ومسيحيون ، بل حتى هنود ممن لا أعرف الى أى دين ينتمون . فأجبته قائلا : ان هذا مستطاع حتى كوبيه أو تندلتى ، أما ما وراء هذا .. ؟ ولو شاء الله سوف أعمل على تنظيم البلاد وتدريب الجنود وتوزيعهم فى أماكن رئيسية ، وتستطيع حراسة جميع المسافرين الأجانب . لكن هل سيحترم جميع المسافرين ؟ أليس من المحتمل أن يقتلوا جميعا ؟ وأضفت قائلا : عندما يعيدك محمد على الى دارفور ، فما الجيش الذى تستطيع جمعه ، اذا فرضنا أنك ستقوم باجراء تجنيد عام مثلما يفعل السلطان حسين ؟ فأجابنى أبو مدين مبتسما : من المستحيل جمع كل من فى

دارفور من رجال قادرين على حمل السلاح فى مكان واحد ، وفى جيش واحد . من ذا الذى يستطيع أن يقوم — ولو مدة شهر — على خدمة مائة ألف رجل فى أية ولاية ، دون أن يقوم باستعدادات أولية لهـذه الحملة ؟ ذلك أن عادات الناس وأنواع الادارات المختلفة تحول دون القيام بمشروع على جانب من الأهمية من طراز هذا المشروع . وسألته : كم ألف رجل — فيما تعتقد — يستطيع السلطان حسين تجنيدهم ؟ قال : من خمسين الى ستين ألف رجل على الأكثر . قلت : ولو انهزم هذا الجيش الأول .. ؟ قال : سوف ينتهى كل شىء بالنسبة لحسين ، وسوف يستحيل عليه جمع مائتين من الفوراويين ، لأن المدفع الذى يضرب بالنار سوف يكون له أثر خطير .

قلت : وأخيرا كم عدد الجنود الذين تستطيع أن تقدمهم بلاد دارفور كلها ؟ فمن الضرورى أن يعرف كل سلطان موارده من الجند ، وأن يقوم دائما باجراء احصاء تقريبى لقواته .

وهنا بدا على وجه أبى مدين أنه لا يريد الاجابة عن هذه الأسئلة بطريقة قاطعة . لكننى كنت أحرجت كبرياءه فقال : حين كنت فى تندلتى ، أمر أخى محمد فضل باجراء احصاء للسكان الذين يستطيعون حمل السلاح عند الضرورة ، فقام جميع ملوك دارفور الكبار والصغار وجميع السلاطين الصغار والشراتى باجراء احصاء بعدد سكان ولاياتهم ومقاطعاتهم ، وكذلك بالعدد التقريبى للأعراب القاطنين قرب الأطراف الشرقية والشمالية ، وبعدد الرجال الأقوياء ، سواء أكانوا صغارا أم فى سن الرجولة . وبلغ عـدد هؤلاء وأولئك حوالى خمسمائة ألف رجل .

ثم سألته : ما الحد الأقصى للسن المطلوب للجندى الصالح للجندية ؟ قال : كل من بلغ الثانية عشرة الى الخمسين سنة من الفوراويين ، وكل العبيد القاطنين بأرض دارفور ، وكذلك كل الأعراب ، يصبحون بطبيعة الحال جنودا منذ اليوم الذى تعلن فيه الحرب .

فقلت له : يبدو لى ان هذا العدد الضخم مبالغ فيه . فأجابنى أبو مدين بانفعال : لا أعرف ، وليست لدى احصاءات أخرى .

بدا لى واضحا من نغمة أبى مدين ومن حماسته فى الرد علىّ أننى لن أحصل منه على معلومات أخرى ، ولذا غيّرت مجرى الحديث . فالزنوج لا يقبلون الإدلاء بتفاصيل عن بلادهم فى سهولة .

وفى اليوم التالى استأنفت بحث الموضوع نفسه مع الشيخ التونسى ، فزودنى بجميع المعلومات التى كان باستطاعته أن يمدنى بها . والمعروف أن هذه المعلومات تقريبية . فهى تقتصر على عدد محدود من الأماكن ، وهى فضلا عن ذلك لا تتناول سوى العدد الذى يمكن أن تقدمه كل مدينة أوقرية من الرجال القادرين على حمل السلاح . وليس من اليسير أن نعرف عدد السكان تماما . فهذه المعلومات جميعها خاصة بعدد الرجال القادرين على حمل السلاح . ويبدو من الجدول التقريبى (١) أنه من المحتمل الحصول من الأقاليم المختلفة على حوالى ثلاثة وخمسين ألف رجل مسلح على وجه التقريب . ويدل هذا الرقم — مع ما فيه من مبالغة — على أن سكان دارفور يتراوح عددهم بين أربعة ملايين وخمسة ملايين نسمة ، وذلك باستثناء الملحقات .

وفضلا عما سمعته من الشيخ التونسى بصدد سكان جبل مَرّة ، وغرب وشمال دارفور ، فاننى سمعت مثل هذا كثيرا من تجار دارفور الذين يأتون الى القاهرة كما سمعته من أبى مدين نفسه . وفيما يتعلق بعدد العبيد المحسوبين ضمن السكان ، فاننى لم أحص منهم سوى خدم العائلات وهم فى نفس الوقت جزء من هذه العائلات . وبعد اقامة لمدة معينة يتزوج أولئك الخدم فيما بينهم على أيدى سادتهم . وبذا تتكون عائلات فوق العدد المطلوب للخدمة . واستبعدت من احصاء العبيد جميع الأفراد المخصصين للبيع ، والذين كانوا يذهبون بضاعة كل عام الى الحجاز

---

(١) راجع Voyage au Darfour, p. 154

ومصر وبلاد المغرب ، وهؤلاء كان عددهم كبيرا نسبيا . وسنرى فى رحلة وادای كيف كانت تتم رحلات جمع العبيد ، وكيف كان يقوم أهل دارفور وأهل واداى برحلات للقضاء على قبائل الفرتيت والجناخيرا الوثنية .

ملحق اضـــافى :

وصل الجنود الأرناؤوط الأربعمائة — الذين سبق أن تحدثنا عنهم — الى أسيوط . وكان سلوك هؤلاء عاديا ، ولكنهم تشاجروا فى حفـــلاتهم الصاخبة وقامت معارك بينهم ، وتبادلوا بعض الألفاظ القبيحة ، وانقسموا حزبين دبت فيهما الفوضى . وبذا تكون معسكران مقتتلان ، فلقى مائة وستون رجلا منهما مصرعهم . وعندما مرت الفرقة الأرناؤوطية بالقاهرة انتشرت فى أرجاء العاصمة ، وارتكبت أعمالا وحشية . ونادرا ما كانت تغادر العاصمة دون أن تقتل بعض سكانها بالرصاص أو بالخناجر فى وضح النهار . ولم يحدث ألبتة أن يُرى أرناؤوطى غير متمنطق بحزام به خنجر كبير ومسدسات بارزة الى الأمام ، للدفاع عن نفسه ضد أى هجوم . ولعل تهديد المارة وقتلهم فى قارعة الطريق دون سبب أمر تافه بالنسبة للأرناؤوط . وبعد وقوع جريمة القتل ، يترك الأرناؤوطى القاتل فريسته المقتول ويمضى الى حال سبيله ، ملوحا ببندقيته أو خنجره فى يده . والويل لمن يقترب منه . ولذا لم يفكر أحد فى القبض على أرناؤوطى .

ولما سمع والى مصر بما سبق من أنباء أسيوط ، أصدر أمرا باعادة الفرقة الأرناؤوطية وقائدها ديموز أغا الى القاهرة . ومن المؤكد أنه لم يعد من الأرناؤوط صحبة هذا القائد سوى مائة وثلاثين رجلا . اذ فرّ منه فى طريق الصحراء من أسيوط الى القاهرة نحو ستين رجلا ، وتأخر فى الطريق نحو مائة وخمسين رجلا . وهؤلاء لم يستطيعوا الوصول الى القاهرة بسبب تفشى المرض فيهم .

وتأجلت حملة دارفور الى ما بعد فصل الأمطار فى السودان . ويقال ان سبب تأجيل الحملة ، قلة خبرة قوات سنار فى المناورات العسكرية . ومن الضرورى أن تدرب بعض الوقت لاعدادها للحرب .

أما حسن باشا الذى عهد اليه قيادة حملة دارفور ، فان السلطان العثمانى عبد المجيد رقاه من أجل هذه الحملة نفسها الى رتبة ميرمران أو جنرال الفرقة ، وسوف يتفق مع أحمد باشا بسنار على خطة تقضى بأن يبقى أحدهما فى سنار ، وأن يذهب الآخر على رأس الجند الى دارفور لاعادة الأمير أبى مدين اليها وذلك حسبما تمليه الفرصة الكفيلة بنجاح مشروع الحملة ، وعندما ترحل الحملة ، سوف يبقى أبو مدين فى كردفان ليعمل على اعداد أنصاره ، لمساعدته فى الوقت المناسب . وسوف يكون أبو مدين الحاكم المطلق ، يتصرف ما شاء له أن يتصرف ، دون تدخل أحد فى شئون حكومته ، وسوف تنسحب القوات المصرية ، أو تعود ثانية الى كردفان حسبما يريد أبو مدين .

دكتور پيرون

القاهرة فى سنة ١٨٤٣

تاريخ سلطنة دارفور



ملحق رقم (٢)

منقول من : نعوم شقير

(تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . ج ٢ ، ص ١١١ — ١٤٧)

﴿تاريخ سلطنة دارفور﴾

منذ أول نشأتها الى الفتوح المصرى أى منذ سنة ٨٤٨ : ١٢٩١ هـ = ١٤٤٥ : ١٨٧٥ م

(تمهيد فى أصل سلطنة الفور)

لقد أجمعت التقاليد السودانية على أن سلطنة الفور هى من أصل عربى ، والذى عليه البعض وتدّعيه سلالتهم الى اليوم أنهم من بنى العباس . ولهم فى ذلك رواية لطيفة تختلف فى التفصيل بحسب الرواة ، وتتفق فى المغزى . وأشهر ما رووه : أن الأمراء العباسيين بعد انقراض دولتهم ببغداد سنة ٨٢٣ هـ ١٤٢١ م [١] تفرّقوا فى بلاد المشرق . فذهب منهم شقيقان الى تونس الغرب ومعهما نفر من الأعراب ، وكان اسم أكبرهما عليّا ، وأصغرهما أحمد سفيان . وكان على متزوجا بامرأة ذات جمال ، وأحمد سفيان عازبا ، ولكنه كان آية فى الجمال فأحبته امرأة أخيه حبّا لم يسعها معه الكتمان . فكاشفته بحبها ، فأنكر عليها ذلك وعذلها ، ولكنه وعدها

---

(١) لا يتفق هـذا التاريخ وسقوط الدولة العباسية على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

أن يكتم سرّها . أما هي فاشتعلت غيظا من اباائه ، وعزمت على الانتقام منه . فأتت زوجها ذات يوم وقالت : اني جئتك بأمر جلل لا يحسن كشفه ، فأقسم لى أنك لا تبوح به لأحد . فأقسم لها ، فقالت : ان شقيقك أحمد يراودنى عن نفسى ، وأنا أنتهره وأزجره وهو لا ينزجر . فعظم هذا الخبر جدا على علىّ واغتم لأجله غما شديدا ، ولكنه لم يصدق ما قالته له امرأته على علاته ، لأنه كان يحب أخاه محبة فائقة ، ويثق بعفافه وشهامته ، فبقى مرتابا فى الأمر .

وكان أحمد لما رأى أن امرأة أخيه استاءت منه جعل يتلطف لها ويترضاها ، فرأى أخوه منه ذلك فقوى الريب فيه وصدق ما قالته له زوجته ، فاسودت الدنيا فى عينيه وكره أخاه وزوجته والأرض التى كان نازلا فيها . فأمر أن تقوض خيامهم ورحلوا من تلك (١١٢) الأرض . وتأخر فى الطريق مع أخيه وهو يفكر بالذى يفعله ، فأبت نفسه أن يكاشفه بسر زوجته ، ولم يطاوعه قلبه على قتله . فقر رأيه أن يعقره برجله فيسمه بوسم يؤنبه ما دام حيا . فاستل سيفه وفاجأه بضربة فى رجله اليمنى فعرقبه وتركه يسيل منه الدم ولحق بقومه .

وأدرك أحمد سفيان سبب غدر أخيه به ولكنه كان من الأنفة على جانب عظيم فلم يفه ببنت شفة ، بل صبر على الضيم ، وجلس ينتظر الموت والدم ينزف من عقر رجله . ولهذا سمى أحمد سفيان المعقور . ثم علم به عبيده وخاصته ، فاجتمعوا حوله وعالجوه حتى برىء جرحه ، فسار بهم بطريق الصحراء مهاجرا بلاد تونس حتى أتى جبل مرة من أعمال دارفور .

وكان فى ذلك الجبل أمة من شبه السود يقال لهم « الفور » عليهم ملك منهم يسمى : شاو دورشيت . فكان هذا الملك عريقا فى الهمجية ، ولكنه كان كريم الطبع حسن النقد . فلما علم بقدوم أحمد أحضره لديه ،

فأعجبه عقله وأدبه . فعهد اليه فى تدبير منزله وسياسة مملكته ، فأحسن أحمد السياسة ، وعلم رجال حاشية الملك آداب السلوك . ثم التفت الى المملكة فنظم أحوالها وأصلح أمورها ، فأحبه الملك حبا شديدا ، ولم يكن له الا بنت واحدة ، فزوجه بها ، فولدت له ولدا سماه : سليمان ، فشب ثاقب الفكر ، سديد الرأى ، حسن السياسة ، محبا للخير والاحسان ، فأحبه أهل الجبل وألفوه . وتوفى أبوه أحمد سفيان فى حياة جده السلطان شاو دورشيت . ثم توفى جده فنادى به أهل الحل والعقد باجتماع الكلمة سلطانا عليهم ، وبايعوه على السمع والطاعة ، وكان ذلك سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٥ م . فأقام فى عاصمة جده فى جبل مرة ، وكان أول سلالة السلاطين العربية الذين تولوا دارفور نحو ٤٤٣ سنة ، الى أن دخلت فى حوزة الحكومة المصرية الخديوية عن [1] يد الزبير رحمت باشا كما سيجىء .

هذه هى رواية أهل السودان فى أصل سلطنة الفور ، وهى لا تخرج عن حد الروايات الموضوعة التى يكثر أمثالها فى السودان . فانه ما من قبيلة أو مملكة عربية اشتهرت فى السودان الا رجعت فى نسبتها الى النبى أو الصحابة أو من اتصل بهم . وفى المشهور أن دارفور كانت فى ذلك الزمن سلطنات متفرقة من السود وشبه (١١٣) السود وفى جملتها سلطنة الفور فى جبل مرة . وكان العـرب المسـلمون قد هاجروا اليها من مصر أو تونس أو الحجاز أو منها جميعا وملأوا مدنها وبواديها ولم يكن لهم سلطان واحد يرجعون اليه ، بل كانوا قبائل شتى تحت حكم سلاطين البلاد الأصليين . فلا يبعد أن يكون سلطان الفور فى ذلك الحين قد أعجب بنجابة شاب من شباب العرب العريقين فى النسب ، فزوجه بابنته فولدت منه سليمان ، فأسس السلطنة التى فيها كلامنا . على أن عامة أهل دارفور يرجعون فى أنسابهم الى أبى زيد الهلالى الذى اشتهر فى تونس .

---

(١) كـــذا .

(تاريخ سلاطين الفور[1])

(١ السلطان سليمان الأول ، سنة ٨٤٨ : ٨٨٠ هـ — ١٤٤٥ : ١٤٧٦ م)

هو رأس سلاطين الفور المار ذكره ؛ قيل انه لما تولى السلطنة لم يكن فى جبل مرة مساجد للعبادة ، فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة . ثم شرع فى ضم كلمة المسلمين ، واستعان بعرب البادية المنتشرين فى البلاد ، فأخضع ملوك شبه السود المحيطة بجبل مرة الى سلطانه وعلمهم دين الاسلام . وأخضع بعض ملوك السود البعيدين عن جبل مرّة فبقوا على الوثنية . فأصبحت دارفور كلها سلطنة واحدة لمن يتولاها من ذرية السلطان سليمان الى يوم انقضائها .

وكان جملة الذين خضعوا للسلطان سليمان وبقوا الى عهد خراب السلطنة ٢٧ ملكا : سبعة مجوس من السود ، والباقون مسلمون من شبه السود .

أما سلاطين المجوس ، فهم سلاطين : كاره ، ودنقو ، وفنقرو ، وبِنه ، وبايه ، وفروقى ، وشالا . وكلهم فى بلاد فرتيت الى الجنوب الغربى من دارفور [٢] .

وأما ملوك المسلمين فهم : البرقد ، والتنجر ، وكنبقه ، والميمه ، والمسبعات فى الشرق من جبل مرة ؛ والمراريت ، والعورة ، وسميار ، والمساليت ، والقِمر ، وتامه ، والجبلاويين ، (١١٤) وأب درق ،

---

(١) فى الأصل : الفصل الأول ، فى تاريخ سلاطين الفور .
(٢) راجع ص ١٣٦ ، حاشية ٤ .

وجوجه ، وأسمور ، فى الغرب والشمال الغربى ؛ وزغاوة كبا ، والميدوب ، فى الشمال والشمال الشرقى ؛ والبيقو ، والداجو ، ورنقا ، فى الجنوب والجنوب الغربى .

ذلك ما عدا القبائل العربية الذين جمع كلمتهم واستنصر بهم وأهمهم : الهبانية ، والرزيقات ، والمسيرية ، والتعايشة ، وبنو هلبة ، والمعالية ، فى الجنوب ؛ والحُمر فى الشرق ؛ والزّيادية فى الشمال ؛ والماهرية ، والمحاميد ، وبنو حسين فى الغرب .

وكانت مدة السلطان سليمان ٣٢ سنة هـ وجاء بعده من سلالته :

(٢ السلطان عمر ٨٨٠ : ٨٩٧ هـ — ١٤٧٦ : ١٤٩٢ م)
(٣ السلطان عبد الرحمن ٨٩٧ : ٩١٦ هـ — ١٤٩٢ : ١٥١١ م)
(٤ السلطان محمود ٩١٦ : ٩٣٢ هـ — ١٥١١ : ١٥٢٦ م)
(٥ السلطان محمد صول ٩٣٢ : ٩٥٧ هـ — ١٥٢٦ : ١٥٥١ م)
(٦ السلطان دليل ٩٥٧ : ٩٦٧ هـ — ١٥٥١ : ١٥٦٠ م)
(٧ السلطان شرف ٩٦٧ : ٩٩١ هـ — ١٥٦٠ : ١٥٨٤ م)
(٨ السلطان أحمد ٩٩١ : ١٠٠١ هـ — ١٥٨٤ : ١٥٩٣ م)
(٩ السلطان ادريس ١٠٠١ : ١٠١٣ هـ — ١٥٩٣ : ١٦٠٥ م)
(١٠ السلطان صالح ١٠١٣ : ١٠٣٥ هـ — ١٦٠٥ : ١٦٢٧ م)
(١١ السلطان منصور ١٠٣٥ : ١٠٤٨ هـ — ١٦٢٧ : ١٦٣٩ م)
(١٢ السلطان شوش ١٠٤٨ : ١٠٦٨ هـ — ١٦٣٩ : ١٦٥٨ م)
(١٣ السلطان ناصر ١٠٦٨ : ١٠٨٠ هـ — ١٦٥٨ : ١٦٧٠ م)
(١٤ السلطان توم ١٠٨٠ : ١٠٩٤ هـ — ١٦٧٠ : ١٦٨٣ م)
(١٥ السلطان كورو ١٠٩٤ : ١١٠٦ هـ — ١٦٨٣ : ١٦٩٥ م)
(١٦ السلطان سليمان الثانى ١١٠٦ : ١١٢٦ هـ — ١٦٩٥ : ١٧١٥ م)

ومن الرواة من لا يعترف بالسلاطين السابقين لهذا السلطان ، ويؤكدون أنه هو أول سلاطين الفور بعد أن سرى الدم العربى فيهم ، ويلقبونه بسليمان صولون [1] ، أى : العربى ، وينسبون اليه كل ما نسب الى السلطان سليمان الأول ، ويجعلون « ١٥ : السلطان كورو » (١١٥) فى مكان شاو دورشيت . ويؤيدون قولهم بأختام سلاطين الفور المتأخرين كختم السلطان ابراهيم الأخير ، والسلطان حسين من قبله ؛ فان نسبتهم فى أختامهم تنتهى الى السلطان سليمان الثانى هذا كما سترى . ولكن الامام الذى أخذنا عنه سلسلة سلاطين الفور ومعظم تاريخهم يؤكد أن أختام السلاطين الأول ترجع نسبتهم فى أختامهم الى ما وراء السلطان سليمان الثانى ، وأن لقب صولون هو لسليمان الأول وقد نسبوه الى سليمان الثانى جهلا .

(١٧ السلطان موسى ابنه ١١٢٦ : ١١٣٨ هـ — ١٧١٥ : ١٧٢٦ م)

وكان على مثال أبيه فى العدل والاحسان .

(١٨ السلطان أحمد بكر ابنه ١١٣٨ : ١١٥٨ هـ — ١٧٢٦ : ١٧٤٦ م)

وقد اشتهر بكثرة الأولاد ، قيل كان له نحو مائة ولد .

(١٩ السلطان محمد دورة ابنه ١١٥٨ : ١١٧٠ هـ — ١٧٤٦ : ١٧٥٧ م)

ولم يكن أكبر اخوته ، بل كان ثانيهم ، فقتل أخاه الأكبر ليخلو له الملك . فلما ملك شرع فى قتل باقى اخوته ليخلو له الملك لأولاده من بعده . قيل : فلما رأى نساء أبيه أنه شرع فى قتل اخوته جعلن لأولادهن الذكور « كنافيس » وألبسنهم لبس البنات ليحجبنهم عن عينه . ومع ذلك فقد قتل منهم نحو الخمسين .

---

(١) فى التونسى ، ص ٨٣ : (سلونج) .

(٢٠ السلطان عمر الثانى [1] ابنه ١١٧٠ : ١١٧٧ هـ — ١٧٥٧ : ١٧٦٤ م)

وكان من أعدل سلاطين الفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة . ومما يروى عن عدله أنه بعد تولّيه الملك بثلاثة أيام ، خرج الى مجلس خاصته وسألهم أن يولّوا أحد أعمامه فى مكانه . قال لأن طاقية المُلك ، يعنى بها : مسئولية المُلك ، ثقيلة . فرفضوا ذلك بتاتا وأبوا الا أن يكون هو السلطان . فقال لهم : اذاً انتظرونى أسبوعا فأخبركم بما أريد . فخلا أسبوعا فى منزله ثم خرج ومعه قرون من الخشب تمثل قرون الغنم والبقر ، وقال لهم : أريد أن يعمّ الأمن ويبطل التعدّى حتى تسلم ماشية أضعف النساء ، وتنمو قرونها فتصير مثل هذه القرون . ثم التفت الى الحكام وقال : أريد أن تعدلوا فى الرعية لكى لا يجىء أحد منهم الىّ بشكوى . فلم يمض الا القليل حتى جاءته (١١٦) الشكاوى على ٣٠ عاملا من المقاديم والشراتى والجنود ، فأحضرهم اليه . ولما تحقق ظلمهم أمر فذُبحوا عند بابى داره : ١٥ منهم عند باب الحريم ، و ١٥ عند باب الرجال . فوقعت الرهبة فى قلوب الجميع وانقطع الظلم . قيل وقد بارك الله فى البلاد بسببه حتى أتأمت الابل والبقر والحمير ، وغزرت الينابيع فى جبل مرة ، وجرت الأنهار ، فلقب بـ « سَرَف » ، أى : الماء الجارى .

(٢١ السلطان أبو القاسم عمه ١١٧٧ : ١١٨١ هـ — ١٧٦٤ : ١٧٦٨ م)

قيل وفى أيامه خرج عربى صالح من كردوفان يسمى عبد الكريم الى دار ودّاى ، وكانت اذ ذاك بيد التنجر فاغتصبها منهم ، وكانوا قبلا يدفعون الجزية الى سلاطين الفور . فلما تولى عبد الكريم أبى دفع الجـزية . فجرد السلطان أبو القاسم جيوشه عليه وواقعه واقعة شديدة . ولكن اختلفت كلمة جيشه فنزل بنفسه الى ساحة القتال ، فجرح وانقلب راجعا

(١) ويعرف باسم عمر ليله . راجع ص ٨٣ — ٨٤ .

الى دارفور ، فمات فى دار تامه ، فحمله رجاله ودفنوه فى مدفن أجداده فى جبل مرة . وخلفه :

(٢٢ السلطان تيراب أخوه ١١٨١ : ١٢٠١ هـ — ١٧٦٨ : ١٧٨٧ م)

وكان له ثلاثون ولدا ونيّف من الذكور البالغين ما عدا الصبيان والبنات . وقد أطلق لهم العنان فتفرقوا فى البـلاد يعيثون ويفسدون وما تركوا شيئا نفيسا عند أحد الا اغتصبوه منه . وكان أحدهم « مساعد » لا يتحرك الا راكبا على ظهور الرجال فكان اذا أراد الانتقال من بلدة الى أخرى انتقى عددا من رجالها الأشداء ، فحملوه بالتناوب الى المحل الذى يقصده ، حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم ؛ ورفعوا الشكوى الى أبيهم ، فما أصغى اليهم ؛ وقال : انى لأعجب كيف أن رعيتى لا تصبر على أولادى . فاذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم الىّ ! فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم الى الله . وكان اسحق أكبرُ أولاده أنجبهم وأحبهم اليه ؛ فأطلق عليه اسم الخليفة ، لأنه أراد أن يرشحه للمُلك بعده ، وجعل له حاشية من الوزراء والأتباع مثل حاشيته . فجعل أبناء وزرائه وزراء لابنه ، وأبناء أتباعه أتباعا لابنه . وكان له زوجة يحبها ويراعيها ولها ابن منه يسمى : أحمد . فطلبت اليه أن يرشح ابنها للسلطنة بدلا من اسحق (١١٧) . فقال لها تيراب : نمتحن الاثنين أمامك ، فالذى نجده أفرس من أخيه نرشحه للسلطنة . فرضيت أم أحمد بذلك .

فبعث السلطان فى طلب الاثنين الى غرفته الخصوصية ،وكان للغرفة بابان : باب للرجال ، وعليه أسدان مقيدان بالحديد ، فى كل جانب أسد ؛ وباب للحريم ليس عليه شيء . فلما اقترب الولدان من باب الرجال نظر أحمد الى الأسدين فتحول عنهما ، ودخل من باب الحريم . وأما اسحق فانه دخل من باب الرجال بين الأسدين ، وكان دخوله حبواً على عادة

الدخول الى السلطان . فمزق الأسدين [1] ثيابه ، وشرطا جسمه بأظافرهما ، وهما يلاعبانه كعادة الأسود الأليفة . فلم يعبأ اسحق بهما ودخل على أبيه فسلّم عليه ، وكذلك سلم عليه أحمد . فسألهما بعض الأسئلة ثم أمرهما بالانصراف . فخرج كل منهما من الباب الذى دخل منه ، وكانت أم أحمد جالسة مع السلطان تشاهد ذلك ، فالتفت اليها السلطان وقال : من منهما يستحق الخلافة ، ويؤمن على الملك ؟ قالت : لا والله ، ابنك اسحق ، فانه رجل ، أما ابنى فقد أخجلنى .

وكان كرسى سلطنة الفور الى هذا العهد فى جبل مرة فنقله السلطان تيراب الى بلدة شوبة قرب كبكبيّة ، حيث بنى منزلا فاخرا ومسجدا فخيما من الطوب الأحمر ، وأقام فيها آمنا مطمئنا حتى خرج عليه المسبعات فى كردوفان فجهز لقتالهم .

أما المسبعات ففى المشهور أنهم هم وسلاطين الفور من جدّ واحد . قيل ان السلطان سليمان صولون المتقدم الذكر لما توّلى دارفور كان له أخ يدعى مسبّع ، فتولى كردوفان وتعهد الاثنان على أن يقنع كل منهما بملكه فلا يطمع بملك الآخر . فعاشا بسلام وأمان الى أن توفيا ؛ ودام هذا الحال فى أبنائهما الى أيام السلطان تيراب . وكان من ذرية مسبّع على كردوفان فى ذلك الوقت السلطان هاشم ، وكان شجاعا محبا للحروب والغزوات ، فغزا السروج [2] والعرب البادية الذين على حدود دارفور فقهرهم ، فسوّلت له نفسه اخضاع دارفور ، فجمع جيشا من السود مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل ، وجيشا آخر من العرب الدناقلة والكبابيش والرزيقات ، وبدأ بشنّ الغارة على حدود دارفور ، فقتل وغنم وسبى . فلما علم تيراب بذلك كتب اليه ما معناه :

---

(١) كـــذا .
(٢) كذا . ولعل المقصود : التروج ، سكان جبال نوبا .

« الى ابن العم المكرّم السلطان هاشم سلطان كردوفان أعزه الله .

(١١٨) أما بعد فاني لا أعلم السبب الذى يحملك على غزو بلادى مع ما هنالك من صلات القربى وعلاقات المودة التى تربطنا ولم يكن منى ما يكدر صفاءها ، وأنت تعلم أن هؤلاء الذين تغزوهم هم مسلمون مثلك يعبدون الله ورسوله ، وما من عاقل يفعل ما أنت فاعل . فعند وصول كتابى هذا أرجو أن تكف عن العداء رفقا بالرعية ، وتذكر أن الظالم ينال جزاء فعله والسلام » .

فلم يلتفت السلطان هاشم الى هذا الكتاب ، بل عاد الى ارسال السرايا لغزو الحدود . فتيقن السلطان تيراب اذ ذاك أنه لا يرجع الا بالسيف . فجهز لقتاله بكل قوته وآلة حربه ، ولم يشأ أن يخلى العاصمة من السكان ، فأعتق مئة عبد بنسائهم ، وأمر رجاله فأعتق كل منهم عبدا أو أكثر بنسائهم ، وجعل أكبر عتقائه حاكما على المدينة ، وعتيق امامه الحاج عبد الغنى اماما للمسجد ، ونهض بجميع جيوشه قاصدا كردوفان . فنزل بمحل يقال له : ريل ، فى بلاد البرقد ، وبنى له زريبة من شوك وبنى فى داخلها منازل من الطين ، وشرع فى الاستعداد للحرب .

وجرى للسلطان تيراب وهو يتأهب للحرب فى ريل حكاية مع أحد البرقد تستحق الذكر . قالوا :

خرجت جارية من جوارى السلطان الى بئر قريبة من الزريبة لتستقى ، فرآها رجل من البرقد ، فهام بها وطلب حضانتها فى منزلها على جارى عادة أهل تلك البلاد . فقالت له : ومن أين لك ذلك وأنا فى زريبة السلطان ؟ قال : دلينى على محلك فى الزريبة وأنا أعلم كيف أدخل اليه . فدلته ، ولما جنّ الليل جاء الى الزريبة واقتلع الشوك من بعض جهاتها البعيدة عن الخفراء ، وذهب الى حيث دلته الجارية ، وجلس ينتظر قدومها . فاتفق أن السلطان خرج فى ذلك الوقت من مخدعه يتمشى فى الزريبة ،

فرأى الرجل أمام باب الجوارى ، فقال له : من أنت أيها الرجل ، وما جاء بك الى هذا المكان ؟ فأخبره بقصته على التمام . فطلب تيراب الجارية فحضرت وهى ترتعد خوفا ، فأمنها وسألها عن الحقيقة ، فأجابته بما قاله الرجل . فلما تحقق خبرهما سمح لهما بالمحاضنة . وفى الغد عقد مجلسا من كبار دولته وقص عليهم خبر الرجل وطلب الحكم عليه فحكم البعض بقتله والبعض بسجنه والبعض بجلده . فقال السلطان : رأيى على الضد من رأيكم فان مثل هذا الرجل لا يقتل كأنه نعامة أو دجاجة ، ولا (١١٩) يهان بسجن أو بجلد بل يربى للحروب والقتال ، فانه لو لم يكن شجاعا مقداما لا يعرف الخوف ، ما أقدم على الدخول الى منزلى بهذه الجرأة . وفى الحال أمر له بجواد وآلة حرب وعبدين وزوّجه بالجارية ، وجعله فى مصاف فرسانه .

وقد طالت اقامة السلطان تيراب فى ريل مصابرة للسلطان هاشم لعله يرتدع عن شن الغارة فما زاده ذلك الا تماديا فى غيه . فتحمس ثلاثة من فرسان السلطان تيراب فركبوا خيولهم وأتوا الى النحاس فضربوه وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان ، وكان الوقت العصر . فلبس السلطان عدة حربه وركب جواده وجاء الى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر . فقالوا : ان نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ، ونحاسنا ساكت ، فلم يعد لنا صبر على هذه الحال ، فاما أن نسكت نحاس السلطان هاشم ونردعه عن البغى أو نموت فى هذا السبيل . فقال السلطان تيراب : اتبعونى اذا . فتبعوه ، ولحق بهم الجيش . فاستمر السلطان سائرا والجيش يتبعه الليل كله الى طلوع الشمس ، فتقدم أحد الوزراء الى السلطان وقال له : يا مولاى ، ان الجيش أنهكه التعب ولم يذق زادا . فلم يصغ السلطان اليه وواصل السير الى العصر . فتقدم اليه وزير آخر وقال : يا مولاى ، ان الجيش قصّر عن السير حتى الفرسان . فوضع يده تحت فخذه وأخرجها

ملوثة بالدم وقال : انظر ما جرى لى ولم أتضجر . وعاد الى متابعة السير . فتقدم اليه امامه الحاج عبد الغنى وقال له : يا أمير المؤمنين ، فاتنا خمسة أوقات من الصلوات المفروضة علينا دينا ، فان كنت لا تقف شفقة على نفسك والجيش ، فلابد من وقوفك لأداء فرض ربك فى الصلوة . فوقف السلطان اذ ذاك وقال : لقد أوقفتنى بالرغم عنى يا حضرة الامام .

وكان على مقربة من بئر « تولو » فنزل عندها واستأنف الاستعداد للحملة على كردوفان فجمع عربان البادية القاطنين بلاد دارفور من أبّالة وبقارة وأمرهم بمرافقة الجيش بما معهم من الابل والبقر لحمل الذخائر والمؤن فعهد الى الأبالة حمل الماء والحبوب ، والى البقارة حمل باقى المؤن من العسل والسمن .

ولما أتمّ استعداده ترك ابنه اسحق وكيلا عنه فى ريل ، وسار هو لقتال السلطان هاشم بجيش كثيف بهيئة مربع هائل فى طليعته دادات [1] السلطان حاملين الفؤوس (١٢٠) لقطع الأشواك والأشجار وتمهيد طريق الجيش ، وفى ساقته مقدوم الغرب [2] وفى ميمنته مقدوم الصعيد [3] ، وفى ميسرته مقدوم الشمال [4] . وفى القلب القوات الآتية على الترتيب : محافظ العاصمة [5] ومعه الموظفون الملكيون من وراء دادات السلطان الذين فى طليعة المربع ، ثم قبيلة السروج حاملين الحراب والدرق ، ثم قلعة السلطان من أمامه حملة النبابيت ومن ورائه الياوران [6] حاملين الحراب المكسوة بأكياس من الجوخ الملوّن ، وعن يمينه الوزراء . والملوك وعن يساره أولاده وأولاد السلاطين السابقين ، ثم حريم السلطان يحيط بهن

---

(١) راجع ص ١٠٤ ، حاشية ٣ . ومن هذا النص يتضح أن « دادات » جمع : « دادا » .

(٢) مقدوم الغرب هو أباديما . راجع ص ١٤٢ . حاشية ٢ .

(٣) مقدوم الصعيد هنا . هو : أباؤما . راجع ، ص ١٥٠ خاشية ٣ .

(٤) مقدوم الشمال هو : التكنياوى . راجع ص ١٥٠ ، حاشية ٣ .

(٥) المقصود بمحافظ العاصمة هنا : أرولندولنج . راجع ص ١٥١ ، حاشية ٦ .

(٦) المقصود بالياوران هنا : جماعة الكوركوا ، اى : حاملو الحراب ، وهم حرس السلطان . راجع ص ٧٩ ، حاشية ١ .

الغفر من الأغوات وعليهم « أبو شبيخ » [1] مقدوم الشرق رسما ، ثم حريم كبار الجيش وأغواتهن ، ثم حملة العربان حاملين المؤن والذخائر أمـــام مقدوم الغرب الذى فى ساقة المربع .

وكان السلطان هاشم قد علم بقدوم السلطان تيراب بجيش كثيف لا قبل له بمحاربته وتفرّق عنه أكثر رجاله ، ففرّ بحاشيته وعائلته والتجأ الى ملك سنار . فسار السلطان تيراب فى أثره حتى وصل قرب أم درمان . فقابله جيش العابدلاب من قبل ملك سنار قاصدين منعه عن النزول الى النيل . فأوقع بهم واقعة عنيفة ، وكسرهم شر كسرة . فحملوا نحاســهم المسمى بالمنصورة وفرّوا به طالبين النجاة . فتبعهم جيش السلطان تيراب بقصد الاستيلاء عــلى النحاس ، فدافع العابدلاب عنه بأنفسهم دفاع الأبطال ، حتى قتل منهم سبعون رجلا ، وفاز تيراب بنحاسهم ، فسرّ به سرورا فائقا حتى انه طلاه بالذهب من الداخل والخارج وعمل له نهودا من الذهب وحفظه الخلف عن السلف الى انقضاء ملكهم . وكانوا فى كل سنة يجدّدون تجليده بموكب حافل يجتمع فيه أهل دارفور خاصتهم وعامتهم من جميع الأنحاء . وداموا على ذلك الى أن سقطت دارفور بيد مصر فحمّل الى القاهرة .

ثم ان السلطان تيراب بعد انتصاره على العابدلاب نزل فى أم درمان وأخذ يستعد للزحف على سنار ، فوجد النيل فى طريقه وعرضه ٦٠٠ يردا ونيف ، ولم يكن عنده المراكب والمعدّات اللازمة لاجتياز النيل ، فبقى هناك أشهرا يدبر الوسائط لاجتيازه فلم يفلح ، فسئمت نفوس رجاله من الانتظار واشتاقوا الى عيالهم فى دارفور .

---

(١) « أبو شبيخ » هو : « الأب النسيخ » راجع ما ذكر عن هذا المنصب فى ص ٦٢ ، حاشية ١ .

(١٢١) فألحوا عليه بالرجوع فأقسم لهم أن لا يرجع الا برأس هاشم فاغتاظوا منه واتفقوا مع على ود برقو والد احدى زوجاته على قتله . فاطلع تيراب على الدسيسة وقتل على ود برقو ، وبقى فى أم درمان الى أن مرض فحملوه ، وعادوا به قاصدين دارفور . فاشتد عليه المرض فى الطريق ومات فى باره ، فحنطوه وحملوه الى جبل مرّة ودفنوه فى طرّة ، التى هى مدفن سلاطين الفور .

وقد اتسعت مملكة دارفور فى أيامه اتساعا لم نر مثله قبل ولا بعد . فكان حدها من الشمال بئر النترون فى الصحراء الكبرى ، ومن الجنوب بحر الغزال ، ومن الشرق بحر النيل ، ومن الغرب مضيق ترجه ، وهو مضيق بين جبلين فاصل بينها وبين ودّاى . وكان طولها مسيرة ٣ أشهر على القوافل ، وعرضها مسيرة شهرين . وقد بنى السلطان تيراب سورا من الطوب فى أم درمان لا تزال آثاره ظاهرة هناك الى اليوم . ولم يخلفه على الملك ابنه اسحق كما دبّر من قبل بل خلفه :

(٢٣ السلطان عبد الرحمن أخوه ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ — ١٧٨٧ — ١٨٠١ م)

فلقب باليتم والعادل والرشيد . قيل لقب باليتم لأنه عند وفاة أبيه كان لا يزال رضيعا ، وبالعادل لأنه كان عادلا ، وبالرشيد لأنه أرسل الى « جلالة أمير المؤمنين وسلطان السلاطين فى الآستانة » هدية من العاج والريش فأرسل جلالته كتابا يشكر له هديته ويلقبه بالرشيد ، وهو اللقب الذى عرف به فى أختتام سلاطين الفور .

وقالوا فى تفصيل ولايته أنه لما مرض أخوه تيراب كان يطلب العلم فى بلدة كريو من أعمال دارفور وكان له هناك صديق يسمى الشيخ مالكا من الفلاّته ، فأشار عليه بالذهاب الى أخيه بحجة عيادته فاذا توفى تسنّت له الفرصة للمُلك . فسار عبد الرحمن برأى صديقه وأدرك أخاه فى باره .

قيل فلما سمع تيراب بقدومه فرح به وقال : أحضروا الىّ ابن والدي لأراه قبل موتى فانه سلطان فور بعدى . فأحضروه اليه فترحب به ، وأمر له بهدية نفيسة . ولما توفى قام أبناء السلاطين المرافقين لجيش تيراب ، فادعى كل منهم الحق بالملك بعده ، الا عبد الرحمن فانه لم يقل شيئا . فعقد الأعيان ورؤساء الجيش مجلسا بحضرة العلماء ، وحلّفوا أبناء السلاطين على الكتاب أنهم يرضون بالذى يختارونه لهم ، فاختاروا عبد الرحمن باتفاق الآراء لأنه كان رجلا (١٢٢) عادلا صالحا محبـوبا من الرعية . فنادوه الى المجلس وولّوه سلطانا على دارفور . ثم نادوا الباقين واحدا واحدا وأخبروهم بولايته سلطانا عليهم فبايعوه مضطرين .

وكان عبد الرحمن متزوجا بجارية سوداء طيبة الأخلاق من قبيلة البيقو تسمى أم بوسه وكان يحبها محبة شديدة ، وقد أحضرها معه الى باره . قيل : فلم يتم الأمراء مبايعتهم له ، حتى حضر عبد من منزله فقال ان سيدتى وضعت غلاما هذه الساعة . ففرح به عبد الرحمن وقال : فليكن اسمه محمـد الفضل ، وهو الملك بعدى ان شـاء الله . وكانت ولاية عبد الرحمن فى رأس القرن الثالث عشر الهجرى فقال اللهم اجعل هـذا القرن لى ولذريتى من بعدى وكان كذلك .

ثم ان السلطان عبد الرحمن قام بالجيش الى الأبيّض فوضع فيها مقدوما يرجع بأحكامه اليه واستطرد السير الى دارفور ، وكان عليها اسحق بن تيراب كما علمت ، فرفض الطاعة له وحاربه فى عدة وقائع كان النصر فيها للسلطان عبد الرحمن . وفى الواقعة الأخيرة أصابته رصاصة طائشة من رجال عبد الرحمن فأصابت منه مقتلا ، ولكنه بقى يومين حيا فدخل عليه عبد الرحمن قصد عيادته . قيل فأغمض عينيه وقال له : لا أريد أن أرى وجهـك الى يوم القيـامة . وبقى مغمض العينين ، حتى خـرج عبد الرحمن من الخيمة ففتحهما ولم يمض الا القليل حتى مات فاستتب

الملك لعبد الرحمن ، ونقل كرسى السلطنة الى الفاشر الواقعة على خور تندلتى على ٣٥ ميلا من جبل مرّة ، فصارت الفاشر عاصمة دارفور من ذلك العهد وبقيت الى انقضاء السلطنة .

وقد نال عبد الرحمن شهرة لم ينلها غيره من سلاطين الفور الذين تقدموه وكان له علاقة بمصر . وفى أيامه انتشر العلم فى دارفور ، واتسع نطاق التجارة ، وقويت شوكة الديانة الاسلامية ، لأنه كان عالما ورعا . وفى سنة ١٧٩٣ م زار السائح الانكليزى برون بلاد دارفور عن طريق الأربعين . ويظهر أن المماليك ضيقوا على القوافل التى كانت تأتى من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر ، فلما دخل بونابرت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ونكل بالمماليك كتب اليه السلطان عبد الرحمن يهنئه بفوزه عليهم وهذا هو فحوى الكتاب :

(١٢٣) « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . من سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد ، الى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام .

« أما بعد فنعلمكم أن خبر انتصاراتكم على المماليك وصل الينا فتلقيناه بغاية السرور ، وقد أخبرنا أحد الافرنج الذين اعتنقوا الاسلام بحسن معاملتكم للأجانب ، فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلاّبى ، وكلفناه أن يؤكد لكم صدق مودتنا التى نسأل الله دوامها . ونحن نوصيكم بالخبير خيرا لتحموه هو وأتباعه وعبيده ، ولكم منا ألف تحية وسلام . اهـ .

فكتب اليه بونابرت فى الجواب ما معناه :
(١٢ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة ١٧٩٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله . الى السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور . تناولت كتابكم وفهمت فحواه واعلموا أن قافلتكم قد وصلت فى حين كنت متغيبا فى بلاد الشام أعاقب أعداءنا وأدمّرهم والآن طلبى اليكم أن ترسلوا الىّ مع أول قافلة ألفى عبد من العبيد الأشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر ، اذ مرادى أن أبتاعهم لنفسى والأمل أن توعزوا الى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها أنا أمرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون » .

(الامضاء) « بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوى »

(٢٤ السلطان محمد الفضل ابنه ١٢١٥ : ١٢٥٤ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٣٩ م)

الملقب بقمر السلاطين ، وكان أول أعماله أنه حرّر قبيلة أمه أم بوسة البيقاويّة ، ومنع أخذ الرقيق وبيعه منها . قيل انه عند توليّه الملك كان خاله المسمى فزارى يرعى البقر فى بلاده على ٥٠ ميلا الى الجنوب الغربى من الفاشر . فأرسلت أخته رسولا تبشره بتولية ابنها على الملك . فسار الرسول بالخبر على جواد مطهّم وأطلق له العنان . فما وصل الى فزارى حتى نهك الجواد التعب فسقط فى الأرض ميتا ، وتقدم الرسول الى فزارى وقال له : أبشر بالخير ، فان ابن أختك أم بوسة قد تولى عرش سلطنة دارفور منذ خمسة أيام . وكان فزارى اذ ذاك يسقى البقر عند حوض الماء فطار فرحا لهذا الخبر وضرب الحوض برجله ووزّع البقر على الحضور ، ثم أتى بعنكريب (١٢٤) نام عليه وقال للذين حوله . احملونى ، فحملوه حتى أوصلوه الى الفاشر ، فولاه محمد الفضل الوظيفة المعروفة بمملكة الخوال . وكان عمر محمد الفضل عند تولّيه الملك ١٤ سنة ، فوكله أبوه الى رئيس خصيانه كرّة المعروف بلقب « أبو شيخ » وجعله قيما عليه لأنه كان وزيرا صادقا له ، وكان من الشجاعة وحسن الدراية على جانب عظيم . فأقام كرّة فى خدمة سيده محمد الفضل بالأمانة

والاخلاص كما خدم أباه حتى حدث ما غيّره ، فانقلب عليه . وذلك أن السلطان محمد الفضل أولم وليمة لكبراء دولته فجلسوا على الموائد فئات حسب مقاماتهم ، كل فئة على مائدة . وكان أبو شيخ كرّة فى فئة الملوك فمر السلطان بالموائد لمؤانسة المدعوين على جارى العادة . فلما مرّ بمائدة الملوك حيّاهم بالسلام فردّ الملوك عليه السلام أحسن ردّ أما أبو شيخ كرّة فانه كان قد أكثر من الخمر وفقد الواعز ، فالتفت الى السلطان مازحا وقال له : تفضل معنا ، ولم يكن من عادة سلاطين الفور الأكل مع أحد فاغتاظ السلطان من دالّة كرّة وتطاوله ، وكان بيده عصى من الخيزران فضربه بها على أم رأسه ضربا أليما حتى كسَّر العصى وطرده عن المائدة . فانصرف كرّة الى منزله من غير أن يفوه ببنت شفة . ولكنه حقد على السلطان من ذلك العهد ، ولم يعد اليه حتى اجتمع الوزراء وترضوا السلطان فرضى عنه وأعطاه هدية فاخرة . فرجع ولكنه بقى حاقدا عليه ، وأخذ يسعى فى ثل عرشه ، وتولية أخيه باسى عوض الله مكانه . فاغتال أكثر الملوك المخالفين له ، ولم يبق منهم سوى الملك ابراهيم ود رماد ملك النحاس فدعاه يوما الى منزله ليقتله فعلم بالمكيدة فاعتذر بعدم مقدرته على الذهاب وسعى حتى دخل على السلطان وقال له : اعلم أن كرّة لا يزال حاقدا عليك من يوم ضربته على المائدة وهو يسعى فى ثل عرشك وتولية أخيه باسى عوض الله مكانك ، وقد استمال أكثر رجال الجيش اليه ، وقتل الملوك غيلة ، وهو يريد أن يقتلنى لهذه الغاية . فقال السلطان : وما دليلك على ذلك ؟ قال : نرسل أحد الضباط بنفر من العساكر الى الآبار التى يستقى منها ليمنعوا عبيده الورود ، فاذا جاءك شاكيا ، كان لا يزال على الولاء والا فلا . فاستحسن السلطان هذا الرأى وأرسل ضابطا الى آبار كرّة فكان كلما وردها (١٢٥) أحد من جماعة كرّة منعه الضابط وردّه خائبا . فلما علم بذلك جمع عبيده ورجال الجيش الذين من حزبه وجاء الى الآبار

فقتل الضابط ومن معه ، وتقدم الى منزل السلطان فدخله محاربا . وكان الملك ابراهيم قد أعد الجيوش لمصادمته ، فاقتتل الفريقان الى ما بعد الغروب . فنادى الملك ابراهيم أبا شيخ كرّة من وراء الجدار وقال له : حقا انك امرأة ، لأنك لو كنت رجلا لم تطلب الحرب ليلا بلا ميعاد . فقال كرّة : كنت قد نويت أن لا أخرج من هذا المكان حتى أقتلك وأخلع سلطانك ، أما الآن وقد قلت انى فاجأتك ليلا بلا ميعاد ، فلاقنى صباح الغد الى ساحة القتال شرقى المدينة . قال ذلك وانصرف بعساكره الى منزله . فأخذ كل فريق يجهز جيشه للغد .

وكان فى جيش السلطان محمد الفضل رجل كهل مشهور بالفروسية والاقدام يسمى : أحمد ود جراب الفيل ، وقد حضر عدة وقائع حربية ، من جملتها واقعة السلطان أبى القاسم مع ملك ودّاى ، فأبلى فيها بلاء الأبطال ، وحضر الواقعة التى تقدم ذكرها . فلم يبد ما كان ينتظر منه بل كان كلما قابلته كتيبة من الفرسان أعرض عنها . فلما جمع الملك ابراهيم رؤساء العساكر للنظر فى قتال الغد ، كان ود جراب الفيل حاضرا . فقال له الملك : ما أصابك أمس يا ود جراب الفيل حتى أحجمت عن القتال ، أصحيح ما شاع أن كرّة اشتراك بمئة رأس من الرقيق ، فتركت القتال ؟ فقال ود جراب الفيل : ألمثلى يقال هذا الكلام ، يا ملك ابراهيم ، أأنا أبيع ود السلطان عبد الرحمن بمئة رأس رقيق . ولكن قل لى بماذا أحارب أبسيفى وقد أخذوه منى ووضعوه فى خزينة سلاح السلطان ، أم بحصانى هذا الضعيف النحيف الشبيه بالنعجة . فان كنتم تحبون أن ترون [1] منى حرب الرجال وتشاهدون بأعينكم ما اشتهر عنى من البسالة والاقدام فأرجعوا لى سيفى وهاتوا لى فرسا يحمل الكر والفرّ . فأريكم غدا ما يسركم . فأمر السلطان باحضار سيفه فأحضر اليه ، ثم أمر باحضار الخيول ليختار منها جوادا يعجبه . قيل فكان ود جراب الفيل يقبض

(١) كـذا .

على ناصية الجواد ويجذبه بيده وهو جالس فى الأرض فيخرّ الجـواد على ركبتيه من شـدة الجذبة ، الى أن قبض على ناصية جواد فجذبه كما فعل بما تقدمه ، فنفض الجواد رأسه ورفع ود جراب الفيل حتى أوقفه على قدميه . فقال ود جراب (١٢٦) الفيل : هذا جوادى الذى أركبه . ثم ركبه واستل السيف وقبّله والتفت الى أم السلطان وقال : اعلمى أن دارفور تكون بيد ولدك لا ينازعه فيها منازع قبل ظهر نهار غد ان شاء الله . ففرح الملك ابراهيم بذلك وكان له ثلاثون ولدا من صلبه راكبين الخيول كاملى العدة ، فأحضرهم الى ود جراب الفيل وقال له : أنت رئيس أولادى هؤلاء ، وأريد منكم اذا التقى الجمعان فى الغد أن لا تقاتلوا أحدا غير كرّة ، فاقصدوه حيث يكون وقاتلوه حتى تقتلوه ، فلما كان صباح الغد واصطف الفريقان للقتال ، برز ود جراب الفيل ومن معه من أولاد الملك ابراهيم قاصدين كرّة . فاعترضهم أخوه باسى عوض الله فقتلوه وتقدموا الى كرّة فتلقاهم بقلب لا يهاب الموت ، وكان لابسا درعين من الحديد وعلى رأسه خوذة تغطيه ، وتغطى وجهه حتى كان لا يرى منه الا عيناه ، فكانوا يضربونه بالسيوف فلم يتمكنوا منه ، وكان هو أيضا يكر عليهم ويهاجمهم مهاجمة الأسود ، فلم يصب منهم مقتلا ، لأنهم كانوا متدرعين مثله . فاحتال بعضهم عليه بأن ركب على فرسه من ورائه وجندله ، فأطبق الفرسان عليه ، ونزعوا خوذته ، ثم حزوا رأسه وحملوه الى السلطان . فلما رأى جيش كرة ما جرى لشيخهم ولوا الأدبار منهزمين . فتبعهم جيش السلطان ونكل بهم وكان من عادة كبار الخصـيان فى دارفور أن يقتنوا زوجات من الأرامل اللواتى لهن أولاد ، فيتبنون الأولاد لتنتفى عنهم مذلة الخصى ولو ظاهرا . وكان لأبى شيخ امرأة ولها ابن يسمى : شيل فوت (أى خذ واذهب) وهو من الفرسان المعدودين . وكان السلطان محمد الفضل يود أن يجعله من

أتباعه وأعوانه ، فأوصى جيشه قائلا : اذا انهزم جيش كرّة وظفرتم بشيل فوت ، فلا تقتلوه ، بل ائتونى به حيّا . فلما كان انهزام جيش كرّة ظفر بعض الفرسان بشيل فوت ، فتصدى لهم فأخبروه بوصـية السلطان لهم . ولما أمن جانبهم جاء معهم الى السلطان فأمّنه وعفا عنه . ثم التفت اليه الملك ابراهيم وقال له : يا شيلفوت ، ألأجل فضلة الطعام تحارب مثل هذه الحرب ؟ قال ذلك لأن شيلفوت كان يأكل فضلة طعام كرّة على عادة الابن مع أبيه فى السودان . وكان من عادة الملك ابراهيم كملك النحاس أن يوزع طعام السلطان عـلى الجيش ، فأجابه (١٢٧) شيلفوت على الفور ، أنت حاربت لأجل توزيع الطعام أفلا أحارب أنا لأجل أكله .

واستتب الملك للسلطان محمد الفضل بعد قتل كرّة ، ولم يعد له معارض ، فتفرغ لتأديب العرب الذين خرجوا عن طاعته وهم بنو هلبة ، والعريقات ، والرزيقات . أما بنو هلبة والعريقات فقد أخضعهم بالسهل ، أما الرزيقات فكانوا قبيلة قوية وقد طالما عصوا سلاطين الفور واستقلوا عنهم ، فصمم السلطان محمد الفضل على الايقاع بهم . فجمع جيشا عظيما وأحاط ببلادهم احاطة السوار بالمعصم ، وحصرهم وأثخن فيهم ، وقتل كل رجل فيهم ولم يستحى الا النساء والأولاد ، فقسمهم نصفين . فأرسل النصف الواحـد الى أرض العريقات وأسكنهم اياها ، وأبقى النصف الآخر فى أرضهم وأعاد لهم قسما من ماشيتهم ، فأعطى كل أرملة قتل زوجها بقرة حلاّبة وثورا .

وحكى عن السلطان محمد الفضل نادرتان : احداهما مع أحمـد ود عدلان آخر وزراء الهمج بسنار ، تدل على كرمه . والثـانية مع السلطان آدم سلطان ودّاى تدل على شهامته . أما نادرته الأولى فهى أن جعليّا التقى بود عدلان فى البرية خارجا للقنص فقبض على لجام

فرسه وقال له : أيها الملك ، انى رجل فقير وقد جاوزت سن الأربعين ، ولم أذق رائحة البخور . يريد بذلك أنه لم يتزوج بعد لعدم مقدرته على الزواج . فقال له الملك : تعال معى الى سنار فأعطيك ما قسمه الله لك . فقال له الجعلى : لا أتركك حتى تعطينى ما قسمه الله لى الآن . لأنى اذا ذهبت معك الى سنار دخلت منزلك وشغلت عنى ولم يدخلنى اليك أحد . ولم يكن مع ود عدلان فى ذلك الحين الا فروة من الجلاد مفروشة فوق سرج فرسه ، فأعطاه اياها وقال له : أدلك على واسطة تنال بها الغنى ، تذهب بهذه الفروة الى السلطان محمد الفضل سلطان دارفور ، وتقص عليه قصتك ، وتعطيه الفروة ، فان كان الله قد أغناك فهو يغنيك . فحمل الجعلى الفروة وسار حتى وصل دارفور ، واستأذن فدخل على السلطان محمد الفضل ، وقص عليه قصته مع محمد [1] عدلان ، وأعطاه الفروة . فنادى السلطان محمد الفضل أحد وزرائه وقال له : خذ هذا الرجل الى منزلك وأكرمه غاية الاكرام ، وائتنى به فى الغد . ففعل الوزير كما أمره السلطان ، وفى الغد حضر الرجل بين يدى السلطان فسأله عما قال له (١٢٨) ود عدلان ، فقال : قال لى خذ هذه الفروة الى السلطان محمد الفضل ، فان كان الله قد أغناك فهو يغنيك . فأمر السلطان وزيره بأن يعطيه أربع مئة رأس من الرقيق والابل والبقر والغنم ، من كل صنف مائة رأس ويأخذه الى منزله فيكرمه ويعود به اليه فى اليوم الثانى . ففعل الوزير كما أمره السلطان . ولما مثل الجعلى أمام السلطان فى اليوم الثانى سأله أيضا عما قاله له ود عدلان . فأعاده له فأمر له بأربع مئة رأس أخرى من الأصناف الأربعة المذكورة .. وهذا بقى الجعلى يتردد على السلطان ، والسلطان يأمر وزيره أن يعطيه ما أمر له فى اليوم الأول على عشرة أيام حتى اجتمع عند الجعلى ٤٠٠٠ رأس ، من كل صنف ألف . فلما أتى به فى اليوم الحادى عشر وسأله السلطان عما قاله له

(١) كـــذا .

ود عدلان قال : أطال الله بقاء مولاى وأيده بالنصر على الأعداء ، انى قد اغتنيت غنـــاء الأبد ، وقد نسيت الذى قاله لى ود عدلان . فضحك السلطان لقوله وقال لوزيره : خذه الآن وسلمه ما وهبناه اياه ، وأرسله مع الحرس اللازم الى بلاده . وأما الأصناف التى أعطيناه اياها ولا يمكن نقلها الى بلده كالبقر والغنم فبعها وأعطه ثمنها . ففعل الوزير ما أمره السلطان ، وخرج الجعلى بهداياه من أرض دارفور شاكرا حامدا ، وعاد الى وطنه ، فتزوج من اشتهاها من نساء بلده وشم رائحة البخور .

أما نادرته الثانية مع السلطان آدم ، سلطان ودّاى ، وهو السلطان الثامن بعد السلطان عبد الكريم ، فهى أن السلطان محمدا الفضل بلغه أن عند السلطان آدم فرسا سريع الجرى مشهورا بالسبق ، فأرسل اليه فى طلبه ، فجمع السلطان آدم وزراءه وشاورهم فى الأمر ، فقالوا له : هذا « عشم فَسِـل » أى : هذا رجاء باطل يشف عن احتقار واستخفاف . فقال : اذاً ما الرأى ؟ فقالوا : الرأى عندنا أن تكتب له ، وتقول : اذا أزوجتنى بأختك أرسلت اليك الفرس . فكتب السلطان آدم هذا الجواب ودفعه الى الرسول . فلما قرىء الجواب للسلطان محمد الفضل ، طار صوابه من شدة الغضب . قيل وكان بيده اليسرى سيف ، فلما وصل القارىء الى قوله : « اذا أزوجتنى بأختك » ، جعل ينقر السيف بسبابة يده اليمنى ، حتى انكسر الظفر ، وسال منه الدم ، وهو لا يدرى (١٢٩) ؛ وعزم على التنكيل بالسلطان آدم وارغام أنفه . فسأل الحاضرين : أتعرفون أحداً هنا من أهل ودّاى ، ولو أنه من عامتهم لنوليه على ودّاى بدل هذا السلطان ؟ فقال له بعضهم : عنـــدنا ، يا مولاى ، فى بلدة جديد رأس الفيل جزار من دار ودّاى يسمى محمد شريف . وربما كان من العائلة المالكة مع أنه جزار ، لأن آدابه وأخلاقه تدل على كرم أصله ، وفى وجهه أثر النعمة والعز . فقال : ائتونى به فى الحال . فأتوه به ،

فقال له السلطان : من أنت يا رجل ، وما أتى بك الى هذه البلاد ؟ قال : يا مولاى ، أنا محمد شريف ابن السلطان صالح بن خريفين ، شقيق السلطان آدم سلطان برقو الحالى ، وقد فررت من وجه أخى السلطان آدم خوفا على بصرى ، لأن من عادة سلاطيننا كما لا يخفى على مولاى ، أنه اذا تولى أحدهم المُلك قلع عيون اخوته ، وجميع أقاربه الذين يخاف شرهم ، حتى لا يبقى له مزاحم على المُلك ، ففررت الى هنا وفضلت أن أعيش جزارا فى بلاد الغربة ، وأنا أبصر ، على أن أعيش فى بلادى أميرا بلا بصر . فقال السلطان محمد الفضل : فهل لك أن تكون سلطانا على بلادك بدلا من أخيك ؟ فقال له : ومن أين لى ذلك يا مولاى ؟ قال :لك ذلك منى ان شاء الله . ثم أمر فألبسوه حلة السلطنة ، وسيره الى ودّاى بجيش عرمرم ، وعليه اثنان من وزرائه وأربعة من أولاده ، ومنهم حسين الذى تولى السلطنة بعده . فسار محمد شريف بالجيش حتى وصل حدود ودّاى ، فالتقاه السلطان آدم بجيوشه ، وحصل بين الجيشين عدة مواقع دموية ، قتل فيها خلق كثير من الفريقين . ولكن غَلب فيها جيش السلطان محمد الفضل ، وأخذ السلطان آدم أسيرا ، وغنم نحاسه ، وولّى محمد شريف سلطانا على ودّاى ، وعاد الى دارفور ومعه السلطان آدم أسيرا . فبقى السلطان آدم فى دارفور مدة ، ثم تمكن من الفرار الى ودّاى ، فأرسل السلطان محمد شريف عسكرا وراءه فتعقبه وقتله وبقى لا ينازعه أحد الى أن مات .

وتولى بعده على ودّاى السلطان على ابنه ، ثم السلطان يوسف أخو على ، فالسلطان ابراهيم بن يوسف ، فالسلطان أحمد الغزالى ابن على ، فالسلطان محمد دود مرّة ، أخو ابراهيم ، وهو السلطان الحالى .

هذه رواية البعض فى سبب الحرب بين السلطان محمد الفضل

والسلطان آدم . (١٣٠) وقال بعضهم ان رواية الفرس لم تكن بين السلطان آدم والسلطان محمد الفضل ، بل كانت بين السلطان على المذكور وبين معاصره من سلاطين برنو ، وأن السلطان عليّا هو الذى طلب الفرس من سلطان برنو ، فأجابه سلطان برنو بما هو منسوب الى سلطان ودّاى .

قالوا وأما سبب الحرب بين دارفور وودّاى فهو أن محمد شريف المذكور جاء الى السلطان محمد الفضل يستنصره على أخيه فنصره لأنه كان أميل الى دارفور من أخيه السلطان آدم .

وفى أيام السلطان محمد الفضل أرسل محمد على باشا ابنه اسماعيل بجيش جرار لفتح سنار ، وصهره الدفتردار لفتح كردوفان . وكان فى كردوفان مقدوم من قبل السلطان محمد الفضل يقال له : المقدوم مسلّم ، فتغلب عليه الدفتردار وامتلك البلاد منه بعد واقعة شديدة على ما سيجىء بالتفصيل فى الفتح المصرى . قيل وكان السلطان محمد الفضل واجدا على المقدوم مسلم ، فلم يشأ أن ينصره ، فلما علم أنه قتل أرسل جيشا تحت قيادة أبى اللكيلك ، فخرج له جيش الحكومة فالتقاه فى سودره بين فوجه والأبيض . وحدثت واقعة شديدة حارب بها جيش الفور حرب الرجال حتى قتل قائدهم ، فانهزموا راجعين الى الفاشر ، فخاف السلطان محمد الفضل على دارفور ، وأخذ من ذلك الوقت يحشد الرجال ، ويستكمل العدة ، محافظة على سلطنته . وقيل انه كتب « أسماء » على نية منع الحكومة المصرية من الدخول الى بلاده ، وجعلها فى قماقم من نحاس ، ودفنها فى الصحراء الشرقية والشمالية ، ولم يخف على سلطنته من الجنوب حيث دخل الزبير باشا كما سيجىء .

وكان لمحمد الفضل أخ يكرهه ويزاحمه على الملك يسمى ، أبا مدين ،

ففر الى مصر وأخذ يهون على محمد على فتح دارفور ، فأرسله محمد على الى كردوفان للسعى مع مديرها فى ذلك فبقى فى الأبيض الى أن توفى[1] .

ولما كانت سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م أرسل محمد على باشا كتابا الى محمد الفضل يدعوه فيه الى التسليم . فأجابه محمد الفضل بكتاب أخذنا صورته عن نسخة بيد الزبير باشا بمصر وهذا نص الكتاب : (١٣١)

« الحمد لله الذى حكم بين عباده بالحق قطعا ، سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى ، واليه المعاد والرجعى ، وهو حسبى وكفى .

من حضرة من أمّن الله به البلاد ، وجعل ملكه مسموعا من كل أحد ، وصيره فى قلوب الأعداد نارا تستعر ، وجمرا يتوقد ، وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد ، ومن ضل وتعند ، وهو شاب صغير السن ، ولو صار كهلا لخضعت له الانس والجن . وقد اشتهر بالكرم والجود ، وحال بعوارضه أنجم السعود ، وان قامت الهيجاء بنفسه يجود ، ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود ، وينتصر بعون الله على كل موجود !!!

هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد أعزه الله .

« الى حضرة الكوكب العالى ، والنير المتلالى ، بهجة الأنام وقدوة الليالى ، صاحب العز والافتخار ، أخينا العزيز محمد على باشا ، سلمكم الله تعالى من المحذورات ، واستعملكم بالباقيات الصالحات ، بمنه وكرمه .

« أما بعد : فسلام الله عليكم ، ورحمته وبركاته لديكم ، قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله الى رضوانه وفهمنا خطابكم ، ومقتضى جوابكم ، وكل كلمة من المرقوم ، يستحق جوابها المفهوم . ولكن يكفى من ذلك كله كلام الحى القيوم حيث قال : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » .. « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .. انكم طالبون دولتنا

---

(١) راجع ملحق رقم (١) .

وطاعتنا ، وانقيادنا لكم ، هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا ، وأبيح ضرب الجزية علينا ، أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية ، فنحن السلاطين وهم الرعية ؟ أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك ، أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك ، أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك ربا قويا ، ولنا رب ضعيف ؟ الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله (صلعم) ونؤدى الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والذى لم يتصل نأمره بالصلاة ، والذى لم يزك نأخذ منه الزكاة ونضعها فى بيت المال ولا (١٣٢) ندخرها ، ونرد الأمانات الى أهلها ، ونعطى كل ذى حق حقه ، حتى دانت لنا القبائل العظام . ومن أتى دولتنا يرجع مكرما باذن الله تعالى ، ولو اشتدت به الريح فى يوم عاصف . ألم تر الى قوله (صلعم) « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى » . أما علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية ، وخيول جرد أدهمية ، وعليها كهولة وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية ! أما علمت أن عندنا العباد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم ، فتصير رمادا ، ويرجع الملك الى أهله ، ويكفى من بعد ذلك ، والله يكفى شر الظالمين . كتبه الفقيه محمد ود عمارى من متخرجى الأزهر وكان مدرسا للسلطان محمد الفضل وأولاده بالفاشر . ا هـ .

وتوفى السلطان محمد الفضل سنة ١٨٣٩ وخلفه :

(٢٥ السلطان محمد حسين ابنه ١٢٥٤ هـ — ١٨٣٩ : ١٨٧٤ م)

وكان معاصرا للمغفور لهما سعيد باشا واسماعيل باشا فبادلهما الهدايا والمكاتبات ، فكان يهدى اليهما الخصيان والريش والسن وغير ذلك من تحف دارفور وهما يهديان اليه النفيس من تحف مصر . وقد أرسل له سعيد باشا مركبة برأسين من جياد الخيل وخيما وتحفا كثيرة . أما المركبة

فانه لم يركبها قط ، بل أمر سائقها عند وصولها بركوبها أمامه . فذهب بها السائق من بيت السلطان الى الجامع مسافة فرسخ وعاد بها الى بيت السلطان ، فأمر السلطان بوضعها فى الاسطبل ، فبقيت الى الفتح المصرى. وأما الخيل فقد قيل له انها مسحورة فتركها للعلف نحو ٥ سنين ثم وهبها لبعض خاصته . وأهدى اليه اسماعيل باشا شالات كشمير ، وسروج ذهب ، وسبح كهرمان ، وخرز سوميت ، وغيرها من تحف مصر المستحسنة فى دارفور .

وكان السلطان حسين جوادا كريما محبا للرعية . حدثنى الشيخ على بك الخبير من مشاهير التجار بدارفور وقد عاصره قال :

دخلت يوما على السلطان حسين للسلام عليه وأخذت له معى هدية نفيسة من تحف مصر تساوى ألفى غرش ، فأمر لى بمئتى بعير من أكرم الابل .

ولما كانت سنة ١٨٥٦ م كف بصره فطلب التحفظ على ملكه . فألف جيشا ينيف على ١٠٠٠٠ مقاتل وسلحهم بالأسلحة النارية ، فكان هو أول من استعمل الأسلحة (١٣٣) النارية فى جيش دارفور وقد كان اعتماد السلاطين قبله على السيوف والحراب والدرق والسكاكين والنشاب .

وكان للسلطان حسين أخت تسمى اياباسى زمزم اشتهرت باتساع الثروة وكان لها نفوذ تام فى السلطنة .

وفى أيام السلطان حسين كانت « واقعة القرطاس » المشهورة بين عربان المعالية وعربان حمر . وذلك أن عربان المعالية قطعوا الطريق على قافلة آتية من مصر الى دارفور ، وقتلوا تجارا مشهورين بأهل زريبة عبد العزيز، وأخذوا أموالهم من سكر وأنسجة ونحوها . فغضب السلطان حسين من تعديهم ، وكان بينهم وبين عربان حمر عداوة قديمة فأرسل السلطان فى طلب الشيخ مكى ود منعم شيخ عربان حمر ، وقال له : انى أبحت لك دماء المعالية وأموالهم . فجمع الشيخ مكى رجاله وحلفاءه وغزا عربان

المعالية ، وكانوا مشهورين بالصبر والثبات فى الحروب ، فحدث بين القبيلتين واقعة دموية شديدة كان النصر فيها لعربان حَمر ، فقتلوا المعالية شر قتلة . قيل وقد سميت هذه الواقعة بواقعة القرطاس ، لأن الصحارى امتلأت من قرطاس السكر والأنسجة التى نهبها المعالية من التجار .

(٢٦ السلطان ابراهيم ١٢٩٠ : ١٢٩١ هـ — ١٨٧٤ : ١٨٧٥ م)

وهو آخر سلاطين الفور وكانت مدة ملكه سنة وسبعة أشهر وأربعة عشر يوما . قيل لما مرض السلطان حسين وعلم بدنو أجله أراد أن يضمن الملك من بعده لابنه ابراهيم لأنه كان يحبه أكثر من جميع اخوته . ولم يكن أكبرهم بل كان أبو البشر أكبرهم . فانتدب اثنين من أمنائه وهما الأمين بخيت من قبيلة الميدوب ابن الوزير آدم بوش كبير الأمناء ، والأمين « خيرقريب » من عبيد الفرتيت أمين الخزينة والأسلحة ، وأتى بالمصحف المسمى بسوار الذهب وحلفهما عليه بأن يوليا ابنه ابراهيم بعد وفاته . وكان أحمد شطة أمير الصعيد المقيم فى دارا يحب أن يولى الأمير أبا البشر لأنه كان متزوجا بشقيقته ، وكان له صديق فى الفاشر يسمى الشيخ أحمد الدردير . فلما اشتد المرض على السلطان حسين أرسل الدردير يخبر الوزير أحمد شطه ، فأتى الفاشر ونزل فى منزل أحمد الدردير واستأذن فدخل على السلطان وسلم عليه فقال له (١٣٤) السلطان : كيف تركت مركزك وجئت الى هنا بلا اذنى ؟ قال : بلغنى يا مولاى خبر مرضك فأسرعت بالحضور لعيادتك . فقال له : ارجع على الأثر ولا تبيتن هنا . فقال : سمعا وطاعة . ولكنه علم أن السلطان مائت قريبا ، فتربص فى الفاشر ليرى ما سيكون من الأمر بعد وفاته . وعلم الوزيران المار ذكرهما قصد أحمد شطه . فلما توفى السلطان أخفيا خبره وأرسلا الى أحمد الدردير يقولان : ان السلطان حسينا يطلب حضورك لتكتب له حجابا . فلما حضر قبضا عليه وقيداه بشعبة وخبآه فى غرفة منفردة ، ثم أرسلا يطلبان الأمير

ابراهيم ابن السلطان حسين . فأجلساه على كرسى السلطنة وطلبا الوزير أحمد شطه ، فحضر وسلم على السلطان ابراهيم وهو يظن أنه السلطان حسين . فأخبراه اذ ذاك بموت السلطان حسين ووصيته لهما ، فما وسعه الا التسليم وقال : ما استخدمنا السلطان حسين الا لننصره وننصر من يحب . وحيث ان السلطان ابراهيم هو ابن السلطان حسين وقد تولى بارادة أبيه فسمعا وطاعة لأمره . فقال السلطان ابراهيم : أما وقد أظهرت الطاعة ، فقد ثبتك على مركزك فى دارا ، تقيم فيه كما كنت فى حياة أبى كل العمر . فدعا له وحلف له يمين الطاعة ، ثم أرسلوا الى الوزراء واحدا واحدا فحلفوا له يمين الطاعة ، ودفنوا السلطان حسينا فى اليوم الثالث من وفاته .

وأما الدرديرى فان السلطان ابراهيم أرسله الى كوبى وحبسه حبس عين بمنزل الحاج محمد صالح ثروة الجعلى المار ذكره ، فبقى الى أن أطلقه الزبير باشا بعد فتح الفاشر .

وقد اشتهر السلطان ابراهيم بالكرم كأبيه . حدثنى على بك الخبير السالف الذكر قال : كنت أعرف السلطان ابراهيم شخصيا قبل توليه الملك، فلما تولى كنت فى مصر فأخذت له هدية ودخلت للسلام عليه ، فوجدت عند بابه قطيعا من الابل فيه خمسون بعيرا . فقلت فى نفسى : ان كان هذا السلطان كأبيه فى الكرم تكون هذه الابل لى اليوم . وكان كذلك ، فانى لم أنصرف من مجلسه حتى أمر لى بها . فخرجت شاكرا حامدا .

وبقى السلطان ابراهيم نافذ الأمر والنهى فى دارفور الى أن قتله الزبير باشا فى بلدة منواشى فى ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ — ٢٤ أكتوبر ١٨٧٥ م فى واقعة (١٣٥) دموية شهيرة . وكان فى قتله زوال سلطنة الفور ودخولها فى حوزة مصر على ما سيجىء .

وبعد استيلاء الحكومة المصرية على دارفور ألقت القبض على عدة أمراء من ذرية سلاطين الفور ، وأرسلتهم مع بعض الأعيان الى مصر ،

فأسكنتهم فى الحى المعروف بسوق السلاح تحت القلعة وأجرت لهم «المرتبات» فعاشوا براحة وسلام الى هذا اليوم . وبينهم الأمير عبد الحميد ابن السلطان ابراهيم و ١٩ آخرون من أبناء السلاطين .

وكان فى جملة الأعيان المرحوم الشيخ الطيب امام جامع السلطان ابراهيم فتوفاه الله فى مصر القاهرة فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢ على نحو ستين سنة من العمر . وكان رحمه الله رحمة واسعة عالما صالحا ذكيا طيب الخلق نقى القلب ، وقد حفظ فى ذاكرته تاريخ دارفور برمته فأخذت عنه معظم ما رويته هنا عن تاريخ السلاطين ، وهو أقرب الى الرواية منه الى التاريخ ولكنه أفضل ما روى عن سلطنة الفور الى اليوم ، ما عدا الذى رواه سلاطين باشا فى كتابه « النار والسيف فى السودان » ونقله « المقتطف » الأغر الى العربية ، فانه يجعل السلطان كور أول سلاطين الفور ثم يذكر بعده السلطان أحمد المعقور الذى لم يملك فى روايتنا ، ثم السلطان دالى الذى هو فى روايتنا أحد كبار الخصيان . ثم السلطان صولون . ومن هذا السلطان فنازلا الى السلطان ابراهيم تتفق سلسلتنا مع سلسلته ، ولكنها تختلف اختلافا طفيفا فى تفصيل أخبار بعض السلاطين. هذا وقد ظلت بلاد دارفور فى يد الحكومة المصرية الى أن كانت الثورة المهدية فدخلت فى حوزة المهديين .. ولكن قام فى أثناء ذلك من ذرية السلاطين الذين بقوا فى البلاد من ناصب الحكومة العداء ، ثم المهدية وحاولوا استرجاع السلطنة فخذلوا . والذى قام منهم فى عهد الفتح الأول :

(الأمير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل) . (الأمير بوش أخوه) .
(الأمير هارون ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل) .
(الأمير دود بنقا ابن الأمير بكر ابن السلطان محمد الفضل) .
وأما الذين قاموا فى عهد المهدية فهم :

(الأمير يوسف بن السلطان ابراهيم) (الأمير أبو الخيرات أخوه)
(١٣٦) (الأمير على دينار بن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل) .
وهو القائم الآن بأمر دارفور على جزية يدفعها للحكومة السودانية ، وقد
جاءها بعد واقعة أم درمان . وسيأتى ذكر هؤلاء الأمراء وما كان من أخبارهم
بالتفصيل فى تاريخ السودان الحديث .

﴿ حكومة سلطنة الفور وبعض أخبارها [1] ﴾

(رجال السلطنة) أما حكومة سلطنة الفور ، فكانت من النوع الملكى المطلق . وكان السلطان سليمان الأول لما أخضع ملوك البلاد على ما مر قد خلعهم من مناصبهم ، وولى على البلاد نوابا من أهلها ، وجعل مع كل نائب عدة شراتى أو مَدَاراء ، ومع كل شرتاى عدة دمالج أو مأمورين ، ومع كل دملج عدة مشايخ بلد .

وبقى هذا النظام معمولا به الى أيام السلطان موسى ، فرأى عدم الاخلاص من النواب الوطنيين ، فعين عليهم أربعة مقاديم من رجال حاشيته الأخصاء فى كل جهة من الجهات الأربع مقدوما ، وجرد النواب من السلطة الا أنه أبقاهم فى مراكزهم يحكمون بالاسم فقط . واستمر هذا النظام الى انتهاء السلطنة .

وكان تعيين المقدوم بفرمان خاص يقرأ على النواب والشراتى والدمالج ومشايخ البلاد والعربان وأصحاب الحواكير وغيرهم . ولباس المقدوم كلباس السلطان ، واكرامه فى ناحيته كاكرام السلطان ، وحكمه نافذ فى كل القضايا حتى فى القتل ، الا فى بعض الأحوال الخاصة فانه يرجع فى حكمه الى السلطان .

أما رجال حاشية السلطان الذين بيدهم سياسة البلاد المركزية فأهمهم:

« الوزير » وعليه ادارة شئون البلاد سياسيا واداريا وحربيا .

---

(١) فى الأصل : الفصل الثانى ، فى حكومة سلطنة الفور وبعض أخبارها .

« وأبو شيخ » وهو كبير الخصيان ومقامه أكبر مقام فى السلطنة ، اذ هو المرجع الأعلى لقانون دالى ، الذى هو القانون العرفى للبلاد ، وسيأتى ذكره . وله الفصل فى الخلاف الذى يقع فى حرم السلطان وهو مقدوم الشرق رسما والمحافظ على نحاس السلطنة .

(١٣٧) ومن رجال الادارة المركزية : ملك النحاس ، وملك دادات السلطان ، وملك خوال السلطان ، وملك الفاشر أو محافظها ، وملك الجباة » وملك الحدادين .

وكان لكل سلطان من سلاطين الفور وكيل رسمى من ذرية السلطان شاو دورشيت يسمى « الكامنة » . وفى دار السلطنة ممن بيدهم الحل والعقد الميارم أخوات السلطان ، والحبوبات جدات السلطان .

وفيها رهائن النواب المسلمين ورهائن ملوك المجوس السبعة المار ذكرهم .

وكان كل من هؤلاء الملوك يرسل ولى عهده ليكون رهينة عند السلطان فيجعله السلطان فى خدمته ، ويعوده على طاعته ، ويعلمه القراءة والكتابة ، حتى اذا ما مات الملك أعطى السلطان ولى عهده كسوة فاخرة ، وعكازا مفضضا ، وطاقية مقصبة بقرنين ، ونعلين ، ونقارة نحاس ، وولاه بفرمان خاص على بلاده فى مكان سلفه . وكان على كل ملك من هؤلاء الملوك جزية سنوية معلومة من الرقيق والسمن والعسل .

(الحواكير والعربان) وقد عمل « ١٧ السلطان موسى » بالنظام المشهور فى الشرق فيما يتعلق بملكية الأراضى فجعل البلاد كلها ملكا للسلطان ، وقسم بلاد الحضر الى حواكير أو اقطاعات ، ووزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه بحجج مختومة بختمه ، فعاشوا بريعها هم وأهلها المزارعون . وكذلك قسم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمير من أبناء

السلاطين ، أو بعين من الأعيان تجبى له زكاتها . وجمع السلطان نصيبه من الزكاة والفطرة والعشور ، حسبما يفرضه الشرع الاسلامى . وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية ، وملوك الجباة يجمعون الفطرة والعشور من الحضر . وربما تنازل السلطان عن نصيبه فى الحاكورة أو القبيلة فأعطى صاحبها « حجة بالجاه » ، فلا يقربه أحد من الجباة أو المقاديم . وقد جرى على هذا النظام جميع السلاطين الذين أتوا بعد السلطان موسى الى انقضاء السلطنة .

(قانون دالى) وكان القضاء فى دارفور شرعيا وهو المشروع بالكتاب والسنة ، أو عرفيا وهو المشروع بالعرف . وقد جمعت الأحكام العرفية كلها ، فى كتاب واحد عرف « بقانون دالى » وهو بمثابة قانون الجزاء عندنا . وكان القائم بتنفيذه المقاديم ومن هم دونهم من الحكام بالاتحاد مع أصحاب الحواكير والقبائل .

و « القاضى الأعظم » (١٣٨) الذى يُرجع اليه فى هذا القانون هو كبير الخصيان الملقب بأبى شيخ كما مر . أما لفظ « دالى » فهو فى لغة الفور بمعنى لسان . ويراد بقانون دالى لسان السلطان أو أوامره . على أن بعض الرواة يجعل دالى سلطانا من سلاطين الفور المتقدمين كما سيجىء .

ومن أحكام هذا القانون : أن الملك يكون وراثيا للابن الأكبر الا اذا كان الأكبر غير لائق للأحكام ، فيولون غيره ممن فيه اللياقة من العائلة المالكة . وقصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها . فاذا لم يقدمها حبس الى أن يفتديه أهله . وقصاص القاتل القتل ، اذا كان القتل عمدا ، والا فدفع الدية مئة بقرة اذا كان من البقارة ، أو مئة بعير اذا كان من الأبالة . وأما الزانى ، فان زنى بمحصنة فغرامته ٦ بقرات أو بأيم فبقرة واحدة ، أو ببكر فكل منهما يغرم بقرة . وقصاص الضارب ، فان كان فى الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور ، وان لم يكن جرح فنصف ثوب .

وهكذا جزاء الشاتم . وقصاص شارب الخمر الجلد ثمانين جلدة ، وكسر أوانى الخمرة فى بيته . ومع ذلك فهم لا ينقطعون عن تعاطى الخمرة لأنهم مولعون بشربها .

حكى أن رجلا من أهل دارفور طاب له شرب « المريسة » حتى لم يمكنه الانقطاع عنها مع تكرار وقوع الحد عليه . فحفر له غـارا تحت الأرض ، وسقفه سقفا متينا ، وجعل له بابا ضيقا وصار كلما أحب شرب المريسة ، ينزل الى الغار فيشرب حتى يسكر ، ثم يصعد على سطح الأرض وبقى على ذلك حتى سمع حاكم البلدة به ، فباغته فى الغار وهو يشرب . فقال الرجل : لا حكم لكم علىّ هنا ، فان الحكم لكم على ظاهر الأرض . أما الحكم فى باطن الأرض فلله .

واذا حصل حريق فى الصحراء فى العشب الذى ترعاه المواشى ، غرمت أقرب بلدة الى الحريقة على حساب بقرة لكل طول درقة ، وذلك سواء كانت الحريقة من أهل تلك البلدة أم من طارىء مفاجىء . والمراد بتعميم هذه الغرامة منع الناس عن احراق الزرع وتحريضهم حتى اذا ما شبت حريقة فى جوارهم أسرعوا الى اطفائها فى الحال لئلا تتسع فيتسع الجزاء عليهـم .

وفى دارفور خرافة قديمة عند بعض العجائز مؤداها أنه لا يخصب لهن زرع الا اذا قتلن شخصا مسموما بسم حية ، ولكن قانون دالى يعاقب على هذه الجريمة (١٣٩) بأعظم عقاب ، وذلك بتصدير مال القاتلة الى خزينة السلطنة واحراق بيتها ثم لفها بحصير من شوك ، وضربها بالعصى الى أن تموت .

أما محصول « الدالى » فنصفه للسلطان والنصف الباقى لأصحاب الحواكير والمقاديم والشراتى على نسبة معلومة .

(دخل السلطان وخرجه) أما دخل السلطان الذى كان ينفق منه على بيته وأخصائه وجنوده ، فالعشور والفطرة من الحضر ، والزكاة من البادية. وعشور البضائع من التجار ، ونصيبه من قانون دالى ، والضرائب على التجار والحدادين « والنفوس » . ومن الهدايا التى كانت تأتيه من الحكام وأصحاب الحواكير والتجار ، اذ لم يكن يدخل للسلام عليه أحد من رعيته من موظفين وأعيان وتجار الا بهدية نفيسة تعرف « بالسلام » من الرقيق والابل والخيل والبقر والغنم والتكاكى والطّرق والطاقات والذهب والفضة والعسل والسمن والسن والريش .

أما دخل المقاديم والشراتى والدمالج فمن نصيبهم من محصول دالى والهدايا ومرتبات أصحاب الحواكير ، ومن حواكيرهم الخاصة .

وكان سلاطين الفور يكرمون رجالهم الذين يصدقونهم الخدمة حتى كانوا يزوجونهم بناتهم ويمهرونهم الحواكير والعربان . وهذه هى صورة حجة حاكورة مهرها السلطان حسين لصهره أحمد بن عيسى من أعيان دارفور عند تزويجه بابنته الميرم فاطمة أم دريس . ويليها حجة « عربان » مهرهم أيضا لصهره ، ثم حولهما صهره لزوجته وابنته .

« من حضرة أمير المؤمنين ، وخلاصة الأكرمين ، خادم الشريعة والدين ، الواثق برب العالمين ، سيدنا ومولانا السلطان محمد حسين المهدى ابن السلطان محمد الفضل على ضريحه سحائب الخير والرضوان آمين .

« الى حضرة كل من يقف على هذه الوثيقة ، وينظر ما فيها من الحقيقة ، من الأمراء والوزراء والملوك وأبناء السلاطين والميارم والحبوبات والقضاة والجبايين والشراتى والمكاسين والدمالج وغيرهم من سائر أهل هذه الدولة من ذوى الشوكة .

أما بعد : فالذى نصيره بشرف علمكم من قبل حاكورة « نعمة » التى

كانت سابقا (١٤٠) بيد الملك كرتكيله متاعا ، ثم بيد الملك عبد الله كرقاش متاعا ، ثم بيد المقدوم عبد الله العزيز متاعا ، ثم بيد جدتنا الحبوبة والدة سيدنا المرحوم متاعا انى الآن تفضلت وأعطيت وأوهبت وصدقتها لصهرنا الحاج أحمد بن عيسى برقيقها هبة مختارة ، وملكتها اياها ملكا تاما . ثم وجهت لحيازتها ابراهيم المقام من طرف الأمين صالح وأمرت المقدوم عبد العزيز أن يبعث له من طرفه أحدا يذهب معه . فبعث له الملك هرون ابن الفقيه عبد الله فذهبا لتلك الحاكورة وطافا بها من كل الجهات وحدداها .. فهذه الأرض التى شملتها هذه الحدود أقطعتها لصهرنا الحاج أحمد بن الحاج عيسى اقطاعا ناجزا ، وحوزتها حوزا كاملا ، وملكتها ملكا تاما هى والرقيق التى فيها ، وعدته خمسون ، يتصرف فيها وفى رقيقها تصرف المالك فى ملكه بالزرع والتزريع والبيع والهدم والبنا والصدقة والشراء . فهى له ولذريته من بعده فلا يغيره ولا يبدله سلطان بعدى . ثم انى تركت لها الفطرة والزكاة أعنى بها الأحكام الشرعية ، وكذلك عفونا عن سبلها العادية من دم كبير أو صغير وفسق وهامل ونار وقوار ودرقه ، ولا يتعدى عليهم ملك ولا جباى ولا مقدوم ولا خدام من أحد الخدامين . وقد تركنا ذلك اعانة لها فى دينها ودنياها والله على ما نقول وكيل » وحسبنا الله ونعم ، حرر ذلك سنة ١٢٦٣ هـ ١٨٤٧ م .

« من أمير المؤمنين سيدنا ومولانا وأعلانا السلطان محمد الحسين المهدى المنصور بالله تعالى آمين . الى كل من يقف على هذه الوثيقة ، وينظر ما فيها من الحقيقة ، أما بعد : فان ابنتنا الميرم فاطمة أم دريس عرضت لنا مكتوب زوجها الأمين الحاج أحمد عيسى نظرته بأنه أوهب لها حاكورته « نعمة » التى سبقت فأعطيته اياها فالآن هو أوهبها لزوجته وأنا أتممت لها هبة زوجها فصارت ملكا وحوزا لها تتصرف فيها فى ذاتها وغلالها الشرعية والعادية لها ولذريتها من بعدها . هذا جوابى ومهرى لمن يعرفه . تحريرا فى ٧ شعبان سنة ١٢٦٩ هـ — ١٥ مايو ١٨٥٣ م » اهـ .

وهذه حجة العربان :

« من حضرة سلطان المسلمين ، وخليفة سيد المرسلين ، سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدى المنصور بالله تعالى آمين ، الى كل من يقف على هذا الرسم من ولاة الأمور والأمراء والوزراء والملوك والشراتى والدمالج وأبناء السلاطين والميارم والجبايين (١٤١) وملوك العربان والمشايخ والكراسى والخدامين ومقاديمهم وكافة أهل الدولة من الخدام . أما بعد : فانى سابقا تفضلت وأعطيت صهرنا الحاج أحمد عيسى عربا من الماهرية من جماعة الشيخ دلم ، وأسماؤهم : عبد النعيم ونعمان والدانى وأحمد وحسين وحامد وزرزار وطاهر وعجز وأحمد . هؤلاء الرجال المذكورون كسرت عظمهم وأتبعتهم لصهرنا الحاج أحمد عيسى وعفوت له بجميع منافعهم وصاروا تبعا له ولذريته . والآن صهرنا المذكور أعطاهم لابنته الميرم زهره ؟ فى زيانة رأسها وأعلمنى به ، فأنا أتممته وقابلتها بجميع منافعهم الشرعية والعادية من الزكاة والفطرة والدم والفسق والهامل وغير ذلك ليس عليهم شوبة ولا نوبة ولا خدمة جميع أمرهم مقابل اتنايتنا (أى ابنة بنتنا) الميرم زهره ، لا يتعرض لها فيهم معترض ، ولا ينازعها منازع ، بل صاروا عربا لها ، ورعاتها لها ولذريتها من بعدها . هذا جوابى ومشراطى ومهرى لمن يعرفه . تحريرا فى عام ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م » .

(أختام السلاطين) وكان سلاطين الفور يختمون كتبهم من أعلاها بختم كبير على شكل دائرة قطرها نحو أربعة قراريط ، وهى منقوشة سطورا مستوية بين كل سطر وسطر خط دقيق أو خطين[١] ، يضع فيها اسمه وأسماء البعض من أجداده على قدر ما يسع الختم . الا أنه لابد من انهاء النسب بالسلطان سليمان جدهم الأعلى ومؤسس سلطنتهم . وقد يكون حول السطور سطرا [٢] فى دائرة مكتوب فيه آية من القرآن .

(١) كـذا .
(٢) كـذا .

(صرة الحرمين) وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الأرض كلها لا تدفع جزية لأحد ، ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما ، بمحمل وصرة كل سنة . فكان موكب المحمل يأتى الى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ، ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى .

(منزل السلطان ابراهيم) وكان منزل السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور قائما على شاطىء خور تندلتى الشمالى ، وهو منزل متسع له سور من الطوب الأحمر ، محيطه نحو ثلاثة أميال ، وعلوه نحو عشرين قدما . وحول السور على عشرة أمتار منه زريبة من شوك ، وللسور بابان كبيران : باب للشمال وهو باب الرجال [1] ، وباب للجنوب وهو باب الحريم [2] . ومنزل السلطان فى الوسط . ومن كل باب منهما الى منزل السلطان (١٤٢) سبعة أبواب تفتح شرقا وغربا ، أى أنها على زاوية قائمة من البابين الكبيرين . وهى عبارة عن شباك من العيدان تصل ما بين أطراف جدران متوازية مبنية داخل السور . وعند كل باب منازل للضباط بهيئة القطاطى أو الرواكيب . أما منازل السلطان فكلها مبنية بالطوب الأحمر غرفا مستوية السطوح ؛ وغرف منامه وجلوسه مكسوة جدرانها وسقوفها بالجوخ الملون ، منها غرفة معدة لجلوسه مع الخاصة تسمى « التيرمه » . وله غرفة معدة لاستقبال العامة عند الباب الرابع من أبواب الرجال تسمى « كالا » . وكان سلاطين الفور يقتنون من النساء عشرات ، أربع منهن شرعيات والباقيات محظيات .

(لباس السلطان) وكان لباس السلطان قميصا مقصبا فوقه برنس مقصب يجلله شال من الكشمير ، وعلى رأسه تاج مزركش بالذهب تحف

---

(١) هو المعروف باسم : « وريدايا » . انظر ص ٢٠٤ .
(٢) هو المعروف باسم « وريبايا) . انظر ص ٢٠٤ .

به سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة على شكل الأمواس ، وفى رجليه حذاء من السختيان الاسلامبولى الأصفر أو الأحمر ، وعلى جنبه الأيسر سيف محدب محلى بالذهب .

(جلوس السلطان) وكان جلوسه فى « التيرمه » على عنكريب أو سجادة فى الأرض ، وعن يمينه مخدة من قطن . وفى الراكوبة « كالا » على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجاد . واذا جلس على « الككَر » أو كرسى السلطنة لمبايعة الناس له ، حمل فى يده اليمنى صولجانا وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاة بالذهب ، وفى يده اليسرى سيف مستقيم ، وعلى جنبه الأيسر سيف محدب ، فيبايعه أهل الحل والعقد ليلا . وفى الصباح يبايعه العامة ، وهذه هى صورة المبايعة : « بايعتك على السمع والطاعة . الأمر أمرك والنهى نهيك على السنة والكتاب » .

(مقابلة السلطان) وكان القاصدون باب السلطان يأتون باب الراكوبة « كالا » ويستأذنون فى الدخول عليه ، فاما أن يدعوهم الى التيرمه أو يخرج فيقابلهم فى الراكوبة « كالا » . وكان الداخل عليه يخلع نعليه وطاقيته وسلاحه خارج الباب ، ويتقدم حتى يكون على عشرين مترا منه ، فيلقى بنفسه على الأرض ويحبو على الركب والأيدى كالسلحفاة الى أن يكون على بعد أربعة أمتار منه ، فيقف جاثيا على ركبتيه منكس الرأس ويدعو للسلطان ، وهو يمهد الأرض بكفيه يمينا وشمالا ويقول « أطال الله (١٤٣) بقاءك ، وسترك الله ونصرك على أعدائك ، ولا أراك سوءا ولا مكروها أبد الدهر » ثم يشرع فى الكلام الذى جاء لأجله . وكل من دخل على السلطان ولو أنه أخوه لزمه مثل ذلك الا العلماء وملوك الفراتيت، فان لكل فريق منهم آداب [1] خاصة .

أما العلماء فان الداخل منهم على السلطان يحنى رأسه الى أن يكون على أربعة أمتار منه ، فيجلس على الأرض جلسة المصلى ثم يرفع كفيه فيرفع

---

(١) كـذا .

السلطان كفيه أيضـا ، ويقرآن الفاتحة معا ، ثم يأخذ العـالم فى الدعاء للسلطان وهو يصفق بكفيه والسلطان يؤمن على دعائه الى أن يتم الدعاء .

وأما ملوك الفراتيت فالداخل منهم على السلطان يلقى بنفسه الى الأرض وهو على ٢٠ مترا ، ثم يدنو منه متدحرجا كأنه جذع شجرة حتى يصير على أربعة أمتار منه ، فيستوى جالسا ، ويدعو للسلطان وهو يصفق بكفيه ، ثم يشرع فى الكلام الذى جاء لأجله .

(ركوب السلطان الى الجامع) : وكان فى الفاشر جامع فخيم على نحو فرسخ من منزل السلطان ، والسلطان يخرج اليه بموكب حافل كل يوم جمعة لأداء صلاة الظهر . فكان الفرسان يجتمعون عند باب الزريبة صفوفا عن جانبى الطريق ، وأمامهم المشـاة حاملين النبابيت ينتظرون خـروج السلطان من منزله . وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جوادا مزركش العدة عند باب التيرمه فترفع الامباية صوتها اشعارا للعساكر بأن السلطان قد ركب ، فيتهيأون لاستقباله . ثم يخرج اليهم وأمامه العساكر الحاملة الأسلحة النارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة ، يقودها السياس خلفهم صفا واحدا . وعن جانبى السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمـل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده ، وهى مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطنة بأطلس مختلف الألوان ، كل شقة بلون ، تتدلى من أطرافها شراريب قصب ، ولها يد طويلة من خشب متين ، مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون . وعند خروج السلطان من الزريبة ، يحييه الفرسان بهز سيوفهم فوق رؤوسهم ، فيرد تحيتهم بهز سبحة أو سوط أو منديل فى يده . ويسير فى موكبه هذا حتى يصل الجامع فيقف الموكب خارج السور ويدخل السلطان الى (١٤٤) غرفة معدة له عند باب السور ، فيخلع ثياب الملك ويلبس لباس الصلاة وهو جبة بيضاء وعلى رأسه عمامة بيضاء فوق مكاوية من الحرير يغطيها ثوب

من الشاش الأبيض الرقيق على هيئة الخطيب . ثم يقف للصلاة فى غرفة خاصة به ، لها نافذة تشرف على الامام . وبعد انتهاء الصلاة يرجع الى الغرفة التى عند باب السور ، فيخلع لباس الصلاة ، ويلبس لباس الملك ويعود بالموكب الى منزله .

(جيش السلطنة) : هذا ولم يكن عند سلاطين الفور جيش منظم حتى كثف بصر السلطان حسين، فنظم جيشا من عبيده وسلحهم بالبنادق المعروفة بأبى روحين . وجعل عليهم عبدا يقال له « خير قريب » قومندانا ، وبقى هذا الجيش الى زمن السلطان ابراهيم ، فحارب به الزبير باشا على ما تقدم . وكان سلاطين الفور الذين تقدموا السلطان حسينا ، اذا أرادوا جمع الرجال للحرب ، أصدروا أمرهم الى المقاديم ، فبعث هؤلاء بالأمر الى الشراتى ومشايخ البادية ، فجمعوا عددا معلوما من الرجال على نسبة عدد بلادهم ، حتى اذا ما اجتمع العدد المطلوب ساقهم المقاديم بأنفسهم الى ساحة الحرب .

(تجليد النحاس) : وكان سلاطين الفور يجلدون النحاس «المنصورة» الذى غنموه من العابد لاب مرة فى كل سنة ، ويحتفلون بتجليده احتفالا عظيما ، يجتمع اليه موظفو البلاد وأعيانها ، فيأتون بثور وخروف أبلقين ، ينتقونهما من قطيع يربونه فى جبل مرة لهذه الغاية ، ويذبحونهما ويجلدون بجلديهما النحاس المذكور .

(اختبار أولاد السلاطين) : ثم يأخذون فخذا من الثور وفخذا من الخروف ، ويتركونهما حتى ينتنا ، ثم يطبخونهما بشطة وملح كثير ، ويضعونهما فى قدح فى غرفة منفردة ، ثم يؤتى بأولاد السلاطين فيدخلون واحدا واحدا الى قدح الطعام الذى يحيط به الحرس من عبيد السلطان ، وبيد كل منهم نبوت كبير ، وكلما دخل واحد أكل لقمة من الطعام . فاذا لم يسعل من شدة نتانة اللحم وكثرة بهاراته ، لم يتعرض له أحد بسوء ، بل

سألوه أن يغسل يديه وينصرف . واذا سعل اتهم بأنه خائن متعمد الغدر ، وأرسل فى الحال الى جبل مرة حيث يبقى فى السجن الى أن يعفى عنـــه أو يتولى سلطان آخر ، فيخرجه من سجنه (١٤٥) .

(كسر الضلع) : ويأخذون ضلعا من أضلاع الثور ، ويحكونها حتى تصير رخفة جدا قابلة للكسر ، فيأتى السلطان الى بيت النحاس بموكب خاص ماشيا على قدميه ووراءه كبيرة أخواته ، ومن ورائها جمهور من الجوارى اللابسات أبهى الحلى والحـــلل ، ومن خلفهن وعن جانبيهن الخصيان حاملين السياط ، والسلطان نفسه مكموم بقطعة شاش يمسك طرفيها من خلفه كبير أمنائه ، ويمشى الهويناء حتى يصل مكان النحاس ، فيأخذ الضلع التى أعدت له ، ويضرب بها النحاس . فاذا انكسرت عدوا انكسارها نصرا وسلاما ، وزغرد النساء ، وضرب النحاس ، والا أوجس الكل شرا ، وخافوا سوء المصير .

(العرضة وموكب السلطان) : وبعد كسر الضلع يخرج مناد من قبل السلطان للاستعداد للعرضة . فيجتمع الكل مشاة وفرسانا حلقة كبيرة فى ساحة السوق ، أمام منزل السلطان . ثم يخرج ملك النحاس بجنـــده مخيطا بنحاسات الفور السبع محمولة على سبعة جمال ، وفى مقـــدمتها « المنصورة » التى غنموها من العابدلاّب ، ثم « البيضاء » التى غنموها من آدم سلطان وداى ، ثم نحاسات فور الخمس القديمة . فيخترق الحلقة بموكبه حتى ينصّفها فيقف متجها نحو الشرق . ثم يأتى السلطان بموكبه الخاص وهو راكب جواده ويقف مقابل ملك النحاس متجها نحو الغرب وبينهما فسحة كافية لعرض الجيش . وموكب السلطان الخاص مؤلف من أولاده ووزرائه وأخته الكبرى والعلماء والقضاة فتقف أخته وراءه ، راكبة جوادا ، ومن ورائها الجوارى حاملات أباريق النحاس بلا ماء ، وبينها وبين السلطان حملة الحراب المكسوة بالجوخ الملون . ويقف أولاد

السلطان عن يمينه ووزراؤه عن شماله ، ويقف أمام صفى الوزراء والأمراء صفان من العلماء والقضاة ، وترفع فوق رأس السلطان مظلة واسعة جدا تظلله وجواده ، ومن ورائه رجلان حاملان مروحتين كبيرتين يزين حواشيهما ريش النعام لحجب الشمس عن ظهره . وعن كل من جانبيه مروحة يحملها رجل يروح بها عليه . ثم يبدأ الاستعراض فيخرج الناس من الحلقة فرقا ، كل فرقة يتقدمها رئيسها راكبا على جواده ، فيحيى السلطان بهز سيفه فوق رأسه ، فيرد السلطان التحية بهز سوطه . ثم يرجع هذا الرئيس برجاله الى مكانه من الحلقة فيعرض الرئيس الذى يليه وهكذا الى تمام الحلقة . ثم يتقدم السلطان وحده (١٤٦) الى النحاس ويدور حول الجمال التى تحمله، فيهز السيف فوق كل نحاس ، ثم يدور من داخل الحلقة لرؤية الجند ، ويعود الى موكبه فتستقبله أخته وجواريها بالزراغيت ، ثم يأمر فينصرف النحاس . ثم يتبعهم بموكبه الى أن يدخل منزله ، فيتفرق الجنود الى منازلهم . وبعد أيام ينادى الى مثل هذه العرضة ، وهكذا الى سبع عرضات، ثم ينصرف كل الى بلاده .

وأما فى زمن الحرب فيسير الجيش على الترتيب الذى مر ذكره فى الكلام عن السلطان تيراب .

وكانت عادة سلاطين الفور أن يضربوا النحاس فى يومى الاثنين والخميس فى الصباح والمساء .

(العلم) : وكان فى دارفور مساجد جمة ، فى كل بلدة مسجد أو أكثر ، يعلّم بها الكتابة والقرآن . وكان لكل عالم مسجد قرب منزله يصلى به الصلوات الخمس ، وفى لصقه خلوات للمجاورين يعلم بها العلوم الشرعية . وله « حاكورة » هبة من السلطان يعيش هو وتلامذته من ريعها . وكان بعضهم يجىء الى مصر لتلقى العلوم فى الأزهر ولهم فيه رواق معروف برواق دارفور الى اليوم .

(الجوامع) : أما الجوامع فكان لهم فى كل بلدة شهيرة جامع الا الفاشر ففيها جامعان : جامع بناه السلطان عبد الرحمن عند بنائه الفاشر فحسنه السلاطين الذين خلفوه ، وهو فى القسم الشمالى من البلدة مسيرة ساعة من بيت السلطان . وجامع بنته أخت السلطان حسين فى القسم الجنوبى من الفاشر . وكوبى ففيها أيضا جامعان : جامع القاضى أحمد ود طاها من أهل كوبى ، وجامع الفقيه سعد العالم من أهل الخبير على .

(الزراعة والصناعة) : وأهم زراعة دارفور الدخن ، يزرع على المطر . وفيها من أرباب الصنائع الحدادون والنجارون والحاكة والدباغون لقضاء حاجاتها كما فى بلاد سنار .

(التجارة) : وكان لها تجارة مهمة مع كردوفان وبحر الغزال وودای ومصر وكان يرد منها الى مصر من ١٠ : ١٥ ألف جمل تحمل الرقيق والسن والريش والصمغ والتمر الهندى والنحاس والنطرون وحبة العين والجلود والأقداح الخشبية والأطباق والعسل ، فتعود الى دارفور ومعها من الأنسجة القطنية والحريرية الدبلان والشيت والخام والجوخ والأطلس والملايات الحجازية والبنادق والسيوف والسروج وأنواع (١٤٧) الحلى الذهبية والفضة والمرجان والسوميت وغيره من أنواع الخرز المطلوب عندهم .

وكانت العملة الرائجة قطع [1] مختلفة من الدمور ، ثم راج بعد الفتح المصرى للسودان المقاطع المصرية من الخام المصبوغ المار ذكرها . وراج فى كردوفان أيضا قطع دقيقة من الحديد على أشباه المسامير الكبيرة تسمى الحشاشات .

(الأمير على دينار) : هذا ما تيسر لى استقصاؤه عن حال سلطنة الفور القديمة قبل دخولها فى حوزة مصر ، تلقيت أكثره عن الشيخ الطيب محمدين المار ذكره . ويقال انها الآن تسير على مثال هذا النمط فى عهد أميرها الحالى الأمير على دينار ابن الأمير زكريا ابن السلطان محمد الفضل

---

(١) كذا .

الذى يحكمها على جزية سنوية يدفعها لحكومة السودان كما أشرنا آنفا .

(منشور السلطان ابراهيم عند توليه الملك) : وقد عثرت على كتاب أرسله السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور الى الجهات ، يذيع فيه نعى أبيه السلطان حسين ، وتوليه الملك بعده وهو :

(نقش خاتمه فى أعلى الكتاب)

ملك أمير المؤمنين السلطان ابراهيم . ابن السلطان حسين . ابن السلطان محمد الفضل . ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد . ابن السلطان أحمد بكر . ابن السلطان موسى . ابن السلطان سليمان ، صاحب البر والاحسان . يوم الأحد اثنين وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٠ هـ .

(صورة الكتاب)

من حضرة من أنار به البلاد ، وأزال به الفساد ، سيدنا ومولانا السلطان ابراهيم ، المعتصم بالله تعالى آمين ، الى حضرة محمود والامام أحمد طه وكافة الجلابة تجار كوبى وحواليها . أما بعد : فالذى نعرفكم به اجرنا الله واياكم فى مصيبة سيدكم والدنا المرحوم السلطان محمد الحسين. توفى الى رحمة الله وأنا توليت الملك بضحى الأحد اثنين وعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠ هـ . تعلموا به وربنا يلزمنا واياكم الصبر الجميل .



معجم

عربي - فوراوي

ملحق رقم (٣)

معجم
عربي — فوراوى

هذا المعجم العربى الفوراوى الصغير مما جمعه المسيو جومار (Jomard) فى مقدمته الطويلة للترجمة الفرنسية لكتاب « تشحيذ الأذهان » للتونسى ، نقلا عما جمعه كونيج (Koenig)فى رحلته الى كردفان ، ثم ضمنه ما أورده التونسى فى كتابه ، ناسبا ذلك اليه بقوله : « عن الشيخ » . وكذلك ضمنه الكلمات التى جمعها هو بنفسه فى بحث له عن الألفاظ فى أفريقيا الشمالية الشرقية .

« ا »

عربي	فوراوى
ابن السلطان البكر	دَتَنّيـخ
أَبنوس	بَطُّوم
اِبنَة	نَوُو
اِبنَة السلطان	مَيْرَام
	مـيرَم (عن الشيخ)
أبيض	فَـتَّا
أَتَى ، جاء	أندُول
اثنان	أَوْ
أَحمر	تَـوكَاىْ
أَخ	دُوَمْبَارَا
أَخوالسلطان،قريبُه الأدنى	بَاسِى (عن الشيخ)
أُخت	دُونْتِـيتَانـيح
أَخضر	فُـوكَاىْ
أداة الاستفهام	سَا
أداة النّسبة أو الإضافه	تَنْـيح ، إِين
أُذرَة (أنواع منها)	مَاريق ، أَزِيتْ
	أَبُو شَاوْلُـو ،أبُو أَبَاط
أُذُن	كَاْـو
أَذَى	حِيّى
أربعة	أونجَـل
أُرز	رِيس
أُرز (صنف منه)	دَفرَه ، دَفَـرى
أَرض	دَاْلـو
	وَاطَا [عربية سودانية]
أَرنب بَرّى	بِيَا
أَزرق	دِكُـو
أَسد	مُورُو

أسنان	كَجَـه
أسود	دِكّاً ، دِكّـوىْ
إصبع	تُـرى
أصفر	كِرّوىْ
أطفال	دُقّـلَه
أكل	آم
الله	الله
أمّ	جِـيامَه
امرأة	بايا (عن الشيخ)
امرأة ، زَوجَة	يَنْـكُويه
أمعاء	كُرْتِـيحَه
إناء يقدّم فيه الطعام	عُمْرَة ، والجمع : عُمّار
أناس ، ناس	دُقّـلَه
أنت (فى مخاطبة الأهل والأقارب)	جِيى
	جِى (عن الشيخ)
أَنتُم	بِى
أَنف	دُرْمِـيه
أمسِ	كَامْ
إيّاهُ (ضمير نصب)	يَا
إيّاهم	يين ، كِين
	نْجِيَا (عن الشيخ)

« ب »

بِ (باء الجرّ)	كِى
باب	وَرّى
بارد	دَتِـفِـيه
باكر ، غداً	أَلَل
بالخارج ، برّاً	تُـورَا
بُحيرة	بَؤُو ، سَرَف
بذور تقاوى	تيرَاب
برّا	تُـورَا
بَرْق	كُويُو لْمَالاَ
بطن	دِتُـو
بَقرة	وَا
بلح ، تمر	سُنْدُو
بَلَد	بَرُو
بلدة ، مدينة	حَـلّه ، حَلَفَه
بيت حوائج السلطان	دَنْجايَه
بِئر	أَرُو
بَيضة	جِـيـُورُو

« ت »

تبغ	تابَه
	تابا (عن الشيخ)

تحيّة ، سلام	دُونجَه
تخت رَوان ، هودج	تَخْت رَوَان
تعالَ (أمر للمخاطب)	جَـلا
تقاوى	تيرَاب
تمساح	نَمُو
تميمة	تَميمَه
تيتَل	تيتَل

« ث »

ثدى ، انظر : حلمة الثدى	
ثُعبان ، حَيّة	نُوم
ثقيل	دِرْوِىْ
ثلاثة	إيسْ
ثَوْر	نجُون

« ج »

جاء ، أتى	أندُول
الجابى ، مُحصِّل الضّرائب	جَبّاىْ
جاف ، ناشف	وَفّيه
جاموس	إنانيُو
جَبَل	فُويَا
جبهة	أرِى
جدار الحائط	دُرْدُر
جدول ماء	سَرَف ، سَرْف
جُذام	جُزام
جذور نبات تستعمل فى السحر	نَارَه
جراب	جُرَاب
جراب من الجلد لحفظ السمن	بَطَّه ، [والجمع : بُطَط]
جَلّاد ، سَيّاف	كَبَرْتُو
جِلد	دَرمَه
الجمْع (علامة له)	نجَا ، إنْجَا
جَمَل	كَمَل
الجنوب	صَعيد
جِنّى ، حارس من الجِنّ	دَمْزُوق

« ح »

حاجب مجلس السلطان	فَلَقْنَاوِى
حارس من الجنّ	دَمْزُوق
حاكم إقليم (فى درجة محافظ)	شَرْتَاىْ ، والجمع: شَرَاتِي
حاكم جهة	عَقيد ، والجمع : عَقَدة
حاكم القبيلة ، حاكم إقليم بدرجة مأمور	دُمُلُج ، أو : دُمْلَج . والجمع : دَمَالِج
حَجَر	دِيدُو

حدّاد	مِرْ
حديد	دَاوِرْو
حديقة	نيُولَمَكيرْو
حَـــرّ	تَكيلَه
حَرْبَة	كُور
حرَس خاص	كُوزكُوَا
حَشَّاشَة ، مِعْزَقَة	حَشَّاشَه
حشيش أخضر	دَأْبِي
حصان	أَرْكَمَه
	يَامُورْتَه (عن الشيخ)
حَلَمَة الثَّدى	گَنْسُو
حِمار	لِيل
حَمَل	جِيَابُو
حَمَلَ ، رَفَع	جيسو ، كَيْلاَ
حُمَّى	وِرْد ، أو : وِرْدَة
الحُمَّى القِرْمِزِية	بُرْجُوك
حيطان	جَبِي
حَيَّة ، ثُعبان	نُوم
حَنَا على ، عطف على	رَنْدَل

« خ »

خَانَ ، خيانة	مَدْو
خُبْز	كَانْ ، تُكُو
	تُقُرُو (عن الشيخ)
خَدّ	فُولاَنجِه
خَرْتِيت	دَأْبَه
خَرَز رفيع تعمل منه المِسبحة	شُوش
الخريف	دَرَتْ
خُزَام	خُزَام
خَشَب	آرَه
خَصِيّ ، أغا	طَوَاشِي
خَلبوص ، مَسخرة	مُوجِيه
خَلْخَال	خَلْخَال
خَلَع	جَرَانِيج
خَلْفَ ، وراء	كَرِي
خمر ، انظر : مشروب	
خَمسة	أوسْ
خِيانة	مَدْو

« د »

داء القَرْنيت	فَرَنْدِيت
داء فى الرُّكبة	سُوتِيَّه
داء فى قصبة السّاق	دُوقِري

دار السلطان	دُرَا
داير قماش يوضع حول الخيمة لمنع الريح والتراب	طُزْلُكْ
دَم	كُوَا
دُمْلُج	دِمْلِيج ، والجمع: دَمالج

« ذ »

ذُباب	دَاوِى
ذَقن	أَصْو
ذَهبٌ	داف

« ر »

رأس	تبُو
رِتَاج ، عارضة من الخشب يغلق بها الباب	رِتَاج
رَجُل	وَدَاىْ
	دَايَا (عن الشيخ)
ردىء	حِتِّى
رَغْد	كُوتُو
رَعشة ، صَرَع	غُزَيِّل
رُفَات	دَارُو
رَفَعَ ، حَمَلَ	جِيسُو ، كَيْلاَ
رَفَعَ ، خَلَع	جَرَانْيح
رفيع ، دقيق	مَنْدَرْ
رَقَبَة	كُويِي
رَقَصَ	كَاوُلـيه
رَقْصٌ (أنواع منه)	تَنْدَجِه، دَلُوكَه ، رِجِيل
	لَنْقِي ، شَكَنْدَرِى
	بَنْدَلَه ، تُوزِى
	تَنْدِنْجاً (عن الشيخ)
رَمْل	سُرُو
رِيكَة (لهجة سودانية)، قُفَّة (لهجة مصرية)	رِيكَه
رئيس الشّبان فى البلدة	وَرْنَانْيح
رئيسَة النساء فى البلدة	مِـيرَم

« ز »

زبدة	دَنِى
زرافَة	أُورْ
زَهْرة	دُور
زَوجة ، امرأة	يَنْكُويه
زوجة السلطان الأولى	يَاكُرِى

« س »

ساخن ، حَرّ	تُكَيلَه

سَاقٌ	فَرنيَا
سَبُع ، أسَد	مُورُو
سِتّة	أوصانْديك ، سَدَاسِى
سحابَة	كُتُو
سقط ، وقع	فُـويَه
سلام ، تَحيّة	ذُونْجيَه
سَلام سَلام	ذُونْجيَـه رَاىْ ذُونْجيَـه (رَاىْ : حشوٌ لامعنى له)
سَلّة	يُفُون
سَماء	سَما
سَمَكَة	فُونَهْ
سَهم ، نَشّاب	نشّاب
سُوء	رِجيّى
سور خارجى من الشوك	زريبَة
سور داخلى قريب من البيت	صَرِيف
سُوّاس الخيل	كُورَايَات
سَيّاف ، جلّاد	كَبرَتُو
سيدَة الشّرف فى حفل الزّواج	مِـبرَم (عن الشيخ)
سير جلد	وَجِيَـيح
سَيف	سَارْ
سيِّء ، ردىء ، السّوء ، الأذى	رِجِيّى

« ش »

شابٌ	كُوَاتِنْيَا
	أُورْ (عن الشيخ)
الشتاء	أُوَلِى
شَجَر (أنواع منه)	نَبْق كَرْنُو حَيَا
	جُوخَان
	هَجَلِيِيح
	نُلِيلَـيخْ
شجر شائك	حَشَاب
	كِتِر ، طَانْح ، لَوْوت ،
	شَاوْ ، حَرَاز
شجر طيّب الرائحة	دَايْـوق
شَجَرَة	كُرُو
شَجرة الأبنُوس	بَطُوم
شديد ، صارم ، صَلْب ، ناشف	كَوْ (عن الشيخ)
شَرب	رِجِيَابَه
شريط من القماش تستعمله النساء لستر العورة	كُنْنُوس
شَعْر	نـاو
شَفَة	بَـنْـديه
شَمِى	رِجِـنِي

الشمال (جهة)	ريح
شمس	دُولاَ

« ص »

صاحَ	أرُوكَرَرُو
صارم	كَوْ
صباح	صَبَاح
صَدْر	كُورَنْجِاَ
صَرَعٌ ، رِعْشَة	غُزَيِّـل
صَغِير	أتَّحِة
صَلْب ، شديد ، صارم	جيْـو ر
	كَوْ (عن الشيخ)
صُوف	نِلُــو
صياح ، هتاف	كَرُورَاكْ ، رَكْرَكَه
صياد	دَرْمُودِى

« ض »

ضَأْن	دولـيه
ضُباط قضائيون	كَبَرْتُو
ضَبُع	دَأَه ، تَـرْ و
ضَخم	بـَرْ وِىْ

« ط »

طار ، دُفّ (آلة موسيقية)	بَرَدِّيه
طائفة الصيّادين	دَرَامِدَة، والمفرد: دَرْمُودِى
طبل كبير	دِنقَار
الطبول السلطانيّة	نَقَّارِيه
طبيب عيون	شَلاَّنْـيخْ ، [والجمـع : شَلاَّنْحِينْ]
طَرِى	جيْـوكـيه
طعام (نوع منه)	كَنْيَا كَنْيَا
طويل	كُرَّا
طَيْر ، عصفور	أرْيَنْجَا

« ظ »

ظُفر	كَرُنْجَه
ظِلّ	نمَا
ظَهْر	ضَهْـر

« ع »

عارِضَة من الخشب يُغلَق بها الباب	رِتَاج
عارضــة خَشَبيَّة يُحمَل عليها السقف	بَلدَايَا

عَبْد أسود	سَدَارِسى
عَبَر ، اجتاز	جُـوَا
عِجْل	نُـونجيى
عجوز	يتَـوىْ
عَجيزة	دُبَّا
العَرْض أو الاستعراض	جَلْدِنَجاً
السلطانى	جَلْدِنَجاً (عن الشيخ)
عسل نَحْلِي	نَاسْو
عَشرة	وَيِّـيه
عَصاً من الخشب على شكل حرف T	سَفْرُوك
عُصفور	أَرْيَنْجاً
عِطْر (أنواع منه)	سُنْبُل ، مَحْلَب ، كعب الطِّيب ، شيبَه
عَطَفَ على ، حَنا علَى	رَنْدَل
عِقْد (أنواع منه)	مَنْصُوص ، ريش ، فَاوُ ، عَقِيق ، مُدَرْدَم ، سُوميت ، دم الرّعَاف
علامة الجمع	نْجاَ ، إنْجاَ
عُمْلة على شـكل حلقات مصنوعة من القصدير	تَارْنـيه
عِنْدَ ، لَدَى	إنْ

عَنْز	دَاوْ
عَورَة الرّجل	دَكُو
عَورَة المرأة	سِبَرِيتَه
عَيْن	كُونْيِ

« غ »

غَدًا ، باكِر	أَلَل
غزَال	فرَا
غنِيّ	شَبْعَان
غَنَّى	كَوْنَه

« ف »

الفجْر	تودِكُّـوِنى
فَخِذ	دْيُوك
فروع شجر تُمضَغ أوراقها لتزيل رائحة الخمر	شَعْلُـوبْ
فقير	مَشْـكِينَه
فَمّ	أندُو
فوطة حزام	فَرْدَه ، مِئْزَر ، دُرّاعَه ، تُكِّيَه
فيل	أنْـجير

« ق »

قائم خشبي يستعمل في بناء المساكن	دُرْزُويَه
قَدَم	تارْ ، والجمع : تارْنحِا ، تارِنيا ، إتار ، تارْنحِا (عن الشيخ)
قَدِيد ، لحم مجفف في الشمس	قديد
قَذِر	رِجِّق
قِـرد	كُورُو
قريب السلطان، أخو السلطان	بابِي (عن الشيخ)
قَسَم ، يَمِين	حَلفِـينْ
قصر السلطان	دُرَا
قِطّ	بِسْ
قُطن	لاَجِيى ، نسريه
قُفَّة (لهجة مصرية) ، ريكه (لهجة سودانية)	رِيكه
قَلْب	كَلمَه
قُماش (أنواع مختلفة منه)	سَتارْ ، أورِنْيا
قُماش (أنواع مختلفة منه تستعمل شبه عملة للتبادل)	شُوتَر، عَبَك، تيكو، قداني، تُكَّايه ، والجمع : تَكَّاكِي
قُماش يستعمل فوطا	شِيكَه ، كَتْكَات
قَمح	قِمْا
قَمَر	دُوَال
قَمِيص	جُرِى
قَهْرَمانات السلطان العجائز	حَبُّوبات ، والمفرد : حَبُّوبَه
قَوْز (كثيب من الرمل)	قَوْز

« ك »

كَبِير	أَبِّيْ
كَتِف	كَدَبَه
كَلب	أَشو
كُم (ضمير المخاطبين)	دِزْ رِين
كُوخ للسُكنى (أنواع منه)	سُوكَنايَه ، تُكُلتِي ، كَرْنك
كُوع	كَيشِي
كَوْكَب	أورنْيا
كُوليرا ، هَيْضَة	هَيْضَه

« ل »

لا ، كلاّ	تَلا
لبن ، حليب	بُورا
لحم	نِنو

لحية	فُرُو
لسان	دَالِى
لُغة	دَالِى
لقب تشريف	تَـكَنياوِى (1)
لَيل	نَـتّـيه

« م »

ماء	كَـورُو
مات	وَئى
مجرى ماء ، جدول	سَرَف ، سَرْف
مجلس	مَجْلِس
مجموعة من الطبول	دَأوكَه
محارة	أحيْـرَا
محصِّل الضرائب	جَبَّاىْ
محل إقامة السلطان	فَاشِر
محل الديوان	لِقدَابَه ، رَاكُوبَه
مدينة ، بلدة	حَلَه ، حَلّة
مرض الجذام	جُزَام
مرض الحصبة	حَصْبَا
مرض الحمّى	وِرْد ، أو : وِرْدَة
مرض الحمى القرمزية	بُرْجُوك

مَرض السَّيَلان	جِقّـيل
مَرض الصَّرَع	غُزَيِّل
مرض الفم عند الأطفال	أم صَقْـع
مِرْفق	كِـئى
مركوب	مَرْكُوب
مريض	وَيَان
مساء	كَنيْـو
مساكن الأطفال الذين يُعدُّون لوظائف الدولة	سُومِيندَقَـلَه
مستشار قضائى	كَمْكَـولاك ، والجمع : كَماكُلَه
مسخرة ، خلبوص	مُوجِـيه
مَسْكن	تُونْـيج ، سُوم
مسكن أبناء السلطان	تُونْـيج باسِى دَقَـلَه
مِسكين	مَسكينَه
مشروب (نوع منه)	دِينزَايا
مشروب أحمر (أنواع منه)	مِزْر ، أم بُلْبُـل
مَشَى	إلُو
مصارين	كُرْتـيحَيـه
مطَر	كَـويَه

(1) معناه : الذراع الأيسر أو الجناح الأيسر للسلطان .

مطر خفيف ، ينزل أوّل الخريف	رُشاش
مِعزَى	دَاوْ
مغَص معَوِيّ	هَبُوب
مِكْتَل ، زَنبيل مصنوع من خوص شجر الدوم	مِكْتَل
ملح	كَرّا
ملح سائل	كَنَبْسو
من حيث أنّ	صَقَل
منزل ، مسكن	أورْو، تُونْيح (عن الشيخ)
الموت	وَنِي
موظف الجمارك	كَوّار

« ن »

نا (ضمير متصل)	دَا ينْيح (عن الشيخ)
نار	أوتّـو نْيح
ناس ، أناس	دقْلَه
ناشف ، جافّ	وَفّيه ، كَوْ
نَامَ	أنيجْو
نَبات	دَايْ
نبات لعلاج أمراض العيون	دَقَرَه
نجم ، كوكب	أورنْيا
نحنُ	رِي
نخلة	سَنْدُون كُرُو
نَشّاب	نِشَاب
نظيف ، خاصّ	فَتَّايْ
نعامة	سُومْسو
نَعل ، صندل	كَاوْلَه
نَعَم	ألِنْجيْـوَا ، أيِي (عربية)
نَمْ (فعل أمر)	سُور
نِمر	فُولَنْجيه
نُهَير	بَاوْو

« هـ »

هتاف ، صياح	رَكَرَكَه ، كَرُورَاك
هذا ، هذا هُوَ	نَا
هذا هو اليوم ، هذا هو النهار	نَتـو (عن الشيخ)
هِرّ	بِسْ
هريسة عظام ، عظام مدقوقة	ويكَّة دُودَرِي
هُم (ضمير متصل)	إينْ ، كِينْ
	نْجاً (عن الشيخ)
هناك	هَلاَّ
هواء	دَاوْ أو
هودَج ، تخت روان	تَخْتْ رَوَان

« و »

واحد	دِيك
وجبة العَشاء (أنواع منها)	جُرِى جَرَانْسِيح
	تَارْنْجِيَا جِيسْو
	صُبُح جَلْتْو (عربية)
وجه	كُونْيِي
ودع المسبحة الصغير	وَدَع (عن الشيخ)
ودع مستطيل	ضُفْر (عن الشيخ)
وراء ، خلفَ	كَرِى
وَسِخ ، قَذِر	رِجًّى
وَقَعَ ، سقط	فْوَيه

« ى »

ياء المتكلم	كَا
يَد	تْسِرنْيَا
يوم	أْلَالَه

ألفاظ عربية ـ فوراوية ـ رونجاوية

لاحظ چومار أن مفردات اللغة فى دار رونجه المتاخمة لدارفور تختلف كل الاختلاف عنها فى دارفور . ووجد أسماء العدد على سبيل المثال تختلف تماما فى كلتا اللغتين فأوردها مثالا لذلك هنا ، كما أورد بعدها خمسا وعشرين كلمة أخرى ، نقلا عن التونسى وعن براون (١) .

اللفظ العربى	معناه فى دار فور	معناه فى دار رونجه
واحد	دِيك	گَدنْدَه
اثنان	أوْ	اميرْ
ثلاثة	إيس	أتّك
أربعة	وَال	مَنْدِ
خمسة	أوس	»
ستة	سَداسِى	سُبْـو تبكـيدَه
سبعة	سَبَاه (عربية)	أوْ
ثمانية	تمَـانى (عربية)	سَبَـاتـيئِسْ
تسعة	تِسَّاه (عربية)	أتـهْ
عشرة	وَايَه	بُوفـتْ

* * *

(١) راجع : Voyage au Darfour, préface LII

اللفظ العربي	معناه في دار فور	معناه في دار رونجه
أُذُن	كِلْو	نَسُّو
أزرق	دِكُو	أَنْدَرَانيح
جَبَل	فُويَا	دَتَّا
حَجَر	دِيدْو	دِمِّي
حَربة	كُور	سُبُوك
حصان	أَرْكَمَه	فِلاَه
حمار	لسيل	حُسَّنْديه
خَشَب	آرَه	أَنْجُم
رَجُل	وَدَايْ	كَمَرِيه
سَمَكَة	فُونَه	كُنْيَونْيح
شَمس	دُولَا	أَنْيِسنْيح
عَسَل	نَاسُو	تُحِّي
عصفور	أَرْيَنْجِيَا	كِدِي
عَين	كُونِي	خَسُّو
قَدَم	تَار	إِتَارْ
	تَارِنْيَا	
قَمَر	دُوَال	تَدَّنيح
كَلْب	أَسْو	مِنيح
لَحم	نِنْو	مِسِّيش
ماء	كُوْرُو	تَّا

اللفظ العربى	معناه فى دار فور	معناه فى دار رُونْـجَه
مَطَر	كُويَه	كَنْـجَه
منزل	أورْو	تَنْـونْـيح
نار	أُوتْونْـيح	نِسَيك
نجم	أورِنْيَا	بيـتـيه
نعل	كُولَا	بِـرْو
يَد	تُرِنْيَا	تُسْـو

ألفاظ وعبارات عربية — فوراوية

جمعت عن أهل جبل مَرَّة أثناء الرحلة التى قمنا بها إلى دارفور فى شتاء عام ١٩٦١

عربى	فوراوى	عربى	فوراوى
أب	بَابَا	أم	إيَا
أبيض	فَتّا	امرأة	دْوْنيَا
أحمر	فُكَّا	أمس	أرَّا
أخ	بَرَا	أنتَ	رِجِى
أخي	دْوِين بَرَا	أنتم ، أنتن	بِى
أخ أكبر	بَاى	أنف	سُبُرُك
أخت	دَدَا	بطن	دْيو
أخضر	كِرّو	بَفتة ، جَلاّبيّة	وْذِن
أذُن	دِلُو	بقرة	أو
أزرق	دِكِتُو	بِنت	وِينْيُو
أسد	مُورُو	بَيت	تِسُونيج
أسود	دِكِتُو	ثعلب	بُرُنيُو
إصبع	تِسُورِى	ثور	نُونيج
أصفر	فُوَا	جَدّ	أوْو

عربى	فوراوى	عربى	فوراوى
جَدّة	أَبْـــو	شمس	دُلــيه
جديد	دِيوْيْ		(الجمع : دُلينْجَيَا)
جلابيّة	وْذِن	طويل	كُرّا
جَمَــل	كَمَل	عاقل	تُلّــيه
حاجب العين	إرِمُو	عَمّ	بَاَبَم بَرَا
حصان	مُورْتَا		(أى : أخو الأب)
حطب	آرَه	عَيْن	نُمِـى
خال	مَامَا	فأر	دُدُو
خالة	كَالاَ	فَحم	مِنِنْـو
خشب	آرَه	فَرس	مُرْتِى
دجاجة	دْوجَيَا		(الجمع : مُرْتَنْجَيَا)
دِيك	زْونْجَيَا	فم	أُدْو
ذئب	تْورْو	قدَم	تار
رأس	تَبُو	قديم	تَـــويِى
رَجُل	دْوْنْـيج أَبَا	قصير	بُتّــيه
	(الجمع : أَبَنْجَيَــا)	قط	بِسْ
رقبة	كْوِى	قمر	دُوَال
زوجة	دْوْنْيَــا	كبير	أَبِثُو
سمين	بُورْو	كلب	أَسَا
شَعر	نِيلُو	ماء	كــوْرْو

عربى	فوراوى	عربى	فوراوى
ماعز	دِيوْ	هذا الرجل	إِين دْوْنْـيح أَبَا
مجنون	أُلـل	هذه المرأة	إِين دْوْنيَا
مرفق ، كوع	كِى	هم ، هنّ	اينْـيح
نار	أُدُوْنـيح	هو ، هى	يـى
نجم	أُرِى	هواء	دَاوْلْـو
	(الجمع : أُرِينْجيَا)	هؤلاء	كِنْـيح
نحن	كِى	هؤلاء الرجال	كِنْـيح أَبَنْجيا
نحيف	مَندِين	هؤلاء النسوة	كِنْـيح يَانْجيَا
نساء	إِيَانْجيَا	هى	يـى
نعجة	مُرِى	وَ (واو العطف)	نَا ، نْ ، نَ
نمر	جَارَا	يد	دْونْجيا
نملة	دَاىْ	يد ورقبة	دْونْجيانْ كُوِى
هدب	إِرِمُو	قط وفأر	بِسْ نَا دُدُو
هذا ، هذه	إِين		

الأعـــداد

عربى	فوراوى	عربى	فوراوى
واحد	دِيك	ستة	أُوصَنْدِيكْ
اثنان	أُوْ	سبعة	سَابِ
ثلاثة	إِيس	ثمانية	تَمَّن
أربعة	أُونْجـَل	تسعة	تِيس ، تِيس
خمسة	أُوسْ	عشرة	وِيه

عربى	فوراوى	عربى	فوراوى
أحد عشر	وى نَ دِيك	أربعون	وِينْجيا أونْجَـل
اثنا عشر	وى نَ أوْ	خمسون	وِينْجيَا أوس
ثلاثة عشر	وى نَ إِيس	ستون	وِينْجيَا أوصَنْدِيك
أربعة عشر	وى نَ أونْجَـل	سبعون	وِينْجيَا سَابِ
خمسة عشر	وى نَ أوس	ثمانون	وِينْجيَا تمَّن
ستة عشر	وى نَ أوصَنْدِيك	تسعون	وِينْجيَا تِيس
سبعة عشر	وى نَ سَابِ	مائة	فِرِى
ثمانية عشر	وى نَ تمَّن	مائتان	فِرِنْجيَا أوْ
تسعة عشر	وى نَ تِيس	ثلاثمائة	فِرِنْجيَا إِيس
عشرون	وِينْجيَا أوْ	أربعمائة	فِرِنْجيَا أونْجَـل
ثلاثون	وِينجيَا إِيس	خمسمائة	فِرِنْجيَا أوس

الضمائر المنفصلة

أنا	كَا	نحن	كِى
أنتِ	جِى	أنتم ، أنتن	بِى
هو ، هى	يِى	هم ، هنّ	اينْفـيح

عربي	فوراوي	عربي	فوراوي

تصريف الأفعـــال

(مضارع)

عربي	فوراوي	عربي	فوراوي
أنا آكل موزًا	كَا مُوز آم	نحن نأكل موزًا	كِي مُوز كَآم
أنت تأكل «	جِيى « جام	أنتم تأكلون «	بِي « بَآم
هو يأكل «	يِي « آم	هم يأكلون «	اِينْيح « كَآمِي

(ماض)

عربي	فوراوي	عربي	فوراوي
أكلتُ موزا	كَا مُوز أَمِي	أكلنا موزا	كِي مُوز كَمِي
أكلتَ «	جِيى « جَمِي	أكلتم «	بِي « بَمِي
أكل «	يِـى « أَمِي	أكلوا «	اِينْيح « كَمِي

(مستقبل)

عربي	فوراوي	عربي	فوراوي
سآكل موزا	كَا مُوز نِنْيح أم	سنأكل موزا	كِي مُوز نِنْيح كَم
ستأكل «	جِيى « « جَم	ستأكلون «	بِي « « بَم
سيأكل «	يِـى « « أَمِي	سيأكلون «	اِينْيح « « كَمَّا



كشاف

كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

للتونسي



فهرس
أسماء الأعلام والبلاد والأماكن

(ت)

ج

ذ

ر

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

(ن)

مصطلحات الوظائف والرتب والألقاب

العملة وأنواع الضرائب والأدوات المنزلية وغيرها والملابس والحلى وأنواع الطيب

سوط (جمعه : سياط) : ٤١٠ .

النبات والأشـجار والأطعمة والأشربة
وفصول السنة وشهورها

الأمـــراض

المساكن والمبانى واقسامها

انواع الرقص

السحر وضرب الرمل



تصويبات واستدراكات

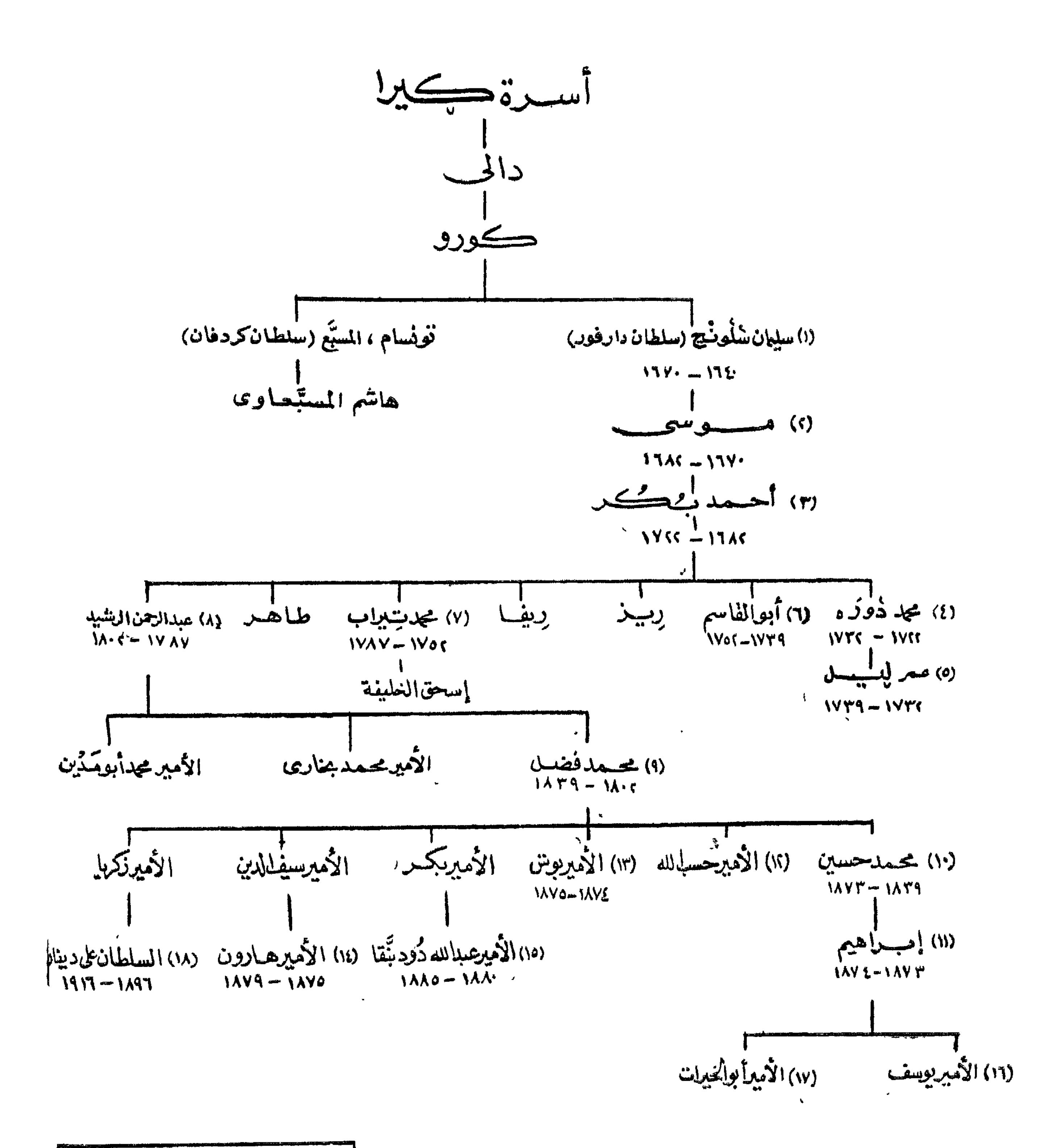
صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٣	١١	ونارت(٣)
٥	١٢	بريئة من
٨	١٣	فخلَص
٩	٢	إهمال إلى أن وصل إلى
	٣	جهد ما استطاع
٩	٥	الـكتبُ
١٥	٢٠	اطميئنان
١٦	١٤	الانجلاتيرَة
١٩	٦	أخبية المعسكر
	٨	البرية والبحرية
٢٥	١	عليه
٢٨	٢	ملئت...المحروق ٤٨٠ ٣١٥
٣٥	٣	على محلٍّ
٤٠	٦	الذَّميل
٤١	٤	تجْربها
	٧	والعسر المُصْقِع
٤٣	٦	يوما
	١٥	ومادَّتُه
٤٥	٢	لِتحرير
٤٧	٨	ما احتجنا(٢)

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٤٨	٦	للثَّمر
٥١	٣	صبيحة
٥٢	٥	ونصُّه
٥٦	١	مترَفٍ
٦٠	٤	بالرِّيش
٦١	٢٠	(٣)
٦٣	١	الفلاَّتَة
٧٩	١٣	أهل الخراب
٨٤	٢	حتى كان زمنُ
٩٠	١٩	قطعه
٩٧	١٤	ريَز
١٠٣	١٨	منهما
١١٤	١٨	التنوفة
١١٧	١	و[كانت] فيه [أداة من] فقه
١١٨	٦	وجمال
١٢٧	١	يا أَبتّـو
١٣١	١	سِنّه
١٣٨	٢٤	الفراوجيه
١٣٩	١١	محمد فضل
١٤١	١	ثم

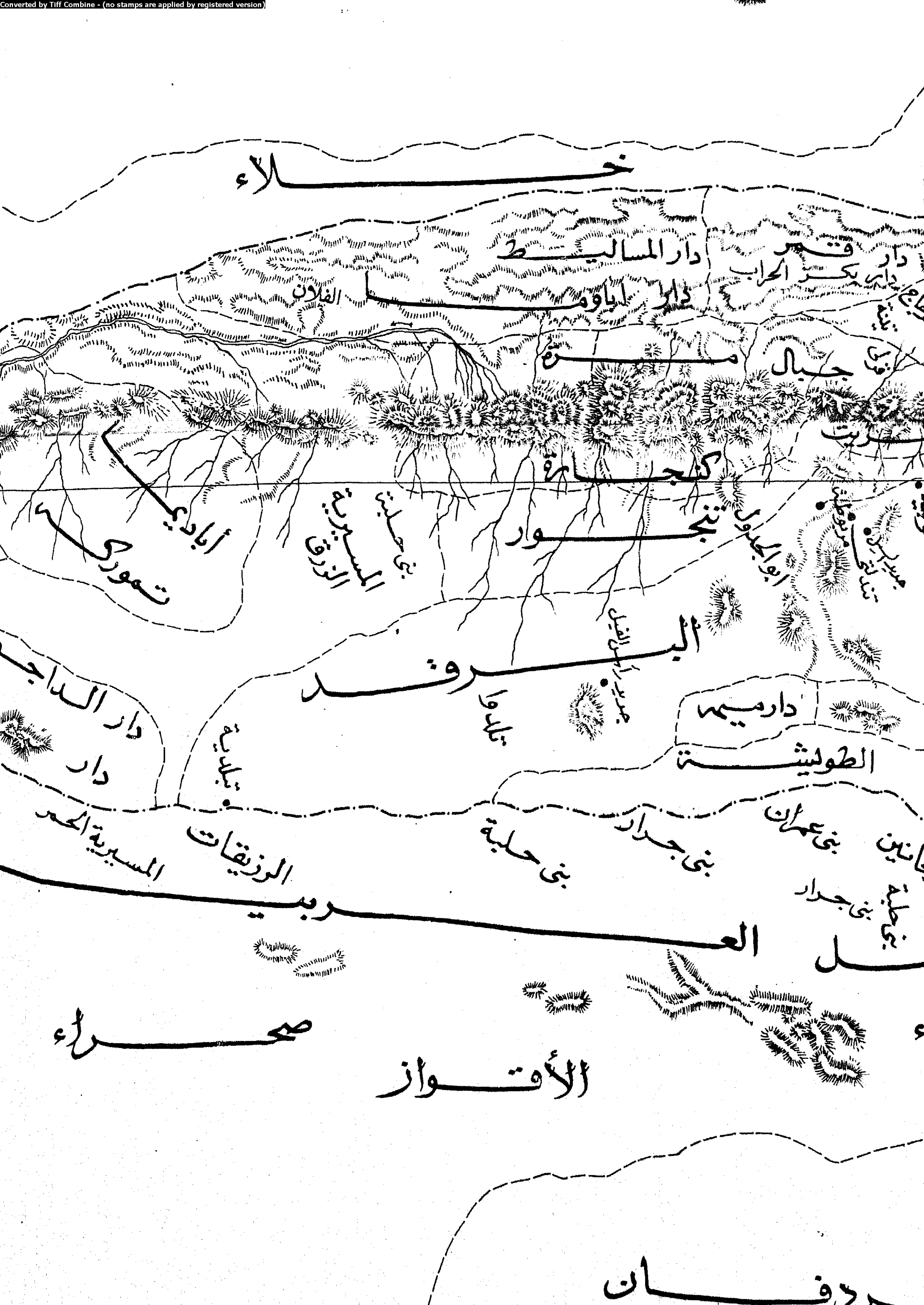
صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
١٤٤	١٨	(٢)
	٢٠	(١ ، ٣)
١٥٣	٣	بالقوزِ
	١٩	حاشية ١
١٥٥	١٧	والثُّوم
	١٩	ص ١١٠ حاشية ٢
١٥٦	٧	حافَتيْه
١٥٧	١	كُوبِيه
١٥٩	٢٠	بما ورد ... حاشية ٢
١٦٠	١	الميرَم
١٦١	١٥	سَبَ ، تمّاني ، تِساه
	١٧	سَابِ ، تمّن ، تِسِي
١٦٤	١٣	وخلَصتُ
١٧٢	٣	والمُوجِيه
١٧٧	٥	ماء كِيلي
١٨٠	٢٢	رقم ١
	٢٣	رقم ١٢
	٢٤	١٥١
١٨١	١١٢	والذّبّ
	١٦ و ١٧	١٥١
١٨٩	١١	أنث
١٩١	١٣	خلَصوا
١٩١	١٩	أوردناه
١٩٥	٧	الصّفّ
٢٠٤	٩	وأهل ورّيبايا
٢٠٦	٦	مع خواصه
٢٠٧	٥	والحُلِيّ
٢٢٤	١	من ذلك
٢٢٦	٩	الحاصرتين في الصفحة التالية
٢٢٧	١	[الباب الثاني]
٢٣٤	١٥	التّندِنْحيا
٢٣٧	٢	التّندِنْحيا
٢٣٨	٤	المِيرَم
٢٤٤	٨	المفاجي
٢٥٦	١٧	من الوافر
٢٦٠	٥	شيء
٢٦٨	١	[الباب الثالث]
٢٧٨	٦	إلى
٢٧٩	٥	والرِّجال
٢٨٠	٨	فمتأخرة
٢٨٢	٣	الصّعيد
	٤	و فنقّسر و
٢٨٦	٣	الوُرْنَانْسِيح
٢٨٨	١١	والسِّياط

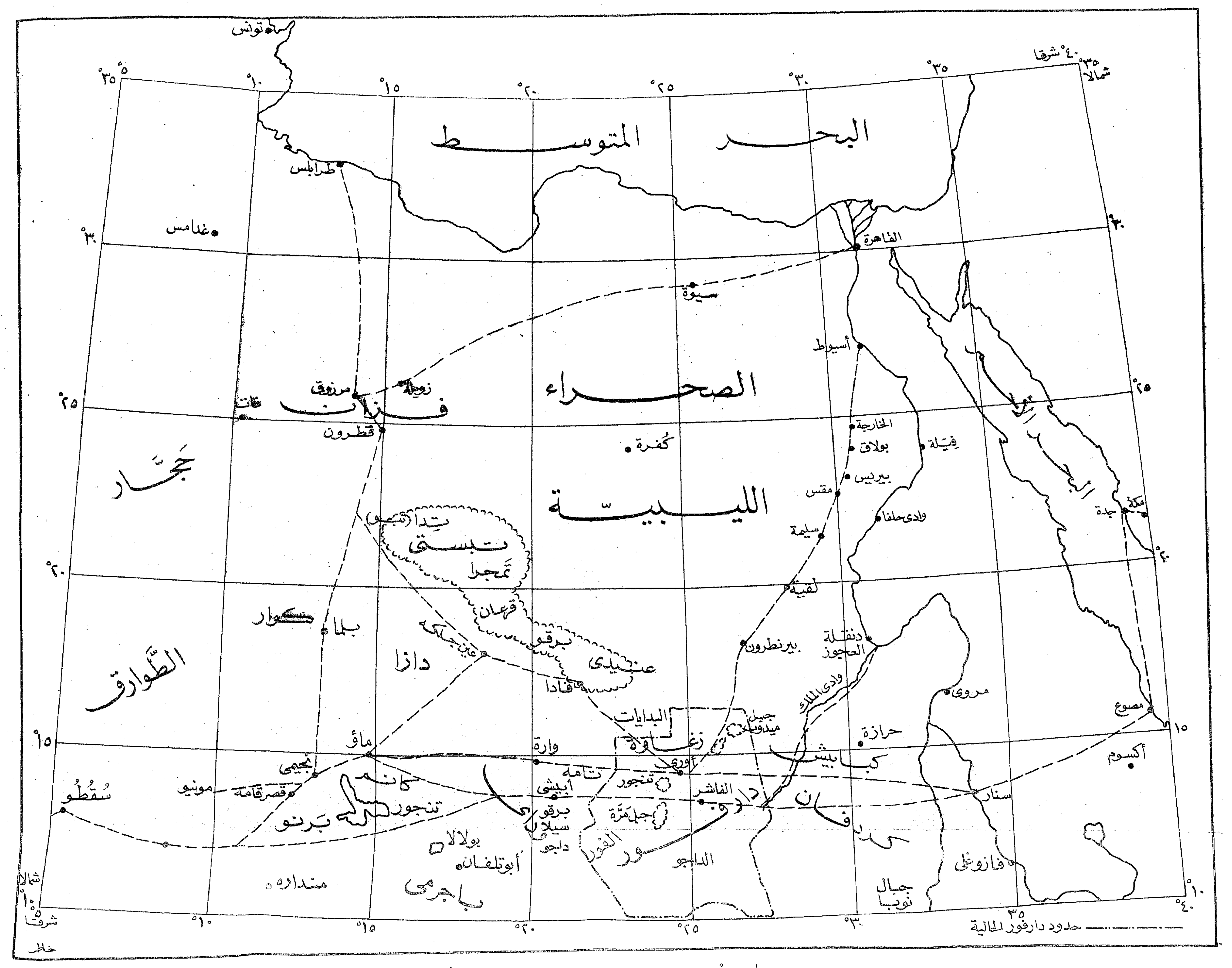
صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها	صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٢٨٨	١٦	يُجمله	٤١٧	١٥	حَلَقَه
٢٩٠	١٠	بقليل	٤٢١	٢٤	حِيِّق
٣٠٤	١٤	كُوبِيه	٤٢٢	٢٠	دُولِيه
٣٠٧	٨	وُبِّى	٤٢٣	١٤	شِيبَه
٣١١	١	فِلْقَتين	٤٥٣	٢٥	كُوبيه
٣٩٢	٩	الأعداء	٤٦٢	١١	جمعه : بُطَط

صفحة	سطر	
٣	١٢	ظلُّ الله الظليلُ (بضم اللامين فى الأصل) .
٣٢	١٨	يضاف إلى الحاشية ١ : والراجح أن المقصود : الرَّحّالة .
٤٩	١١	يضاف إلى الحاشية ٦ : والغرود كذلك تلال رملية صغيرة متنقلة بفعل الرياح . انظر المقالة التى عنوانها : « الغرود » فى مطبوعات وزارة الدفاع الوطنى ١٩٣٨ .
٦٩	٢٠	يضاف إلى الحاشية ٤ : و « عَرمان » هى الصحيحة .
١١١	١٧، ١٨	ينقل قول المؤلف : « عند السلطان كلما وقع منهم أمر مع أعدائهم من القبائل الأخر » إلى مكانه الصحيح فى صفحة ١٢٦ ، السطر الأول ، بعد قوله : « وصار يذب عنهم » .

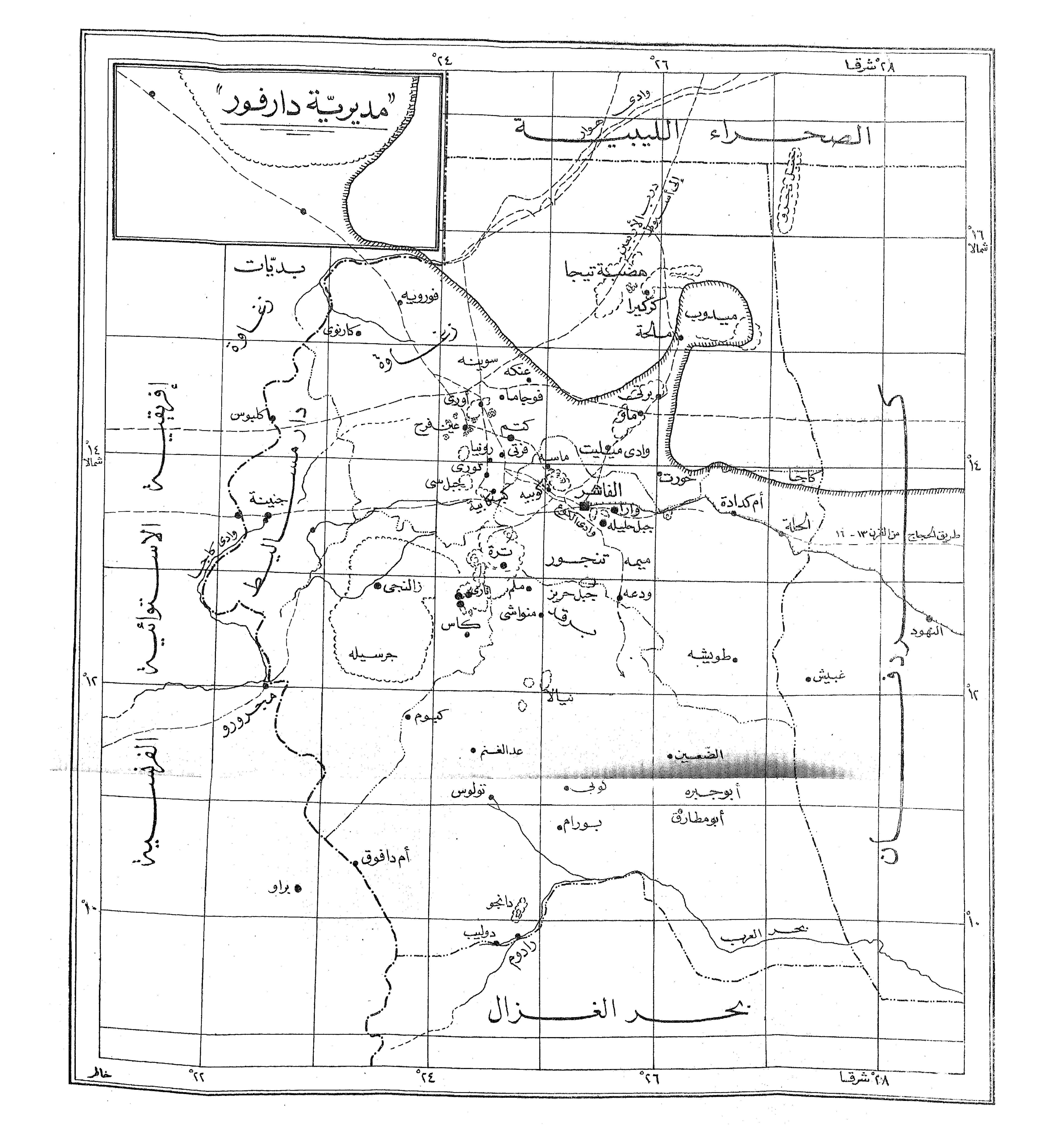


جدول سلاطين دارفور
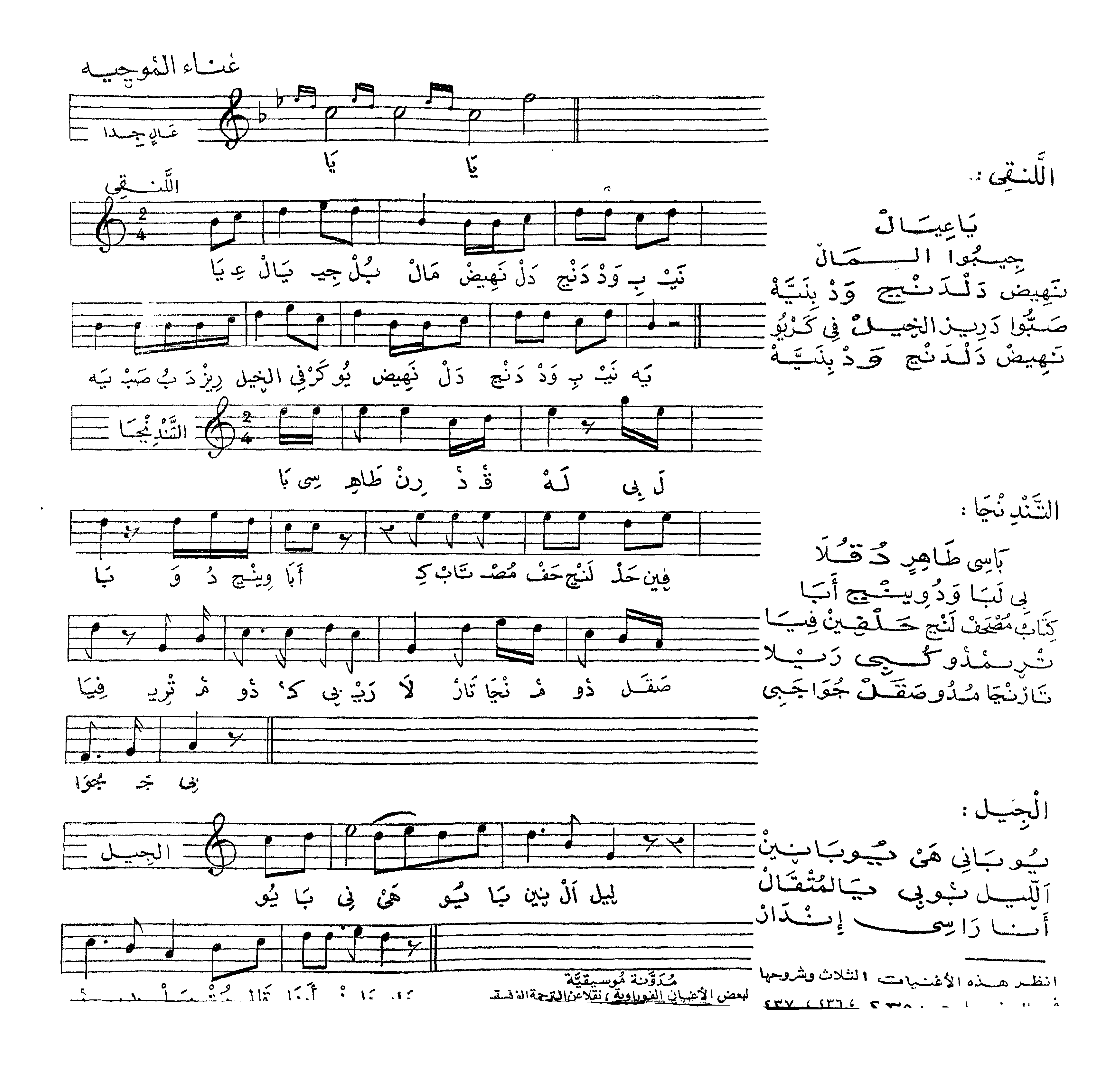

خـلاء
دار المساليـط
دار قمر
جبل مـرة
كنجارة
تنجـور
أبادي
تموركي
البرقـد
دار الداجو
دار ميمه
الطولشية
بني هلبة
بني جرار
بني عمران
الرزيقات
المسيرية الحمر
صحـراء
الأقـواز



دارفور وجيرانها



"مديرية دارفور"
٢٤°
٢٦°
٢٨° شرقا
الصحراء الليبية
وادى هوار
١٦° شمالا
١٤° شمالا
١٤° شمالا
١٢°
١٢°
١٠°
١٠°
هضبة تيجا
كركيرا
ميدوب
ملحة
بديات
زغاوة
زغاوة
فورويه
كارنوي
سوينه
عنكه
فوجاما
كتم
عين فرح
وادى ميليت
ماسة
حورت
كاجا
الفاشر
وارا
جبل حليله
أم كدادة
الحلة
طريق الحجاج من القرن ١٣ - ١٦
النهود
غبيش
طويشه
ميمه
تنجور
ودعه
جبل حريز
برقه
منواشي
ملم
زالنجي
كاس
جرسيله
نيالا
كبوم
عد الغنم
الضعين
أبو جبيره
أبو مطارق
بورام
تولوس
أم دافوق
براو
دانجو
دوليب
رادوم
بحر العرب
بحر الغزال
جنينة
ماكليوس
دار مساليت
أفريقيا الاستوائية الفرنسية
٢٢°
٢٤°
٢٦°
٢٨° شرقا


غناء النوچيه
غالٍ جدا
اللّنقى
التّندِنْجَا
الجيل
اللّنقى :
يَاعِيَالْ
جِيبُوا السَمَالْ
نَهِيض دَلْدَنْج وَدْ بِنَيَّهْ
صَبُّوا دَرِيز الخيلْ فِي كَرْبُو
نَهِيضْ دَلْدَنْج وَدْ بِنَيَّهْ
التّندِنْجَا :
بَاسِى طَاهِرِ دُ قُلَا
بِى لَبَا وَدُوِيشْج أَبَا
كِتَابْ مُصْحَفْ لَنْج حَلْقِينْ فِيَا
تْرِ سمْدُو كُجِى رَبْلَا
تَارْنْجَا مُدُو صَقَلْ جُوَاجِى
الْجِيل :
يُوبَانِي هَىْ دِيُوبَانِينْ
آلّيل نُوبِى دِيَالمُتْقَالْ
أَنَا رَاسِى إِنْدَازْ
انظر هذه الأغنيات الثلاث وشروحها
مُدَوَّنة مُوسيقيّة
لبعض الأغاني الفوراوية، نقلا عن الترجمة الفرنسية



